

جورجي امادو



منتدى مكتبة الاسكندرية

الرسائل

نقلها الى العربية عوض شعبان



فارس الاول

جورجي | مادو

فارس الامم

نقلها الى العربية عوض شهابان



١٩٨٧

جميع الحقوق محفوظة

دار الفارابي

تلفون: ٣١٧٢٠٥ / ٠١ - ص.ب: ٣١٨١ / ١١

بيروت - لبنان

الطبعة الثانية

١٩٨٧

إلى ذكرى الدونا ليوكاديا برستس ،
ذكرى كرامة وبطولة ...
إلى ذكرى أنيتا ليوكاديا وليلا ،
وإلى ذكرى رودولفو غيولدي .

« ... إنه نجمة مضيئة للشعب ،
ومذنب رهيب للطغاة » .
كاسترو ألفيس

مقدمة للطبعة العربية

إن نبأ نشر طبعة من كتابي عن لويس كارلوس برستس باللغة العربية، لسملاًني غبطة. وإذا ما أمكن لكتابي هذا ان يسهم في تعريف الشعوب الناطقة باللغة العربية، بمزبد من الوضوح، على نضال الشعب البرازيلي في سبيل حريته ومن أجل السلام والتحرر الوطني للبرازيل، وعلى وجه القائد العظيم لهذا النضال، البطل الوطني لشعبنا، الرفيق لويس كارلوس برستس، فإن في ذلك سبباً كافياً لأن أشعر بالسرور لكوني كتبت مثل هذا الكتاب.

في شهر تشرين الثاني، في مكان ما من البرازيل، وفي ظروف سرية قاسية، عقد الحزب الشيوعي في البرازيل مؤتمره الرابع، الذي تمت فيه الموافقة على منهجه الجديد وعلى انظمته الداخلية. وان في ذلك لحدثاً تاريخياً بالنسبة لشعبنا ووطننا. ان المنهج الجديد للحزب الشيوعي في البرازيل هو منهج انقاذ وطني بفتح السبيل أمام معارك التحرر الوطني الكبرى، في سبيل الثورة الزراعية والثورة المعادية للاستعمار، من أجل حكومة ديمقراطية شعبية، تضع البرازيل في معسكر السلم والديمقراطية وتنزعها من نير الاضطهاد الاستعماري الأميركي. وفي مركز الصدارة من هذا المؤتمر كان يقف الرفيق لويس كارلوس برستس، الذي أعيد انتخابه مرة أخرى أميناً عاماً لحزبنا.

ولقد احتفل بالمؤتمر الرابع في وقت كان فيه الشعب البرازيلي بأسره يحتفل

بالذكرى السنوية الثلاثين للسير الكبير الذي حققه « طابور برستس »، تلك المأثرة الثورية الرائعة التي تشكل أهم حدث عسكري في تاريخنا. ولقد انصرم ثلاثون عاماً منذ أن أصبح برستس في مركز الصدارة من الحياة السياسية البرازيلية، بصفته حامل ثقة الشعب البرازيلي وقائد هذا الشعب في نضاله المرير البطولي من أجل السلم والحرية.

لقد أطلق عليه الشعب اسم « فارس الأمل »، واليوم نشعر جميعنا باقتراب الأيام التي سيتحول فيها أملنا في وطن حر إلى حقيقة. وانه لمن دواعي سرورنا، نحن البرازيليين، ان يكون الرفيق برستس، في هذه الأيام العصيبة الجليلة التي نعيشها، في طليعتنا، قائداً لنضالنا. ان اسمه يرمز، في البرازيل، إلى جميع المشاعر العظمية وإلى الثقة التي لا تتزعزع بالنصر.

فمنذ عام ١٩٤٧، منذ ما وُضع الحزب الشيوعي مرة أخرى خارج القانون، بعد سنتين من العلنية، وانتُزع برستس من مجلس الشيوخ الجمهوري، لا يزال برستس يعمل في الخفاء، يحرسه الشعب البرازيلي، لا يرى، ولكنه حاضر في جميع الأحداث. ولقد أقيمت دعوى فظيعة ضده وضد رفاقه في قيادة الحزب، وأصدر بحقه بعض القضاة، من خدام الرجعية، حكماً بالسجن الاحتياطي. إن رجال الشرطة البرازيليين، وبالإضافة إليهم رجال مكتب الاستخبارات الاتحادي (F.B.I - الشرطة السرية الأمريكية)، ينقبون رحاب البرازيل الشاسعة، تفتيشاً عنه. ولكن الشعب يخفيه عن الأعين ويحرسه حراسته لأئمن كنوزه. إن حياة برستس مهددة منذ سنة ١٩٤٧. وهو، رغم ذلك، لم يكن يوماً ما حاضراً في حياتنا السياسية كما كان في السنوات الأخيرة، وكما هو الآن في الأيام السرية الصعبة هذه. ولقد رتبى برستس، في هذه السنوات، الآلاف من ملاكات حزبنا، وأثار الشعور المعادي للاستعمار في الشعب، وقاد البروليتاريا نحو معارك كبرى، وأيقظ وعي الفلاحين، وهو اليوم يبني الجبهة الديمقراطية للتحرر الوطني - التي تتألف من الطبقة العاملة، والفلاحين، والمثقفين، والبرجوازية الصغيرة والبرجوازية الوطنية - هذه الجبهة التي يتوجب عليها ان تقود البرازيل نحو تحررها.

إن اسم برسنس، مع استوره كمنط للشمع، ينقل من فم إلى فم، ويقرأ الملايين نداءاته التي تدكي الحماس والنضال. وبعد مرور ثلاثين عاماً على ظهوره في حاننا السبسية، لا يزال لوس كارلوس برسنس، بل وأكثر مما كان في السابق، « فارس الأمل » بالنسبة إلى الشعب البرازيلي

قباسمه وباسم رفاقه في النضال أرفع في نوجه تحية إلى جميع الوطنيين في البلاد العربية، إلى جميع أولئك الذين ناضلوا في هذه البلاد في سبيل السلم والحرية وضد الاضطهاد الاستعماري الأمريكي. لقد عشنا أياماً عصيبة من الاخطار والارهاب المنفلتين. ولكننا استلطنا ان نرى من خلال هذه الأحوال نور الفجر الذي بزغ للشعوب جميعها. هذا النور الذي بصبته الاتحاد السوفياتي، والصين، وبلدان الديمقراطية الشعبية، والذي أرثه نضال الشعب في بلاد كبلادنا وبلادكم. اما نحن في البرازيل فقد بنينا صرح الفجر تحت قيادة برسنس، فهم يعمله بين بدبه وفي قلبه، قلب الوطني والشوعي.

كانون الأول ١٩٥٤

جورجي أمادو

أنشودة مؤثرة

سأروي لك الآن قصة بطل. لقد رويت لك في السابق، يا صديقي، قصة شاعر. لقد كان الشعر سلاحه، وكان يعيش في مقدمة الشعب. وجرى ذلك على أرصفة باهيا - في ليلة كانت تنلأ بالوف النجوم - أتذكرين؟ لقد قدمت إلي يدك اليمنى ورويتُ لك قصة الشاعر كاسترو ألفيس. كان القمر بدرًا، وكان انعكاس نور النجوم اللامع، على البحر الأخضر، يختلط بأنوار المراكب الشراعية. ومن المدينة المغلفة بالأسرار كانت تتصاعد أصوات «الأتاباكي»^(١)، وكانت يامانجا^(٢) تبعثر شعرها على البحر، وقد جاءت، هي أيضاً، لتشهد البدر في سماء باهيا. وبقيت مع البحارة، مع المصطافين، مع الأعمى الذي كان شاعراً، مع العمال الذين كانوا يرتاحون عقب نهار قاسٍ، مع اللاعبين نصف الهواة، نصف المحترفين، مع الزنجي الذي كان يمزف على القيثارة، وبقيت كذلك بالقرب منك لتستمع، هي أيضاً، إلى قصة الشاعر. لقد امدحتُ شاعر الشعب، وقدمتُ إلي الشعب شراي وطعامي. البحارة قدموا الاصداف، والمصطافون قدموا الفواكه والخبز، وقدم المتشردون الخمر. وحركت الزنجي قيثارته، وارتجل الأعمى أنشودة. وقطع اللاعبون نصف المحترفين ونصف الهواة لعبهم القذر بالورق، وسمحوا

(١) اتاباكي: آلة موسيقية زنجية.

(٢) آلهة البحر عند الزنوج.

لي، بطبة وعلى سبيل الاعتراف بالجميل، بان أكسب دوراً وان اتعلم كل أساليب العاهم المغشوشة، بما في ذلك أكثرها غموضاً.

وفي تلك الليلة، انطلقت من الأرصفة موسيقى تتحدث عن البحر، عن سر الحب العظيم. وسمعت موسيقى المدبنة، الموسيقى الزنجية للماكومبا^(٣)، التي كانت نتحدث عن الرجال المكتلين بالاغلال، عن جمال الحرية العظيم. وتركت يامانجا برجهما العاجي واقربت منا؛ وكان الشعر هو الذي استولينا عليه في الوقت نفسه. وقدمت إليّ جسدك على رمل الأرصفة، ووضعت عليه رأسي. لقد غطيت النجوم والقمر والرجال ويامانجا بظل شعرك، وارتحتُ فلك، يا زنجيتي، على رمل أرصفة باهتاً.

لقد امدحت شاعر الشعب، وقدم إليّ الشعب طعامي حتى شبع، وشرابي حتى ارنوبت، واعطانيك، انت، يا زنجيتي، لارواء شهوتي. وكانت تلمع فوق رؤوسنا، في السماء، نجمة الصباح، قلب الشاعر كاسنرو الفيس، بالقرب من الرجال المناضلين من أجل حريتهم.

وبعد قليلٍ من ذلك كنا فوق البحر وقلت لي: «لقد كان ثمة نجمة أخرى في قلب الرجال، وهناك زنجي هائل ومبتسم، كزنوج رواياتك، وقد وُثِم صدره بحرف - ب - كبير. وكانت تخرج، كما في الروايات التي تقصها، نجمة من قلبه، انما كان كل شيء صحيحاً هذه المرة. لم كان يسبح فوقنا أملٌ كبير بهذا القدر في تلك الليلة على أرصفة باهتاً؟».

وكانت هناك نجمة - هي ليست نجمة الصباح - تلمع في أعالي السماوات، ولم يكن ذلك بربقاً في ليل الماضي. لقد كانت تلك النجمة موجودة بالنسبة إلى العمال الذين يرتاحون للبحارة الذين تفوح منهم رائحة السمك، والذين أحرقت أعينهم ريح البحر؛ لقد كانت موجودة بالنسبة إلى الجندي الذي بلاطف خلاسية^(٤) على رمل المحطة، لقد كانت تأتي من الارض، وكانت ضياء الحاضر، ضياء الأمل، ضياء المستقبل. لقد رأسها في تلك

(٣) احتفالات دينية زنجية.

(٤) امرأة من والد زنجي ووالدة بيضاء.

الليلة. لقد كانت نسبح في الهواء، تندفع من رجال الشعب الجالسين على الرمال.

كثيراً ما شاهدنا هذه الجمعة، خلال سفراننا، من سوق إلى سوق، عبر البرازيل. وفي إحدى المرات - وكان ذلك في ليلة ممطرة عاصفة الريح - كنا نندم في الشارع الفقير لمدينة بعيدة. وكنا نمشي منحنيين وجسمك بالقرب من جسمي. ورمت مسمعيننا، من خلال المصابيح الخشبية لقاعة مظلمة، صجة رجال يتحدثون بمرارة. وفجأة تلفظ شخص ما في القاعة باحد الاسماء. وتبخر البأس والحسرة، وطل الأمل وحده. وفوق رؤوسنا، وفوق المطر والريح، كانت نجمة تلمع في الشارع الفقير. وسيطر فرح ربيعي على تلك الليلة الشنوية الممطرة. ومرة أخرى شاهدنا الرجال المقودين إلى السجن. لقد كانوا يبنسون، انهم لم يبكوا لصوفاً ولا قلة، انهم لا يستمرون النساء ولا يبيعون المخدرات. إن أولئك الذين كانوا يقنصادوهم كانوا لصوفاً، قلة، وكأنا يستمرون الرجال وسعدن المخدرات، لقد كانوا رجال شرطة. وكان الرجال المقودون إلى السجن يبنسون، وكانت النساء اللواتي شاهدنهم يبرون بكين، وكان الرجال يضمسون قضائهم. وهمس أحدهم باسم، باسم سجين آخر. ولمع الأمل في ابسامة المساجين، في دموع النساء، وفي قبضات الباقي المضمومة. وكان ضياء النجم يبعث الشحوب في القتلة، في اللصوص، وفي تعار الكه كابين من رجال الشرطة.

لقد شاهدنا في ليل البرازيل، يا صديقتي، نجمة تضيء، تعلن قرب انفجار صاعقة وعاصفة الشعب، ولكنها تعلن كذلك قرب بزوغ أصباح أوقات جبيلة وأصباح بهجة. هذه النجمة هي نجمة الأمل.

سأروي لك، يا صديقتي، قصة هذا البور، هذه الجمعة، هذا الأمل. كم من المرات سألني إذا ما كان الأمر يتعلق ببيدرو ايفو، نيرادنس، أو بالزنجي زومي دوس بالمارس. أحد الأبطال الذين تغنى بهم الشاعر كاسترو ألفس. وفي ليل الأرصفة، في باهنا، كان الزنجي المبسم، الذي وشم صدره

بحرف - ب - ، يعرف الحقيقة. وسألتني : « أكون أعجوبة ما سوف ترويه ؟ ». وأجبتك : « انه لأعجوبة ». انه أعجوبة الشعب ، يا صديقي. ونحن الذين كنا نهم على طرق البرازيل ، نحن الذين اجنزنا البلاد في كل الاتجاهات واسعملنا مختلف وسائل النقل ، شاهدنا في كل الأيام اعاجيب جديدة ، أعاجيب شعبية خيفة . إن أولئك الذين لا يؤمنون بالشعب لا يؤمنون أيضاً لا بالشعر ولا بالبطولة . ولكن الشعب يقوم كل يوم باعاجيب جديدة من الشعر ، باعاجيب جديدة من البطولة .

وفي أحد الأيام ، ابتدع الشعب الأسود في البرازيل ، المستعبد الشقي ، أعجوبة كاسترو ألفيس الشعرية . لقد كان هذا شعباً لا يستطيع الكلام ، فجعل يفتش عن صوت ليبر بواسطته عن أفكاره . وانتج أجمل الأصوات .

وبعد سنين طويلة ، قام شعب البرازيل كله ، المستعبد الشقي ، الشعب الأسود ، الشعب الهندي المختبئ في أعماق الغابات العذراء ، الشعب الأبيض ، الشعب الخلاسي - الذي هو أجمل شعب في العالم - لقد قام شعب البرازيل كله ، المكبل اليدين والرجلين ، العطش الجائع ، المفتقر إلى الكتب وإلى الحب ، بخلق أعجوبة البطولة التي هي لويس كارلوس بوسستس . ووشمت صدور الزنوج وقلوب جنود الطابور بحرف - ب - . ودخل النور قلب الرجال ، قلب العمال والبحارة والفلاحين والشعراء ومغني السامبا وراقصاتها ، قلب الملازمين والنقباء ، قلب العلماء والروائيين . ودخل النور كذلك قلب الرجال والنساء ؛ لقد كان هذا هو نجمة الأمل . إن شعباً مستعبداً يطلب بطله . وتحققت أعجوبة أكبر الأبطال .

البطل ؛ يا للشيء البسيط ، الكبير ، الصعب ! بطل ، يا لها من كلمة رائعة ! الشعب وحده ، يا صديقي ، هو الذي يتبنى ، يغذي وينمي البطل . إن البطل يولد من أحشائه .

البطل يولد من الشعب ؛ انه الشعب نفسه في أسمى درجات فضائله . وهو يمشي ، كالساعر ، في طليعة الشعب . الشاعر والبطل يصنعان الشعوب ، ههناها

الشخصية، الكرامة والحياة. انها فترتان رائعتان في حياة أمة، في حياة شعب. انها ضروريان ضرورة الهواء الذي نسنشق، ضرورة الغذاء الذي نأكل، ضرورة المرأة التي نحب لذلك يجهد اعداء الشعب، أولئك الذين يخونون الشعب، الذين يريدون خداعه واشقائه، للحصول على شعراء وعلى ابطال في الساحات العامة. ولكن هؤلاء، يا صديقي، هم ابطال مزيفون وشعراء مزيفون. إن الشاعر يكون في الساحة العامة عندما يناضل الشعب من أجل الحرية. إن البطل يكون في طليعة الشعب عندما ينهض الشعب للحصول على الحرية. والآخرون مصنعون من كل الاجزاء؛ انهم يمتدحون ويتملقون الطغاة. وهم، وقد ولدوا من طبقة معينة، يبيعون انفسهم من أجل فئات الخبز التي يتركها لهم الاغنياء. إنهم مجردون من قوتهم، كالديوك الخصية التي ظل ريشها على جماله نفسه، ولكنها فقدت كل قوة جنسية. وان أولئك الذين يبرزون كابطال في مهرجان فاجع، وقد توجوا بأكاليل الغار، ليسوا سوى طغاة الشعب.

انك لن تخطئي مطلقاً، يا صديقي، لأن الشعب لا يخطئ مطلقاً. انه يعرف صوت شعرائه، لان صوتهم هو صوته. إنه يعرف وجه ابطاله، لأن وجههم هو وجهه.

تطلعي، يا زنجيتي، إلى الطغاة المتجلببين جلباب الابطال، المحاطين بشرطتهم، المحاطين بالكتاب المبايعين، المتزيتين بزي الشعراء، وهم يتظاهرون بالتحدث من أجل خير الشعب، عبر أعالي البحار والسهول ومدن العالم. لقد بكيت في أحد الأيام على حظ البرازيل. لقد كان ظل الظلم المسكين ينتشر، مدتساً ومذلاً مظهر الانسان، على كل ما كنا نحب، على نباتات قصب السكر، على الذرة، على الكاكاو، على القهوة وعلى القطن، على المدن والقرى الشعرية، على المعامل، على البحار حيث تسبح السفن الشراعية، على القوارب والسفن، على كتب مؤلفي الروايات وعلماء الاجتماع.

وانشرت سنوات من البغي والتعاسة، من العبودية والفاقة، كالكنف على البرازيل.

لقد بكيت في احد الأيام، با زنجيتي، لأن شخصاً كان عزيزاً علينا باع نفسه، وارندى هو أيضاً مسوحاً من وحل. وفقدت الامل لفترة وحيدة ورغبت في الموت لان كل شيء كان عظيم الفساد، عظيم الدناءة. عندها وعدت بان أروي لك قصة البطل، قصة ذلك الذي لم يبع نفسه مطلقاً، لم ينحن مطلقاً، والذي لم ينرك عليه الوحل والدناسة والفساد ولعاب الافتراء القذر، أية آثار أبداً. ولما كان هذا الرجل هو الشعب نفسه، متجمعاً في وجه رجل، فإن الشعب هو أيضاً لم يبع نفسه ولم ينحن. والشعب هو مثله مسجون، ملاحق، مشنوم ومجروح. ولكن سينهض الشعب، مثله، مرةً، مرتين، ألوف المرات، وفي أحد الأيام، عندما ستتحطم قيوده، تخرج الحرية أعظم قوة من بين القضبان. ويقول شاعر الشعب، يا صديقي، ان « كل الليالي لها فجرها »، وفي كل الليالي، ولو مهما بلغت ظلمتها، تلمع نجمة تعلن انبثاق الفجر، وتهدي الناس إليه. والامر لكذلك في ليل البرازيل، با زنجيتي. إن له نجمة التي تنير الناس: لويس كارلوس برستس. وسنراه في أحد الابام، في صباح الحرية. وسيأتي وقت البناء في اليوم الجميل الحر، وسنرى عندئذ بان هذه النجمة التي كانت تلمع في الليل، كانت تحمل في طياتها تأكيداً بوجود شمس.

سأروي لك قصة بطل، با صديقتي، ولن يبقى، في قلبك، دقيقة واحدة من اليأس. وكما جرى في تلك الليالي، حيث كان اسمه، الذي يهمس به بتردد وخوف، بطرد الغم والرعب. سأحدث إليك الآن عنه لكي تعرفي، أنت، وبعرف شعب الأرضفة الذي ينصت إليّ، بان بمقدوركم ان تكونوا ممنئين بالنقة، وبان الليل ليس أبدياً. ان ما هو أبدي، با صديقتي، هو الشعب، هي الذكرى التي يحفظ بها عن ابطاله وعن شعرائه. ان عصر الطغاة لقصير، وفصير هو لى العبودية. وان صباح الحرية لمن الجبال بقدر يجعله أهلاً لأن نموت من أجله، لأن نهب حثائنا من أجله، لأنه سيزغ في أحد الأيام على الناس. ومن السهل، للأسف، با صديقتي، الموت في سبيل امرأة أو في سبيل الحرية! إنما من الصعب العيش حياة آلام ونضال، دون يأس

ودون تخاذل، دون بيع للنفس ودون الخناء. والحرية تتطلب أكثر من الموت،
تطلب ان يهبها الانسان كل لحظانه، كل قواه.
وهذا كل ما فعله برسنس، يا صديقتي، وهذا ما يفعله اليوم. لقد عُرض
عليه كل شيء، ولم يبيع نفسه. لقد سيم كل أنواع العذاب، ولم ينحن. لقد
نعرف إلى كل الآلام، وظل ثابتاً!

لقد اجتاز، وهو لواء الشعب، البرازيل مع جنوده. وفي المنفى كان قلبه
ينبض مع شعب بلاده. ثم عاد كالرعد في ليل البرازيل. وهو بشكل في
السجن الذي يُحتجز فيه، الشعب السجين. وهو سيخرج في أحد الأيام،
وسيحطم الشعب النائر أصفاد العبودية. الشعب هو هذا الرجل. لويس
كارلوس برسنس هو البطل الذي يبناه الشعب، يغذيه وينميه.

والدنه في المنفى هي وشقيقاته. امرأته سجينه النازيين في أحد معسكرات
الاعتقال. وولدت ابنته في السجن، وترعرعت في المنفى. ان برسنس، يا
صديقتي، يعرف ان يعيش من أجل الحرية ومن أجل الشعب.

وفما إذا ما حصل، في فترة ما، أن وهن قلبنا المسكين أمام الآلام، وتمنى
الموت لكي ننفادى تحمل الآلام والفساد، فلفكر دقيقة في لويس كارلوس
برسنس، لنفكر في ذلك الذي، في قمة الألم والفساد، متألاً، مشاهداً أفراد
عائلته يتألمون، مشاهداً الشعب يتألم، مشاهداً كيف يموت البعض،
يسنسلمون أو يبيعون أنفسهم، ظل منتصباً، عائشاً من أجل الحرية. عندها
سنحصل على قوى جديدة، على الشجاعة، على الأمل. على الأمل يا
صديقتي.

لقد سُمي بفارس الأمل. انه الاسم الذي أطلقه عليه الشعب. انه النجمة
في الليل الأسود، انه عاصفة الشعب، إنه الصاعقة في الظلمات، انه الريح التي
تخني الطغيان. اعطني يدك، يا صديقتي، سأروي لك قصة لويس كارلوس
برسنس.

انني أعرف جيداً، يا زنجيتي، ان هذه الليلة ليست ليلة أرصفة باهياً. ان

الأرصفة مختلفة، ومختلفة هي النجوم. أين هو القمر إذن في هذه الليلة الباردة، ليلة النفي على أرضفة مدينة أخرى؟ قليلاً ما بهم هذا، يا صديقي. قلبلاً ما بهم ان يتحدث الناس هنا لغة أخرى، ويتغنون باغنيات أخرى. وبالطريقة نفسها التي نحسّ فيها بجمال الأغنيات التي يتغنّى بها بحارة العالم كله، سيفهم الناس هنا، هم أيضاً، القصة التي سأرويها لك. وسيتجمع شعب هذه البلاد على الأرصفة حولي، مثل شعب أرضفة باهيا. وهو سيقدم لي الشراب والطعام، سيعزف على آلاته الموسيقية ويرتجل الأغاني. وعندما سستمع الناس إلى قصة البطل، سرفعون الأيدي ويرفعون أصواتهم من أجل الحرية. ذلك لأن الشعب، يا صديقي، هو دائماً نفسه في أي مرفأ كان في العالم، في أي رصيف كان، وتحت أي سماء تظلل: انه دائماً طيب وقوي، عطوف وفهم، محب للحرية، للجمال وللبطولة. لا، يا صديقي، إن ليلى لس ليلة المنفى على أرضفة أجنبية. إنني لا أشعر مطلقاً أنني بين أجانب، أو في المنفى؛ إذا ما كنت بالقرب من الشعب وإذا ما تحدثت من أجله. وهذا هو السبب الذي بدعوني لأن أروي هنا، بعيداً عن أرضفة باهيا، تلك القصة، التي هي قصة الشجاعة وقصة الإخلاص للشعب وللحرية. سنعرفين لم نستطيع أن نغادر وطننا، والاشخاص الذين نحب، ونذهب إلى أراضٍ أخرى أو إلى السجن، وحتى في مثل هذه الحال، نظل سعداء.

إن الحرية لست مطلقاً باهظة الثمن، حتى إذا ما بلغ ثمنها أكثر من الموت، إذا ما عني الحياة في المنفى أو في السجن. أعطني يدك البسرى، وانصتي إلى قصة بطل.

القسم الأول

الولد الفقير

- ١ -

لقد ولد في أراضي الجنوب، يا صديقتي، في هذه الحقول الواسعة، حيث تترامى، بحرية، الحيوانات والأساطير. والبامبا هو ذلك السهل اللامتناهي، الكثيب الهاديء، بسماؤه الزرقاء زرقة من المستحيل تسبيها، ذلك السهل الأخضر، خضرة مختلفة التموجات، حيث ترعى الثيران الهادئة، وتترامى الخيول الجائعة، وحيث يولد، يا صديقتي، رجال شجعان، رجال يتركون لدى مرورهم ذكرى أسطورية. إن ولاية ريو غراندي دوسول هي ولاية الرؤساء، وولاية الثورة، وولاية الشجاعة بخاصة.

إنه في أراضي الجنوب هذه قد وُلد. في هذه الأراضي حيث نركت البرازيلبة أنيتا غاريبالدي والايطالي جوزيبي غاريبالدي، أثرًا لمرورها. على أراضي ريو غراندي هذه، بين ذراعي البرازيلية أنيتا، تلقى غاريبالدي معنى الحرية والديمقراطية. على حصانها عدا الاثنان في طليعة الغاوشوس^(١). أوه! يا لقصة ريو غراندي، العذبة كالأسطورة، البطولية كاللحمية! الحب المتحالف مع الثورات، تجوال الشعراء الذين يموتون في ساحات العراق، على ظهور خيولهم في الليل. إنه على هذه الأراضي قد وُلد.

وعلى هذه الأراضي أعلنت الجمهورية أثناء ثورة الفرابوس، عندما كانت قوات الامبراطورية الرجعية لا تزال سيدة البلاد. وقدم الغاوشوس حياتهم للحرية. وتساقطوا في الساحات بالقرب من جيادهم. وبَلل دمهم هذه لأراضي، جاعلاً منها إلى الأبد أراضي الحرية. وكان الرؤساء في طليعة رجالهم. وكانت الليالي عندئذ، يا صديقتي، ممتلئة بضجيج الطواير الزاحفة،

وكانت الخبول تقتلع عشب الأرض. وخلال فترة طويلة من الزمن، وُلد الرؤساء على أراضي ريو غراندي. ان الرجال الذين كانوا بأمرون كانوا يتميزون بشجاعتهم وصلابتهم، ولم يكن تردد بين شفاههم سوى كلمة واحدة: الحرية. ولقد لَبَّى الغاوشوس دوماً نداء هذه الكلمة، في كل مرة تلفظ بها رجال شجعان. انهم يحبونها أكثر مما عداها، إنهم يضعون الشجاعة فوق كل الفضائل الأخرى. وفي الحقول، كان الخطباء الشعبيون يتحدثون عن الجمهورية. ونعَلَّم الغاوشوس هذه الكلمات، وأكثر من ذلك، نَعَلَّموا مثلها. إنهم لم يترددوا مطلقاً: انها ليست عادة الغاوشوس ان يترددوا. ان مرتبي الماشية هؤلاء، الذين امتزج بهم في القرن التاسع عشر المستوطنون الأوروبيون، هؤلاء البرازيليون الذين ظلوا وقتاً طويلاً منعزلين في أملاكهم، دون ان يتصلوا بما عدا الطبيعة والحيوانات - ما دام الحصان يكاد يكون تمداً لأقدامهم - كانوا يعتبرون أنفسهم حرس الحدود البرازيلية الجنوبية؛ لقد كانت هذه الأراضي تشكل حدود وطنهم. وفي أحد الأيام ذهبوا إلى البلاط، عندما تمركز البلاط في ريو: كان ذلك عهد نواب - الملوك. واصبحوا سياسيين، خطباء، برلمانيين، رجال مواهب، كانت تتحدث عنهم «صالونات» ريو دي جانيرو، في عهد دون جوان السادس، و «صالونات» بدرو الأول وبدرو الثاني. وعلى أراضي ريو غراندي، في الأملاك الاقطاعية، تحت سيطرة هؤلاء المزارعين وهذا الاقتصاد الريفي، كان الرجال يصبحون ثوريين؛ وكانت الجياد تجتاز لبل البامبا، ووجوه الرؤساء الروائية تتحول إلى أساطير في كل البلاد. وقام حكام عشائريون من وسط هذا النوع من الاقتصاد الريفي، وهذا النمط من الثقافة ومن تربية الحيوانات. ولكن حب الحرية والنضال ثما أيضاً، يا صديقتي، كما ثما العصيان ضد هذه الأشكال الاقطاعية للحكومة. وفي أراضي الجنوب هذه، التي عُذبت بدم الثوريين، حمراء هي جذور المراعي والأشجار.

با لأساطير الجنوب الكثيرة، كآبة السهول في هذه المنطقة! إن إله الغاوشوس المفضل هو نغرينيو دو باستوراينو، أعظم أبطال الأساطير

البرازيلية تصبراً: انه ولد أسود يموت ضحبة سوء معاملة السيد، ثم يُبعث في ليالي البامبا، في صمت الثيران والنجوم. ويسير الزنجي الصغير، الذي أودت بحياته العبودية، على رأس الخبالة الثائرين، وموسيقى خطوات الجياد لذبدة الوقع في أذنبه.

ان الاقتصاد المتأخر الذي صنع الطفلة، صنع الثوربين الكبار أيضاً. وبعد مكابذته لمظالم فترات طويلة من الدكتاتورية، كان على الغاوشوس ان يتعلم حب النضال والحرية، وان يجعل من ولد أسود، عبداً وشقي، بطل أغانيه، وأكثر آلهة البرازيل حنواً.

وشاهدت حقول الجنوب هذه، هذه الحقول المغلوبة على أمرها إنما غير الخاضعة، بروز الطفلة والثوربين، ابناء الملاكين العقاريين، الاسياد الاقطاعيين التابعين لجنس أولئك الذين قتلوا الولد الصغير الزنجي، لجنس جلادي زنجي المراعي الصغير. شاهدت هذه الأراضي بـروز ملاكين عقاريين، شاهدت الاقطاعيين ورؤساء العائلات في العهد العشائري - اسياد رجالهم المطلقين - اسبداً لم يشاهدوا قط كتاباً، يحذرون المدن والتقدم، ولا يعلمون من الحيوانات ومن الطبيعة سوى الدروس السيئة: الحيلة والخديعة. ان أنادي أسياذ الأرض جميعهم ملطخة بدم الولد الراعي. ان في قلبهم رغبة السيطرة على الناس، بالسوط، كما يسيطرون على الثيران الهادئة في البامبا الواسعة: الحلم الخالد للطفلة المولودين على هذه الأراضي، حلم مستحيل؛ ذلك لأن دم الثوربين الذين تساقطوا في النضال، يجري تحت سهول ريو عراندې، جريان نهر تحت الأرض.

إنما على أراضي الجنوب هذه، يا صديقتي، حيث وُلد الطفلة، وُلد أيضاً الثوربون. كان الناس يُعاملون كالحوانات، ويساوون أقل من ثور أصيل، من جواد شديد المراس. على هذه الأراضي وُلد أولئك الذين جعلوا من الزنجي الصغير الضحية، ألههم، أولئك الذين حملوه كعلم خلال تقيوهم على ظهور الخيول، الذين تعلموا من الطبيعة، من الحيوانات ومن الرجال المسعبدن، حب الحياة الحرة، أولئك الذين بنوا المدن، هجروا المزارع

ورجعوا إلى البابا حاملين تجربتهم، لكي يستثيروا الرجال ويسيروا على رأسهم، فيقلبوا الطغاة ويجعلوا الحياة أفضل مما هي، أكثر جدارة وأروع جمالاً. ولم يحصل في أي مكان آخر من البرازيل، يا صديقتي، ان تقابلت العبودية والحرية بهذا القدر على ساحة النضال. وُلد رجال ونساء لم يلمطخ أياديهم دم زنجي المراعي الصغير، ولكن قلبهم كان يتأجج برغبة تشبه رغبة الانتقام والعدالة، رغبة تحرير الرجال من سوط الأسياد، من سادة الحياة والموت؛ إنه الحكم الخالد لرجال هذه الأرض، حلم أصبح حقيقة يوماً بعد يوم، حلم سُجل في نضال كل اللحظات. ذلك لأن دم أولئك الذين ماتوا في النضال من أجل الحرية يجري على هذه الأراضي كالنهر.

وفي أراضي الجنوب هذه، يا صديقتي، وُلد لويس كارلوس برستس. وبولادته تبدأ نهاية الطغاة. ان ولادته تثبت ان جنس المضطهدين أصبح من القوة بحيث يستطيع قلب الطغاة والظفر بالحرية. وفي الثالث من كانون الثاني سنة ١٨٩٨، اختفت أسطورة زنجي المراعي الصغير، علّم المستعبدين، من عقول هؤلاء الرجال، وارتفع علم آخر هو علم الرجال الأحرار، وبولادة برستس، بدأ عهد جديد لكل مستعبد البرازيل. مع برستس تبدأ مرحلة النضال النهائي، الفترة الرهيبة الرائعة للمعركة الأخيرة.

- ٢ -

وفي أحد الأيام ، يا صديقتي ، هرب ولد ، في الثالثة عشرة من عمره ، من بيته ، ليتطوع في الجيش كجندي بسيط . وسكنت أمه الارسنقراطية ، وقد أصيبت في كبرياتها ، دموعاً بائسة . وكان دمها الأزرق ثائراً لفكرة انه ستكون لولدها مهنة بهذا الانحطاط . لقد كان أحد اجدادها حاجباً للإمبراطور ، ولقد نحت هذه المهنة النبيلة من دم عائلة فربناس ترافاسوس ، كل أثر لدم أسود أو بلدي ، وجعلت منه دماً أزرق ، زرقة صافية ارستقراطية . وكانت دموع لويزا دي فربناس ترافاسوس المرة ، تجري قرب صورة جددها الذي تشرف بمساعدة الامراتور بارتداء جواربه ومعطفه . ولم تعد تذكر ساعتئذ بانه كان يسبق اسماء فرنسائس ترافاسوس ، اسم أكثر وضاعة ، اسم دم أحر ، اسم برستس . وعندما كانت تذكر ذلك ، كانت تذكره من أجل أن تحمله مسؤولية هرب الولد ، ومسؤولية ميله إلى الجندية .

وكان بترأى لها حفيد حاجب الامراتور مرتدياً الجلباب المخزي لجندي بسيط . وتطلعت لويزا عندئذ إلى الصورة والندم يتآكلها . لقد كانت تلك هي خطيئتها هي . لقد تزوجت من رجل من الشعب ، وهو موسر حقاً ، ولكن عروقه لم تكن ممتلئة بدم البلاط الأزرق ، بل بدم عامل قطران لقد كان هو الذي نقل إلى ولده هذه الغريزة المنحطة . وكان هذا قد قرر ، وهو لما يزل صغيراً ، ان يصبح جندياً . وأمام عزمه العنيد ، انتهى بها الأمر إلى الرضوخ ، ولكنها حملته على ان يعد بان يبدأ من الأعلى ، كتلميذ في المدرسة الحربية ، التي كانت أبوابها مفتوحة أمامه بفضل دمه الأزرق . ان العائلة ، وقد اعتادت على أعمال البلاط وعلى التطلع بازدهاء إلى كل عمل يخرج عن نطاق عمل البلاط « النبيل » ، المريح ، الكثير المكسب والطفيلي ، كانت تعتر

الانتساب إلى سلك الجندية عملاً غير مشرف.

لقد كان كل عمل اهانةً بالنسبة للويزا، يا صديقتي. لقد وُلد الرجل بنظرها من أجل دسائس البلاط، من أجل أحاديته المغناجاة الناعمة، من أجل رقص البولونيز بفن، والتعمق في علم الدعابة^(٢) الصعب. نعم، لقد كانت تلك هي مهنة الارستقراطي، ميله الطبيعي، لقد كانت شيئاً ما مرموقاً ناعماً. وكانت تتطلع إلى كل عمل آخر بازدراء، وحتى إلى عمل القاضي الذي كان يشكل مهنة زوجها اليومية. لا، إن الله لم يخلق، في أفضل ساعات إلهامه، من أجل هذا الشيء، طبقة النبلاء المختارة. لقد خلقهم من أجل ان يملأوا الأرض بلطفهم، بمواهبهم، بنبههم، وبذلك النعومة ذات السيدين الانيقتين والجلد اللطيف، المشتركة بين الرجال والنساء. وكانت أحياناً تقول هذا الأمر لزوجها، يا صديقتي. وكان القاضي أنطونيو بنريرا برستس، «الدكتور برستس الهرم»، كما كانوا يسمونه في العائلة وفي مدينة بورتو اليجري، يبتسم ابتسامة نصف هازئة ونصف عطوفة لكي يجيبها:

— أنت تنسين يا دونا لويزا ان دم كثير من هؤلاء «النبلاء» قد امتزج كل الامتزاج بدم غريب... وان شعرهم ليس ناعماً كثيراً... أما في ما يتعلق بي، يا دونا لويزا، فأني، بصراحة، أفضل هؤلاء الزوج الأرقاء الطيبين، في أكثر الأحيان...

عندها كانت تنطلق من عيني دونا لويزا دي فريتناس ترافاسوس نظرة ازدراء متعالية. كانت تحس انها فوق مستوى هزء زوجها.

إن الابتسامة البارعة والمشية الرائعة لجدها الأول، الذي كان يبرز بصورة حية من اللوحة المعلقة في جدار البهو، والذي كان يبتسم كرجل سعيد لأنه أعطى لدون بدرو منديلاً ناعماً من الكتان المخرم، لكي يخطط به منخريه الامبراطورين، ان هذه الابتسامة ولطف المشية هذا كانا يكفيان لرفعها إلى مستوى أعلى كثيراً من هزء الدكتور. برستس الهرم، العامي. لقد تزوجت من

رجل من عامة الشعب، بعد أن رفض قلبها الإنصات إلى صوت دمه الأزرق، وأحبت هذا المحامي اللامع المثقف، الذي كان يحوز ثقة الجميع لعرفته بالقانون، والذي كان الجميع يتنبأون له بمسقبل باهر. انه لم يكن نبيلاً، ولكنه سيصبح كذلك في يوم من الأيام، بالتأكيد، لقد كان هناك الامبراطور، الذي سينظف بقرار يصدره، باسمه وبالنيابة عن الرب، دم المخلصين له، وجهه لون السماء الأزرق الصافي. وكان أهلها المستاءون يقولون: انه ليس نبيلاً. وكانت ذكرى عامل القطران، المتسلق جوانب السفن، في مهنة العامل المخزية، لا تزال ماثلة للعيان. عمل مأجور... وكانت أذنا لويزا النبيلتان تمتلئان بهدير أصوات العمات والأعمام، وابتناسمة أبناء العم النبلاء الهائجة، والهمسات المتواصلة، لبنات العم، للصديقات، لمعارف البلاط. ولكن الحب، با زنجيتي، هو أقوى من الكريياء والاباطيل: ان بمقدوره ان يدفع نبيلة منحدره من سلالة حاجب امراطور إلى ان تقسم سريرها مع ابن عامل قطران. وكانت لويزا تفكر، في ليالي التردد هذه، بانه سبأني يوم يتلقى فيه بحاميتها المحترم، الغني، الشهير والمنصر، من يدي السلطان، لقب فيكونت أو بارون، يستطيع ان يغرق في بحار النسيان الذكرى المزعجة لعامل القطران المتسلق جوانب السفينة، المتسلق مقدم المركب، مؤخرة الباخرة، باخرة... سفينة شراعية متعددة الصواري تجناز البحار... نعم، حتى انه يستطيع ان يرسم على ترسه صورة جانبية للسفينة الشراعية، لأشرعتها البيضاء المشرعة لرييح المحيط، للأمواج المنفحة أمامها. وعندها تصبح قصة ابن عامل القطران في السفن من اختراع اعداء مجهولين تافهين، وتبقى فقط اسطورة النبلاء البرتغاليين، الذين اجتازوا المحيط على سفن شراعية ضعيفة لكي ينطلقوا نحو المغامرة وبكتشفوا عوالم مجهولة.

وفي أحد الأيام أعطت يدها النبيلة لابن عامل قطران. وذهبت لتعيش معه في مدينة بورتو ألغري، حيث أصبح انطونيو بريرا برسس أشهر القضاة وأكثرهم احتراماً. ان معرفته للقوانين، وشعوره الفطري بالعدالة خاصة، واستقلال تفكيره الذي ورثه من أبيه عامل القطران، كل هذا قد

جعل منه رجلاً شعبياً في المدينة، نوعاً من المثال للرجل العفيف، الحريص على تأدية واجباته، والذي كان حسه بالشرف لا يعادل إلا حسه بالعدالة، بالعدالة الحقيقية، لا العدالة التي تكتفي بتطبيق القانون، بل بتلك التي نبتت جذورها في قلب معرفة التفاوت الاجتماعي بين الناس.

ولم يمت صدى الأحكام التي أصدرها الدكتور برستس في المدينة الريفية الصغيرة، بورتو ألغري. لقد وصل، يا صديقي، حتى إلى محاكم البلاط، حيث أخذ يسوحي منه قضاة مشهورون. وكانت نصائحه السديدة، كرجل طبيب وعالم، التي كثيراً ما كانت تؤدي إلى تجنب المباحكات الطويلة، وتحل المسائل التي كان من الممكن أن يستمر عرضها أمام العدالة سنين طويلة قبل أن تجد لها حلاً، كانت نصائحه هذه تحوز التقدير نفسه الذي تحوزه أحكامه. تلك كانت سمعته، تلك السمعة التي سرعان ما جعلت من بيته ملاذاً للأولاد الذين كان عليهم، لسبب من الأسباب، أن يوضعوا تحت حماية القانون. أنه لم يكن بعاملهم كيتامى أو كمجرمين أحداث. لقد كان يسمح لأولاده، يا صديقي، بأن يكونوا رفاقاً خُلصاً للقصر الذين كان يُعهد إليه برعايتهم. وعندما كانت الدونا لويزا دي فريتاس ترافاسوس، وهي التي تعتبر أن على الولد النبيل أن يعرف الحفاظ على مركزه، تحتج على هذه الصداقة الحميمة مع القصر الفقراء، اليتامى أو المجرمين، كان الدكتور برستس الهرم يقول بصوته الهادئ، بأنه يريد أن يصنع من هؤلاء الأولاد رجلاً، لا «كراكوزات» بلاط.

وكان هذا الازدراء للبلاط، للثياب الجميلة، للألقاب النبيلة، للحياة الأنيقة، وهذه الطريقة في تكريس نفسه جسداً وروحاً لواجباته كقاضي، تثير وتجرح لويزا. لقد فقدت الأمل في أن ترى زوجها قاضياً في ريودي جانيرو، يتردد على البلاط، يتحدث إلى الامبراطور - الذي كان مشهوراً بأنه عالم - حائزاً على اللقب المرغوب فيه كثيراً: لقب بارون أو فبكونت أو حتى لقب ماركيز. وبالتأكيد، لم يكن يتجه إلى هنا طموح الدكتور برسس، الذي كان يكتفي باحترام وتقدير بورتو ألغري، والذي

لم يكن برعب لا في الذهاب إلى البلاط، ولا في شرف مناقشة الامبراطور، ولا بلقب نبيل. لقد كان يكتفي بعمله، بكتبه، وبالدراسة الدقيقة لكل قضية، وبالرفضي الذي كان يقرأه على وجوه أولئك الذين كان ينصفهم.

وعدا ذلك - وكان هذا أكثر ما برعب سلبلة فريباس ترافاسوس - كان القاضي يمضي حياته بالحدث عن والده عامل القطران، وبعادو عيش تلك الرواية الكثيرة بكثير من الكبرياء، تلك الرواية التي كثيراً ما حلمت ليزا باستدائها بأسطورة «الكونكيستادورس»^(٣) الملحمية وبسفنهم الشراعية، بالأرض الحقود وبالهنود في «البانديراس» الممدنة للـ «سرنون»^(٤). وكان الدكتور برستس مبالاً بصورة غريبة لأن يقص ما كان يسميه «الحياة البطولية لوالده عامل القطران»، لأبيه المناضل من أجل إعطاء ولده حياة أفضل من تلك التي كان يعيشها، والذي نهض لأن يجعل منه دكتوراً بالحقوق، بذله نفسحات كان القاضي يعددها، بشكل تفصيلي فباض مقيت، أمام امرأته له نزا. أنها لم تكن بهد ان يكره زوجها والده ولا ان ينساه، ولكن كان عليه ان بدع هذه التفاصيل، لأوقات الود في سرير «الجاكاراندا»^(٥)، الذي كان يستوعب من غرفة النوم ثلثيها، وان بدع لها ان تروي للزائر قصة العائلة، التي درسها في أدق تفاصيلها، وحيث كانت تسبدل مصحبات عامل القطران بمظاهر الشجاعة، بالقلل الجماعي للقبائل الهندية، الذي قاده إلى هابه الحمدة الجد الأول البانديراني.

ولم يكن بفص ذلك فقط على زائريه، ما صديقي، بل وعلى أولاده أيضاً. ومنذ ما فقدت الأمل برؤية زوجها -هم بلقب النبيل، كانت تفكر بأولادها، وخاصة بالكر. ذلك الذي سبرث من المراس ترافاسوس لطف النبيل الذي لا تقاوم، سر التحاحات في البلاط وفي المدن الكرى، المظهر العالمي للسمو الطبيعى المحدر من الدم النبيل. لقد كان أمليها، ما صديقي، كان عامل

(٣) الغزاة.

(٤) مناطق صحراوية في شمالي - شرقي البرازيل، تضم خمس ولايات برازيلية.

(٥) خشب برازيلي ثمن.

ربحها في لعب المطامع . انه سيرث ، دون شك ، من عامل القطران حب العمل والدراسة والعدالة ، وغير ذلك من الأشياء الأرضية . قلّ ما كان يهتم هذا ، فإن الرجال المثقفين كانوا يحوزون إعجاب الامبراطور . لقد كان هذا على الأقل ما سمعته يُردّد ... سيصبح نبيلاً مثقفاً ، إنما نبيلاً قبل كل شيء آخر ... وحصرت لويزا نفسها في الحلم بهذا الولد الذي سيقودها يوماً ما من يدها عبر أهواء البلاط الملكي المضيئة اللامعة . بل انها كانت تنصت ، في الحلم أيضاً ، إلى هذه المحادثات التي كان يخيل إليها انه يُهمس بها عند مرور الأم والابن :

- هذه هي السنيورة فريناس ترافاسوس والفيكونت الصغير .

- انها من عائلة عريقة ... من دم ممتاز ... انما الأب ؟ من أين جاء .

- يوجد شيء ما على ملامح البانديرانتي ... شيء ما نبيل أيضاً . ولكن لم كان الدكتور برستس بصرّ على ان يروي لأولاده قصة نسبه الأبوي ؟ لم كان يطلق أحياناً بعض نكات مرحة حول الفرق ما بين دمه ودم الفريتاس والترافاسوس ؟ لم كان يسمح للأولاد ، وخاصة للصغير أنطونيو ، باللعب مع اليتامى الخلقى الثياب ، الجوع ، الذين كانت السلطات تحتجزهم في بيته ؟ .

وفكرت في صباح اليوم الذي لاحظت فيه غياب ولدها بأن أنطونيو قد بدأ ، وسط هؤلاء المتشردين ، يعتنق الفكرة الجنونية بالالتحاق بالجيش . ولم يكن الجيش ، الناشئ من بين أوساط الناس الفقراء ، ليتمتع إلا بحظوة قليلة في البلاط ، وبقليل من العطف لدى الأمبراطور . وكان الصغير أنطونيو ، حتى قبل وفاة الدكتور برستس ، يتحدث عن الالتحاق بالجيش ، وعن رغبته في ان يصبح جندياً . وكانت لويزا تلاحظ ان زوجها لا يستعمل سلطته بصورة كافية لمحاربة افكار ابنه .

واندفعت لويزا في النضال لدحر الأفكار العامة لولدها البكر ، انطونيو ، الذي لم يكن قد بلغ العاشرة من عمره بعد . وكانت تأمل بأن الدم النبيل سوف يتحدث في قلب انطونيو بصوت أعلى من صوت الدم الوضعي لعامل

القطران. معركة لا فائدة منها. ان كل أحلام الولد، كل رغباته، كانت تنلخص بالالتهاق بالجيش. لو التحق بالبحرية على الأقل... كانت البحرية، يا صديقتي، مهنة نبيلة. ولم يكن يرى فيها سوى البيض وكثير من الارسنقراطيين وابناء العائلات النسله أو الغنية، ولم يكن الضباط الذين نشأوا بين نيران القنال، والذين لم يتلقوا دراسة ما، يحفلون بأي امتياز، كما كان يحصل في الجيش. لقد كانت مهنة تتطلب السفر إلى الخارج، تتطلب الاتصال بالطبقة النبيلة في أوروبا الهرمة، تلك الطبقة التي كانت تبرر في بلاطات بعيدة متبرجة. لم يكن الأمر شبيهاً بما يجري في الجيش. بملاكماته المجندة من بين الشغيلة والزنوج المحررين والخلاسيين، ومن بين الفلاحين. وفي كثير من الأحيان، لم يكن ضباطه يتابعون دراسة اختصاصية، ولم يكن بينهم سوى القليل من النبلاء، القليل من الأغنياء، وكان بعضهم لا يكاد يحسن القراءة، وهم، وقد نالوا درجاتهم في ساحات القتال، لم يفلقوا لكي يجرروا سيوفهم في البلاط، حيث، فوق ذلك، لم تكن نتاج لهم كثيراً فرصة الظهور، كما يحصل لضباط البحرية، ولم يكن بمقدورهم رؤية الامبراطور إلا بعد طلب مواجهة. اه يا صديقتي، لو التحق بالبحرية على الأقل...

ولكن انطونيو الشاب كان قد ورث عن جده عامل القطران، الذي استطاع ان يجعل من ولده دكتوراً بالحقوق، إرادة قوية. لقد كان يعرف ما يريد، ولم يكن ينراجع عما اقنعه به بسهولة.

واستطاعت لويزا، بمنتهى الصعوبة، ان تحصل من انطونيو على تعهد بأن يدخل المدرسة الحربية على الأقل، وبأن يبدأ من الأعلى. ووعد انطونيو بذلك. إنما، ما هي تلك القوة الغربية، يا صديقتي، التي كانت تجذب هذا الولد نحو الشعب، نحو الناس الفقراء، نحو هؤلاء الهنود والزنوج والخلاسيين الذين يشكلون الجيش؟ لقد كان من سلالة عامل قطران، إنما هو كذلك من سلالة حاجب امبراطور. أكون، يا زنجيتي، دم عمال القطران العامي أقوى وأعظم أثراً من دم النبلاء الأزرق؟

وفي أحد الأيام هرب أنطونيو بريراً برستس من منزله والتحق بالجيش،

بصفة جندي بسيط. لقد كان في الثالثة عشرة من عمره. وكان، وهو الذي ينحلي بجزم الرجل، على استعداد للحياة، وكان يجب هذه الحياة على اعتبار انها مغامرة، على الانسان ان يجباها دون ان يقاسمه اياها أحد.

وبكت لويزا أمام صورة الجد الأول الارستقراطي، الذي كانت نبدو عليه، تحت المخمل الذي كان يرتديه، سياء الغضب للانحطاط الذي انتاب العائلة. ومن على صورة أخرى، ترتدي ثياباً أحدث وأكثر نواضعاً، كان القاضي انطونيو بريرا برسس، والد الجندي الفتى، يرسل ابسامته الطيبة الهازئة. وتحولت دموع لويزا، دموع لويزا فريتاس ترافاسوس، إلى شهيق.

إن ما لم تكن تفهمه، ان ما كان يؤلم قلبها، هو هذا الانتصار الذي أحرزه دم عامل القطران الأحمر على الدم الأزرق النبيل، هذا الانتصار الذي كانت تبدو معاملة في إرادة ورغبات وأفكار الولد. وكانت لويزا فريتاس ترافاسوس تفكر بانه، إذا ما استمر الأمر على هذه الحال، فإن نسلها سيتحد مع عمال القطران في العالم، ضد الكوئونات والبارونات والفيكونتات والدوقات وأباطرة الدنيا في أحد الأيام...

في أحد الأيام، يا صديقتي، وضعت فناة مبتلاة بهوس قراءة الصحف وبالاهتمام بالسياسة، عدة كتب في محفظتها المدرسية، وقررت ان تصبح مدرسة، تماماً كما كان من الممكن ان تفعل ابنة خياطة عادية، رغبت في ان نسمو بعض السمو في الحياة. وكان هذا الشيء يشكل بالنسبة لعائلة ليوكاديا المحطاطاً من وجهة النظر الاجتماعية. لقد كان والدها تاجراً غنياً، وكانت امها منحدره من عائلة عشائرية. وكان كلاهما يعتقد بان حظ المرأة في العالم مقنصر على ان تقوم بزواج موفق، ان تحصر نفسها ضمن منزلها في حدود أفكار زوجها، دون ان تهتم في ما يحدث خارج حدود البيت. لم يكن العالم موجوداً بالنسبة لامرأة ذلك العهد، يا صديقتي. وفي ذلك الوقت، حيث كانت قراءة رواية ما تكاد تعد منافية للآداب بالنسبة لفتاة صبية، كان الاهتمام الذي تبدبه ليوكاديا بالسياسة، لا شك في ذلك ولا ريب، عملاً جنونياً. وان فناة صبية تصر على قراءة الصحف، تهتم بثورة الأسطول، تناقش حول

الثورة، كان حادثاً غير منتظر في الحياة الهادئة لببت فليزاردو. وهذه الفكرة الآن في الذهاب إلى دار المعلمين، في أن تصبح مدرسة، ان تلقن الأولاد الفقراء الحروف الهجائية |.

ولكن الدونا ارميلندا أو عسادي المبدأ فليزاردو، والدة ليو كاديا، كانت، مع هذا، تتسمع بذلكاء مرن خوطها فهم أحدث أفكار العصر، وقادها إلى متابعة عمل ابن ليو كاديا بصورة كاملة، حتى سنة ١٩٤١، حيث اسلمت الروح. إنما في ذلك العهد، في مدينة بورتو البغري، في الجنوب الأقصى من البرازيل، كان، حتى أكثر الناس تعلوياً، يعتقدون بأن على المرأة ان لا تهتم بما كان يجري في العالم، وبأنه لم تكن لدى الفئاة المنحدرة من صلب أناس أغنياء أية حجة ذات قيمة تخوطها ان تفتار المهنة التي لا مستقبل لها، مهنة مدرسة، مهنة أناس فقراء، أناس محتاجين. على ابنة تاجر غني ان تهيم نفسها للزواج. ومن أجل الحصول على رواج موفق من شاب نبيل يقودها إلى البلاط، على الفئاة الصببة الغنية أن تكن مشقعة، ان تعرف قليلاً من الفرنسية، ان تحسن بعض الاحسان الضرب على البيانو، ان تهتم باعمالها البسبة، ان تعرف نهضة طلق الطعام، وان ترقص بأناقة. وانضمت الدونا ارميلندا إلى صفوف عائلتها، التي كانت تعارض بكل قوة اباطيلها مشاريع ليو كاديا المناقضة للصواب. وربما كان احجاجها غير صادر عن قناعة كاملة، لأنها كانت تحس بالاختناق الذي كان يحكمها به على نسوة ذلك العهد. وربما كانت تفكر بان ابنتها كانت على صواب في ان تنصرف على هذا النحو، وبان عليها ان تحب الحياة التي تود، مؤمنة الاستقلال لنفسها بالعمل. إنما كيف كان بمقدورها ان تعارض، وقد بدا ان قرار ليو كاديا قد أرعب جميع الناس؟.

واحتج جوزيه جواكين فليزاردو بعدة. ما سوف يقوله زبائن «بيت فليزاردو»، بيت شارع دوس اندراداس التجاري المشهور؟. إنما جوزيه جواكين لم يكن، هو كذلك، من معدن قاسٍ لدرجة لا تستطيع معها الصغبرة ليو كاديا ان تضمن الفوز لوجهة نظرها. إن هذه الفئاة الصببة، يا

صديقتي، لم تكن فتاة عنيدة فقط، بل كانت، مثل الشاب برستس، تعرف ماذا تريد، تعرف ان تصنع حياتها. ولم تكن الحياة تتحدد بنظرها في ان تقوم بزواج موفق من شاب من عائلة جيدة، بان يكون لها بيت مريح، ويكون لديها زنجيات للاهتمام بالأولاد وبالمطبخ، ونساء موكاماس^(٦) لترديد أغان حنونة خلال امسيات الصيف الحارة؛ لم تكن الحياة بنظرها بدانة وضجراً، لا، يا صديقتي. في كل صباح، كانت ليوكاديا ترى الحياة في الشارع، على وجوه الرجال الذاهبين إلى العمل، وجوه الزنوج، وجوه الزبائن الذين كانوا يتناقشون في «بيت فليزاردو» حول الملكية والجمهورية، أو حول الغاء الرق؛ لقد كانت ترى الحياة على وجوه الفتيات الصبايا اللواتي كن يذهبن إلى المدرسة لكي يتعلمن مهنة ما. نعم، يا صديقتي، كانت الحياة تمر أمام ليوكاديا وتجذبها، وتناديها بيديها المتقرحتين؛ وكانت الفتاة تكتشف ان هناك كثيراً من الأشياء الطيبة النبيلة يتوجب القيام بها في هذا العالم. انها لم تولد من أجل ان تقبع في بيتها، بينما تتكاثر المشاكل التي تتطلب الحلول، وتتكاثر الآلام في الخارج.

وكان أبرز مظاهر عقلية الأهل يبدو في تصرفات ليوكاديا. فهي مثل الدونا أرميلندا، لم تكن لترضى عن نفسها مطلقاً؛ لقد ورثت عن أمها الرغبة في التطور، في متابعة سير الافكار، وورثت عن والدها الافكار التقدمية، حب الثقافة وتفهم المظالم الاجتماعية.

لقد كان التاجر جواكين جوزيه فليزاردو هذا رجلاً غريباً. لقد حملته رؤيته لرجال السياسة المحترفين، الذين يفكرون بمصالحهم الخاصة بدلاً من الاهتمام بمصالح الشعب والبلاد، على كره السياسة، على اعتبارها شيئاً محتقراً. لقد كان، وهو المثقف والقارئ المتعطش لكل كتاب جديد منشور في أوروبا، تاجراً غريباً، يختلف تمام الاختلاف عن زملائه، ليس فقط لانه كان متعلماً ويستطيع الصمود في وجه رجال القانون ورجال السياسة، وانما

(٦) اسم كان يطلق في عهد الرق في البرازيل على النساء من الرقيق، اللواتي يكرسن أنفسهن للأعمال المنزلية.

لأنه كان يثور ضد العقائد الوطيدة الأسس، للكنيسة أو للرق. واكسبه هذا عطفاً بين الأوساط الواسعة للنبؤساء والفقراء والمستعبدين والارقاء. لقد كان جوزيه فليزاردو يشتري الارقاء في سبيل هدف واحد: هو ان يعتقهم، وبذد ثروة كبيرة لكي يجعل منهم رجالاً أحراراً. وكانوا يدعونه في بورتو أليغري بـ «أبي الزنوج». وكانت أبواب منزله مفتوحة دائماً للزنوج الهاربين، الذين كانوا يجدون فيه ملجأ لا يستطيع النبلاء إخراجهم منه.

وكان الزنوج يحبونه في الشارع:

تباركت، يا أبانا.

لقد كان يحب كذلك، بحب واحترام، من قبل الأرامل واليتامى الذين كانوا يعرفون بانهم سيجدون دائماً في ذلك البيت، في شارع «ابونتي»، انفراجاً لآلامهم، وبدأ طيبة عطوفة تقدمهم بالعون بنكمت وتسمر، فكأنها لا تفعل شيئاً. وأشاع موته في أحد الأبنام الحزن في المدينة كلها. ومشى، خلال بعد ظهر ذلك اليوم من سنة ١٨٩٩، حاكم الولاية خلف عربة الموتى. انما كان هناك كذلك جمهور نجهول الاسماء، من الناس الفقراء، من الخلاسين، من الزنوج، وخاصة من الزنوج الارقاء الذين منحهم الحرية.

واستطاعت ليوكاديا ان تنتصر بدون صعوبة على معارضة أم. كانت تهتم بتطور العالم، وأب عفيف مثقف، كان يهتم بأكثر مشاكل زمنه خطورة. واعتادت ليوكاديا، منذ مقتل عمرها، يا صديقي، التغلب على العقبات، واعتادت على النضال. ذلك هو السبب الذي استطاعت بفضلها، في شيخوختها المظفرة، ان تدهش اميركا كلها بشجاعته، بجأله في تحمل الآلام، بقوتها المعنوية، بعظمتها المؤثرة.

وفي أحد الأنام، سارت الفتاة الصبية الغنية في طريقها إلى دار المعلمات، كاتبة أي عامل قطران. وكان التاجر فليزاردو يشترك في التعليق مع زبائن مؤسسه التجارية حول تصرف ابنته الجنوني، ولكنه كان يبتسم بسخاء. وكانت الدونا ارميلندا تبتسم ابتسامة مشوبة بشيء من الكبر، وهي تشاهد

ابنتها برفقة تلميذات دار المعلمات، اللواتي كن يدرسن من أجل الحصول على مهنة. لقد كانت ليوكاديا هنا، مختلطة بالصبايا الفقيرات، مريحة، سعيدة، واعية لما كانت تقوم به، كأية واحدة منهن... نعم، انها لن تصبح مثل النساء اللواتي كانت الدونا ارميلندا تعرفهن، شخصاً محدود الآفاق، محصوراً في جهو الزيارات، في المطبخ، في السرير الزوجي، والذي كانت القراءة بالنسبة إليه حادثاً منافياً للآداب، والحياة مشهداً بعيداً خطراً.

وفي اليوم الذي أخذت فيه ليوكاديا كتبها وذهبت إلى دار المعلمات، وسط تنهدات ونحيب العائلة، لم تنتهد الدونا ارميلندا ولم تبدُ لا حزينة ولا خائفة. لقد فكرت طويلاً، يا صديقتي، وقالت في نفسها بانه سيأتي يوم تتحرر فيه نساء العالم كله، وينزعن عن بيتهن صفة القفص الذهبي، وتزول الأباطيل السخيفة من الوجود، ويعملن مع الرجال في بناء عالم أفضل. وفي أحد الأيام...

في أحد الأيام، يا زنجيتي، في يوم مشعة شمس، التقى الجندي الشاب بالمدرسة الصبية، التقى انطونيو بليوكاديا، فهام أحدهما بالآخر، فتفاهما وتحابا. وبعد خطبة شعرية، أوثقا بالزواج شابهما الثائر.

- ٣ -

في تلك الصبيحة المظفرة من يوم الخامس عشر من تشرين الثاني سنة ١٨٨٩، يا صديقتي، وقد كانت الملكية تنهار في البرازيل، تجتمع طلاب المدرسة العسكرية حول استاذهم ورئيسهم، الليوتنان كولونيل بنجمين كونستان بوتللو دي ماغالياس، وأقسموا بان « ينصروا أو يموتوا »، من أجل الجمهورية والديمقراطية. في ذلك الصباح، وقع تلامذة البرايا فرمليا^(٧)، أفضل مدارس العصر العسكرية وأشهرها - مدرسة « أطباء الجيش » - « ميثاق الدم »: إما تنتصر الجمهورية وحكومة الشعب ومن أجل الشعب، أو يفنى الجنود الجدد في النضال. وجعل كل منهم يقسم على ذلك بدوره. وكانت ساعة مؤثرة، يا صديقتي. لقد حمل تلامذة الضباط هؤلاء على عواتقهم، وهم على وشك انتهاء دراستهم، الحمل الثقيل الذي هو مصير البلاد. لقد تعلموا معنى الوطنية وحب الوطن والكرامة، من فم ذلك الليوتنان كولونيل الشريف، الذي كان في الوقت نفسه رجل عمل، رجل عدالة، وكان بطلاً.

وتقدموا، الواحد تلو الآخر، يا صديقتي. كان أحدهم شاحب الوجه من التأثر، وآخر منسياً، وآخر أيضاً قد تقلص فمه من الغضب، ذلك لانه كان خلاصاً وكان يذكر بان جدوده الأزل كانوا عبيداً للإمبراطورية. وعندما وصل الدور إلى الطالب انطونيو بريرا برستس، تقدم هذا بعزم وصلابة، مرفوع الرأس، ينطلق باستقامة إلى أمام. فاقسم، ثم وقف إلى جانب بنجمين مسنداً لرافقته.

(٧) الشاطيء الأجر.

إن هذا الطالب، مثله في ذلك مثل الخلاسي ومثل الفلاح الذي أنهى دراسته، لم يكن قد دخل مدرسة برايا فرمليا بفضل ألقاب نبل. لقد ناضلت والدته كثيراً لكي تجعله يبدأ مهنته من الأعلى؛ لقد كانت تريده أن يفيد من الامتيازات الممنوحة لعائلتها، وأن يبدأ حياته العسكرية كتلميذ - ضابط في مدرسة ما. ولكن انطونيو بريرا برستس كان يفكر على نحو آخر. انه، وهو ابن لعامل، كان يفكر كأبيه بأن من الواجب أن يبدأ الإنسان حياته من الأسفل، وأن يتسلق درجات الرقي بعدئذ؛ وذلك كان السبب الذي جعله يقسم أن يناضل ضد الملكية وأن ينتصر، أو يهب حياته من أجل الجمهورية، ولم يفعل ذلك، بدافع الحماسة الفتية التي أيقظتها فيه دروس بنجمين وحدها. لقد ظل هذا التلميذ جندياً طوال سبع سنوات؛ وكان قد امتزج بالشعب، الذي كان يعرف قضاياه، لا معرفة مراقب ومشاهد، بل معرفة رجل عاشها. لقد كان يعرف كم كان صعباً على جندي أن يجتاز ابواب المدرسة الحربية ومدرسة أركان الحرب، بينما كانت هذه الابواب تفتح على مصاريعها بسهولة متناهية أمام الطفيليين من النبلاء وأمام أبناء الأغنياء. ولكنه كان يعرف أكثر كثيراً من ذلك، أكثر كثيراً، يا صديقتي. لقد كان يعرف ما كان يجري في المدن وفي الريف، حيث يعيش الجنود على اتصال مع أكثر الناس فقراً واستثماراً وبؤساً. لقد كان يعرف الزوج؛ لقد تعرف بينهم إلى آلام جنس مسترق. لقد شاهد نضالاتهم الثورية. ورأت عيناه، يوماً بعد يوم، في ظل الامبراطورية، صعود الرجعية، الخبيثة الحذرة، انما القوية، التي كانت تناضل ضد التيار الداعي إلى إلغاء الرق. وهو، وقد عاش إلى جانب الارقاء السابقين وابناء الارقاء، وكانت له مهنتهم نفسها، لم يدع نفسه تنخدع بديماغوجية العائلة المالكة، التي كانت تجهد نفسها لكي تظهر الامبراطور وعائلته بمظهر «انصار إلغاء الرق، الذين لا يصدرون قراراً بهذا الالغاء، لان القوى السياسية في البلاد لا تسمح لهم بذلك». وفهم بأن استرقاق السود كان الاساس الذي تركز عليه الامبراطورية، وانه، من أجل هذا السبب نفسه، كان الامبراطور وعائلته، بالضرورة، من انصار هذا الاسترقاق. فهم بانه، حتى في حالة إلغاء الاسترقاق وانتصار الشعب، فان مهمة الوطنيين لم

تكن لتنتهي عند هذا الحد. فهم بان من الواجب قيام نظام يمثل فيه الشعب، يستطيع الشعب فيه اختيار حاكميه، وإسماع صدى حاجاته. حاجات كان الجندي انطونيو بريرا برستس قد شاهدها بعينين دهشتين لوليد هرب من منزله ليعيش، في الجيش، مغامرة الحياة. لقد اكتشف ان حياة الشعب هي حقاً مغامرة كثيفة، يا صديقتي، مغامرة مرة مؤلمة، بطولية أحياناً، وفاجعة دائماً. لقد شاهد المجاعة التي يعيش في وسطها أصحاب الحرف، بينما كان الراقصون في القصر، يرتاحون من تعب الرقص أمام مقاصف مملوءة بالاطباق اللذيذة، ويتذوقون مآكل ذات اسماء فرنسية معقدة. لقد شاهد في السرتونس، في الشمال الشرقي من البلاد، الرجال الذين لا أرض لهم يصبحون انبياء للتعاسة، ويتحولون بصورة ارتجالية إلى رؤساء عسكريين ودينين لكي يناضلوا من أجل الحصول على الأراضي التي كان نبلاء^(٨) ذلك العهد بتلقونها من الامبراطور، لقاء كلمة بارعة، أو رقصة موفقة، أو جلد محكم بالعصا على كليتي أحد الزوج. لقد شاهد الزوج يهربون من السنزالس^(٩) القدرة البائسة إلى الغابة العذراء الحرة. لقد تعرف إلى ضحايا وابطال مجهولي الاسماء. لقد شاهد الشعب، وعاش حياته وشاطره آلامه. وعلى هذا الشكل، يا صديقتي، أصبح الشاب انطونيو بريرا برستس رجلاً، وانهى، في العشرين من عمره، دراسته العسكرية.

وفي صباح الخامس، عشر من تشرين الثاني سنة ١٨٨٩ هذا، لم يكن الطالب انطونيو بريرا برستس، تلميذ بنجمين كونستان، هو الذي أقسم فقط بان يموت، إذا لزم الأمر، من أجل انتصار الجمهورية؛ ان من فعل ذلك، كان - وبصورة خاصة يا زنجيتي - هو الجندي انطونيو بريرا برستس، تلميذ الشعب، ذلك الذي علمته الحياة، قبل ان تعلمه الكتب، ضرورة الديمقراطية والحرية.

وتقدم الطلاب واحداً واحداً، وامتلاً قلب الليوتنان كولونيل بنجمين

(٨) Les comtes, Les barons, Les marquis - المعرب.

(٩) أكواخ خربة سكنها الزوج.

بوتللو دي ماغالياس سروراً. لقد علّم هذا الجيل كرامة الرجولة والثقة بالإنسانية وبالاخوة العالمية. ولم يُستعمل مطلقاً كرسيّ استاذ، يا صديقتي، يمثل الاتقان الذي استعمل به كرسي هذا الاستاذ من أجل نشر الافكار التقدمية والثورة. ان أولئك الذين يضطهدون اليوم في البرازيل، يا صديقتي، الاساتذة الذين ينشرون من أعلى كراسيهم أفكار العصر ويعطون لمهنتهم، كمربين، كرامتها كلها، أولئك الذين يضطهدونهم، الذين يعذبونهم ويسجنونهم، ينسون درس الجمهورية، درس بنجمين، ينسون انه حول كرسيه إلى منبر، وان البرازيل مدينةٌ بقدر كبير، بقضية سقوط الملكية، إلى دروسه الجمهورية. إنه، وقد استند إلى فلسفة أوغست كونت وسار على نهجها إلى حد كبير، هو الذي كان يفضح في كل وقت ديماغوجية الامبراطور، المتظاهر بانه ليبرالي، من انصار الغاء الرق، بل ومن الجمهوريين. لقد كان با صديقتي هو الرجل الذي يمثل حقيقة كل أولئك الذين يرغبون بالجمهورية، كما كان «دون بدرو» الثاني يمثل، خيراً من أي انسان، جميع الرجعيين.

لقد كان بنجمين كونستان رئيساً شعبياً، من أولئك الرؤساء الذين يعرفون الجهر بالحقيقة. لقد عرف كيف ينزع عن بدرو الثاني القناع الوقح للرجل الليبرالي الذي كان هذا يختفي وراءه، وأظهر للشعب وجه الطاغية بشكله الحقيقي. وفي أيامنا، قام لويس كارلوس برستس بعمل مماثل؛ لقد عرف ان يظهر اعداء البرازيل الحاليين في عريهم الفاجع.

لقد كان بنجمين كونستان يجمع في نهاية القرن الأخير أنبل فضائل الشعب البرازيلي. لقد كان، وهو الذكي المثقف والمخلص، مربياً ممتازاً للرجال، ورجل شرف. وهو، وقد كابد عيش ولد فقير، عانى جميع المظالم وجميع الحرمانات. ان الاحترام الذي كان يحظى به من قبل الشعب لم يكن يستند إلى المظاهر التي قد تؤدي أحياناً إلى احترام زعيم مزيف؛ بل كان ينحدر من عظمة حقيقية، طاهرة، لا شك فيها. انه لم يكن يتمتع بأية مزية من مزايا الديماغوجي، بل كان، على العكس من ذلك، يتحلى بمناقب الزعيم الشعبي الحقيقي.

ان لويس كارلوس برستس، الذي يشبهه إلى حد يثير الدهشة، من الناحية المعنوية، هو اليوم متمم رسالته. ولم يكن لويس، هو أبضاً يا صديقي، يحمل أية صفة من صفات الديماغوجي، ولم يكن أي شيء فيه يشكل مظهراً خارجياً، ولا مظهراً مزيفاً. وكانت عظمتة كذلك واقعاً ملموساً. لقد كانت حياته كلها مكرسة للشعب، لعبادة الشرف، للكرامة، للحقيقة، لقضية البرازيل. وكان مثقفاً ذكياً وخلصاً، كبنجمين كونستان. ولقد تحدر مثله من عائلة فقيرة، وصعد الدرجات مكابداً مثله كل المظالم وكل الحرمانات. وكما وجد بنجمين كونستان الإيجابية^(١٠)، وجد هو أيضاً في يوم من الايام فلسفة للحياة. وان الماركسي لويس كارلوس برستس، هو في أيامنا هذه وجه ذو أهمية تاريخية في حياة البرازيل، تعادل بعظمتها ان لم تفق، أهمية الايجاي بنجمين كونستان في النصف الثاني من القرن الماضي وكان كلاهما عسكرياً مجرباً بالقتال، وبرهن الأول عن سعة معلوماته وعن شجاعته، كما برزت في الثاني عبقرية عسكرية وسياسية لا مثيل لها في أميركا. وكان كلاهما رجلاً يضحي بكل شيء من أجل صالح الشعب. ولم يكن لأي منهما اندفاعات الخطباء الغزيرين. ولم تكن لهما حركات مسرحية. ولم يكن أي منهما يتنكر بقناع ما، لكي يقدم نفسه للشعب. انهما لا يتمتعان بقوة أسير مغناطيسية ولا باندفاعات ضخمة. انهما هادئان، صافيان، بشوشان وبسيطان. ولكل منهما عينان نفاذتان ونشيطتان، عينان تكشفان عن حقيقة مشاعر القلب. وفي العصور النائية، والشبيهة بعصور النضال ضد الملكية وضد الفاشية، يتعرف الشعب إلى رؤسائه في شخص كونستان الايجاي وبرستس الماركسي.

وكان كونستان يتقدم على رأس تلامذته نحو البلاط. وكان الرجال الذين كانوا يقودون، في ذلك اليوم، الجيش المتمرد، لا يعرفون إلى أين عليهم ان يقودوا الشعب. لقد كانوا يسمعون اصواتاً تطالب بالجمهورية، ولكنهم كانوا يرددون في إعلانها.

(١٠) الإيجابية: طريقة فلسفية انشأها أوغست كونت، تقول باننا لا يمكن ان نعرف بصورة كاملة سوى الحقائق التي نلمسها وتؤكد من وجودها بالتجربة - المعرب.

وكان الليوتنان كولونيل كونستان بوتللو دي ماغالياس على رأس طلابه الذين أقسموا ان يعلنوا الجمهورية أو يموتوا. وكان بينهم الطالب الهادي، الحازم، انطونيو بريرا برستس. واجتازوا شوارع مدينة ريو دي جانيرو، حيث كان الخطباء الشعبيون: لولس تروفايو، باردال ملّيت، راوول بومبيا، سليفا جردين، يلقيون الخطب من الشرفات، أو من على ظهور الصناديق. وكان الجمهور لدى مرورهم يهتف لهم، يتظاهر للجمهورية، ويتبعهم، هم التلامذة الفتيان الابطال. وكانت الجماهير في شارع أوفيدور، يا صديقتي، تهتف باسم بنجمين كونستان. وكانت الهتافات تستقبل كذلك التلامذة الذين كان الجمهور يتعرّف إليهم، وكانت تمتزج بالهتافات الموجهة إلى كونستان. وفي وقت من الأوقات، مرّ التلامذة وراء فريق من الجنود الخلاسيين والزنوج، فتوزعت الهتافات ساعتئذ بين الليوتنان كولونيل وبين أحد التلامذة الذين يتبعونه: لقد تعرف الجنود الزنوج والخلاسيون القدماء إلى واحد منهم كان جندياً مثلهم، وأصبح صديقاً لجميع الجنود: لقد تعرفوا إلى الجندي انطونيو بريرا برستس.

وفي صباح هذا اليوم من سنة ١٨٨٩، يا صديقتي، هُتف للمرة الأولى في شوارع مدينة ريو دي جانيرو باسم برستس.

- ٤ -

خرجت الخادمة مسرعة وقد أضاءت وجهها ابتسامة عريضة. ودخلت، دون كلفة، لدى الجيران العديدين، في شارع ريا شويلو في بورتو أليغري. وكان عيد الميلاد ورأس السنة قد انصرما. ما هو السبب الذي دعا إذن، يا صديقتي، الزنجية العاملة لدى آل برستس، لان تهاجم الجيرة بهذا الشكل، كما لو كان الامر يتعلق بيوم عيد ؟.

آه ! يا صديقتي. لقد كان يوم الثالث من كانون الثاني سنة ١٨٩٨، هذا، يوم عبد حقيقي في شارع ريا شويلو. ويُحتفل بذكرى هذا اليوم، في أيامنا هذه، في البلاد الأميركية كلها. ان الزوج والخلاسين والبيض في البرازيل، العمال في معاملهم، والفلاحين بين عائلاتهم، والجنود، والطيارين، والمثقفين، والعلماء، ان كل أولئك الذين يتعطشون للحرية وللتقدم، يحتفلون بيوم الثالث من كانون الثاني، تاريخ ولادة بطل الحرية. واليوم، يا صديقتي، وقد سيطر حكم الارهاب، يتلفت كل أولئك الذين يبيتون في مساكن عمالية، في الأكواخ الفلاحية، في مساكن متواضعة لصغار التجار، لصغار المزارعين أو المستخدمين، كل أولئك المثقفين والعلماء الذين لا يستطيعون التعبير عن آرائهم والذين يتعرضون للمراقبة، يتلفت كل هؤلاء وقد سيطر عليهم التأثير، نحو غرفة انفراد ثلثية في جناح المسلولين في الكوريون^(١١)، حيث يوجد ذلك الذي وُلد في الثالث من كانون الثاني، والذي، وقد رفع عالياً راية الشعب، أخذ على عاتقه أمر القيام بصليبيته من أجل الحرية. ان حكومات الاستبداد واعداء الوطن يرتجفون في هذا اليوم؛ انهم لا يجرأون

على الخروج ليلاً من بيوتهم، ويختفون تحت شراشفهم حتى رؤوسهم، وحتى وهم على هذه الحال، لا يستطيعون خنق خفقات الخوف الذي يضطرم في قلوبهم الصغيرة. ذلك لأنهم يعرفون بأن هذا اليوم هو تاريخ بالنسبة للشعب، وبأنه يُحتفل في كل بيت برازيلي، خلال هذه الليلة، بمولد لويس كارلوس برستس. ان الأمل في هذه الليلة يخفق في القلوب. انه يخفق بقوة يخترق معها الصمت الذي فرضته الشرطة، ويدوي قضاء لا يرحم في صدور خونة الوطن الهالعة. ان الأمل، يا صديقتي، يخفق بقوة عظيمة يجتاز معها السجن الهائل، الذي تشكله البرازيل في أيامنا هذه، وينتشر من شهلي أميركا إلى جنوبها، من الألسكا إلى الباتاغوني.

وكانت الزنجيات اللواتي كن يسهرن على سررنا خلال ليالي البرازيل، يروين قصة البطل الاسطوري، ويعلنن في تنبأتهن الخرافية، عن مستقبلنا. أذكركن، يا صديقتي، الزنجية التي سهرت على سريرك؟ انني واثق من انها كانت الأولى التي قالت لك، وهي تنظر في عينيك، بأنه مقدر عليك ان ترافقي وان تتحملي كاتباً متشرداً، واثراً يجب ان يتطلع إلى القمر في أقصى المرافء. وانها لزنجية تلك التي قالت لي في إحدى ليالي ايليوس النائية بأنني سأحب ان أرسم طريقتي وسط الشعب، في السوق وعلى الأرصفة، وسأخترع أغنيات صغيرة وقصصاً. ان الزنجيات تتنبأن دوماً بالحقيقة، يا صديقتي، لأنهن ينظرن بعيون الحب. وهكذا حدث ان أعلنت خادمة آل برستس السوداء، خلال طوافها في صباح الثالث من كانون الثاني سنة ١٨٩٨ على بيوت شارع رياشويلو، ولادة طفل يحمل نجماً غريباً. لقد أعلنت انها شاهدت في عيني الولد المتوقدتين، نجماً يشتعل ببريق عظيم دب من جرائه الخوف في قلبها. لقد كانت قد ذكرت آلهتها، وشاهدت أوشيسي، اله الصيد، الذي يجوب غابات افريقيا. لقد شاهدت شنغو كذلك، اله العاصفة والرعد، اله المعارك المنتصر. بل ولقد شاهدت أكثر من ذلك، شاهدت بريق ذلك الذي قدم من افريقيا بصفة مستعبد وفان بسيط، وأصبح، اله الحرية في البرازيل، في أحلام المستعبدين. لقد شاهدت زمي، أصغر الآلهة الزوج، الذي أثار

العبيد، وهرب نحو غابة بالمارس وخلق جمهورية للناس الأحرار. لقد شاهدت في عيني الولد، أو شيسي فاتحاً الغابات العذراء، شغو ملقياً بالعاصفة بالمعركة، ومنصرفاً على أعدائه، وزمبي صانعاً الحرية. انها لم تشاهد مطلقاً، مطلقاً، ولدًا مماثلاً. وخلال الماكومبا في هذه الليلة، سرقص، وعلى شرفه تغني انشودة النصر:

Erô ôja é parâ mon, ê Inun ôja il a ô lô (١٢).

ذلك كان السبب، يا صديقتي، الذي دعا خادمة آل برستس، إلى ان تنطلق بوجه مشع بابتسامة، وبجسم يتحرك كما لو كان يرقص، إلى الجيران، وتؤدي باندفاع المهمة التي أوكل بها إليها الملازم انطونيو بريرا برستس ودونا ليوكادبا:

- ان الملازم والمدام بعلمانكم بانه أصبح لكم خدام جديد يخضع لأوامركم.... وكانت عيناها تضحكان في وقت واحد مع شفتيها وجسدها كله.

لقد كانت تضحك مهتاجة سعيدة، وترسل الضحكة المنبسطة نفسها التي كانت تُشاهد على شفتيها، خلال ليالي الماكومبا، عندما كانت تحتفل بظهور أو شكوفها، أكبر الآلهة.

لقد كانت طفولته، يا صديقتي، طفولة ولد فقير.

لقد كان الفقر أخلص رفيق لعائلة والده، الملازم برستس. وكان لهذا مزاج بالغ في الاستقلال، وكانت انفته أعظم من ان تحوله الحصول على الترقية بسهولة. وبالرغم من شجاعته وكفاءته، كانت حياته المادية صعبة دائماً، ولم تكن المهنة العسكرية في ذلك العهد من خير المهن إيراداً. ولم يكن انطونيو يعول، براتبه، عائلته وحدها، بل كان يقدم العون كذلك لعائلة

(١٢) انشودة النصر باللغة المسباة بالـ Nangô، وهي إحدى اللغات العديدة التي يتحدث بها زنوج البرازيل.

أمه إن مال الحمي ومؤسسة « فليزاردو » قد انقطع مورده منذ وقت طويل :
 ان هرب الزوج الذي سهله جواكين جوزيه ، والمساعدة المقدمة للمستبعدين ،
 للأرامل ولليتامى ، قد استنفذت القسم الأكبر من توفيرات التاجر الصغيرة .
 لقد كانت حياة الملازم صعبة . وكانت أفكاره الايجابية والطريقة التي يفهم
 بها الشرف ، تمنعانه من ان يعيش مجرراً سيفه في أروقة الوزارات أو في
 قصور الحكومة . انه لم يتخذ مطلقاً من الجيش « مهنة » . وكان عليه ان يموت
 فقيراً في سنة ١٩٠٨ ، وهو نقيب في فرق الهندسة ، مخلفاً عائلة مجردة من المال
 تماماً .

وترعرع الولد لويس كارلوس برستس ، وقد لقّن بان الأولاد الفقراء لم
 يخلقوا لكي تكون لهم لعب ثمينة ميكانيكية ، ولا كتب مزينة بالرسوم
 الفخمة . وفي عيد الميلاد كان يلاحظ ان بابا نويل لا يذهب إلا لدى أولاد
 أولئك الذين عرفوا ان يجمعوا مالاً . ان هذا الولد ، الذي كان يتوقف خلال
 ضحكه أحياناً ، وينقلب رزيناً بصورة مفاجئة ليفكر تفكير الراشدين ، فهم
 بصورة سريعة ان جمال ومباهج العالم قد وُزعت بشكل سيئ . لقد كان
 يشاهد أولاد شارع مجردين من كل هدية ، من فرح الحصول على أبسط
 اللعب . لقد كان يستمع إلى الحديث ، في البيت ، يتحول في العديد من المرات
 إلى مسائل المال . وعُرضت هذه المسائل أمامه منذ طفولته ؛ ومنذ طفولته تعود
 ان يحلها بأببل الطرق .

لقد كان له أربع شقيقات . ولما لم يكن لديه لعبة ما ، فقد كان يكتفي
 بصنع لعبه . لقد كان يهتم بصنع « العرائس » لشقيقاته ، لان هذا الولد الفقير ،
 يا صديقتي ، كان يحب دوماً رؤية الناس سعداء حوله . وكان يهتم دوماً
 بسعادة الغير . لقد كان سرور الغير سروراً له . وكان على هذا الشكل في
 البيت ، في أول الأمر ، يا صديقتي . ثم أصبح كذلك مع رفاقه في الصف ، ثم
 مع جنوده . ثم أصبح على هذا النحو مع البرازيل كلها ، حتى جاء اليوم الذي
 فهم خلاله ، في المنفى ، ان المسألة التي تستأثر باهتمامه هي سعادة جميع
 المضطهدين . لقد بدأ باكراً جداً تلك المهنة التي كان عليها ان تصبح مهنته .

لقد بدأها في البيت، بين مصاعب الولد الفقير.

لقد تعلم من والده انطونيو ومن ليوكاديا ان الحياة لا تتوقف عند حدود المنزل. لقد كان الوالد الايجابي يهتم بالعالم كله. وكانت الوالدة تتلف عينيها كل مساء، بقراءة الجرائد، حيث كانت تتابع تطورات قضية دريفوس التي كانت تجري في فرنسا النائية، وكانت تتحدث عن زولا، وتعرض تفاصيل المأساة. وتعلم لويس كارلوس برستس من الحياة، منذ نعومة أظفاره، نضالات الرجال، والمظالم والآلام. ومنذ طفولته الأولى بدأ يتعهد فولاذ مزاجه بالسقيا. لقد تلقى من والده دروساً في النزاهة. لقد علمه النقيب برستس، يا صديقي، بانه لا يمكن الحصول على الشرف بالمناجزة بالذكاء، بالمزاج أو بالقلب. لقد علمه ان الشرف متأثّر من فهم العدالة، من حياة شجاعة مملوءة بالكرامة. ذلك كان السبب الذي اسنطاع من أجله، يا صديقي، ان يكتب لي ما بعد، من غرفة انفراد كسجين، إلى الدونا ليوكاديا، بانه « بشعر بالسعادة، بالرغم من كل شيء ». كتب هذا، وكان قد حُكم بالسجن أكثر من ثلاثين عاماً، إثر أكثر المحاكمات بغياً. ان قوة الروح هذه، هذا الفهم للشرف الحقيقي... ليس ذلك الذي نجده بسهولة في مناسبات الحياة الخارجية، بل ذلك الذي نتوصل إليه بتأدية الخدمات للانسانية - اعطيا له منذ طفولته، بالمثال الذي تلقنه من النقيب ومن زوجته، اللذين كانا يفضلان الحرمان على أقل تنازل ذي صفة خلقية أو ذهنية. لقد فهم ان في الحياة طريقتين، وان أهله قد اختاروا أشدهما قسوة. لقد كانت هذه الطربق تبدو لهم أكثر جمالاً. وهذا أيضاً ما كان الولد يفكر به.

ان طفولة لويس كارلوس هي طفولة ابن ضابط يُنقل من مخفر إلى مكان أولاً في بورتر أليغري، ثم في ريو دي جانيرو، ونُقل بعد ذلك إلى داخل ريو غراندي دوسول، إلى ايجوي وإلى أليكرتي، ثم أعيد مر إلى بورتر أليغري. ويصح ان يُقال عن عائلته انها عائلة من العجر خيماتها بين الفترة والفترة لتتبع رئيسها من بلاد إلى بلاد. وتأمل الوا كارلوس منظر الفلاحين الذين لا يملكون أرضاً، والذين يعيشون

محنة على حقول يعملون فيها من أجل أولئك الذين احنكروها . وفي المدن شاهد أصحاب المعامل بكثسون المال على حساب العمال الذين يشتغلون ، وعلى حساب المستهلكين . شاهد العمال والفلاحين وصغار البورجوازيين ، شاهد الشعب يتألم . لقد كان ولدأ رزينا . فاعتاد ان يفكر ويستخرج النتائج مما كان براه . ولم يكن مظهره الرزين ، الذي كان يبدو أحياناً مظهراً خجلاً ، ناتجاً عن خوف من الحياة . لقد كان لويس كارلوس يحس ، يا صديقتي ، بان من الواجب مواجهة مشاكل العيش برزانة وتفكير .

وسقط الوالد صريع المرض في أحد الأيام ؛ وكان هذا مرضاً طويلاً لم يُقدر له ان يشفى منه مطلقاً ، واضطره إلى الذهاب مع عائلته إلى ريو ، لكي بعني بنفسه . وكانت تلك أياماً قاتمة . وفي البيت الواقع في إحدى ضواحي مدينة ريو دي جانيرو ، حيث لزم الوالد الفراش ، شاهد الولد لويس كارلوس والدته تضاعف جهدها في العمل . الدونا ليوكاديا هي ربة البيت في هذا الوقت ؛ انها أم مملوءة بالعطف ، وزوجة مهتمة بالعناية التي تقدمها لزوجها المريض ، وانها هي التي كان عليها ان تنصرف بشكل تضمن معه ان يكفي ما يُحصل من المال لمصاريف العائلة . انها لأوقات صعبة ؛ وكان البيت بعش في جو ثقيل للمأساة يمكن ان تنفجر في كل لحظة . وأصبح الاصدقاء نادرين : ففي ما عدا أفراد قلائل ، لم يبق حول النقيب المحتضر سوى العائلة الفقيرة . وكانت العائلة مفتقرة إلى المال ، وإلى السرور كذلك . وكانت الدونا ليوكاديا تخفي حزنها عن أولادها ، إنما كان من المستحيل حقاً إخفاء أي شيء عن الصغير لويس كارلوس ، المرهف الاحساس . لقد كان يفهم كل مأساة والدته ، وكان يفهم كذلك كم كانت قوية في ألمها . لقد فهم كونها لا تشعر بأقل أسف لأن زوجها قد فضل حياة قاسية ، انما شريفة ، على عيش هين ودون مبادئ .

وكانت الدونا ليوكاديا تجتاز البيت بخطى خفيفة . وفي غرفها ، كان النقيب انطونيو بريرا برستس يحتضر . وكان لويس كارلوس يحرص على ان تكون شقيقاته مسرورات ، وان لا يعرن انتباهاً للمأساة التي تجري حولهن .

وازداد وجهه رزانة باطراد . ولكنه جعل كذلك بزداد هدوءاً باطراد . وعندما مات النقيب ، جعل لويس كارلوس ، وهو في سن بقل عن العاشرة ، يعزي الجميع . لقد كان هو الذي جفف دموع ليوكادبا وحول انبياه شقيقاته نحو اللعب .

ان الاولاد الفقراء ، يا صديقتي ، يواجهون الحياة منذ سنينهم الأولى ، ويحملون على عواتقهم الطفولية اللدنة مسؤوليات الراشدين . ان المشاكل تلامسهم من قرب ، وحياناً تتجاوزهم . وشاهد الولد الفقير لويس كارلوس حوله : أمه وشقيقاته - أرملة وبتامى ، تجردات من كل شيء تقريباً . أفق من الرماد منجرد من أي أثر لترسم الأشياء . منذ تلك السنوات البعيدة اعتاد برستس ان لا يفقد حس ترسم الأشياء ، ان لا يفقد الثقة ، ان لا يفقد السرور الداخلي . لقد كان يواجه الحياة مباشرة وبسند لاقتحامها .

وفي أحد الأيام ، بعد سنوات طويلة من ذلك ، يا صديقتي ، كسب من غرفة انفراده إلى الدونا ليوكادبا ، التي كانت في المنفى ، يقول : « ان ما يحصل لي اليوم لا يمثل بالنسبة إلي لا دهشة ولا تعاسة » . لقد كان قد تعلم هذه العبارات الكبيرة ، يا زنجيتي ، في طفولته ، في البيت الأمومي ، باتصاله بالألم وبالفقر . وان الدرس الذي تعلمنا اياه اليوم ، هو انه لا يوجد أي أفق ، ولو مهما أدلهم ولو مهما تجرد من أي أثر لترسم الأشياء ، لا يحمل في حناياه الامل بسماء زرقاء حرة . وبعلمنا كذلك ، يا صديقتي ، بان الخبرة هي في كل واحد منا ، وان الثائر ، حتى في السجن ، هو رجل حر . لبس هناك من مستبعد سوى ذلك الذي يجب الاستبعاد .

- ٥ -

«Senora, hiciste grande, mas grande a nuestra América.

«Una madre de llanto, de venganza, de flores,

«Una de luto, de bronce, de victoria».

Pablo Neruda.

وارتسم ، كالطيف الحارس ، على حياة لويس كارلوس برستس ، يا صديقي ، منذ طفولته الأولى ، وجود امرأة ذاتية الاندفاع . ان دم ليوكاديا برستس هو دم القديسات والبطلات ؛ دم أنيتاغاريبالدي ، ماريا كيتاريا ، ودم أنا نيري كذلك . ومثل الدونا ليوكاديا ، في حياة لويس كارلوس برستس البطولية ، القوة المغذية ، الحارسة ، ومثل العون . وانني أشاهد أحياناً ، يا زنجيتي ، في هذه المرأة الهرمة ، أجمل صور الشعب البرازيلي . انظري إليها يا صديقي ؛ انها الشعب كولدها . وفيما إذا كان الشعب يتبنى ، يغذي ويسند البطل ، فان ليوكاديا برستس هذه ، هي دون شك ، من بين أعلى المناقب الانسانية ، تجسيد للشعب ، حيث لمجد المستقبل والأمل . ويسمى ولدها «فارس الأمل» .

انظري ، يا صديقي ، في سماء المنفى ، إلى لمعان قمر البرازيل الأصفر الكبير . انه قادم من سهوات هناك ، وقد أثار هذه البحار وهذه الأرياف . لقد لمع على السفن الشراعية في مرفأ سوق باهيا الصغير . لقد لمع يا زنجيتي ، على جسور رسيقي ، على مياه الأمازون خلال المد ، على مياه سان فرنسيسكو الفاجعة . لقد لمع على الكاتنغا^(١٣) وعلى البامبا . لقد لمع كذلك ، يا صديقي ،

(١٣) منطقة لاجلة حيث لا ينبت سوى الصبار .

على جزيرة فرنندو دي نورونيا، التي تمثل الحنين إلى الوطن بالنسبة إلى المحكومين في سنة ١٩٣٥، اخواننا؛ لقد لمع على غرفة انفراد سجن ريو، حيث يحلم كارلوس برستس ببرازيل المستقبل. هذا القمر، يأتي من البرازيل، يا صديقتي، ويحمل ضوءه الذهبى ذكرى دافئة للوطن.

اذكر، يا زنجيتي، انه في أحد الأيام، كانت الليلة قمراء كذلك في الكاتنغا^(١٢)، بين باهيا وسيرجيبى-وكننت برفقة الكانغاسيرو^(١٣)، زيه بيانو، من عصابة لامبيون. لقد كان زنجياً هائلاً، سبق له ان قتل كثيراً من الناس؛ ولهذا السبب نفسه كانت بندقيته الرشاشة تحمل كثيراً من الخطوط المحفورة بالسكين. ولكنه كان رجلاً طيباً، يا زنجيتي، يحب سماع الروايات والحديث عن الاقدام والشجاعة. وكان لامبيون قد أرسله لجباية الضرائب في سيرجيبى؛ وفي ذلك الوقت، الذي لا يزال حديثاً، يا صديقتي، كان لامبيون يحكم السرتون ذات الولايات الخمس. وجلس زيه بيانو وقد وضع بندقيته الرشاشة بالقرب منه، وجعل يروي مآثر لامبيون. وكان لهذا الفلاح ذي الصوت الخشن، والذي جعل منه ملاكو الأراضي قاطع طرق، حديث رئيسه نفسه، أكبر كانغاسيرو في المنطقة؛ وكان، كرئيسه، يتحدث هدهد مثير. لقد كان يروي مآثر إقدام لامبيون، لدرجة توقف معها القمر نفسه عن السير، يا صديقتي، لكي ينصت إليه. وقال لي بانه «اشجع الرجال في العالم، وليس هناك من يدانيه».

وتحدث عن إطلاق الرصاص في الليل، وعن المهجات على المزارع، وعن طعنات الخناجر في الظهر. وفي صوته الذي أصبح لطيفاً وشعرياً، وفي بريق عينيه الودعتين كزنجي، كان يظهر طرف من فخر. وكان القمر قد ارتفع عالياً جداً في السماء، وكانت تُسمع في جنبات الكاتنغا أصوات وهمية. وسألني زيه بيانو إذا ما كنت أعرف شخصاً أعظم شجاعة من رئيسه. وأردف يقول:

(١٤) فلاح فقير يتعاطى اللصوصية.

« لا يوجد شخص من هذا النوع في العالم كله ».

وظهرت على شفقي زيه بيانو ابتسامة ظفر. ذكرت عندها، يا صديقي، انه كان في فرنسا أم برازيلية تتحدث في الاجتماعات، تزور الوزراء، تقابل رجال السياسة، تتوجه إلى الشعب، لكي تنتزع من أيدي النازيين طفلة لا يتجاوز سنها عدة شهور، طفلتها الصغيرة. وحدثت زيه بيانو عن دونا ليوكاديا برستس. وتابعني هو ورفاقه، الذين كانوا ينصتون إليّ، بانتباه. وقلت: « إن هذه هي امرأة، امرأة صغيرة هرمة، امرأة صغيرة هرمة لا تملك مسدساً ولا خنجرًا ولا بندقية رشاشة، انها امرأة صغيرة هرمة شجاعة ».

الدونا ليوكاديا برستس، يا زلجيتي. وكما لو قلت: شعب البرازيل، اننا نحبها كما نحب الوطن. وعندما ترفع هذه المرأة الهرمة، ذات المظهر الذي يذكر بابطال المآسي اليونانيين، يا صديقي، وجهها الفخور الذي جوّفه الألم، فان شعب البرازيل كله، فان الوطن نفسه، هو الذي ينتصب بكل قدرة مناقبه.

كانت ليوكاديا فتاة ثائرة رُببت ضد الأوهام البعيدة عن العقل، التي كانت تجعل من المرأة أداة ترف. وعندما تزوجت، لم تتخذ الوضع الجامد نفسه الذي كانت تتخذه نساء عصرها، اللواتي كن ينتحبن ويتشكين إذا ما اختار أزواجهن حياة قاسية على التضحية بأنفسهم. بل كانت ليوكاديا، على لنقيض من ذلك، تؤيد زوجها بوعي وصلابة. لقد كانت ترافقه بحبور في تنقلاته المتوالية، وكانت تتدبر الأمر لكي تجعل الراتب الضئيل يكفي لتغطية نفقات العائلة. وكانت أول من أيّده عندما رفض القبول بمتطلبات محترفي السياسة، الذين كانوا يشوهون عمل الجمهوريين، ولم تخرج من شفقيها مطلقاً، يا صديقي، لا كلمة تشاؤم ولا كلمة تشييط للهمة. لقد كانت قد تطورت مع زوجها، وتعلمت منه الكثير: تعلمت كل ما كان بمقدوره ان يعلمها إياه، وكما كان عليها في ما بعد ان تتعلم من ابنها، تعلمت أسرار تعاسة وسعادة العالم. وكانت عائلة انطونيو وليوكاديا عائلة متحدة وشجاعة، تقدمت في دروب الحياة بعزم وصلابة.

ولكن أنطونيو مات شاباً. تصوري، يا صديقتي، ألم هذه المرأة التي كانت لا تزال فتية، عندما فقدت رفيق أيامها كلها، ذلك الذي عرف ان يساعدها عندما كانت تجهد نفسها، بواسطة عينيها الفضوليتين الانسانيتين، لتفهم العالم. فكرت ليوكاديا في أول الأمر، بانها مفتقرة إلى كل شيء. فلم تكن المشاكل المادية التي تتطلب حلاً فورياً تواجهها فقط، بل وان زوجها بقوته المعنوية، والمثال الذي كانه بالنسبة للأولاد، لم يبق له من أثرٍ بالقرب منها.

وقامت ليوكاديا برد فعل فوري لقد كان الأولاد هناك، وكان هناك الصبي بصورة خاصة، يا صديقتي، لويس كارلوس هذا، الذي كان عليها ان تحبته بجنون أفضل الأمهات، والذي ستقدم له على سبيل المثال حياة أعظم الآباء كرامة.

وعندما حُمل التابوت الذي يضم الميت العزيز الذي لا يُنسى، استدارت ليوكاديا نحو أولادها، استدارت نحو لويس كارلوس، ثم تابعت سيرها. إنها ستصبح من الآن فصاعداً أمّاً وأباً في الوقت نفسه، ستصبح حناناً وقوة، طيبة وثقة، صلابة وحزماً.

وان أول مسألة تتطلب الحل الآن هي مسألة إطعام العائلة.

وكان راتب النقيب التقاعدي في ذلك العهد شيئاً تافهاً. وقررت ليوكاديا أن تعمل. ولم يكن أمراً مستهجناً ان تكون قد درست في دار المعلمات، وكان على ثورتها في سن الطفولة ان تقدم لها عوناً عظيماً. وأصبحت استاذاً في الموسيقى وفي اللغة الفرنسية؛ وعندما كان يندر التلامذة، كانت تخطط في الحى، وتعمل إلى ساعة متأخرة في المساء، وعيناها عالقان بما بين يديها من عمل. ورجحت بيديها خبز العائلة وتعلمت قسوة العمل. ولكنها خلال هذه التجربة القاسية، لم تحلم أحلام غنى طموحة، لا من أجل ولدها ولا من أجل بناتها. لقد كانت تحلم بأن تجعل منهم فقط رجلاً ونساء ذوي كرامة. وكانت تحلم، فوق كل شيء، ان تجعل منهم اناساً شرفاء وانسانيين.

وكان حلمها من أجل ولدها حلماً طيباً. لقد كانت تحلم بأن يصبح طبيباً في

أحد الأيام، ليس طبيباً يملك عيادة فخمة، يعتني بأعصاب النساء البارزات، اللواتي يتظاهرن بالمرض لتمضية الوقت. لا، لقد كانت تتصوره قابلاً في إحدى المدن الداخلية الضائعة في السهل، وعيادته مملوءة باناس فقراء يوزع عليهم الطبيب الفتي الصحة. لقد تصورته هكذا، يا صديقتي، في خدمة الناس. وعلى هذا الشكل كان عليه أن يكون، يا زنجيتي، في خدمة الناس. إنما ليس كطبيب. لقد منعت مصاعب العائلة المالية حلم ليوكاديا الجميل المتواضع من أن يتحقق. كيف يمكنها أن تفكر ببذل نفقات دراسة طويلة كدراسة الطب، عندما لا يكاد المال الذي كانت ترجه يكفي لاطعام العائلة؟ لم يكن لديها الكثير من التلامذة. إن قليلاً من الناس يستطيعون في هذا الحي الفقير أن يدفعوا ثمن تعلم الفرنسية والموسيقى، بالرغم من أنه كان للكثيرين رغبة في ذلك. ولم تكن الاثواب المخاطة كثيرة هي أيضاً، وكانت واردة من بيوت متواضعة، ومصنوعة من قماش رخيص الثمن. لا، لا يستطيع لويس كارلوس أن يصبح طبيباً.

وترعرع الولد وهو يشاهد أمه تعمل كالرجل. وكانت الدونا ليوكاديا، تشعر، وهي ممتلئة مرحاً وحنواً، بأنها تقوم بعمل مشرف بتسديدها الديون، حتى التافهة منها. وبالرغم من المصاعب، لم تكن تتوجب على بيت ليوكاديا ديون قديمة، بل كان هذا البيت يتمتع بثقة التجار المجاورين.

وكان أصحاب الدكاكين يدينون لويس كارلوس، بالرغم من كونه لم يكن قد بلغ الحادية عشرة من عمره. وكان الخمار البرتغالي في الحي يقول: «إن إدانة آل برستس هي كما لو كنت تضع المال في الصندوق». وكانت كلمة ابن الدونا ليوكاديا تساوي كلمة رجل كامل. واكتسب الولد بهذا الشكل معنى تحمل المسؤوليات، والشعور بمسؤولية الكلمة المقالة؛ شيان سيصبح لها، في ما بعد، أثر حاسم في حياته. وكانت الجيرة تتابع بانتباه نضال عائلة برستس. وكانت تتلقى من هذه الأرملة ومن هؤلاء الأولاد درساً في الشجاعة.

لم يكن بمقدور لويس كارلوس أن يصبح طبيباً، يا صديقتي. وكانت

المهنة الوحيدة الممكنة بالقياس إليه ، والتي لم تكن تتطلب مصاريف باهظة ، هي مهنة السلاح . فعندما يصبح لويس كارلوس رجلاً عسكرياً كوالده ، يمكنه ان يكون مفيداً للناس . وفي سن الحادية عشرة ، وبعد ان تخطى سلسلة من العقبات ، دخل المدرسة الحربية ، وبدأ على هذا الشكل مهنته المظفرة .

وكانت إقامة برستس الفتي في المدرسة الحربية عبارة عن سلسلة لا تنقطع من الانتصارات والمظالم . لقد كان الأول في صفه ، الأول في كل شيء . وحسب القوانين المعمول بها في المدرسة الحربية ، كان له الحق بمركز تلميذ - مقدم . ولم يُعط له هذا المركز . وعُين أحد رفاقه ، وكان قد حاز علامات جيدة ، إنما لم تكن له عبقرية برستس ، بصفة مقدم . وحاز لويس كارلوس فقط على مركز وكيل مأجور . لقد كان ولدًا فقيرًا ، يا صديقي . لقد انهى سنته المدرسية وقد نال جوائز في جميع المواد . وكان من المتوقع ان ينال ثلاثة أوسمة ، أعلى هدايا المدرسة الثلاث . ولكنه لم يعطها مطلقاً . لقد كان لويس كارلوس ولدًا فقيرًا ، يا صديقي .

واستطاع هذا الشاب ، الذي لم يتجاوز الثامنة عشرة ، ان يحتفظ بهدوئه المطلق أمام هذه المظالم . لقد كان دائماً عالي الرأس أمام أولئك الذين كانوا يفخرون بغناهم أو بوضعهم العائلي . انه ، وهو والطبيب ، والطبيب دائماً مع الفقراء من أمثاله ، لم يكن يتشكى مطلقاً من المظالم التي كان ضحيتها ، وكان يشور ضد تلك الموجهة إلى غيره . وعلمته المدرسة درساً آخر : لقد أظهرت له كيف يستطيع المال ، مهما كان مصدره ، ان يقوم مقام الذكاء والطبع . ولقد رأى وشعر بتجربته نفسها كم يخفض الفقر من قيمة الانسان ، في نظر أولئك أنفسهم الذين أوكل إليهم أمر تطبيق العدالة . وفي عالم خاطئ ، كان الولد لويس كارلوس ضحية خطأيا هذا العالم . انه لم يحتاج ، ولكنه بدأ يفهم بانه يتوجب تغيير وجه ومعالم الدنيا . وهو ، وقد عجمد إلى بذل سنوات طويلة في هذا السبيل ، في ما بعد ، دون ان يتوصل إلى نتيجة ، استطاع أخيراً ان يرى ويفهم جميع مقدمات المسألة . عند ذلك ألقى بنفسه في خضم المعركة . ولكن برستس يا صديقي ، بدأ ، في أيام الظلم المدرسية تلك ، يصقل أسلحته . لقد

شاهد الغنى والفقر وجهاً لوجه. وأخذ دم عامل القطران، الذي يجري في عروقه، يسيطر الآن: ان لويس كارلوس برستس، وهو فقير مثل جده عامل القطران، وابن لامرأة كانت تدرس وتخطط، يتيم، دون ثروة ودون مركز، ان كل هذا دفع الولد الفقير لويس كارلوس برستس إلى ان يتعلم التفكير.

وكان يحدث ليو كاديا، في أيام العطلة، عن مسائل المدرسة. لقد كان الأول في صفه؛ ولكنه لم يكن ليُعامل كذلك، فلقد احتل هذا المركز شخص سواه. لم يكن التلامذة الصالحون الفقراء يعاملون كالأغنياء؟

في أحد الأيام، يا صديقي، اكتمل بدره فوق الكانتغا، جرد الزنجي زيه بيانو، الذي خلقت يده لفلاحة الأرض وترويض الخيول المتوحشة، من أرضه. جرد من أرضه وطرد دون ان يُقدّم له أقل تفسير. وكان زيه بيانو لا يزال عندئذ غلاماً. فتناول بندقيته الرشاشة وقتل ذلك الذي سرق له أرضه. ان الغني يشتري العدالة بماله أو بالذهب، يا صديقي، ولم يجد زيه بيانو شيئاً غير مدفوع الثمن، سوى الانتقام. وأصبح بعد ذلك قاطع طرق في عصابة لامبيون.

ولقد تعلم الولد لويس كارلوس برستس من شفقي ليو كاديا ان الثورة الشخصية ليست إلا شكلاً من أشكال الغيظ. ان التألم من الظلم ليس بالشيء الكافي، من الواجب استخلاص الدروس من ذلك. وسوف يجد هذه الطريق في يوم من الأيام. ولم تفكر ليو كاديا بان تعزي الولد بوعده بمكافآت سخاوية، أو بان تروي له خرافات ذات مغزى فاضل وبعيدة عن الحقيقة. لم تقل له سوى شيء واحد، شيء كانت قد تعلمته من زوجها:

- هناك أولاد أغنياء وأولاد فقراء، يا ولدي. هناك رجال أغنياء ورجال فقراء. ويأخذ الأغنياء دائماً المكان الذي يعود للفقراء. وقد جرى الأمر كذلك دائماً...

وفي أحد الأيام، في السرّتون، قالت زنجية فلاحة الشيء نفسه لزيه بيانو. ولكنها أكدت على هذا الحكم بجملة من التسليم بالأمر الواقع:

- وسيكون الأمر دائماً على هذا الشكل... ولن يتغير مطلقاً... وعلى أثر ذلك تناول زيه بيانو بندقيته الرشاشة، وذهب لينتقم لنفسه.
أما ليو كاديا، فقد تابعت تقول:

- لقد كان الأمر كذلك دائماً، ولكنني اعتقد بأنه سيأتي يوم تتغير فيه هذه الحال. أدرس، يا بني، لا تدع لهذه المظالم السبيل لأن تجعل اليأس يتطرق إليك، فلربما وجدت يوماً ما، في الكتب وبين الفقراء أمثالك، حلاً لهذه المسألة.

واختار لويس كارلوس هو أيضاً طريقاً أخرى. أما في ما يتعلق بزيه بيانو وأفراد فريق لامبيون، المضللين والمستنترين، ولو مهما كانوا كانغاسيروس وثائرين، فإنهم بدلاً من أن ينضموا إلى صفوفه، ساروا في ما بعد لمقاومته. يا زنجبتي. إن الخيال الواسع لهذا المخلوق الرائع، المتناهي القوة في أنوثته اللدنة، قد ارتسم على طفولة الفقير الصغير. لقد أعطاه مثاله الشجاعة. واستطاع، بفضل ليو كاديا برستس، أن يواجه الحياة برزانة، وأن يتعرض للمشاكل وجهاً لوجه، وأن لا يتراجع مطلقاً.



كان قمر أرصفة المنفى يتدحرج في تلك الليلة على الأراضي الوحشية للكاتغا التي ولد فيها. لقد تحدثت، يا صديقتي، إلى زيه بيانو وإلى الفلاحين الذين يحيطون به. لقد رويت لهم ما قامت به ليو كاديا برستس في أوروبا لكي تنتزع ابنتها الصغيرة من قنلة الأولاد. وعندما انتهت، ظل زيه بيانو صامتاً لحظة، وحدث الفلاحون بالقمر بينما ابتعدت إحدى النساء لتبكي. وقال لي زيه بيانو:

- لقد حررت الصغيرة، هه! يا لها من هرمة تقمصها الشيطان... لقد فتش طويلاً عن صفة ثانية، ولكنه فشل في مسعاه. لقد كان فقير اللغة، فهو

لم يذهب إلى المدرسة مطلقاً وهو لا يعرف كلمات كثيرة، ومع هذا فقد فتش طويلاً. انقطعت المرأة عن البكاء، وابتسمت بسعادة. أمرّ زيه بيانو يده على شعره الوسخ، وحدث في القمر:

- إن هذه الهرمة تروق لي... وكان بمقدورها ان تروق حتى للامبيون...

هناك رجل في السجن يا صديقتي، مرهوب الجانب، ذلك لأنه عُرِف عنه بان الحرية تسكن صدره، وبان هذه الحرية قد احتُجزت منذ ما وُضع في السجن. ولقد سار هذا الرجل ثائراً، كثيراً من المرات، في مقدمة الشعب، في مقدمة الفقراء؛ لقد كان يعرف أسرار التوزيع السيئ للثروات في العالم. واجتاز، خلال ملحمة خالدة، البامبا والغابة العذراء والكاتنغا. لقد اجتاز الانهار وتسلق الجبال وشق الطرق. وكانت الحرية تمشي أمامه، وكان الأمل يحيط به.

إنما كان يطوف فوقه، فوقنا جميعاً يا صديقتي، فوق الجنود، فوق الشعب المنتفض، خيال ليو كاديا برستس، التي تعهدت وأنشأت البطل. ليو كاديا برستس، أم الشعب، شعار الشعب نفسه، شعار الوطن المستعبد، المخان، إنما المحطّم سلاسل العبودية.

هذه المرأة هي الشعب نفسه، يا صديقتي. تطلعي إليها، انها الوطن.

- ٦ -

كان « ذوو الدم الأزرق » في مدرسة ريانغو العسكرية هائجين، بينما كانوا يستعدون للاشتراك بأول امتحان خطي سنوي، ليس فقط لأن ذلك يشكل أول اتصال لهم بالمدرسة، من حيث كان عليهم ان يخرجوا ضباطاً، إنما بسبب الزعيم بيوبورجس خاصة، استاذ التحليل، الذي اشتهر بأنه رجل قاس، يتطلب كثيراً، بجيلاً في اعطاء العلامات وغير قابل للاغراء مطلقاً. وكان « الزرق » ينتظرون قراءة علامات الامتحان الخطي الأول، ويرتجفون قلقين بانتظار الأسوأ.

وبدا المعيد القراءة. وكان من الواجب ان تتراوح العلامات بين الواحد والعشرة، ولكن بدا ان الاستاذ مجاهر هذا المبدأ، واعطى علامات تتراوح كلها تقريباً بين الصفر والخمسة، والصفر خاصة هو الذي كان أكثر ما يتردد. وكانت العلامات العاطلة تنهمر على الصف المصموق. ولجأة قطع المعيد بنفسه القراءة؛ وتطلع، بخوف وبفسم نصف مفتوح وهيئة من أرعبته مشاهدة شيء لا يمكن تصديقه، نحو الاستاذ. ولكن بما ان هذا لم يحرك ساكناً، تابع المعيد القراءة:

- رقم ٢٤٤ : تسعة.

كانت الدهشة عامة، وصُعق الصف من هذه العلامة الغريبة، التي منحها استاذ كثير المتطلبات كالزعيم بيوبورجس. لا يمكن ان يكون الأمر متعلقاً بحظوة خاصة، فقد كان الزعيم أسمى من الترتيبات والصدقات. إذن، يجب ان يكون بالأمر صلة بصبي ذي مقدرة بسهولة حتى الآن في المدرسة العسكرية. من ذا يكون؟ وتُلَقَّف السؤال بهمس من فم لفم، وتجاوز الفضول

التلامذة إلى المعيد، ومن هذا إلى الاستاذ نفسه، الذي كان يريد ان ينتهز الفرصة ليعرف الطالب الذي أنشأ تلك المسابقة الخطية، الكاملة إلى حد لم يستطع، خلال تصليحها، ان يجد فيها مأخذاً.

وكان التلميذ رقم ٢٤٤، هو أيضاً، دهشاً، وإلى حد ما، خائفاً. لقد كان يعرف انه قدم مسابقة جيدة، وكان واثقاً مما كتب. ولكن العلامة (تسعة) كانت تخيفه، لان العلامات الجيدة، العلامات القصوى، كانت تعطى عادة للتلامذة الأغنياء. وأعطيت في هذه المرة بعدل. وهُزِم الصبية الأغنياء، الذين كانوا ينتزعون منه أعلى العلامات بفضل ثروتهم، هزيمة شنعاء. ووجد لويس كارلوس برستس رجلاً عادلاً. واستفاق من دهشته ليمثلي حبوراً. لقد كان هذا الصبي، يا صديقتي، يقدر الرجال ويثق بهم. وجاء هذا الاستاذ ليوطد يقينه.

وحول التلامذة نظراتهم، غير المصدقة نوعاً ما، نحو الصبي الهزيل، المحدود بقليل، ذي الشاربين النامين، والذي كانت «تسعته» لا تجعله يتيه غروراً. لقد كان لويس كارلوس في الثامنة عشرة من عمره، ولكنه كان قد أمضى هذه السنوات الثمانية عشرة، من حياة فقيرة وصعبة، بمراقبة عالم الفقراء في نضاله من أجل البقاء. ولم يكن منحه علامة تسعة أو إلحاق ظم إضافي به ليشوها صفاء تأملاته حول الحياة.

تأملات حول الحياة، نعم، يا زنجيتي. ولم يكن هدوء هذا الصبي الهزيل هدوء المتشككين الذين يفقدون، أثر مواجهتهم لأول خيبة أمل، كل ثقة بالحياة وبالناس. لا. لقد كان يكمن خلف هذا الهدوء عقل نشيط فضولي، يلاحظ ويدرس ويفتش عن الأسباب وعن التأثيرات والحلول. عقل متعلق بالكتب، لانه يقبع فيها جزء من التجربة التي تنحدر من الحياة. يتوجب ان ندرس، ان ندرس كثيراً، ان نتغلغل في أعماق الأشياء، ان نكشف عن منبعها، ومنبع الحياة والثقافة. في البيت، في الكلية، في الشوارع، متعددة كانت دروس الحياة: في الحوادث اليومية الصغيرة، كما في الكبيرة، عندما ينال التلميذ الغني علامات جيدة، في مشهد الدونا ليو كاديا منحنية على

عملها، مفتشة ببأس عن وظيفه استاذ، لدى عمال الحبي السيئي التغذية، الذين يذوبون بصرهم بقراءة الكراسات السرية على ضوء الشمعة. ان درس الحياة الأكبر ينتشر من كل الجهات، وتقدم الكتب تفسيراً لهذه الحوادث. لقد كان هذا الصبي يعيش في الحياة وفي الكتب. ذلك هو السبب، يا صديقتي، الذي جعل رقم التسعة هذا، الذي أدهش الآخرين، لا يثير فيه أي زهو مطلقاً.

لقد كان، وهو الذي يُعتبر التلميذ الأول في المدرسة العسكرية منذ تأسيسها، المعبود والرئيس والقاضي والناطق بلسان الشباب، رفاقه في الدراسة. ان للشباب، يا صديقتي، مقدرة غريبة في اكتشاف الرجال.

لقد كانوا يعتبرونه مخلوقاً قوياً، مختلفاً عنهم، انما قريباً منهم في الوقت نفسه. ان هذا الصبي القاسي على نفسه، المنظم والمهذب، العامل دون توقف، والذي يحمل في حناياه عطفاً عظيماً نحو الآخرين، ولا يفخر مطلقاً، ولكنه لا يطأطئ. كذلك رأسه أبداً، والذي كانت النساء اللواتي كان يجذبن رداء الطلاب العسكري الأحمر اللامع، لا يتوصلن إلى تحويله عن دروسه، هذا الصبي الذي كان يعي، تمام الوعي، التضحية التي كانت والدته تفرضها على نفسها من أجل تربيته، وكان يريد ان يكون جديراً بها، إن هذا الصبي لم يكن يفرض نفسه على رفاق صفه فقط بسبب من قوة ابتسامته، ومن تلك التي كانت تتحدر بشكل أكبر، من مثاله، بل وكان يفرض نفسه على أولئك الذين كانوا قد تقدموه؛ وهكذا تشكل حوله جيل كامل. ولقد توصل إلى ان يعمل، وهو لا يزال طالباً، ما لم ينجح في عمله بنجمين كونستان الا عندما كان استاذاً؛ لقد ربى على الشرف والكرامة جيلاً كاملاً من العسكريين البرازيليين.

لقد كان منذ سني المدرسة الأول، يساعد رفاقه المتقدمين عليه. لم يكن يدرس المواد المسجلة في المنهج فقط، بل كان يدرس كذلك مواد السنوات اللاحقة، لكي يتمكن من مساعدة الطلاب الذين كانوا يسألونه ايضاحات، والذين كان يعطيهم دروساً خاصة.

وفي السنة الثانية ، كان لويس كارلوس يعطي دروساً لتلامذة الصف الثالث. لقد كان صبيّاً يخلو من كل أثر للانانية. ولم يكن يعمل في قاعة الدراسة وحيداً وقد سيطرت عليه الرغبة في التفوق على مزاحمين ، بل كان ، وقد أحاط به رفاقه ، يدرس بصوت مرتفع ، أمام اللوح الأسود ، ويساعد رفاقه على إعداد وظائف اليوم التالي .

وعلى هذا الشكل كسب اعجابهم وثقتهم .

إن هذا الصبي الذي سوف يصبح بعد قليل أحب البرازيليين ، بطل شعب كامل ، أمل بلاد كاملة ، كان يتمتع ساعتئذ بموهبة من جاذبية لا تقاوم . انه لم يكن مستيراً بمطمح تافه . لقد كان قلبه نقياً وذكاؤه صافياً . إنه لم يكن قد عرف بعد بانه صورة الشعب ، ابن الشعب نفسه . ولكن كان معروفاً عنه بان الحسابات و « حب الوصول » في الحياة ، الوصول السريع ، كانا عنه غريبين . لم تكن به أية رغبة للقيام بمهنة ما . لقد كان يدرس لكي يتعلم ويعلم . وكان هذا الولد يعلم رفاقه في المدرسة في كل الأيام بانه ليس بمقدور أي إنسان أن يعيش لنفسه فقط ، بينما يفتقر الناس إلى الخبز ويُحرمون من الحرية والثقافة . لقد كان يعلم ليصبح بإمكان كل الناس أن يفيدوا من الثقافة . فمع لويس كارلوس ، يا صديقتي ، درس جيل من التلامذة متطلبات الشعب .

من أجل هذا السبب كان رفاقه يدافعون عنه ، إذا ما كان ضحية ظلم ما . وهكذا ، في أحد الأيام ، خلال درس رسم المخططات ، عندما قام برستس ، كالعادة ، ليس بعمله فقط ، بل وبعمل عددٍ من رفاقه أيضاً ، كلف الاستاذُ الذاهل أحد التلامذة بوضع العلامات ، فمنح هذا نفسه علامة عشرة ومنح واضح رسمه علامة سبعة . وعندما قرئت العلامات بصوت مرتفع ، أخذ الصف علماً بالظلم الموجه :

- لويس كارلوس برستس ، سبعة .

ونال الآخر عشرة ، وصرخ التلامذة :

- ولكن برستس هو الذي رسم المسابقتين .
واهتم لويس كارلوس . لم تكن المظالم لتشجيعه . لقد كانت تفتح عينيه
على تلك التي يرتكبها العالم مع الفقراء .

لقد كان رفاقه يحبونه ويدافعون عنه . كانوا يرون فيه شخصاً يعرف
أكثر مما يعرفون ، وينظر أوضح مما ينظرون ، شخصاً لا يحصر نفسه في نطاق
الكتب ، بل يقرأ في الحياة ويبدأ بالتحدث عن المستقبل كالمعرفات ، اللواتي
يقرأن في خطوط اليد . وكانت خطوط اليد هذه ، بالنسبة إليه ، الشوارع
الفقيرة في الحي الذي كانت دونا ليو كاديا تعني بالأطفال فيه ، وتقتصد
القروش لكي تستطيع ان تشتري لولدها الكتب ، حيث كان العمال يتسلقون
المنحدرات الصلبة للهضبة التي كانوا يسكنون ، هذه الشوارع التي كانت تعجُّ
بمئات الجنود ، بالقلق اليومي وبمشاكل المال الملحة . ولاحظ لويس
كارلوس ان الفتيان الذين كانوا يتيهون في مناقشات المثقفين الدقيقة حول
مسائل اللانهاية الغامضة ، حول ما وراء الطبيعة ، حول وجود أو عدم وجود
الخالق ، كانوا من طبقة الاغنياء ، طبقة أولئك الذين لديهم وقت للاضاعة
وقد توافرت لهم سهولة العيش . اما الآخرون ، فتيان شارعهم ، الجنود الشباب
والعمال الشباب ، فلم يكن لديهم الوقت من أجل مسائل ما وراء الطبيعة هذه .
فلقد كانت تشغل بهم مسائل أخرى ، أعظم بساطة وأكثر ألف مرة رهباً ،
مسائل الحبز اليومي ، المرض في العائلة ، والايجار المستحق الدفع .

لقد كان الصبي يكتشف هذه الحقائق التي كانت تُخفى بعناية عظمى
وأنقذ من مسائل ما وراء الطبيعة والاحلام جيلاً كاملاً ، ووجهه نحو مشاكل
البرازيل ، نحو مشاكل الشعب . ان برستس هو الذي أنشأ الرجال الذين قاموا
بالثورة في سنوات ٩٢٢ ، ٩٢٤ ، ٩٣٠ و ٩٣٥ . من هذا الجيل تخرج
التيننتيستيون ، الأوكتوبريون ، الوطنيون ، الليبراليون ، أبطال قلعة كسوبا
كابانا الثمانية عشرة ، رجال طابور برستس ورجال الطابور الثالث لمدرسة
الطيران .

وفي هذا الجيل وُجد ولد فقير، تفتحت عيناه على الحياة، وتحول عقله نحو الكتب، إنما كان يحمل في قلبه آلام الشعب. لقد شاهد الشعب فوراً، ولهذا السبب، يا زلمتي، شاهد الشعب فيه رئيسه، شاهد فيه الرجل الذي سوف يحمل له شيئاً ما.

إن المظالم والنجاحات وثقة وإعجاب رفاقه واساتذته به، وتعيينه في مركز المدرس التكنيكي لفرق الهندسة والمدفعية كلها، هذا التعيين الذي قوبل بترحيب إجماعي، وتأييدات استاذ العلم العسكري، الذي كان لا يتحمل التعليقات المجددة لتلميذه ولم يكن يمنحه مطلقاً علامة تفوق السبعة - لأنه كان في تدريسه القاسي، غير جدير بتقدير المواهب الخارقة لهذا التلميذ الذي سوف يهزم، بعد عدة سنوات، ثمانية عشر لواءً، واضعياً^(١٥) خطط جيوش مشهورين، خلال ملحمة الطابور - أن شيئاً من كل هذا لم يكن يبعد لويس كارلوس عن رفاقه، لم يكن يجعله يشمخ بانفه، بل على العكس، يا صديقي، لقد كان أكثر الشباب انسانية، وكان يحب العيش ببساطة، وكانت أيام العطلة بالنسبة إليه أيام سعادة عائلية. وخلال كل مهمته المظفرة؛ لم يقلع هذا القائد العبقري للشعب، هذا الرئيس غير المنازع، المطاع والمحبوب، لحظة واحدة عن أن يكون أكثر الرجال انسانية وبساطة. وبصفته عبقرياً عسكرية رياضية، وقلباً فولاذياً، وقائداً ودليلاً على رأس العمال والجنود والفلاحين والبحارة وطبقات الشعب الفقيرة والتقدميين والوطنيين المخلصين، ظل دائماً، وفي جميع الأوقات، أكثر الرجال لطفاً ولدونة وأخوة. إن قلبه، كقلب أبناء الشعب، من فولاذ، انساني، فهم وطيب.

لقد كانت أيام العطلة أعياداً بالنسبة إليه. وفي البيت الفقير والنظيف، كانت دوناليو كاديا تبسم سعيدة. وكان لويس كارلوس، المرح الصاحب، المهتم بصحة والدته، يحيطها بالعنايات ويغمرها بالسعادة. وكانت هناك الشقيقات. وبصفته عسكرياً خالصاً، كان لويس كارلوس لا يحسن الغناء،

ولكن الشقيقات الصغيرات كن يردنه ان يغني لمن في المساء ، في ليل الضاحية نصف المدني . ويأخذ تلميذ - الضابط ، الذي كان الأول في مدرسته ، وكان ألمع التلامذة وأحبهم إلى الرفاق ، بانشاد ، ان حسناً أو سيئاً ، أغنيات لدنة عطوفة لكي يساعد شقيقاته الصغيرات على الرقاد . وكان صوته يملأ الغرفة حنواً .

وخلال ليالي شبابه العائلية ، عندما كان لويس كارلوس يغني من أجل شقيقاته ، كان يفكر بالبرازيل التي تحيط به ، كان يفكر بشعب البرازيل . وكانت مسائل هائلة تضطرم في رأسه الفتي . وكانت إحدى شقيقاته تهتج دائماً إذا ما كان يتوقف عن الغناء . فكان يستدير نحوها ويبسم لها ، وقد شعر بان قلبه ينفق حباً .

ان الدرس الذي يعطينا إياه لويس كارلوس اليوم ، يا صديقي ، هو ان الرجل مهما سما ، وقدر وأحب ، لا يستطيع ان يقلع عن ان يكون إنسانياً ، عن ان يحس ، كبقية الناس ، بالأفراح والآلام - حتى أصغرها وأدقها وأبعدها عن الملاحظة وأسرعها زوالاً - دون ان ينحط عن عظيمته ودون ان يفسر موهبته بحب الناس . الفولاذ والحب ، هما العنصران اللذان يتألف منهما قلب الأبطال ، قلب . لويس كارلوس برستس ، يا زلميقي .

- ٧ -

في «ريالغزو، يا صديقتي، تقوم المدرسة العسكرية، التي يبرز تقليدها المظفر في كل لحظة جاسمة من تاريخ البرازيل، من الامبراطورية إلى الجمهورية. ففي مدرسة برايا فرمليا العسكرية أسمع بنجمين كونستلان صوتيه، ومن هناك خرجت الايجابية والجمهورية، ورؤساء الجيش اللذين رفضوا ان يقاتلوا ضد زنوج كوباتاون، ومن هناك تخرج فلوريانو ميشوتو.

إنه لتقليد مظفر، يا صديقتي، ذلك الذي تكلمت تتبعه مدرسة ريالغزو، التي خلفت برايا فرمليا. انظري، يا زنجيتي، انها للمدرسة مجيدة. وفي يوم ما، عندما تصبح الأزمنة أفضل، عندما تغدو الحياة هيداً لا ينقطع من العمل والفرح، سيتوقف الناس متأثرين أمام هذه المدرسة. وستحمل لها النساء الزهور بين أذرعهن المعترفة بالجميل. وسيروي الأهل لأولادهم تاريخها. وسيطلع الأولاد نحو الملاعب وقاعات الدراسة بأعين «قادة لامعة. لن يمر أحد أمام هذه المدرسة دون ان يهدهده التأثر. انها لمدرسة مجيدة، يا صديقتي.

هنا تلقى لويس كارلوس برستس دروسه، وهنا تكوّن. وفي الملاعب المسقوفة لهذه المدرسة كان يتنزه، محاطاً برفاقه. كان يتحدث، وكان الآخرون ينصتون إليه. إن البرازيل الواسعة، بسهولة، بجبالها، بمدنها، بانهارها، سان فرنسيسكو وبارانا والامازون، ان كل هذا كان بانتظاره. ومن كل مكان كان يتصاعد صراخ التعاسة، نداء الاستغاثة، وفي كل مكان كانت الجمهورية مهانة، والديمقراطية مخنوقة والوطن يُخان.

وفي كثير من المدارس الأخرى، يا صديقتي، في المعاهد العالية، لم يكن يسمع صراخ الوطن الجريح هذا، صراخ الشعب الجائع. وكان التلامذة

يحتجزون أنفسهم في ألعاب الذكاء البراقة، يضيعون وقتهم بصنع كلمات بارعة، بالتفتيش عن الأشكال الأدبية الجديدة وغير المجدية، كانوا يتيهون في فلسفات متشككة أو رجعية، يحاولون أن ينسوا خلال الضحك، أو يتجاهلوا باهتسامة احتقار، الصخب القادم من الخارج، الصخب المتصاعد من البرازيل الواسعة. لقد أصبحت كليات الحقوق والطب والآداب والزراعة، ومدارس الطب البيطري والكيمياء والهندسة، مراكز أدبية. وكانوا ينطلقون من قصيدة صغيرة أو كبيرة، لصنع عالم خيالي، بعيد ومعزول عن الحياة، وكان يجري هذا بينما كانت تتصاعد من العالم المجاور صراخات اليأس. وفي كلية الحقوق في ريو، كان رونالد دي كارفاليو يبحث عن أوزان جديدة؛ وفي كلية الطب في باهيا، كان أطباء المستقبل يتناقشون حول القواعد، تحت الاشراف القاسي للأساتذة الذين كانوا أكثر اهتماماً بالبرتغالية الكلاسيكية منهم بدراسة الجرائم؛ وفي كلية الطب في ريو، كان الاستاذ ألوازيو دي كاسترو يؤلف قصائد صغيرة ثمينة ويلقي دروسه باللغة البرتغالية الجامعية العظيمة النقاء، العالية القدر، وكان الجميع يهربون من الحياة ليلقوا بأنفسهم في أحضان مبدأ المودرنيسم^(١٦) ومبدأ النيوتونيسم^(١٧)، ويهشون أنفسهم للفاشية عندما ستدق ساعتها. وكانت الكليات تتجاهل ماركس، وأصبحت الحرب موضوعاً أدبياً، والبرازيل صحراء يتوجب الحرب منها. وكان الظل الجديد الذي يرسم على هذه المدارس هو ظل الفيتيريسست مارينتي^(١٨).

وهكذا، يا صديقتي، وسط كل هذه الأحزان، أنشأت مدرسة ريانفو العسكرية جيلاً من البرازيليين. وكانت المواضيع التي تستأثر باهتمام هذه المدرسة هي: البرازيل، والحرب، والرجال، لا شبح شاعر فاشل. كانت الحياة تنبض هناك، وكان يُسمع دون وجل وبأذنين مفتوحتين، الصخب

Modernisme. (١٦)

Néotonalisme. (١٧)

(١٨) Futuriste، معتنق مبدأ Futurisme، وهي مدرسة فنية قامت في إيطاليا في سنة ١٩١٠، وهي تمثل، بصورة متناقضة، المشاعر الماضية والحاضرة والمستقبلية (ملاحظة المبرز).

العميق المتعالي من البلاد، الصخب الذي لم يكن يُنسى خلال الضحك ولا يُستبعد بابتسامة احتقار. في هذه المدرسة المتفتحة للصخب القادم من الخارج، كشف لويس كارلوس برستس، بالمثل الذي قدمه، النقاب عن البرازيل لجيل كامل.

كانت مسائل البلاد تصل إلى ريانغو في عاصفة من الصراخ والصخب. كانت البلاد موجودة بالنسبة هؤلاء الشباب، وكان الرداء العسكري يتطلب مسؤولية بنظر البلاد، بنظر الشعب. وحدثهم التلميذ لويس كارلوس برستس، الولد الفقير لويس كارلوس برستس، عن مسؤولية الجيش. وفكر حاجب قديم من عهد برايا فرمليا، عندما شاهد الشاب، بوجه بنجمين كونستان العوس الرائع. وفي مدرسة ريانغو هذه، يا صديقي، كان التلميذ لويس كارلوس برستس يتنزه مفكراً في البرازيل.

وبينما كانت تتابع، في المدارس الأخرى، يا صديقي، حركة أدبية مصطنعة، وتناقش مسائل تدعو للسخرية، كانت تسيطر هنا رغبة بالنضال، يصنع مشاريع من أجل مستقبل البلاد؛ لقد كانت تفهم هنا جدية وعظمة وخطورة بعض المسائل. وكان الصخب القادم من البرازيل يؤثر على قلب هؤلاء الشباب.

وسنذهب في أحد الايام، يا صديقي، كمحبوبين حديثي العهد، الذراع بالذراع، لكي نقوم بجولة حتى ملاعب مدرسة ريانغو هذه. سنستمع إلى رنين الأبواق، إلى الأوامر الحربية، سنشاهد التلامذة يمشون، وسنعيش من جديد الايام التي كان فيها غلام، بعينين مشتعلتين ووجه رزين وعميق وابتسامة عريضة عطوفة، يتحدث رفاقه عن الكرامة والنبل والشجاعة والوطنية. ومن خلال الملاعب، وفي صمت قاعات الدرس، سوف نشاهد تصاعد الخيال الذي لا يُنسى لشباب سنة ١٩٢٠، ونشاهد وجوههم الجبارة. هؤلاء التلامذة الذين ماتوا في سنة ١٩٢٢، على الشاطئ، في كوباكابانا، والذين ماتوا في سنة ١٩٢٤، في أحياء سان باولو الغنية، في بامبا ريو غراندي، والذين ماتوا في سنة ١٩٢٧، في سرتون البرازيل من

الجنوب إلى الشمال الشرقي، والذين ماتوا في سنة ١٩٣٠، وقد أحاط بهم الشعب، والذين ماتوا في سنة ١٩٣٥ وهم على رأس الشعب، هؤلاء التلامذة الذين سيُبعثون غداً من جديد، مع الشعب الذي لا يموت أبداً، الذي ينتفض ألوف المرات. وعلّمنا الشاعر، يا زنجيتي: «ان الحرية لا تموت أبداً». ان البعض قد اندثر، والبعض الآخر لا يزال يناضل، وإن الشاب برستس سجين الآن مع شعبه. انه من هذه المدرسة، يا صديقتي، انطلق في دروب الحياة، التي استطاع ان يكتشفها وان يدل الآخرين عليها. من هذه المدرسة، بملاعبها وقاعات الدراسة فيها وتعليمها وتلاميذها المتعطشين للوطنية، انطلق ليتعرف إلى جميع أسرار نضال كانت تقترب نهايته، انطلق ليضع نفسه على رأس الشعب. في هذه المدرسة ظهرت عبقريته، وسقي فولاذ سيفه وقلبه، في مدرسة ريانغو هذه، يا صديقتي.

وهكذا ترين، يا زنجيتي، ان هذه المدرسة هي مدرسة شهيرة. وفيها خطا لويس برستس أولى خطواته في الحياة. ان الأمر كما قلته لك: من هنا يبدأ تاريخ البرازيل الحديث.

- ٨ -

كان البيت قابلاً على هضبة، في الضاحية، بين مجموعة من عشرين بيتاً مشابهاً، في طرف شارع ماغاليانس كوتو، في ماير. كان هذا الشارع غير الملبط، شبه العاري، المملوء بالأخاديد والحصى، محدوداً بغابة صغيرة وباراض غامضة. وكانت تبدو في أفقه هضبة تسكنها غسالات وعمال. وكان عامل شحن المركب الأسود، زوج الغسالة جوليتي، يهبط الهضبة أحياناً ليتجاذب طرفاً من حديث صغير مع «ملازمه»؛ ولكن الملازم الشاب برستس كان هو الذي يصعد، في أحيان كثيرة، المنحدرات المشمسة ليستمع إلى العامل يقص عليه حياة حثالي المرافء القاسية. إن الشارع الفقير والهضبة البائسة كانا عالماً جديداً بالنسبة للملازم الذي يبلغ الواحدة والعشرين من عمره.

وفي سنة ١٩٢٠ تخرج من المدرسة العسكرية وأُحق بصفة ملازم في فرقة الهندسة بطابور المواصلات، الذي كان يبني في ضواحي ديودورو أجزاء من سكة حديد البرازيل المركزية. ويبدأ برستس العمل بالنشاط الذي كان يتميز به وبالحماسة التي رافقته طيلة أيام دراسته. لقد كان يريد أن يدفع لعائلته ثمن التضحيات التي بذلتها من أجله؛ ذلك لأنه لم يكن لدى هذا الملازم الشاب، يا صديقتي، أقل موضع للأناية، وحتى للزهو النبيل. لم يكن بمقدوره مطلقاً أن ينعزل عن الآخرين، أن يعيش لنفسه، أو حتى أن يعيش لنفسه ولعائلته؛ أن عالمه أرحب من ذلك. وكان الاهتمام الذي يحمله للآخرين ينطلق من أعماق أعماق نفسه. وفهم جنوده فوراً بأنه ليس كغيره، بأنه لا يكتفي بإصدار الأوامر، ومراقبة العمل. لقد كان يذهب إلى وسطهم ويدير العمل بنفسه. كان يستطيع بابتسامة أن يحمل الجنود على إعادة عمل لم يُحسن

صنعه، مظهرًا بصورة عملية ما الذي يتوجب القيام به، عاملاً بقدر ما يعمله كل منهم. لقد كان على استعداد دائم لأن يناضل من أجل جنوده، عندما يتعرض لهم ضباطٌ يتيهون غروراً بأشرطتهم ويستغلون رتبهم لتسخيرهم. لم يكن يسمح بمحصول مظالم، وكان الجنود يلاحظون بدهشة أن الملازم برستس هذا يعتبرهم مصنوعين من نفس لحم ودم الضباط، مهما سمت رتبهم. عندها تجمعوا حول لويس كارلنوس برستس، كما حدث لتلامذة المدرسة العسكرية، وأصبحوا جنوده. وفتر أحدهم، في إحدى المرات، الأمر للآخرين قائلاً:

ـ لقد كان والد الملازم جندياً مثلنا.

انه يعرف...

وكان الجدد، يا صديقي، عامل قطران، وكانت الأم تعطي دروساً ليلية بصفتها استاذاً مساعداً، فتذهب كل مساء إلى المدرسة البعيدة، حيث كانت تعطي دروساً لكي تؤمن حاجات البيت. وكانت الأخت البكر، ايلويزا تعمل في بيت تجاري لكي تؤمن للصغيرتين دراستهما. وكان لويس كارلوس يعرف ما هو العمل المأجور، يعرف حياة الفقراء الصعبة، والتضحيات التي يجب عليهم أن يبذلوها لكي يعيشوا. ويشعر انه أكثر قرباً من آلام الجنود منه من أشرطة الضباط.

كان عليه ان يعمل من أجل عائلته... ان يؤمن لليوكاديا وللشقيقات حياة أفضل، أكثر دعة، وأكثر راحة. لقد ناضل كثيراً لكي يجعلن منه ضابطاً. انه لا يزال يذكر ذلك اليوم الذي أراد فيه ان يتخلى عن دروسه ويتعاطى التجارة ليستطيع بذلك تأمين بعض المال لعائلته. ولقد قالت له ليوكاديا بان أفضل ما يستطيع القيام به هو، ان يتابع دراسته ليصبح ضابطاً، وبهذه الطريقة يستطيع ان يساعدهم يوماً ما أكثر كثيراً. ولقد جاء هذا اليوم. انه يستطيع الآن أن يؤمن حاجات المنزل، ان يسمح لليوكاديا بان ترتاح، وان يمنح عطلة لايلسوييزا وأكثر قليلاً من الرفاهية للشقيقتين الصغيرتين. في كل مساء كان يرافق ليوكاديا إلى القطار الذي كان يقودها

إلى المدرسة، ويذهب بعد ذلك لانتظارها لدى عودتها. وكان هذا الأمر بالنسبة إليه واجباً ومسرة. وظل هذا الولد وهذه الأم رفيقين من أكثر الرفاق مودة، وعندما كان الناس يرونهما مارتين، كانت النساء يعلقن على هذا الأمر مبتسمات:

- هذا هو الملازم وأمه... انه غلام طيب...

وإثناء مروره مع ليوكاديا، كانت المجاملات تنهمر عليه: الصبايا يتسمن له والرجال يحبونه ويقولون: «إنه رجل مستقيم»، ولديه في البيت كثير من العمل؛ فهو يدرس شقيقتيه الصغيرتين، انه استأذنها. ولم يكن يخرج إلا عندما تعود ليوكاديا من المدرسة. وعندما كانت العائلة ترقد، كان يحتجز نفسه في غرفته ويبدأ المطالعة. ولما كان بفطرته ميالاً للرياضيات، كانت الرياضيات تثير اهتمامه أكثر من أي علم آخر. ولم يكن يمر يوم دون أن يدرس فيه. وبرفقة كتبه العزيزة كان يعمل إلى ساعة متأخرة من الليل، والنور يلمع في غرفته، فيعقب على ذلك عمال الهضبة قائلين:

- إن الملازم يدرس... انه رجل واسع المعرفة...

وفي صباح اليوم التالي، قبل ان يذهب إلى عمله، كان يقترب من شقيقتيه من جديد. لقد كان الولدان يملآن جانباً من حياته. لقد أحبها دائماً بوداعة، وعلاوة على كونه لهما شقيقاً كان أباً حقيقياً: يلاعبها ويساعدها على حفظ دروسها. وكان وصوله إلى البيت، يوم السبت، يشكل عيداً لهما، ذلك لأنهما كانتا تعرفان أنه لا يأتي مطلقاً بيدين فارغتين، بل يحمل دائماً كتاباً أو لعبة. وعند وصوله كانت الصغيرتان تتعلقان بعنقه، وتصنعان من أذرعهما عقداً حوله، فيرفعها بين يديه ويدخل المنزل محاطاً بضحكاتها وقبلاتها.

وفي مساء الأحد كان يعزف لحناً موسيقياً، يتناول القيثارة بين يديه المتقرحتين فينطلق منها لحن شجي، يملأ بيت الضاحية بالشعر. لم يكن غريباً عن الفن؛ لقد كان يحب الجمال، يحب الغناء، يحب الموسيقى والشعر. وكان

الجيران، جيرانه الفقراء في الشارع، جيرانه الأكثر فقراً في الهضبة، كثيراً ما يهرعون إليه. وكانوا يرقصون أحياناً، ويذهب الملازم الذي لا يتقن الرقص ليتحدث إلى الرجال. وكانت الصبايا ذوات الشعر الممتزج بالشرائط الكبيرة، واللواتي يرتدين أثواب الأحد المنشأة، يتطلعن إليه متنهديات، ولكن ساعة الحب لم تكن قد دقت بالنسبة إليه: إن الملازم برستس لم يكن يفهم لا التنهديات ولا الابتسامات. لقد كان قلبه بكامله لعائلته ولقضية بلاده. لقد كانوا يرقصون، يغنون، يلهون بلعبة الرهان، وكانت الصبايا يقلن بأن الملازم رزين أكثر من اللازم، وبأنه لا يحب الغزل.

وفي أمسيات أخرى، كانت العائلة تظل جالسة حول الطاولة وتثير، بطريقة ودية، الذكريات، وتهبى المشاريع للمستقبل. وبالرغم من كل شيء، كانت ليوكاديا لا تزال تحلم بأن ترى ولدها طبيباً يوماً ما، يعتني بالمرضى في مدينة داخلية صغيرة. وكان الناس يتحدثون عن النقيب انطونيو بريرا برستس، الايجاي، الذي مات لأنه رفض الخضوع لرجال الحكم. يتحدثون عن مشاكل الحياة اليومية، عن صغار الهرة السوداء، عن «شيطانات» وملاطفات الشقيقتين الصغيرتين، ويتساءلون فيما إذا كان «زهر العسل»^(١٩)، الذي يتسلق العريش، سيتابع نموه، ويتساءلون عن الموعد الذي ستفتح فيه زهور الورد الحمراء كالدم. وكان برستس يهتم بكل شيء ويتدخل في شتى المسائل. إنه لم يكن يحتفظ بالصمت إلا حول نفسه، لقد كان متواضعاً بشكل غريب. ولم يكن يتحدث مطلقاً عن الانتصارات التي يحرزها في عمله، ولا عن المدائح التي توجه إليه، وهو المتواضع في حياته، كان متواضعاً في ملبسه. إنه لم يكن يطلب شيئاً لنفسه شرط أن ينال ذووه جميع ما يحتاجون.

وكانت حياة العائلة الهادئة السعيدة تنقضي وادعة. فكان العمل والخياطة والعيش تجري في سلام لدن دافئ، يمتاز بالموودة والفهم. وهكذا مرت سنوات ٩٢٠، ٩٢١ و ٩٢٢.

ولم يكن بمقدور الناس الذين يقطنون شارع ماغاليناس كو في ضاحية ماير، في ريو دي جانيرو، أن يتصوروا بأن عيش الملازم برستس، الغارق في جو من السعادة، تنكّده اهتمامات لا تُحصى، وبأنه كان يتهيأ للقيام بثورة.

نعم، يا صديقتي، ذلك لأن أسعد حياة لم يكن بمقدورها أن تُنسي هذا الرجل، البرازيل وحياة مواطنيه الرهيبة. لقد شعر بضرورة الثورة لدى اتصاله بالجنود والضباط الذين كان يعمل معهم، وباتصاله بتجار الضاحية الصغار، بالجزيران وبسكان الهضبة. وبينما كان يهيم مع أهله المشاريع للمستقبل في البيت، كان يتواجد في الشكّة. سيتحطم هذا السلام دون شك، وستلاشي الأمل بمستقبل أكثر سعادة، ولكن ماذا يهم هذا؟ إن البلاد والشعب يطالبان بالنقيب الشاب. نقيب، نعم، يا صديقتي، ذلك لأنه تقدّم بالترتب بسرعة. لقد كانت معارفه العظيمة توفر له تقديراً خارقاً للعادة في الجيش. وفيما لو لم يستجب لصخب الشعب هذا، الذي سبق له أن سمعه للمرة الأولى على مقاعد المدرسة العسكرية، لكان باستطاعته أن يصعد سلم الرقي بسهولة وسرعة. لقد كان يملك المعرفة والذكاء والثقافة. لقد كان يعرف مهنته خيراً من أي إنسان، ولكنه، خيراً من أي إنسان، كان يستمع إلى صراخات اليأس التي تتصاعد من أربعة أنحاء البرازيل.

لقد كان جيله يتأمر، كان الرجال الذين أنشأهم في المدرسة العسكرية يتأمرون لقلب حكومة غريبة عن الشعب وكان يتأمر هو أيضاً.

وفي سلام البيت، حيث كانت ليوكاديا تعيش سعيدة، عرض لويس كارلوس برستس في أحد الأيام لأمه وجهة نظره. لقد كان يعرف جيداً أن ليوكاديا ستوافقه، ستكون أول من يتخلى عن أي حلم وينسى أي اعتبار لأية منفعة شخصية، لكي تراه يناضل من أجل شعبه. بالنسبة إليها كانت البرازيل هي المفضلة على كل شيء.

يا للحياة العائلية الوادعة، يا للعيش الهادئ السلمي! لم تكن حياة البرازيل وادعة، يا صديقتي، كانت كثيفة ومرعبة. إن شعباً كاملاً كان

يطلب الخبز والثقافة والحرية. وكثيرون هم من كانوا ينعمون بحياة عائلية وادعة، بعدون المشاريع ويحملون، ويرفضون سماع هذه الصرخات، فقليلاً ما كان يهتم الوطن ويهتم الشعب.

وفي ليلة التأمير والاجتماعات السرية، غادر لويس كارلوس برستس الاطمئنان العائلي الوادع ليلقي بنفسه في وسط الثوريين المحموم. وسيحل الخامس من تموز سنة ١٩٢٣ بعد قليل. واستعد برستس لهذا اليوم. وفي البيت كانت الشقيقات واقدمات، وفرو فرو تشخر بالقرب من صغيراتها، وميلونغيتا ترتاح من «شيطانات» نهارها، وطيور «الكناري» قد أقلعت عن الغناء، وطلت ليوكاديا وحدها ساهرة. سيصل ولدها في وسط الليل، بعد ان يكون قد وضع التصاميم، اتخذ القرارات، وهياً المشاريع. انها تفهم. وهي التي كانت تتخيله يهيم المشاريع لعائلته! لقد كان هذا الأمر أدنى من مستواه: كان لويس كارلوس برستس يحلم بالبرازيل.

- ٩ -

كان الصراخ الذي يسمعه ضباط وجنود الجيش قادماً من زوايا البرازيل ، الدانية منها والقاصية على السواء ، يا صديقي . الزفرات والصراخات والتنهدات تتحول إلى صخب ، إلى حلم يتولد من التماسات اليومية ، ويعود إلى الأيام التي استولى فيها ملاكو العبيد ، على الجمهورية لكي يذلوها ويستعبدوها بعد أن كانوا يسيطرون على الملكية .

إن شعب البرازيل ، يا صديقي ، هو شعب بطل . لقد كان بودي أن أملك ناصية جميع الصفات في العالم ، لكي أحدثك عنه . كان بودي أن أعرف إلى أكثر الكلمات وداعة ورقة وإنسانية ، وأعظمها بطولة ، لكي أصف لك الشجاعة والثقة اللتين تخفقان في قلب البرازيليين . إن شعب البرازيل ، وقد ديس بالأقدام وكُبل بالقيود ، أهمل واحتقر ، أوثقت يده ، أقفل فوه ، أكلاً ما لا يكاد يكفيه لسد رمقه ، مخانناً ومهاناً ، لا ييأس مع كل ذلك . إنه لا يدع للامبالاة مشؤومة أن تسيطر عليه . إنه يناضل ، يصخب ، يخلق ويفذي بدمه رؤسائه وأبطاله . إنه شعب بطل مقاوم وكفء ، تفجر اغانيه أملاً لا متناهياً ، إنه شعب يحتفظ بأمله كاملاً في وقت التماسه ، لأن التماسه ليست سوى مقدمة للحرية .

• إن الأغنياء وأولئك الذين يتولون السلطة يرتجفون ، لأنهم لن يستطيعوا أبداً كبح جماح إرادة الشعب ، لن يستطيعوا أبداً الاستيلاء على قلبه الحر الثائر . وحتى في أصعب الأوقات لم ييأس هذا الشعب مطلقاً . لقد ناضل في كل اللحظات لكي يقطع السلاسل التي تكبله . إن هذا الشعب البطل قد صنع في غمرة أوجاعه ، بتأمل وإثما بصلاية ، بطله . لقد انبت لويس كارلوس بونستس : صوته وحسامه .

لقد حدث ذلك في مطلع عهد الجمهورية، يا صديقتي. وكان فلوريانو قد جاء إلى الحكم. إن هذا الريفي القادم من الألاغواس، المتداعي والبخل بالابتسامات، كان يرى هدف الجمهورية الأعلى يسير نحو الأفول. إن اقطاعي الملكية، وملاكي العبيد القدماء، أن أولئك الذين كانوا يريدون، في أوج انتاج الممتلكات والمطاحن والمعامل الأجنبية المنشأة حديثاً، أن يجعلوا عملهم يشتغلون كالعبيد، أن كل هؤلاء كانوا يريدون أن يستولوا على الحكم من جديد، وأن يحكموا ضد الشعب، ضد الوطن، من أجل مصلحتهم وحدها. وكان يحيط بفلوريانو تلامذة بنجمين كونستان، وتيننتيستيو ذلك العهد والروائي راوول سومبيا الذي يخفق قلبه حباً للجماهير، وبعض الصحفيين، وجماهير الشعب الواسعة. وكان يناهضه الملاكون العقاريون وأصحاب المعامل ومالكو ألقاب النبيل والوظائف ذات الريع الوافر: روي باربوزا، محامي الانكليز، أصحاب أملاك سان باولو وميناس، الفوضوي سيلفيرا مارتينس، الاميرالات الذين كان يسيطر عليهم الحنين إلى البلاط. ومن أجل تسخير الجمهورية لأربهم الخاصة، نظم هؤلاء أمر القيام بعصيان. ففرض فلوريانو على هذا العصيان بيد من حديد. وحاولت المصالح الانكليزية التي يدافع عنها العصاة، أن تحمي وتساعد الثوار المسلحين. وذهب سفير انكلترا إلى القصر ليسأل فلوريانو كيف سيستقبل الفرق الانكليزية إذا ما جاءت «لحماية مصالح الرعايا البريطانيين». فأجاب الريفي الألاغواسي بصوت هادئ:

.. سأستقبلهم برصاص البنادق...

في ذلك الوقت كان الشعب هو الذي يحكم، يا صديقتي، كانت الجمهورية في خدمة البرازيل، في خدمة مصالحها، في خدمة الرقي والاستقلال السياسي والاقتصادي. وأجرى فلوريانو انتخابات شريفة. وكانت الحدود، التي وضعها الدستور لقضية الاقتراع العام، لا تسمح إلا لجزء صغير من الشعب أن يتمتع بحق الانتخاب. وفي بلاد من الأميين، تضم عدداً هائلاً من العبيد المحررين حديثاً، كان بمقدور الأشخاص الذين يحسنون القراءة

والكتابة وحدهم ان ينتخبوا. وفوق ذلك، كانت الآلة الانتخابية التي أنشئت عهد الملكية لا تزال قائمة، وظلت تتابع عملها في ظل الجمهورية. ولما لم يكن بمقدور فلوريانو ان يزور الانتخابات، وكان لا يفهم بان من الواجب تعديل مواد الدستور المتعلقة بحق الانتخاب، فقد استولى ملاكو العبيد على الجمهورية. وكان على الشعب، فيما بعد، ان يقول بصوت خطبائه الشعبيين:

- هذه ليست بجمهورية أحلامي...

انها لم تكن جمهورية الايجابيين ولا جمهورية تلامذة الجيش، ولا جمهورية رجال الغاء الرق، ولا جمهورية الشاعر كاسترو اسفليس، ولا جمهورية الخطيبين الشعبيين سلفا جردين ولويس تروفون. وكما في عهد الملكية، كانت الحكومة هي حكومة حفنة من الرجال تحكم ضد أكتريية الشعب الساحقة.

إن هذه الحكومة هي التي سلمت «السرينغاييس»^(٢٠) الى الرأساليين الأجانب، والتي خربت اقتصاد المطاط. في اراضي أمازونيا، في مياه النهر الكبير، حيث تولد الحميات والأوهام، في هذا العالم الذي لا يزال قيد التنظيم حيث تحتاج المياه الجزر، وتلد الأرض أرضاً، وحياة وحيوانات كبيرة مائية واشجاراً عملاقة وعصافير لا تحصى. - حيث وصل الرجل المدهوش، الذي قدم، باكراً جداً، من الشمال الشرقي، من بلاد الجفاف، حاملاً في برديه شجاعة خارقة أعلى من مستوى الشجاعة العادية، على أرض قيد التكون. - في هذا العالم تنمو، في حالة وحشية غريبة، ثروة بعيدة عن حدود التصور في الغابات العذراء، التي لم تمس ولا تُخترق، حيث تنمو «السرينغاييس»، تنطلق أنهار من المطاط، ثروة شعب. وتدفقت هذه الثروة في أحد الأيام، كامل في حياة أفضل. انها لم تكن لا بيضاء ولا لبنية. لقد كانت معدنية وصفراء بلون الذهب، بلون كل الأشياء التي تنتج مالا. ولكن هذه الثروة كانت تحمل في طياتها مأساة، مأساة المال الذي يحوي طمع

الإنسان ويجعله يخاف من رجال آخرين، أشقاءه. وولدت المدن، وأصبح حلم الأمازونيا حقيقة ملموسة. إن السيارانسيين^(٢١)، وقد طردهم السوط والجفاف والشمس المحرقة للمراعي الخضراء، والقاتلة للماشية والمرجاء، يمشون وجوههم شطر الأمازونيا، شاربين مياه الآبار. في الماضي كانت هذه البلاد هي بلاد الأساطير والنسوة المحاربات والبهوتو^(٢٢) والكوبرا^(٢٣) الكبيرة والسي Cy والهنود الأحرار، الذين ينتقلون في الغابات العذراء. وعندما وصل السيارانسيون، أصبحت هذه البلاد تُدعى الأمازونيا؛ وولدت مدينة مناوس في وسط النهر والغابة، بين مياه الأمازون البيضاء ومياه ريو نيغرو السوداء. ووصلت المدينة بقصورها وخاراتها وسفنها وسككها الحديدية؛ وتراجعت حدود الوطن بعيداً، وسافر الرجال من مناوس بيلين نحو أوروبا، نحو باريس وليينا وليشبونة ولندن؛ وسمعوا أصوات «الصنج» في مدريد، وذهبوا لرؤية المونارناس وعشاقه، لرؤية مصارف السيقي، ليأكلوا الكبجادياس^(٢٤) على طريق السنتر. ووصل البرتغاليون مزودين بمشاريعهم التجارية، واشتروا المطاط الذي كان يجري من السرينغيس، حيث امتزجت عصارة الأشجار بدم الرجال. وبعد أن أثروا، رجعوا إلى بلادهم وبنوا المسارح والمستشفيات والمدارس في القرى التي ولدوا فيها. ثم جاء السوربون، مغامرو القرن العشرين، الذين، وقد وصلوا حاملين حقائب متواضعة، سرعان ما عادوا إلى اعتلاء النهر متوجهين فوراً نحو المخازن الأنيقة في شوارع بيلين أو مناوس. إن رجل الشمال - الشرقي والرجل الأمازوني، ابن الأبيض وابن الهندي، مناضلين داخل الغابة العذراء ضد الطبيعة التي كانت لا تزال حاملاً، ضد فيضانات يومية لنهر واسع كالبحر، وبخيف أكثر من الشمس، ضد الحمى، ضد الملاريا، ضد سم التيفوس، ضد البرص، ضد الحيوانات، متقدمين في الغابة التي لا يمكن اختراقها، راسمين الطرق، مطاردين الغذاء اليومي، دون

(٢١) سكان ولاية سيارا.

(٢٢) سمكة نهر الأمازون.

(٢٣) نوع من الحيات السامة (المعرب).

(٢٤) كائنة بالجنبة، مشهورة في البرتغال.

نساء يقهران هن قلقها في ظلام الليل، إن هذين الرجلين أعطيا بذلك قيمة لثروة البلاد الرئيسية. وسرعان ما كان البرتغالي يشتري هذه الثروة، وكان السوري يعاود بيعها بوسائل ملتوية. وكان الأغنياء في مستعمراتهم في مناوس، في منازلهم في بيلين، في أحياء ريو الأنيقة، في أحياء غلوريا وكانيقي، في البيوت المعلقة الفخمة الأنيقة أو في قصور الحكومة، يفيدون من هذا العمل، من هؤلاء الموتى الذين لا يُحصى عددهم، من هذا النضال المظفر الدائم ضد الموت، كانوا يفيدون من أفجع وأعظم الملاحم الحديثة تائيراً؛ ملحة السيارانسي في أمازونيا، في عهد اكتشاف المطاط. إن شغيلة الشمال الشرقي، - وقد اتلفتهم الحمى، وغطاهم البرغش الذي يشكل كفن هذه البلاد، وقبض على حنجرتهم النهر القوي الذي هُتِك سره، وكرههم الهندي المالك الذي طُرد من أرضه، - كانوا يتقدمون دائماً، وكانت زوارقهم تقطع مياه النهر؛ ساقق للتمساح، عين لسهم الهندي، الدم للملاريا، وماذا يتبقى لحيات الكوبرا الهائلة التي تقلد بأجسادها تعرجات الساقية؟ ولكن الشغيلة كانوا يتقدمون دائماً. لقد أقاموا خطوط ماديرا - مارموريه الحديدية، أهبط سكك الحديد ثمناً، تلك التي ابتلعت مبالغ عظيمة وأرواحاً لا تُحصى. تطلعي جيداً، يا صديقتي، فترين أن عوارض الخط الذي تمر عليه قطارات التقدم ليست من خشب. إن هذه العوارض قُدت من أجساد الرجال الذين لا قها حتفهم وهم يبنون هذا الخط. إن الخطوط الحديدية تتركز على أجسادهم، وعلى هذه الأجساد تسير قطارات غابة الرعب. إن نهر ماديرا وحده هو الذي يعرف هذه القصة، وهو وحده يستطيع أن يرويها بالتفصيل؛ انها مرعبة، يا صديقتي، لدرجة ستؤلف معها دموع الألم التي سوف تسكينها، هي وحدها، إذا ما قُتِض لك سماعها، نهراً آخر. وبينما كان الدم يسيل غزيراً في مياه السواقي الصافية، كان السيارانسي يتقدم في الغابات العذراء. وكان، وقد طرقت شمس السيارة، التي حولت موجه الخضراء الى صحراء، يرى عائلته تموت، وخيوله تسقط، وماشيته تنازع. وهكذا استمد الشجاعة التي لا تغلب، والتي جعلته يسير باتجاه أمازونيا مناضلاً ضد الغابات العذراء، والنهر والحميات. إن ألوف وملايين الكيلوات من المطاط التي تهبط

من النهر، على السفن، على المراكب، على الزوارق، هذه الثروة الهائلة التي لا تُحصى، هي من نتاج عمله، حياته، دمه وأمله.

وفي المدن، البرتغالي ينتظر، وكذلك السوري، كما ينتظر البرازيلي وصاحب المليارات ورجل السياسة، الذي خلقه هذا الأخير، وجميع أولئك الذين يؤمن لهم المطاط، القادم من قلب الغابات، منافع المدنية ومرح العيش. إنهم لم يشاهدوا مطلقاً الأراضي الغنية الخصبة التي تخصهم. ذلك لأن هذه الأراضي، يا صديقتي، لا تخص السيرانسي الذي استولى عليها. إنها تخص أسبداً يملكونها ويتمتعون بها كما يتمتع بالمرأة. والسيرانسي الذي استولى عليها ليس سوى عبدهم. تلك هي قصة الأمازونيا، يا صديقتي.

في شوارع نيويورك وشيكاغو ولوس المجلوس ولندن وباريس وبرلين، المغطاة بالأسفلت، في جميع مدن العالم، تسير السيارات على دم السياراتيين. وبدمهم يتغذى فسورد، كما يتغذى الول ستريت والسيتي. ويغتني وراء البرازيليين الأغنياء وراء رجسال السياسة في العاصمة وفي الولايات، وراء المغامر السوري والتاجر البرتغالي، وراء كل هؤلاء يغتني الرأسمال الأجنبي. إن كل ما ذكرنا يشكل عنصري مأساة الأمازونيا، يا صديقتي. وفي أسفل الهرم، يحمل السيرانسي، بعضلاته الفولاذية، تجار مناوس وبيولين، أصحاب المليارات البرازيليين والرأسماليين الأجانب الجشعين. إن هؤلاء الآخرين، وقد شكلوا قمة الهرم الذهبية، يشترون بقليل من المصاريف، دون أن يقدموا أي عمل، ثروة شعب.

ووجد الانكليز أنه ليس هناك من سبب يدعوهم لشراء المطاط من البرازيل، ما داموا يملكون أراضي واسعة يستطيعون زراعتها بالسرينغيس. ولكن شجرة المطاط لا تنمو إلا في أمازونيا. وحاول الانكليز الاستيلاء عليها. ولم تكن المسألة سهلة الحل، يا صديقتي.

لقد كان السيرانسي يعرف التامسيح وأفاعي الكوبرا والهندود والحمى التي ينتجها البرغش، لقد كان يعرف ليالي العادة السرية التي يحلم خلالها بامرأة

تضاجعه، كان يعرف الحيوانات المفترسة التي تتجول بحرية، يعرف الغابات العذراء المعادية، النهر المعادي، سوط الوكيل، طلقات البندقية التي كانت تقمع محاولات الفرار: وفيما عدا النهر والحمى والغابات العذراء والوكيل، السيد والعبودية والغنى، لم يكن يعرف شيئاً آخر. انه لم يكن يعلم شيئاً عن الاستعمار الذي يكشف أسرار الأمازونيا، ويطمع بثرواتها، بمطاطها، بـ «مطاعم» شجرة السرينغاييس التي تسمح بزراعة غابات أخرى في العالم وتصنع تعاسة ثروة رجل الأمازونيا، مأساة دون مجد ودون جمال. ماذا كان بمقدور شغيل سيارانسي مصاب بالملاريا أن يعرف عن أسرار الاقتصاد العالمي؟ لقد كانت أسرار النهر تكفيه.

وفي أحد الأيام، يا صديقتي، باع حاكم وقح مجرد من الحياة، عدو لوطنه ولشعبه، «مطاعم» السرينغاييس إلى الحكومة الانكليزية لكي يزيد في ثروته. ماذا كان يهم هؤلاء الحكام، يا زنجيتي، الشعب والوطن؟ لقد كانت هاتان الكلمتان مجردتين من كل معنى بالنسبة إليهم؛ فهؤلاء الناس لا يفكرون إلا ببطنهم، بلذائذ الطاولة، بالمشاهد البراقة، بالنسوة الصبايا، الجميلات، المحبات واللدنات. قلبهم كان متعطشاً للمال، وكانت أيديهم ترتجف بخلاً: ماذا يهمهم الشعب والوطن؟ ماذا يهمهم تقدم وسعادة البرازيل؟ واشترى الرأسماليون الأجانب «مطاعم» شجرة المطاط بثمن بخس. وبينما كان الفقر ينشب بخالبه في الأمازونيا، كانت الأموال تتكدس في صناديق الحاكم السفلى.

ومنذ ذلك الحين، يا صديقتي، أقلع برتغاليو مناس وبيلين عن بناء المسارح في ليشبونة، وعن أكل الكيجادنياس في سنترا، وعاد السوريون إلى هبوط النهر كما صعدوه، حاملين حقائبهم على أكتافهم. وفقد النهر ثروته. وفي جزر أوقيانيا، وبين الغرسات المشقة ذات الايراد الأعلى، كان سوط الوكيل الانكليزي يتساقط على ضحايا جديدة. وأخذت غرسات البرازيل تختضر. ولم يستطع أثرياء بيلين أن يتموا الكنيسة المبنية بالرخام والذهب، والتي أهدوها إلى نوتردام دونازاريت، قرباناً عن جميع المال الذي ربحوه. ووهبت قطعة من أمازونيا إلى فورد. وحل الانكليزي «مطاعم» المطاط، إن

لديه أراضي يستطيع أن يزرعها فيها. وكان الأميركي يريد الاستيلاء على «المطاعم» وعلى الأراضي. وأخذ يخفق على الأرض البرازيلية، بين أسرار الأنهار، على البوتو والباج غراندي^(٢٥)، على السيارانسي، الذي ظل حتى ذلك التاريخ عبداً للثري البرازيلي، للبرتغالي، للسوري، والذي أصبح الآن عبداً لفورد، على كل هؤلاء أخذ يخفق من الآن فصاعداً علم اليانكي ذو النجوم الثماني والأربعين. ومنذ ذلك الحين، يا صديقتي، لم يعد أغنياء مناوس يذهبون إلى نيويورك لرؤية ناطحات السحاب، لشرب الوسكي المشوش، لمشاهدة لجووم السيئا بلحمها ودمها. لقد أصبح أغنياء مناوس، فقراء مناوس، وجعلوا يشربون خمر البلاد في خارات المدينة، ناظرين بهزن إلى مسرحهم الضخم الذي يعود عهده إلى أيام المطاط الغالية. ولما لم يكفهم هذا الأمر، باعوا قطعة أخرى من البلاد إلى اليابانيين. إن أصفر البلاد الراسالية سناً كانت، هي أيضاً، ترغب بنيل حصتها من البرازيل. ولم يبق بمقدور أثرياء الأمازونيا مطلقاً، يا صديقتي، أن يصرخوا في قصور الحكومة في ريو، أمام وزراء يرتجفون. إن سلطتهم المبنية على عائلاتهم من المطاط قد انهارت. وتابع دم السيارانسين الجري - وكانت أجورهم تنخفض باستمرار لكي يُسمح لأسيادهم أن يشبعوا نهمهم من العادات والعيوب المكتسبة خلال الفترة التي كانت فيها الأسعار مرتفعة. واكتسب المرض مواقع جديدة. وكان يُفتقر إلى كل شيء: إلى الأدوية وإلى النساء. وقد فقد الأغنياء أنفسهم أملهم في المستقبل. وكانت تحط الرجال في الأمازونيا سفن يخفق فوقها العلم الانكليزي، وتحمل دون انقطاع «مطاعم» شجرة المطاط. وكان العلم الأميركي، علم فورد، يخفق فوق الأمازون، كما كان يخفق العلم الياباني. وتحط الأمازونيا كان يجري دم السيارانسي، مؤلفاً نهراً أعرض من كل أنهار العالم، شبيهاً بالشهيق، بصوت متالم يستغيث، كشكائية، كصراخ، كصخب. وكان يتصاعد كذلك صخب أغنياء مناوس وبيلين القدماء، صراخ البرازيليين والبرتغاليين والسوريين. واطلق الكتاب صيحات غضبهم.

(٢٥) صورة اسطورية شعبية لدى هنود أمازونيا تمثل رئيساً كبيراً.

وكتب فريرا دي كاسترو رواياته، وبريغرينو جيونيور كتب قصصه. ومن الأمازونيا المباعة، المسلوقة غناها، تصاعد صراخ، يا صديقتي، صراخ كان يدوي في قلب التيننتيستين، صراخ كان يحرك قلب لويس كارلوس برستس.



وفي المجمع العلمي البرازيلي، يا صديقتي، أخذ رجل من بلاد الأنهر الكبيرة يتحدث عن اليونان. وكان كويليو نيتو مع هذا قادماً من إحدى ولايات الشمال الثلاث: أمازوناس، بارا، مارينون. وكان حظه منوطاً بحظ النهر الكبير، حظ سيارانسييه، برتغالييه، سورييه، هنوده، أغنيائه وفقرائه، غاباته العذراء، مأساته، فاجعته، وحظ جحيم حياته. وكان على الأمازونيا أن تعني بالنسبة إليه ألوف الروايات والمقالات والقصائد. وكان كويليو نيتو مع هذا مثلاً ورئيساً لمدرسة أدبية تختلف عن ذلك تماماً. وهو، وقد لقب به «أمير الكتاب البرازيليين»، واعتبر كأمر كتاب البلاد في ذلك الوقت، استطاع أن يحصل بفضل أدبه على كرسي في مجلس النواب، وعلى أخرى في إدارة نادي كرة القدم؛ لقد كان الأدب يؤمن له أعمالاً. لقد نشر مثني كتاب. وملاً، بخطه الأنيق، ألوف الأوراق بالجمل، بالصفات، بالافعال، بالموصوف والمنعوت، بالصور الدقيقة، بالعبارات المدروسة؛ لقد حلل على هواه مسائل لغة ليشبونيه البرتغالية. إنما من بين ألوف السطور هذه، لم يُكرّس سطر واحد للرجال الذين كانوا يناضلون في أمازونيا. لم يُكرّس سطر واحد لذلك. لم توجه كلمة واحدة، اهانة واحدة، توبيخ واحد، لأولئك الذين باعوا أمازونيا. إن كويليونيتو لم يكن يعرف لا الكلمات القبيحة ولا القاسية. إن أدب كل هذا الجيل كان دون ألياف ودون أعصاب: إن جيلاً كاملاً باع نفسه من أجل الفئات؛ إن هذا الأدب هو أقدر وأثقل وأكثر آداب العالم أخطاءً. إن خلاسي الشمال الشرقي والشمال، ومخضرمي الجنوب، ومستوطني سان باولو، إن جميع هؤلاء، كانوا يتحدثون عن اليونان. وليست

سان لويس دي مارينيون مدينة في شمال البرازيل: انها «أثينا البرازيلية»، حيث يفاخر بالتحديث بلغة برتغالية صافية.

★ ★ ★

لقد كان رجال السياسة يبيعون البلاد ويعقدون القروض؛ وكانت السياسة تدور حول المطاط، حول البن وحول السكر. وكان الكتاب يجهلون البلاد. وكان الشعب يجهل الكتاب، وهؤلاء كانوا يبيعون كتبهم إلى البرتغال، هذا إذا ما كانوا يبيعونها. وبالنسبة لهذا الجيل، الذي كان احساسه يشبه احساس صبية قروية، لم تكن البرازيل موجودة مطلقاً. كان الأدب وسيلة للحصول على عمل. كانت الكتب ومقالات الصحف تشكل مناسبة للبروز في المجتمع. لقد كان هذا الجيل، يا صديقتي، هو الذي تمخض عن هذه الجملة المشهورة: «إن الأدب هو ابتسامة المجتمع». لقد كان افراد المجتمع يرقصون في «الصالونات»، على وقع نغمات «اوركسترا» كانوا يدفعون ثمنها بالذهب الأجنبي، وكانوا يدفعون بالدولارات، بللاركات، بالليرات، بالفرنكات، ثمن الأثواب والأحذية، ثمن ابتسامات النساء والكتاب. لقد اختفى تقليد النضال والوطنية في الأدب البرازيلي لدى هؤلاء الأشخاص المجردين من الأعصاب، الذين كانوا كتاباً عاطلين قبل كل شيء، وكانوا يقلسدون بدناءة أية بداءة تُنشر في اوروبا. إن خلاصي مارينيون وباهيا المتكبرين، وأبناء مستوطني سان باولو، الذين كانوا يبيعون أنفسهم بأجس الأسعار، ويصرفون جهدهم للاهتمام بمسائل سخيفة في القواعد، ويحتجزون أنفسهم في برج لم يكن من بلور بل من زجاج غير شفاف، إن هؤلاء جميعاً كانوا يفتنون رسالتهم كأدباء، يجهلون شعبهم، يقطعون وقتهم بالتغني بمدح أولئك الذين كانوا يبيعون وطنهم بالمزاد، مدحاً مفرطاً. لقد أثروا إثراء جعلهم في صف أولئك الذين يفتنون ببيع بلادهم من الاستعمار. لهذا السبب كانوا «حياديين»، «لا سياسيين» وعاطلين.

إن ظاهرة «كوليونييتو»، مثال الأدب الوطني في ذلك العهد، هي النتاج

الرديء. للداد الأوروبى السئى فى ذلك الزمن، وهى دليل الطلاق بين الشعب وبين الرجال الذين كانوا يحكمونه. إن الأدباء الجدد، وقد أمضتْهم فكرة وجوب الاعتزال فى بيوتهم من أجل نظم القصائد ذات القوافى الغنية، التى كانت تجعلهم يتقدمون فى مهنة الأدب، انتهى بهم الأمر إلى التحدث عن اليونان، إلى خيانة سرتانيجوس البرازيل فى الروايات العاطلة التى كانوا يبرزون خلالها مجتمعاً لا وجود له.

إن هذه الظاهرة الأدبية التى قُدر لها أن تعاود الظهور أيام الدولة الجديدة، إن أدب الحرب هذا، المتجاهل للشعب، والذي لم يكن سوى وسيلة للحصول على أعيان ولا متهان السياسة، كان يخضع لأوامر الرول ستريت والسيتي. إن كويليو نيتو وغيره من الـ Viratos correlas^(٢٦) «الفيريأتوس كورياس» كانوا يشعرون بخوف مقدس من الشعب؛ وكان الشعب بدوره لا ينظر إلى الأديب نظرته إلى رجل نافع كفى. وكان الأدب «بسطة» تباع فيها القصائد والجمل والضمائر.

إن تاريخ البرازيل من سنة ١٩٠٠ إلى سنة ١٩٢٢ هو تاريخ البن. إن تشابك اقتصاد البن فى السياسة الوطنية يعود إلى زمن بعيد. فقد حل القضاء على العبودية زارعي البن، على مساندة الجمهوريين. وكان هؤلاء قد ناضلوا ضد فلوريانو، وسيطروا على البلاد مع بروذيني مورايس؛ وحافظوا على نفوذهم حتى بدأت فترة الثورات. ولما كانت حياة البلاد الاقتصادية منوطة بالبن، فقد كانت السياسة تدور حوله كذلك. وكانت الولاياتان الأكثر أهمية فى إنتاج البن، سان باولو وميناس، تتناوبان الاستئثار برئاسة الجمهورية. وخلف زارعي البن، كانت تكمن المصالح الانكليزية والأميركية، كما كان الألمان واليابانيون قد بداوا التغلغل فى البلاد. وكان الانكليز يسجلون تقدماً على الأميركيين، الذين كانوا يجهدون أنفسهم لتنصيب رئيس من عملائهم. وكان الألمان يجمعون الرجال فى بارانا، فى

(٢٦) أدباء برازيليون عاطلون جداً.

سانتا كاتارينا، وستتلو النازية ذلك في الغد القريب، حاملة معها الانتغرافية^(٢٧) Intergrallisme وسياسة التلاعب بأسعار الماركات.

وأخذت الصناعة تنتشر في سان باولو، ولكن الحكومة تابعت الانصات إلى أوامر استبداد زارعي البن، وأوامر الأسياد ذوي الاقدام المصنوعة من البن. ولم يكن الرؤساء الذين تتابعوا على الحكم تقديمين بآية حال من الأحوال؛ لقد كانوا يتحدرون على خط مستقيم تقريباً من مزارع البن في سان باولو وفي ميناس. حيث كان السعي حثيثاً لعقد قروض تستعمل لدفع قروض سابقة، كما كانوا يبعثون مال الأمة دون أية مبالاة اطلاقاً بمسائل الشعب. وكان موقفهم أمام الأمم القوية، التي كانت تلقي برساميلها في البرازيل، والتي أضحت سيدة الكهرباء والغاز والذهب والحديد والقطر الكهربائية وخطوط السكك الحديدية ومساحات الأرض الشاسعة، كان هذا الموقف هو موقف ولد خائف أمام معلمه. وكان برودانتي دي مورايس وكامبوس سالس قد بدأ هذه السياسة. وبعيدة كانت تلك الأيام التي كان فلوريانو خلالها يجيب برجولة عن سؤال سفير وقح. وقد أصبح الحكام الآن لا يتمتعون إلا بوضع مزير أمام السفراء، لا يتفوهون إلا بعبارات وادعة خاضعة. ولم يكن الصخب الذي يتصاعد من البرازيل يصل إلى آذانهم. وكان الايجابيون، الذين سبق لهم أن هياؤا للجمهورية نظرياً، يتطلعون برعب إلى ما كان يجري في الحكومة المستولية على السلطة. إن البن والاستعمار، وقد استوليا على الحكم، انطلقا للسيطرة على مختلف ولايات البرازيل، منشئين، حسب أهوائها، الحكام ومجالس النواب والشيوخ. وكان الاستعماريون يعقدون المحالقات حول بعض النقاط المحددة، ويشنون الحرب حول نقاط أخرى، ولكنهم كانوا يدخلون ميدان السبق إبان الانتخابات، صانعين، على هواهم، الحكومة والمعارضة. وكان ذلك في وقت كان فيه «البوهيمي هو الذي يشكل نقيض البورجوازي». ولم يكن قد بدأ الحديث بعد عن البروليتاريا، وكان الشعب يُعامل بازدراء عظيم.

وفي مزارع سان باولو وميناس، كان أسياد الأرض يهتمون فلاحى الشمال - الشرقي وماتوتوس^(٢٨) سان باولو بالبلادة. وكان المستوطنون الايطاليون والبرتغاليون يشاطرون أهالي البلاد الأصليين العيش في المزارع، ويعملون من الفجر إلى الغسق من أجل فريق صغير من كبار الملاكين. وخلال الحملات الانتخابية، كانت تتابع الخطب والولاء والوعود. ولم يكن الشعب يتأثر بشيء قليل كهذا. انه فقد إيمانه بهؤلاء الرجال، وجعل يتطلع نحو المستقبل يحذوه الأمل بمشاهدة ولادة شيء جديد. وكانت مظاهر هذا الأمل ترجف جذران مدرسة ريانفو العسكرية. ولم تكن مزارع البن بعيدة، ولم تكن بعيدة أيضاً لا الحكومة ولا حياة الفلاحين البائسة. وكانت هذه المسائل، وهي أكثر قرباً من مسائل أمازونيا، تُثار خلال أحاديث السهرات العائلية في ريو دي جانيرو، في النقابات التي كانت تتشكل، في الحفلات، في مدارس الطلبة الداخلية، وخاصة بين أوساط تلامذة الضباط.

وكانت مزارع البن في سان باولو تُنتخب الرئيس الأول، وتنتخب مزارع ميناس الرئيس الذي يليه. وكان نور البن - الملك، يكشف أنوار المزروعات البرازيلية الأخرى. وكان زارعو الكاكاو في باهيا، وزارعو ريو غراندي، ورجال برنموكو، جزعين. فهؤلاء أيضاً كانت لهم مصالحهم. وكان البن، السلطان الفرد، يجهلهم في سلطانه، كما يجهل الشعب المتألم في المدن وفي الريف.

وقد اكتسب بعض ضباط البحرية، يا صديقتي، ممن كانوا يترددون على «صالحونات» القصر إبان الفترة الديمقراطية للجمهورية، عادات الارستقراطية. وبالنسبة إليهم، كان الزوج لا يزالون عبيداً، ولم يكن من المفروض أن يعامل البحارة ككوائن حية. ولم يكن هؤلاء الضباط يوجهون الأوامر لبحارتهم إلا ضرباً بالسياط.

وفي أحد الأيام، يا صديقتي، أثار بحار زلجي الاسطول - وكان العديد

(٢٨) فلاحو سان باولو.

من الضباط يفكرون كذلك بأنه لم يكن هناك من سبب يدعو الى معاملة البحارة معاملة العبيد. وربما كان هؤلاء يشكلون الأكثرية، ولكن مظهر الضباط الرجعيين المتجبر، جعلهم يترددون. وثار البحارة، وثار معهم ضباط الآلات. واستولى الزنجي جوان كانديدو على الاسطول وأدار الآلات، وأطلق نيران المدافع، كأمرال يتصرف على سفينته. لقد كان البحار شخصاً بارزاً، ولم يكن حيواناً صالحاً للسوط. وهبت في هذا النهار ريح لطيفة على غوانابارا وحركت علم السفن وقلوب الثائرين. وساعد نسيم البحر اللطيف الثائرين في عملياتهم، وراهن شخص ما على أن البحارة، وقد عُزلوا عما عداهم، لن يتوصلوا الى تسيير السفن الكبيرة. وسير البحارة السفن الكبيرة ببراعة ذئاب البحر الصلبة. ووعدوا بتنفيذ جميع مطالبهم، وخدعوا بوعود الصفح. وعاد السوط من جديد الى ضرب جنبات الزنجي جوان كانديدو، ولكن البحارة فهموا في هذا اليوم بأنه لم يكن من الصعب قيادة السفن.

وتابع صخب البحارة، التطواف فوق جون غوانابارا، فوق المدينة وفوق البحر.



وخلال انتخابات الرئاسة، كان الشعب، بالرغم من شراء الأصوات بالجملة ومن الرعود المتدفقة، يخرج إلى الشارع، بصدر لاهث وقبضات مضومة ويصيح: «حقى مقى؟».

وعندما جاءت الحرب أرسلت البرازيل بحارتها، وحصلت على بضع سفن وورثت الوافدة الصدرية الاسبانية لسنة ١٩١٨. وأشرف أطباء كبار على تطهير الأمكنة في ريو، في سان باولو، وفي المدن الساحلية حيث كان يسكن الأجانب. وأجبر الخوف من أن يكون الأوروبيون، مالكو ثروات البلاد، مصابين بالحمى الصفراء، الحكومة على الاهتمام بهذه المسائل. ولكن بلدان البرازيل الداخلية كانت دائماً فريسة لأوبئة التيفوس والجذري والملاريا

ومختلف أنواع الحميات. وكان الانكليز والألمان والياباني^(٢٩)، وجميع أولئك الذين كانوا يملكون مالا لا قراضه للحكومة، لا يسكنون المدن الداخلية؛ لقد كانوا، كالبرازيليين الأغنياء تماماً، يسكنون المدن الساحلية أو عواصم البلاد الأوروبية. وكانت البلدان الداخلية مسكونة من أناسٍ مزيين، قليلاً ما كانت تهتم حياتهم. لم الاهتمام إذن بتطهير الأراضي الداخلية الواسعة^٣.

وجاءت الثورة الروسية. وهبت ريح من التجدد على شرقي أوروبا. وبدأ وجه العالم يتغير.



ومات الكتاب من طراز كويليو ليتو، بعد ذلك بعدة سنين، وهم مجهلون بان مدنية مختلفة، جميلة وجديدة، قد ولدت على سدر من الكرة الأرضية. لقد كان هؤلاء الأشخاص يتصورون انهم يعيشون في يونان ألسيبيا، بينما كانوا لا يعيشون في الواقع إلا في برازيل فانسلو براز. إنما في ذلك العهد، يا صديقي، كتب رجل خلاسي من ريو، سكر وقدر، وموظف تافه في وزارة الحربية، روايات لم يعلق عليها أدنى اهتمام، حرمت قراءتها وعرضت مؤلفها للسخرية. وحظيت بأهمية أقل، مقالاته التي كان يعلن عن نفسه فيها بأنه «ماكسيلي»^(٣٠)، ويمتدح فيها، وهو الوحيد الذي كان يتبع هذا النهج في البرازيل، الثورة الروسية. ان ليمباريتو، وهو الروائي الريان العبقري لمدينة ريو دي جانيرو، لضواحيها، لخلاسيها، لأحيائها الفقيرة، لرقصاتها الزنجية، لم يجتز سوى مرة واحدة أبواب المجمع العلمي. لقد دُعي لحضور أحد الاحتفالات، فذهب وأحدث فضيحة مخيفة، ملأت بالخزي الوجوه القرمزية لجميع ايلويوزو دي كاسترو، الذين كانت أردافهم الارستقراطية ترتاح على ارائك المجمع العلمي اللدنة. وفي فترة الفساد في البرازيل تلك، يبرهن صوت

(٢٩) الأميركيون الشماليون.

(٣٠) بولشي.

لها باريتو، الوحيد، المخنوق، إنما المهاب والقوي، على أنه كانت للشعب ساعتئذ القوة للقيام بثورة، وكانت شكايته قد أصبحت ثورة. ولم يكن أي وجه من وجوه الأدب البرازيلي في الماضي، فيما عدا كاسترو ألفيس وأوكليدس داكونيا، يتمتع بالقوة الشعبية التي يتمتع بها هذا الخلاسي الغاريوكي^(٣١). إنه الشعب، الشعب الذي يشتم أصحاب السلطان والمال، وهو في رواياته، في مقالاته، في منشوراته الانتقادية، يفضح أعداء الشعب. ولم يفكر في أي وقت من الأوقات بمهنته الأدبية، وكان يهجر الصحف الكبرى ليعمل في صحف أسبوعية عمالية صغيرة. إن وجه الجبار هذا، الذي ينتصب كالاعجوبة الخارقة وسط أدب البرازيل المخنث لذلك العهد، وجه الجبار هذا، الذي من المستحيل نسيانه، والذي تعاظمت مؤلفاته مع الزمن، إن هذا الوجه قد دُفن في معالم النسيان سنين طويلة. إن الروائي لها باريتو هو أعجوبة شعبية، يا صديقتي. إنه اعجوبة شعبية انبثقت من اضطرابات سنة ١٩١٧ - أول اضطرابات عمالية كبرى في البرازيل - انبثقت من ثورة أكتوبر في روسيا. لقد كان لها باريتو نتاجاً لكل هذا، ونتاجاً لتعاسة الشعب البرازيلي. وبالطريقة نفسها كان كويليو نيتو نتاج الحياة الهائلة السهلة للطبقات الحكومية، لغارسي البن الذين كانوا لا يريدون أن يعرفوا شيئاً عن حياة سكان البلاد.

في سنة ١٩١٧، يا صديقتي، بدأ العمال سلسلة اضطراباتهم وبدأ وزنهم يظهر في حياة البلاد السياسية. لم يبق الأمر متعلقاً بالترجيات، بندايات الاستغاثة، فقد بدأ العمال يحتجون، يتحركون، يهددون حكم الأفراد، يستحوذون على حقوق، يظهر قواهم الهائلة.

إن التعبئة العمالية العامة، التي تحققت بمناسبة اضطرابات هذه السنة، هي مطلع عصر سياسي جديد في البرازيل. إن سلطة جديدة تنتصب، سلطة ستسير على رأس الثورة الشعبية المستقبلية، سلطة زرعت بذار سنوات ٩٢٢، ٩٢٤، ٩٣٠ و ٩٣٥.

(٣١) ساكن ريو دي جانيرو والمولود في العاصمة.

وفي خمس من ولايات البلاد الشمالية - الشرقية كان الكانغاسيروس يحتاجون بلاد السرتون. لقد كان هذا نتيجة للظلم المسيطر في الريف، كان نتاجاً فوضوياً عنيفاً ضد سلطة الأسياد الاقطاعيين. ذلك كان مثالاً لامبيون وغيره من الفلاحين الذين دفعهم إلى اللصوصية نظار المزارع، الذين كانوا يستولون على أراضيهم ويملكون حق الحياة والموت في الأملاك الواسعة.

وفي الوقت الذي ظهرت فيه الطبقة العمالية على استعداد للنضال، استعملت الرجعية أسلحة جديدة. وقدمت البروليتاريا المضربة في ريو، لها باريتو إلى الأدب. وقدمت الرجعية، وقد فهمت بأن أيام العظمة قد انتهت، الأديب الوحش الذي يدعى جاكسون فيغيريدو. إن هذا السيرجيني (٣٢) المفتقر إلى النغم الغنائي، والذي ينخره الكره والطمع الحقيق ويتنفسه شيطان الإطراء، والذي ولد ليلحس أقدام الأسياد، هذا الرجل المبشر بمقدم الشرطة السياسية في البرازيل، الفاسق، الرعديد والبخيل، سوف يعلم، بعد وقت وجيز «المراقبة» لرجال الشرطة. إن هذا الكاتب الذي يعد من أنفه كتاب البرازيل، والذي كان غير جدير لأن يكتب جملة واحدة تقف على قدميها، كان يجهل سر جمال وقوة الأسلوب؛ لقد فهم على الأقل بأن الزمن الذي كان الكتاب فيه يشكلون «إتسامة المجتمع» قد دالت دولته، وإن بالرجعية وبالحكم الفردي وبأسياد الأرض وبأصحاب السلطة حاجة للكاتب الشرطي، فافتتح جاكسون فيغيريدو هذا العصر في البرازيل. إنه هو الذي سمح بولادة انتعزالية المعتوه بلينيو سلغنادو. إن جاكسون دي فيغيريدو، وهو الأصغر، بلون السوداويين القدر، الكثيب والجاهل للمباهج، الناصر لجمال الحياة كله، هو نتاج أذل وأحط ما أخرجه الأدب.

وبعد عدة سنوات من ذلك، يا صديقي، اجتاحت زارعي البن حتى «الطراز الحديث». فأن خديشي الغنى في سان باولو، الذين لم تكن تهمهم روايات أمثال كويليو نيتو التي تحمل على الرقاد، والذين كانوا، مع استعمالهم لأدب جاكسون فيغيريدو البوليسي، لا يتوصلون إلى هضم هذا الأدب،

هؤلاء الأشخاص الذين ترددوا على خمارات أوروبا، على الكنائس والمتاحف، الذين شربوا الانخاب مع رؤساء مختلف المدارس الأدبية، والذين كانوا يتلذذون بقراءة كوكتو، ومارينتي، وبليز سندرارس، لم يكن بمقدورهم إلا أن يهتموا بأدب أكثر نعومة، وأكثر صعوبة ويكاد يكون ايزوتارياً^(٣٣). وخلق الاحساس الضعيف لحديثي الغنى هؤلاء مبدأ الفيتيريسم (Futurisme): يعني ثورة كاملة في المبنى، مع محتوى من أكثر المحتويات رجعية. إن أصحاب هذا المبدأ (Futurisme)، كانوا أدوات لتسليية - بورجوازية كبيرة اغتنت فجأة، وكانت مهمتهم تنحصر في امتناع أسيادهم. وهم، وقد رفضوا كتابة اللغة البرتغالية الأكاديمية، وجعلوا اللغة البرازيلية الشعبية، خلقوا لغة خاصة بهم وحدهم.

ومن وجهة النظر الأدبية، يا صديقتي، كان هذا الأمر نتيجة لوضع اقتصادي وسياسي في البرازيل في ذلك العهد. في ذلك العهد كان كل شيء حقيراً، فاسداً ودينياً.

ولم يكن أبيتاسيو سوا، رجل السياسة في المنطقة الشمالية - الشرقية، يختلف بشيء عن أي غارس للبن. لقد كانت به حاجات للمال تكاد تكون أكثر إلحاحاً: إن مزارع الشمال هي أقل إنتاجاً من مزارع الجنوب. ولم تكن مزرعته الواقعة في المنطقة الشمالية الشرقية من البلاد تمثل فخامة مزارع البن في الجنوب. وبعد أن انتُخب رئيساً للجمهورية، زار انكلترا والولايات المتحدة، وعاد إلى البرازيل على ظهر سفينة يانكية. وكان الأميركيون سعداء. إن دورهم قد حان. ولم يكتف أبيتاسيو، يا صديقتي، بأخذ المال من صناديق الأمة المملوءة بأموال الأجانب المستدانة، بل واستحوذ كذلك على ملاعق القصر الفضية.

في ذلك الوقت، يا صديقتي، في الوقت الذي وصل فيه انعدام الوطنية،

(٣٣) صفة كانت تعطى في مدارس الفلاسفة القدماء لنظريتهم السرية المخصصة لأشخاص معينين.

وانعدام المبدأ والخلق في القضايا الإدارية، إلى الذروة، والذي بلغ فيه احتقار الشعب، والخلاعة السياسية والأدبية الحد الأقصى، ووصل فيه صخب الشعب وصياح الثورة إلى القمة، في ذلك الوقت خُلِقَ الحزب الشيوعي في البرازيل في سنة ١٩٣٢، في ريو دي جانيرو: جواباً عن كل هذا.

القسم الثاني

طابور برستس

«Luego te vieron ¡n Siempre delante de Prodigiosos hombres
animados por tu tranquilo gesto Impresionante y tu esperanza de
lo Inesperado»

Raul A Gonzalez Tunon.

- ١ -

من السرير الذي سَمَّره فيه المرض ومنعه من المساهمة بالنضال، اطلع لويس كارلوس برستس، يا صديقتي، على اخبار ثورة الخامس من تموز سنة ١٩٣٢. وكانت حكومة ابيتاسيو سوا تتهياً لنقل رئاسة الجمهورية إلى أرثور برناردس، تلميذ كلية كاراسا القديم، حيث تعلَّم، كما كُتِبَ في ذلك العهد، « الرأى والمداينة ونظام التدرج الجزويي وكزه الشعب ». وفي صباح الخامس من تموز، ثار طلاب المدرسة العسكرية، الذين ظلوا يحتفظون في ذهنهم بذكرى رفيقهم لويس كارلوس برستس. وتبعهم حصناين وكوبا كابانا بضباطهم الشباب. وكان لويس كارلوس برستس يتتبع من غرفة مرضه، الأخبار السيئة لثورة كانت تسحقها الحكومة، وكانت هناك وحدات تعهدت بالاشتراك بالثورة ولكنها لم تفي بتعهداتها؛ وقد تمكنت الحكومة بفضل كمينٍ بارع وغير شريف، من توقيف قائد أحد الحصون. وكانت الفرق الحكومية تهدد الثوار. وكان كل ما بقي من الثورة في ذلك الحين هو حصن كوبا كابانا، حيث كان على الـ « تيننتيسمو »^(١) ان تظهر للمرة الأولى وبصورة فاجعة أمام شعب البرازيل. وكان على ثمانية عشر رجلاً ان يكتبوا بدمائهم اسماءهم على رمال كوبا كابانا. ان الرمال المستحمة في بحر يمحو عنها العلامات اليومية التي يتركها عليها الزمن، هي رخام غير صالح للخلود، يا صديقتي. ان البحر المتناهي القوة خالداً أبداً، يا صديقتي،

(١) لم تظهر هذه الكلمة في البرازيل إلا بعد انتصار ثورة سنة ١٩٣٠. وقد عنت الثورة الوطنية - التحررية، في مرحلة عدم استقرارها النظري. وقد كتب واحد من أشد انصارها تحمساً حول هذا الموضوع يقول: « إن التيننتيسمو هي التعبير الثوري لطبقات البرازيل الوسطى ».

وتحمل الرمال علامته العظمى، وأثر مروره المستمر عبر الأجيال. وتسحب الأمواج نحو أعماق المحيطات كل ما يكون قلباً ويد الإنسان قد لحتاه على سطح الرمال الأبيض: أسماء النسوة المعشوقات، كلمات الرغبة، قصوراً من طراز القرون الوسطى بنتها أيادي أولاد حاملة، آثار الاجساد النسائية البيضاء العارية، والآثار المخيفة لجثث الغرقى. ان شيئاً ما لا يدوم على الرمل أكثر من بضع ثوانٍ؛ ذلك لأن البحر الغيور في مقره وفي خلوده، يمرر في كل الأيام، على ذكريات الرجال، أمواجه من الزبد المتدحرجة على الرمال البيضاء. فليحذر الناس الذين يلحسون بترك اسمائهم مخفورة للخلود، من حفرها على الرمال، ذلك لأن البحر، سيد مصائر القمر والسفن والصيادين والرمال، هو أقوى من إرادة الإنسان. إن ذكرى البحر غير المنظورة - خلية الناس وسيدتهم - هي الوحيدة التي تبقى على الرمال. ان كل صياد يعرف ذلك، يا صديقتي، ويعرفه كل بحار، وأي شخص يهيم على الأرضفة.

إنما الشعب، يا صديقتي، هو أقوى من البحر! وعندما يحفر حركة ما من أجل الخلود، فقليلاً ما يهيم أين يحفرها. وان الرمل نفسه، الضعيف والزائل، يصبح رخاماً لا يتحطم إذا ما طبع عليه الشعب علامته. وتبرز هذه العلامة عبر الزمن، ولا تستطيع حركة البحر اليومية إلا ان تزيدها رسوخاً. ولكن عندما تحفر هذه الحركة بالدم، تنتشر علامة الشعب القانية، يا صديقتي، على الرمال البيضاء وعلى البحر الأزرق. انها قانية كعقم النضال، كالدم المصنوع منه هذا النضال، قانية كالألم، كالحقد، كأجل الأزهار، كالأمل. الشعب هو أقوى من البحر، يا صديقتي.

لقد كانت الليلة الواقعة بين الخامس والسادس من تموز، ليلة فاجعة بالنسبة لحصن كوبا كابانا. وطلب القائد، وقد كان سجين الحكومة، إلى الثوار ان لا يدمروا المدينة البريئة والمجردة من وسائل الدفاع. لقد كانت الثورة موجهة ضد حكومة الطغاة، وليس ضد الشعب. وكان من المستحيل تدمير قصر الحكومة، فقد كان يقوم بينه وبين الحصن هضبة تمنع المدافع من إصابة هدفها.

وفي حصن كوبا كابانا ، دعا الملازم سيكيرا كامبوس ، الذي استولى على القيادة ، إلى عقد اجتماع لضباطه . يجب القيام بعمل ما . فالفرق الحكومية المؤلفة من ألوف الرجال الحسني التسلح ، والمزودين بمؤن فياضة ، تقترب من الشاطئ . انها متهيئة لحصار الحصن ، الذي سيضطر إلى الاستسلام تحت وطأة الجوع . وكان الرجال الموجودون هناك ، يا صديقتي ، حول سيكيرا كامبوس ، من أولئك الذين لا يستسلمون . وكان لا بد من الإجابة عن هذا السؤال : ما العمل ؟ .

وأخذ نيوتن برادو وماريو كاربنتر وإدواردو عومس وسيكيرا يتناقشون . بإمكانهم ان ينسفوا الحصن . وسينسفون معه ، وبهذا الشكل لن تستطيع الحكومة احتلاله أبداً . وسرعان ما أضرم سيكيرا كامبوس النار في أحد المشاعل وتوجه شطر مستودع البارود . ولكن هناك مئات الجنود ، والحصن فوق ذلك يخص الشعب . وفيما لو كان الأمر يتعلق بمظهر جزئي من نضال مقدر له أن ينتصر لكان بالإمكان التجاوز عنه ؛ ولكن الانفجار ، في ظرفهم ، ما كان بمقدوره ان يكون الحركة البطولية الأخيرة لثورة قُدر لها الاخفاق . "أطفأ سيكيرا الشعلة الملتهبة ، وابتدأ النقاش من جديد . وقرروا شرح الأمر للجنود ، وصرّفهم إلى منازلهم ؛ وذهب الجنود . وبقي سبعة عشر رجلاً في داخل الحصن المتمرد . وتقدمت طوابير الحكومة المؤلفة من مئات ومئات الرجال المسلحين بالبنادق والرشاشات ، على رمل شاطئ كوبا كابانا . وأنزل الثوار العلم البرازيلي من على الصارية ، وقسموه إلى سبع عشرة قطعة : واحدة لكل رجل . وغادروا الحصن عندئذ ، وقد فتح كل منهم سترته العسكرية ووضع قطعة من العلم على صدره ، وذهبوا لمقاتلة ألوف الجنود الذين يتقدمون نحوهم .

وفي أحد الأيام ، وذلك منذ سنين طويلة ، وقد كانت العبودية لا تزال مسيطرة ، طلب الشاعر كاسترو ألفيس ان يُنتزع من صواري سفن النحاسين ، العلم البرازيلي الملطخ بالعار . وفي هذا النهار من تموز ، انتزع العلم البرازيلي الذي أذله ولطخه أسياذ الحكم بالعار ، من إحدى الصواري ، ووضع رجال

يدافعون عن كرامته وعن شرفه على قلوبهم. على قلوبٍ وصدور سوف
تخترقها القذائف.

وتقدم الرجال على الرمل الأبيض وقد تطلعوا باستقامة إلى أمام،
والإبتسامة تملو منهم الشفاه.

إنهم جميعاً في مستقبل العمر، يا صديقي، وأمامهم، تفتح الحياة أبوابها
رحبةً جميلة مملوءة بالشمس؛ إنهم من ربيع الحياة في الصميم.

وفنا وراء الشاطئ، في ريو دي جانيرو، في مدن برازيلية أخرى وفي
الزيف توجد نساء هرقات يفكرن هؤلاء الشباب ذوي الخطيبات المتتبات،
والزوجات اللواتي سيتيم أولادهن غداً. الحياة تدعوهم. ولكن لا، يا
صديقي. على صدورهم تطفو قطعة من علم ممزق، شعار شعب كامل، شعب
يطلب، من خلال يأسه وألمه، خبزاً وعدالة وثأراً. إن تعاسة الشعب هي أكبر
من جمال الحياة. سيكيرا يمشي في المقدمة؛ يتبعه نيوتن برادو وادواردو
غومس، ضباط، جنود ومدني واحد.

وكتب سكويرا على مزقة العلم التي يحملها على صدره، بضع كلمات على
سبيل الذكرى لخطيبته. وكتب كاربنتر على مزقته، جملةً لأهله، وكان المدني
« كوشيتا » يدعى أوكتافيو كورتيا. ولما كان مروره عابراً من ريو، فلم يكن
يهمه شيء من كل هذا، وكان هذا الرجل، قد التقى على شاطئ كوبا كابانا
بالرجال الـ ١٧ الذين كانوا يتقدمون، فسألهم:

- إلى أين تذهبون؟

- إلى الموت.

- لماذا؟

- لنساعد على انقاذ البرازيل.

- اذهب معكم إذن.

فأعطيت له بندقية، وتقدم هو أيضاً.

لقد أصبحوا ثمانية عشر. ولكنهم، يا صديقتي، كانوا بالحقيقة ألوفاً، كانوا ملايين، ذلك لأن هذا المدني الذي انضم إلى الجنود، يمثل جماهير الشعب، يمثل الكوشوز في ريو غراندي، يمثل رجال غابات الصنوبر ومروج البارانا، رجال سائتا كاتارينا وماتو غروسو، يمثل الفلاحين المحنّيّ الظهور في مزارع البن والكاكاو، في الأمازونيا، يمثل أولئك الذين يعذبهم الجوع في المدن، وأولئك الذين يُستثمرون في الريف. إن هذا المدني يمثل الشعب، يمثل ألوفاً وملايين الرجال.

لم يبق الجنود بعيدين أبداً. آثار خطوات على رمال كوبا كابانا. على هذا الشاطئ الأنيق، حيث، في أصباح الصيف، تبسم نساء بشباب البحر لرجال أغنياء يرتاحون من بطالتهم اليومية، على هذا الشاطئ اللامع والرياضي، حيث يتحرك أناس أنيقون وسطحيون، على أغني وأجل وأكثر شواطئ أميركا الجنوبية أنيقة، سيقوم شعب البرازيل بحركة بطولية وجمال وسيرفع احتجاجه ضد أعدائه. وقليل ما يهم أن يثمرغ غداً أسياذ السلطة على الرمل اللدن، متجاهلين رغبة الشعب كذلك. قليلاً ما يهم، ذلك لأنه سيكون أيضاً تحت أجسامهم المترهلة، الدم الذي سكبته الشعب، هذا الدم الذي يولد منه في كل يوم مناضلون جدد. غداً سيقوم هذا الشاطئ، هو أيضاً، بمهمته الانسانية. سيأتي إليه الأولاد ويلعبون على رماله، وسيرتاح الشغيلة فوّه من عناء عملهم، وسبتمتع الفقراء، برماله. ولن يكون أعداء الشعب هناك. ولن تكون كوبا كابانا أكثر الشواطئ أنيقة، شاطئاً للمترفين، بل ستكون شاطئاً للشعب. عندها فقط يستطيع البحر أن يغسل آثار الدم التي تركها رجال الحصن الثانية عشر على رماله. ان يوم الخامس من تموز هذا هو بداية سير طويل للشعب، يا صديقتي.

إنهم يتقدمون. إنهم ثمانية عشر رجلاً، سبعة عشر جندياً ومدني واحد. ان شعباً بكامله يمشي على شاطئ البحر. وصوب الجنود الأعداء سلاحهم نحو القلب، نحو مزق العلم.

عندها فهم البحر وظل حامداً، لا تتخلله أية موجة ولا أية حركة،

وأصبح الرمل ملكاً للرجال . وتطلع البحر ، سوف يحدث شيء ما يدوم ذكره
ويخلد كالبحر نفسه .

وتقدم الرجال ، تقدموا مبتسمين ، واندفعت طلقات نارية ، أولى ، وتلتها
الألوف ، طلقات رشاشات وطلقات بنادق . وسال الدم ، وحُفرت كلمة
بحروف قانية على شاطئ ، كُوبا كابانا : حرية . . إلى الأبد ، يا صديقي .

- ٢ -

صديقتي. ادعي جميع الناس إلى قربنا على الرصيف، ادعي البحارة، ادعي عمال شحن البواخر، ادعي عمال الآلات الرافعة ونزلاء الفنادق، ادعي أولئك الذين يملأون ويفرغون السفن، ادعي الطيار والجذاف من على قاربه السريع، ادعي النساء اللواتي يمررن، ادعي الأغنياء والفقراء، الانبيات والقبيلات، أولئك اللواتي يملكن عائلة سعيدة أو اللواتي يعشن في التعاسة. ادعي العمال، ادعي الفلاحين الذين يذهبون إلى السوق حاملين غلالهم، ادعي سائقي الشاحنات، ادعي الثوريين الذين يعقدون اجتماعات، ادعي البحارة السوفييتيين الذين منعوا من الهبوط من سفينتهم، والذين سَحَقُوا حديثاً، في بلادهم البعيدة، يا صديقتي، قتلَ دنيثين، نادهم جميعاً، يا صديقتي، بصوتك الخنون، لانني أود أن أحدثك عن صليبية أبطال البرازيل، خلال الهامبا والسرتونات والصحارى والجبال والأنهار والمدن. أود أن أحدثك عن طابور برستس. انها أعظم مآثرة سلاح لشعب، انها أعظم ملاحم أميركا الحديثة، أشدها قوة وأكثرها أسى وأثقلها وزناً. ان شاباً عبقرياً، لواء في السادسة والعشرين من عمره، يرسم على خارطة دروباً جديدة لشعب، ويفتح مع جنود طرق التحرر للبرازيل.

إن رحلة الستة والعشرين ألف كيلو متر هذه، التي اجتيزت من التاسع والعشرين من تشرين الأول سنة ١٩٢٤ حتى الثالث من شباط سنة ١٩٢٧، ليست خارقة فقط، يا صديقتي، لان غابات عذراء قد اجتيزت وافتتحت طرق في الكاتنغا وفي الصحراء، بل لانها فتحت دروباً في التفكير البرازيلي. من ريو غراندي دوسول حتى ولاية مارينايون الأمازونية، من بارانا إلى التوكنثاس، من باهيا إلى ماتوغروسو، من ميناس إلى غوايلاس، خلال

البرازيل الهائجة كلها، كان الطابور في أي مكان يمر، يجعل من المسائل المنسية، قضية الساعة، يكشف النقاب عن مآس كانت تبدو مستعصية الحل، وعن شقاء مزمّن كان يحركه جنود الشعب عند مرورهم. وكان الشعب يسارع، يا صديقتي، في المدن، في القرى، في المزارع، مقدماً الخبز والأثمار للجنود، وكاشفاً لهم عن آلامه. ولم يكن هؤلاء الرجال الذين ثاروا في ريو سنة ١٩٢٢، في سان باولو وريوغراندي سنة ١٩٢٤، على صلة بواقع البلاد إلا الآن، وهم يجتازون داخلها ويشاهدون كم هو البؤس، يؤس الشعب اللامتناهي، عظيم، عميق ومؤلم. وبفضل هذه الرحلة، يا صديقتي، التي رسمتها ونفذتها عبقرية برستس، تعلم الشعب دروس ثورة. وتعلم الجنود والرؤساء ولويس كارلوس برستس من الشعب مسائل البرازيل. وإن الماركسي الذي هو لويس كارلوس برستس اليوم، ليتحدر بخط مستقيم من رحلة الطابور. لقد قسم ووزع السرتونات^(٢)، ألغى أعمال المصادرات اللاشرعية التي كان يستولي بواسطتها الملاكون العقاريون على أراضي صغار الفلاحين، حرر المساجين البريئين من أغلالهم؛ ولقد التقى بالكانغاسيروس، قاتل معهم وتعرّف إلى وجههم الحقيقي. ومن كل معركة استخلص درساً؛ لقد كان الشعب يفيد من الطابور، والطابور يفيد من الشعب.

وإن أساطير الطابور التي لا تحصى تعيش، اليوم أيضاً، في « السرتونات » الريفية، على شواطئ سان فرانسيسكو، في سهول البياوي، في النجد المركزي المملوء بالأسرار، وتنعش السرتانيجوس^(٣). وفي العديد من المرات سمعت فلاحين، سائقي سيارات، جاغونسوس^(٤)، يروون قصصاً يظهر فيها الأبطال العريقون في القدم جنباً إلى جنب مع أبطال طابور سيكيرا ودوترا وتريفينو وفي الليالي الطويلة المنجمة، قرب الأنهار، يروي الرجال إلى الأولاد السرتانيجوسيين، الذين كانوا يدلون العميان والكانغاسيروس إلى طريقهم،

(٢) جمع سرتون.

(٣) سكان السرتون.

(٤) فلاحون لقراء يتعاطون اللصوصية.

ملحمة الطابور، ملحمة هذا الطابور الذي كان تارة مؤلفاً من ألف رجل، وتارة من ألف وخمسة، وأحياناً مما لا يكاد يبلغ الثمائية، والذي كان يحمل معه الحرية. وعندما لم يكن الطابور يمر، كانت فرق الحكومة تتمتع بكرامية الشعب. وعندما كان الطابور المخلص يذهب، كان الظلم والإرهاب الحكوميان يعاودان إلى الظهور، ولكن كان خلفها يكمن الأمل. سيأتي يوم يعود فيه الطابور، يا صديقتي، إلى الأبد، وتعود معه الحرية، وتعود معه العدالة والحب والبهجة. وقبور الطابور - قبور مسكنة محفورة في فترة ما بين معركتين، أثناء توقف قصير قبل متابعة التقدم - منثورة من أول طرف في البرازيل إلى آخر طرف. وعلى ساحات المدن الكبرى، قامت نصب مرتفعة على شرف أبطال شرعيين، ولكنها قامت كذلك على شرف أبطال مزعومين؛ ويتوقف سكان المدن أمام هذه النصب الرخامية، ذاكرين متأثرين قلوبهم بالثقة.

ولا يوجد في السرتون، يا صديقتي، نصب غير قبور جنود طابور برستس. لقد غطاها العشب. وأصبحت الصلبان رمزاً، واختفى الكثير منها. ولم يبق بالاستطاعة قراءة الاسماء المختلفة: ان الأموات هم مجرد جنود الشعب. ولم يكن من المستحيل مع هذا ان لا يكون الجنود قد دُفِنوا في هذه الأمكنة تماماً، بعد ان نالوا مدالية، هي قذيفة في الصدر. بل ومن المعقول ان يكون قد دُفِنوا أبعد من هنا. ولكن قليلاً ما يهم هذا، يا صديقتي. فلاسطورة تقول بأن جندياً من الطابور يرقد رقاده المأتم في هذا المكان. ويذهب السرتانيجوس لزيارته. ان هذه الكومات الترابية هي بالنسبة إليهم نصب مجيدة، أسباب للأمل. ذلك لأنه سيأتي يوم - وهم على ثقة من ذلك - يعود معه الطابور؛ وستسمع الانهار والجبال والرجال صخب الخيول وأزيز الرصاص. وسيأتي مع الطابور الحب والحرية، العدالة والبهجة. وعلى رأس الطابور سيعود فارس الأمل.

وعندما كان يبدو وجه برستس الملحمي، كان الفلاحون يتركون فؤوسهم وسككهم. لقد كان نقيباً في الوقت الذي ثار فيه مع جنوده، ثم

أصبح في ما بعد زعيماً، ثم لواءً، ومن معركة إلى معركة، ومن نصر إلى نصر، قاد رجاله بشجاعة رائعة. وكان يحمل باحدى يديه العدالة، وبالأخرى كان يحمل الحرية. وكان بصورة خاصة فارساً للأمل. وإن شعب سرتون اليائس، شعب الشغراء هذا، الذي كان قد اندفع نحو الثورة، اطلق عليه هذا الاسم، يا صديقي، الذي يشكل بيتاً من شعر الحب.

كان الشعب، بعد ان تغذى بياس انطونيو كولسيليريو، يتغذى بأمل الأب سينارو الحزين وبعدالة لامبيون الانتقامية. وقد أطلق أوكليدس داكونيا، وقد كان ممن شاهدوا لفترة من الزمن إحدى مآسي السرتون، صرخة احتجاج قبل ذلك بعدة سنين، ولكن شيئاً ما لم يتغير. وكان ياس السرتون يتفاهم. وكان الأهالي التعساء، يصنعون، من خلال رغبتهم بالتححر، الكانفاسيروس والقديسين والأنبياء. وفي أسواق المنطقة الشمالية الشرقية، كان الفلاحون ينددون إلى (A.B.C.)^(٥) التي ألفها الجاغونسوس الشجعان، للصوص الخارجون على القانون. وقصد الوعاظ، وقد أُرهِقهم البؤس والجوع، السرتونات، وجعلوا ينتقلون من مزرعة إلى مزرعة ومن قرية إلى قرية. ولما لم يكن للسرتانيجو أقل ثقة بالمستقبل، فقد أخذ يخترع الشياطين والقديسين.

ولكن ها هو فجأة يترك منجله، فأسه وسلاسله. وبدلاً من المنجل، أصبح لديه الآن بندقية، وأصبح لديه رشاش بدلاً من سكة الفلاحة. ومشى على رأس الطابور فارس الأمل. لقد اخترق السرتون كالأعصار. وخلقت السرتون، من خلال مشاكلها الحادة، هذا الرجل، وتعرف لويس كارلوس برستس إلى البرازيل في كامل عريها. ومن ذلك الحين تغيرت حياة السرتون، كما تغيرت نظرة برستس إلى الحياة نفسها.

إن الطابور هو أسمى فترة من فترات تاريخ بلاد تفتش عن نفسها. إنها الفترة التي تمر بالبرازيل خلالها مسائل لا تعرف لها حلاً. الرجال الثائرون في

(٥) نوع من القصائد الشعبية البرازيلية.

الثكنات لا يطلبون سوى تغيير الرئيس. انهم ما زالوا لا يعرفون كيف يحلون مسائل البلاد. السرتانيجوس يتحولون إلى كانغاسيروس بدلاً من ان يصبحوا ثوريين. وساعد الطاوور بدوره، بملحمته الخالدة، في تطور العقول. ومنذ ذلك الحين، سوف يقلع السرتانيجوس عن تضخم صفوف الجاغونسوس، سوف يصبحون جنوداً للحرية. ان الرجال والضباط والجنود والمدنيين، القادمين من المدن، والمتطوعين في صفوف الطاوور والمواجهين لأشق مشاكل البرازيل، كانوا يشعرون بأن أمر حل هذه المشاكل يعود إليهم. وبدون الطاوور، لم يكن من الممكن حصول التحالف الوطني التحريري لسنة ١٩٣٥. وبدون الطاوور ربما كان بمقدور برستس ان يقوم بثورة سنة ١٩٣٠، ولكنه كان من المحتمل ان لا يكون قد أصبح في أيامنا هذه سوى لواء من ألوية الجيش. لقد مكثه الطاوور، كما مكن جنوده ومكن البرازيل كلها، من مشاهدة المأساة البرازيلية على حقيقتها. لقد فتح الطاوور دروب الثورة البرازيلية.

لقد جاءوا من ريو غراندي، يا صديقي. لقد حقق نقيب مجهول من فرقة الهندسة، أصبح فجأة لواء، ضرباً رائعاً من الشجاعة، نهاء عن القيام به الرؤساء الثوريون أنفسهم. وفي بارانا تشكلت قوات برستس وميفيل كوستا، ومنها ابتدأت الرحلة الكبرى. لقد كانت البرازيل هناك أمامهم، وذهبوا ليشعلوا الثورة في كل مكان. ولم يكن هؤلاء الرجال قد بدأوا يعرفون، في ذلك الوقت، ماذا كانوا يريدون. ولها لو كانوا قد سئلوا عما كانوا سيقومون به في حالة انتصار الثورة، لأجابوا بعبارات بليغة وببضع شعارات، ما كان بمقدورها ان تتناسب بشيء مع ضروب البطولة التي سبق لهم ان حققوها. وانهم لم يفهموا ما كانوا يريدونه سوى في نهاية الرحلة. فمنذ سنة ١٩٣٠، قدم التحالف التحريري مطالب واضحة للبلاد، ناتجة عن تجربة الطاوور. وفي سنة ١٩٣٠ كذلك، قبل وقت ليس بالقليل من التحالف التحريري، كان رئيس الطاوور، برستس، قد أذاع بياناته على الأمة. ولقد تفهم، خيراً من أي انسان، مشاكل البلاد وعرف الوسائل الحقيقية لحلها.

وخلال السير، لم يقدم أي إنسان أكثر منه، معارفه للآخرين. ولم يتعلم أي إنسان أكثر مما تعلم هو.

وتقدم الطابور عبر البامبا والسر تونات والصحاري والغابات العذراء، يا صديقي. وكان الرجال الطويلو اللحي والشعر، يرتدون الجلد كزعة البقر، ويحتدون أحذية السرتانيجوس نفسها، وكانوا يذكروننا بالصمصوم، بالأنبياء، ويشبهون شعب داخل البرازيل. ولكنهم كانوا أنبياء من نوع جديد، فما كانوا يحملون الموت أو انتقام اليأس. لقد كانوا يحملون الحرية، يحملون حلم قيام برازيل أفضل، أكثر جمالاً وأوفر عدالة.

لقد كان طابور برستين يحمل معه رغبات وآمال وأحلام ومشاكل البرازيل. وإن ملايين من الرجال، كانوا قد وضعوا فيه كل أملهم، ما كانوا يعيشون إلا من أجله. وإن فرقاً جيدة التسليح، جيدة التجهيز، جيدة المراتب، وتفوق الطابور بعشرين مرة، هُزمت مرة، مرتين، عشر مرات، ألف مرة. إن كل يوم كان يشاهد معركة تستمر، وكان يشاهد انتصاراً. لقد كان للويس كارلوس برستس، يا صديقي، عبقرية الجنود العظماء. وإن الاستاذ الذي لم يكن يفهم مسابقاته عن الاستراتيجية العسكرية، والذي كان يعطيه علامات مجاملة، كان على حق. إن ثمانية عشر الواء قد هُزموا بفضل استراتيجية الاستاذ أففي سرتونات البرازيل، أحدث تلميذ المدرسة العسكرية القديم ثورة في الاستراتيجية كما فعل في أيامنا هذه الألوية السوفياتيون الشباب. إن الشعب، يا صديقي، هو ثوري بصورة خاصة، وقد صنع رؤسائه لكي يغيروا علم العالم وحياته. واستطاع بطل الشعب، على رأس رجاله الألف، وبفضل كفاءته العسكرية، أن يستحوذ على اعجاب أكثر الألوية الهرمين ثقافة.

لم يكن الأمر يتعلق بالتدليل إلا على الشجاعة في المارك وعلى المخاطرة بالحياة في كل آونة. لقد كان يتوجب تهيئة تصاميم للانتصار، والشعور بالفترة الخطرة وإيجاد الوسيلة للخروج منها. لقد كان هذا الصبي ذو الستة والعشرين ربيعاً يعزف فن الحرب كأكثر الألوية تجربة. وما كان بمقدور

أكثر المقامرين حاسة، وأكثر الألوية مقدرة، ان يراهن بفلس على ان الطابور سيستطيع السير مسافة مئة كيلومتر. لقد كانت تقف في وجهه قوى تفوقه إلى ما لا نهاية، كما كانت تواجهه عدا ذلك: الطبيعة الوحشية والجوع والأمراض ووحوش الغابة العذراء والأنهار غير الصالحة للملاحة وجبال لم يكن قد اجتازها إنسان والأراضي العوسجية والكائنات - ولم يكن هناك أية درب. وسار برستس مع الطابور، مسافة ستة وعشرين ألف كيلومتر.

لقد انتصر على جنود الحكومة، على ثمانية عشر لواء، على فرق تفوق الطابور بعشرين مرة. لقد انتصر على الجوع، على الأمراض التي لا تحصى وعلى الحماية المجهولة. لقد انتصر على الجبال، على الأنهار، على الغابة العذراء وعلى الكائنات التي لا تُحترق. لقد انتصر على يأس السرتون. لقد كان اسمه يشجع حتى أولئك الذين ما كانوا يؤمنون بشيء. وكانت خططه العبقريّة تهب الثقة بالنصر لأولئك الذين كانوا يذهبون للقتال. وكانت شجاعته المادئة مثلاً لأولئك الذين كانوا ذاهبين إلى الموت. وكانت إرادته في التعلم أملاً من أجل المستقبل.

وكان أمل وثقة البرازيل يتوطدان حول الطابور، كلما كان هذا يتابع تقدمه خلال تتابع الأيام. وأخذ المستقبل يفتح الآن أمام أولئك الذين كانوا يائسين. يا له من طابور من نار، من نار الأمل يا له من طابور من فولاذ، من فولاذ الشجاعة يا له من طابور من عدالة ومن حرية. وكان برستس على رأسه. وكان السرتانيجوس يقولون، يا زنجيقي، إن في مقدمته فارس الأمل، وكان رجال الطابور، المتعبون، الوسخون، الجبياع، يتقدمون. لقد كانوا يحملون المرضى والجرحى، ولكنهم ما كانوا يفكرون بالتوقف. وتبدو لنا الحرية، يا صديقي، أحياناً، هي أيضاً، خاضعة وسجينة، ولكنها حتى في هذا الوقت لا توقف سيرها. انها تسير دوماً إلى أمام، وليس ظلام اليوم سوى النذير بصباح وضاء؛ تلك هي رسالة الطابور.

واليوم أيضاً يجتاز رجال الطابور سماء البرازيل، فوق السرتونات وفي

هدير الانهار، في ضجيج الشلالات، يتحدث عنهم السرتانيجوس، وهم يفكرون ببرستس. لقد حل هؤلاء الرجال الذين اجتازوا البرازيل، الأمل للتعساء. وفي أحد الأيام سيعودون، وعندها سيهبون الحرية إلى الأبد للأشخاص المحررين.

وليس بعيداً هذا اليوم، يا صديقتي.

- ٣ -

عندما كان لويس كارلوس برستس، يا صديقي، قد أبلَّ من مرضه، كانت ثورة سنة ١٩٢٢ قد مُنيت بالاخفاق. وكان رئيس الجمهورية، ابيتاسيو سوا، يتهدد ليسلم الحكم إلى الرئيس المنتخب، آرثور برناردس: وهو رجل لا يعرف الضحك. وكان جاكسون دو فيغاريدو هو ساعده الأمين، يعاونه في ذلك بضعة قتلة بغضو الذكري: أعضاء « ميليشيا » دو غرافو فرمليو، أول منظمة فاشية في البرازيل. وكان هؤلاء الرجال، وقد قاموا بحملة برناردس الانتخابية، حفنة من اللصوص والقتلة والكسالى، ويضع كل منهم في « عروة » سترته زهرة قرنفل جراء. وكان جاكسون دو فيغاريدو، وهو أحد قراء سان توماس وأحد تلامذة سان الياس دو لوتولا، رئيس هذه العصاة الروحي. وفي ذلك العهد كان الشعب يطلق مختلف كنى الهزؤ والسخرية على المدافعين عن برناردس. ففي ذلك الوقت ظهر مارشال - الظلام، ماجور - البندقية الرشاشة، اللواء رابا - جوز الهند. ان حملة برناردس الانتخابية، التي جرت في جو من التزوير، من تهديد المعارضة ومن فساد جميع المترددين، دفعت شبيبة الجيش نحو ثورة سنة ١٩٢٣. وقد أثار تحرير برناردس إلى رئيس فريقه البرلماني، ذلك التحرير الذي يوجه فيه إليه الأمر بشراء الجيش كله، جميع الألوية، لان « الجميع معرضون للبيع »، كما قال، أثار هذا التحرير اضطرابات واسعة بين العسكريين في جميع أنحاء البلاد. وأقام النادي العسكري، وهو الساهر على تقاليد وكرامة الجيش، دعوى ضد التحرير الذي أنكر برناردس ان يكون كاتبه. ولكن الاختصاصيين أثبتوا ان التحرير صادر حقاً عن مرشح رئاسة الجمهورية. ويظل هذا الحادث مرتبطاً مباشرة بثورة سنة ١٩٢٢، وبالنهاية المسرحية الفاجعة المؤثرة للحصن.

وقرر برستس، وقد أبل من مرضه بالتيفوس، ان لا يحضر حفلة انتقال السلطات. وشعر كل ضابط كان يضطرم في جنباته حس بالكرامة، بانه قد مُس بالشائم التي وجهها برناردس إلى الجيش، وأخذ يذكر الدم الذي سكه ملازمو وجنود كوبا كابانا. واستطاع برستس، بعد ان حصل على مأذونية، ان يحمل القيادة على إلحاقه بحصن ريو غراندي دوسول، حيث سوف يعمل بصفة مفش على بناء الثكنات في داخل الولاية. وكان بناء هذه الثكنات، فضيحة من أعظم فضائح ذلك الوقت. فقد حوّلت المخصصات التي صودق على صرفها عما خصصت له بواسطة ممتني السياسة، وكانت المواد المستعملة أدبي قيمة من تلك التي كانت مسجلة في الفواتير. وكان السياسيون والمفتشون والمهندسون شركاء في الجرم. وفضح المهندس لويس كارلوس برستس، مرة، مرتين، ثلاث مرات، التحولات الفاضحة للمخصصات، للمواد فضح العمليات الدنيئة التي حققت في ما يتعلق ببناء هذه الثكنات، الموضوعة الآن تحت اشرافه. ولكن لم تحظ هذه التقارير بأي اهتمام. فأبرق، ولم يلق جواباً، فطلب ان يُسمح له بالذهاب إلى ريو ليقدّم تقريراً شفهيّاً ويثبت اتهاماته. فلم يُجب إلى ذلك، ولكنه ذهب مع هذا. ولم يجد الوزراء ورجال الأعمال من حل آخر يتعدى إبعاد ثقيب الفرق الفنية الشاب عن مركز عمله. فأرسل برستس لقيادة بناء قسم من الخط الحديدي الذي كان عليه ان يصل، على خط ريو غراندي دوسول، مدينة سانتو انجلو بمدينة كومنداي.

وتعرّف برستس إلى الرشوة المتفشية في الادارة؛ وشاهد كيف تبدّر أموال الشعب، شاهد السرقة يصار إلى معاطاتها بالاتفاق مع قانون الحكومة؛ وعرف بان شكايات المواطنين تتجاهل من قبل المكاتب المختصة، ويعيرها المسؤولون إذناً صماء. لقد ناضل ضد أولئك الذين كانوا يحكمون في سبيل مصلحتهم الشخصية. وها هو الآن، في سكة الحديد، وحيداً مع ثلاثمائة جندي. لم يكن لديه أي ضابط لمساعدته؛ فمن الفجر إلى الغسق، سوف يشتغل اثنتي عشرة ساعة في اليوم، على طريق سكة الحديد؛ مسؤولاً عن كل شيء، واضعاً التصاميم، معلماً الجنود؛ مهندساً وشغياً. وأصبح لويس

كارلوس الآن، كأييه الملازم انطونيو بربرا برستس، على اتصال مباشر بجنوده. انه، وهو يعمل الآن في بناء سكة الحديد، كان مساوياً لجنوده في وسط البامبا. وكانت ظروف الجنود واضحة. فمن بين الثلاثمئة رجل، كان فريق صغير يعرف القراءة. وكان أكثرهم، وقد حطمتهم الفاقة، أميين ولا يملكون أية فكرة عن العالم. ولم يكن برستس يرتاح عند انتهاء يومه، المؤلف من اثنتي عشرة ساعة عمل على خط السكة، تحت وطأة شمس الصيف، فلقد خلق وأدار، وحده، مدرسة لجنوده. انه المدير والاستاذ والمعيد. عندها أخذ الجنود، يا صديقتي، ينادونه: « والدنا »! وهكذا بدأت تلك المودة مع جنود البرازيل، مع شعب البرازيل الذي يتزايد يوماً بعد يوم. وفي أقل من ثلاثة أشهر، تعلم تسعون بالمئة من الجنود القراءة والكتابة. انهم الآن يستطيعون فهم نقيب الفرق الفنية الغريب هذا، الذي كان خلواً من كل مظاهر التصنع، التي كثيراً ما ترافق حامل « الشرائط »، والذي كان يُنظر إليه كجندي مثلهم. تلك كانت ميزته العجيبة. ان برستس، الانساني والعالم، هو والد لجنوده. انه رئيسهم، والدهم ورفيقهم ويتحدث عنه جنود الكتبية، والدموع في عيونهم. ولم يكن يوجد بالنسبة إليهم شخص أفضل منه، أكثر علماً، أكثر عدالة وأعظم أخوة.

في ذلك العهد، يا صديقتي، أخذت القوى الثورية في البلاد تتحرك من جديد. وخلال سنة واحدة من الحكم، كانت حكومة برناردس قد طمست جميع تجاوزات الادارة على القوانين، وازدادت الأخطاء الحكومية خطورة، وأنشئ نظام بوليسي في البلاد. وجعل الثوريون يتآمرون من جديد، وضمت هذه المؤامرة في كنفها قوى سياسية هائلة، وابتدأت التهيئة للثورة الجديدة بصورة محومة. وكما في السابق، كان برستس في وسط الثوريين: لقد تعرف إلى الفضائح الإدارية وإلى حياة الجنود الصعبة.

انه لنقيب غريب، لويس كارلوس برستس هذا، يا صديقتي. لقد كان يفكر بانه كان عليه ان لا يشور، بصفته نقيباً. ألم يقسم يمين الإخلاص للسلطات الحاكمة! فلنكي يريح ضميره، طلب مأذونية وأخذ يقوم باجراءات

لمغادرة الجيش. وبانتظار صرفه من الخدمة، جعل يشغل كمهندس مدني. فأنشأ مراكز الانارة الكهربائية في مدن دو كوشو، سانتو أنجيلو، وسانتياغو دوباو كيراو، وغيرها. وتوصل، بقيامه بهذا العمل، إلى حل عدة مسائل تقنية. لقد كان عليه ان يجلب من مكان عظيم البعد تياراً كهربائياً عالي التوتر. وقام بالأعمال، بالخزم والبراعة والسرعة المعروفة عنه. ذلك كان الشكل الذي يفهمه لويس كارلوس عن الإدارة.

وهب الثوريون في سان باولو، صانعين من جديد انتفاضة شبيهة بانتفاضة الخامس من تموز وكان ايزيدورو لويس وميغيل كوستا، على رأسهم. فطلب برستس مجدداً صرفه من الخدمة. ولما لم يأت الجواب، لم يكن بمقدوره الانتظار أكثر مما فعل. وخيمت الثورة على البلاد، وازداد الاستياء. وفي التاسع والعشرين من تشرين الأول سنة ١٩٢٤، ثار برستس مع كتيبة عمال السبك الحديدية في سانتو انجيلو، أولئك الذين كان قد علمهم القراءة. وثرك المهندسين والاستاذ والرجل النظري، ترك في هذا اليوم أدوات عمله، ليرتدي ثوبه العسكري، ويظهر للبلاد وللعالَم، في الوقت نفسه، عبقرية العسكرية وشجاعة شعبه.

بعد مرور سنتين على ثورة سنة ١٩٢٢، كان اللواء ايزيدورو دياس لويز قد استولى على قيادة الفرق، في سان باولو، وكان يقف إلى جانبه فريق من ضباط الجيش ومن الشرطة العسكرية في ولايتي سان باولو وماتوغروسو، كان من بينهم ميغيل كوستا والاخوان «تافورا» و«جواكين» و«جيارز» و«باديليا» و«مسكيتا» و«منديس تيشيرا» و«ادواردو غوميس» - أحد الذين ظلوا أحياء من حصن كوبا كابانا - وكاباناس، ورؤساء هرمون مثل جويلا أفرنسيسكو. ومن الخامس حتى السابع والعشرين من تموز، سيطر هؤلاء على المدينة. وكان جواكين تافورا، المحبوب من الجنود، الشجاع والمناضل، روح الحركة. وبعد ان جرح جرحاً خطراً خلال هجوم قوى الشوار ضد كتيبة الشرطة الخامسة، قضى نحبه، وشكل موته بداية لانهاية الثورة في سان باولو. ان «ايزيدورو»، الذي لم يكن يفهم ان بمقدوره ان يجد

عوناً له في جواهر سان باولو العالية، والذي خشي مغبة تسليح الشعب، منع القوى الثورية من التزايد. وفي ذلك الوقت، كان تحت أمرة «ايزيدورو» في سان باولو ما يقرب من ستة آلاف رجل. وكان جنود الحكومة الثانية عشر ألفاً، الذين يفوقونهم بثلاثة أضعاف، يحاصرون المدينة من الشمال والشرق. وعدا ذلك، كان أكثر من عشرة آلاف رجل يتقدمون أو يتجمعون ليكملوا تطويق المدينة. وكانت طوابير تهبط من «ميناس جيرائس» نحو منطقة الشمال - الغربي. ومن ماتو غروسو في الجنوب الغربي، جاءت كتيبة الحرس العسكري. وتجمعت كتيبة «أزليدو كوستا» في «ايتابيتنغا»، لتهاجم المدينة من الجنوب. وبين الفرق التي كانت على استعداد للقتال وتلك التي كانت في طريق معاودة التجمع، كانت حكومة «برناردس» تملك في ضواحي سان باولو ما يقرب من ثلاثين ألف رجل يوجهون ستة آلاف ثائر من نوار «ايزيدورو». فقرر الرؤساء الثوريون ان يتخلوا عن المدينة وان يتوجهوا، مع فرقهم، نحو النقاط التي يمكن متابعة الثورة فيها. وفي الليلة الواقعة بين السابع والعشرين والثامن والعشرين من تموز، غادرت القوى المتمردة سان باولو، ووصلت، وقد سارت باتجاه خط السكة الحديدية، إلى مدينة بوري.

وستشكل ثورة الأسطول، بعد ذلك ببضعة أشهر، هي أيضاً، اندحاراً جديداً. ان السفينة «سان باولو» هي التي سترفع وحدها علم الثوريين الأحمر. ولما لم تحذ السفن الأخرى حذو «سان باولو»، حولت هذه، بعد ان تبادلت طلقات المدفعية مع إحدى قلاع خليج ريو دي جانيرو، اتجاهها نحو الجنوب، وقد قرر من عليها ان يسلموها إلى سلطات الأوروغواي، في مرفأ مونتيڤيدو.

ووصل «ايزيدورو» بسكة حديد «باوليستا» إلى «بوري». ومن هناك، قررت الفرق الثورية ان تتوجه شطر مصب «الايفاسي»، حيث بمقدورها ان تهدد ثلاث ولايات: البارانا، السانتا كاتارينا وخاصة ريو غراندي دوسول، حيث كان ينتظر قيام انتفاضة بين آونة وأخرى. ومن بوري، توجه «ايزيدورو» مع فرقة نحو مرفأ «جواكين تافورا»، حل الشاطئ الشمالي لنهر

بارانا، بسكة حديد «سوروكابانا». ولكن السكينة لم ترافق الانسحاب؛ فإن الجنود الخاضعين لقيادة الماجور «جوريس تافورا»، والذين يشكلون جناح القوى الثورية، اشتركوا بسلسلة معارك في «فيتوريا»، وفي «اركايو» و«بوتوكاتو»، فيما كانت قوى المؤخرة التي يقودها اللواء «ميغيل كوستا»، تقاتل في سلتوغراندي، في باراغوسو، في أغوا كلارا، في أنديانا، في سانتو أناستاسيو وفي كواتاوكيايو.

وعند وصول الثوريين إلى «جواكين تافورا»، اضطروا لمواجهة القوات الحكومية التي يقودها الزعيم «جرمنونشان»، والمعسكة على الضفة اليمنى للبارانا. وحاول إيزيدورو على رأس فرقة الاستيلاء على «ناتوغروسو». وهاجم المدينة من ناحية «تري لاغواس»، حيث تنطلق سكة حديد شمال-غربي البرازيل. ولكن المقاومة التي اعترضته حملته على الإقلاع عن عزمه، واضطرته إلى التوجه شطر «ايغواسو». فهبط البارانا وذهب ليقم مركز أركان حربه على الضفة الشمالية، في منطقة «غويرآفوز» في إيغواسو.

وتتابعت المعارك. وهُزمت القوات الحكومية التي كانت تحتل مرفأى جاكاريه ود. كارلوس، والتي يقودها الزعيم بريكل دو ألبوكيركي، كما هزمت فرق غويارا، التي يقودها النقيب غارسيا فييجو، الذي لم يكن مزوداً بسوى فرق صغيرة من حرس الطليعة، المسلحين، بصورة خاصة، بالسكاكين والمسدسات، وغير المزودين بأية بندقية أو بأية قطعة من المدفعية.

في الوقت الذي تركزت فيه القوات الثورية في منطقة إيغواسو، على استعداد لبدء حملة بارانا، كان يبلغ عددها ثلاثة آلاف رجل مسلح، أي نصف العدد الذي كانت تملكه ساعة خروجها من سان باولو. وكان الباقون قد ماتوا في القتال عبر الطرق، هربوا أو سقطوا مرضى. وانتشر رجال إيزيدورو الثلاثة آلاف في منطقة واسعة. انهم سيئو التسليح، منهوكون القوى من السير ومن القتال. وتقف في مواجهتهم فرق ارثور برناردس، بعدد يبلغ أربعة أضعاف عددهم، من جنود مرتاحين ومزودين بالمدفعية الثقيلة

ومدفعية الميدان والجبال، وبالأسلحة الأوتوماتيكية وبمئات الألوف من القذائف. كان ثلاثة ألوية مشهورون بأنهم أقدر من في البلاد، يقودون الاثني عشر ألف رجل هؤلاء، وهم: كاديرو روندون، الذي توج بالغار لنشاطه التبشيري الكاثوليكي بين الهنود، والذي يعرف المنطقة معرفة تامة، وقد سبق له ان تعرف إلى جميع المناطق البرازيلية الداخلية، والذي كان يُعتبر خير من يستطيع القتال على هذه الأراضي، وسيزفريدو وكواكنيو. وكان خطط القتال يمتد على طول مئة ميل. وتناحرت المعارك خلال سبعة أشهر، دون ان يتوصل الحكوميون إلى القضاء على الفرق الثورية الهزيلة. وجرى القتال في غواراباسا، وفي جبال ميديروس، خلال أربعين يوماً وأربعين ليلة. ولم يكن رجال الحكومة الاثنا عشر ألفاً بكافين ضد ثلاثة آلاف ثوري. وحاول برناردس ان يربح وقتاً. واقترح أحد رجاله، وهو نائب، وصديق للواء ايزيدورو، على رئيس الثورة اجراء مقابلة في ليبروس، في الخارج. وقد اغتنمت الحكومة فرصة هذه المفاوضات، التي كادت تتخذ شكل هدنة، لتعزيز قواتها. وكما كان من الواجب ان يتوقع، لم يتوصل النائب وإيزيدورو إلى أي اتفاق. ولكن برناردس توصل إلى الغاية التي كان يهدف إليها. لقد حصل على الوقت اللازم لتعزيز قواته العاملة. وهو يريد ان يسحق قوات ايزيدورو، قبل ان يتاح لطابور برستس، الذي كان قد غادر ريو غراندي، ان يتصل بالقوات «الباولستية»^(٦). وفي السابع والعشرين من آذار سنة ١٩٢٥، أحرزت القوات الحكومية انتصار كاتندوفاس؛ استولت على المدينة، ووجد جيش ايزيدورو نفسه في وضع شديد الصعوبة، لم يستطع التخلص منه إلا بفضل قوات لويس كارلوس برستس.

في ليل ٢٨ - ٢٩ تشرين الأول، اندلعت الثورة في ريوغراندي، في عدة نقاط من الولاية. فثار ضباط ورؤساء في الجيش على رأس جنود ومدنيين. وفي هذا الوقت، أثار برستس، هو أيضاً، عمال السكك الحديدية في منطقة ميسوس.

(٦) قوات سان باولو.

وبعد سلسلة من المعارك، اجتمع الزعمان «هونوريو دوليموس» و«ريكانيتو»، واجتازا الحدود إلى الأوروغواي. وبعد فترة من الزمن في كانون الأول، سار جوليو بزيوس، على الطريق ذاتها. وصمدت فرق برستس وحدها وهي تقاتل في «ايتاكي» و«توباسيرتان». لقد مرء على برستس شهران وهو يقاتل في منطقة ميسوس. وكان على علم بوجود ثورين آخرين مسلحين في الجنوب وفي منطقة الجبال. ولكن هزيمة «هونوريو دوليموس» و«زيكانيتو» ودخولها الأوروغواي، تركت برستس وجنوده الألفين (ذلك كان عدد جنود الطابور) وجهاً لوجه أمام عشرة آلاف وخمسة جندى حكومي. وقرر برستس أن يصعد نحو سانتا كاتارينا ويذهب للقاء قوات إيزيدورو. وطوّقه عشرة آلاف حكومي في منطقة نهر الأوروغواي العسكرية. وبحركة عبقرية حطم برستس الطوق، قاتل في كونسيسايو، في رامادا، في كامبوس نوفوس، هزم قوات اللواء لوسيو استيفس، وتبع مجرى نهر الأوروغواي حتى بورتو فليز. ودخل منطقة كونتستادو.

واستمرت حملة كونتستادو شهرين أيضاً. ولم يترك برستس، وقد وقع بين قوات اللواء بيم وقوات كلاودينو نونس، «ماريا بريتا» في أكمل نظام ممكن، ولكنه، وقد شق طريقه خلال منطقة اشتهرت بأنها لا تُحترق، قد توصل إلى خدع خصميه إلى الالتقاء بهما الواحد ضد الآخر. وقاتل بيم كلاودينو أحدهما الآخر ليلة كاملة. القتال دام بشكل خفيف، وكل من القائدين واثق بأنه يقاتل قوات برستس. ولم يكتشفا إلا في الصباح الخطأ الفاجع الذي ترديا فيه، ولكن قوات برستس كانت قد أضحت بعيدة. وبذلك قام الزعيم، البالغ من العمر السادسة والعشرين، بشورة في فن لستراتيجية.

إن برستس، وقد عمل على اتصال فرقه بفرق الزعيم فيدانسو دوميلو، قد شق طريقه على هذه الأراضي الخالية من الدروب وتوجه نحو منطقة ايغواسو، حيث جيش إيزيدورو وميغيل كوستا. وبعد عدة معارك وعدة

حوادث هرب، تقلص عدد الطابور إلى ثمانية رجل، لا يجدون ما يأكلون ولا ما يرتدون؛ غلاظ شعورهم تتساقط على اكتافهم، لا يملكون سوى القليل من السلاح، ويكاد لا يكون لديهم أي حصان. وكان برستس يفكر دوماً بمهاجمة مؤخرة قوات اللواء روندون، واجبارهم على ان تضع نفسها بين فرقة و فرق ايزيدورو. ولكن الانتصار الذي أحرزه روندون في كاتاندوفاس، ضد ايزيدورو، حال دون تحقيق هذه العملية. وفي هذا الوقت، أخذت فرق سان باولو تقاتل متراجعة تحت ضغط قوات حكومية تفوقها بعدة أضعاف. وعندما وصل برستس إلى منطقة ايفواسو، ذهب إلى ايزيدورو وإلى الرؤساء العسكريين الآخرين لمباحثتهم حول الثورة. وكان يُنتظر وصوله إلى « فوز » في، « ايفواسو »، انتظار المخلص.

وكانت البعثة العسكرية الفرنسية التي تدرّب الضباط البرازيليين الفتيان، يا صديقي، دائماً من أنصار حرب الخنادق، تلك الاستراتيجية التي كان عليها، وقد ارتكزت على خط ماجينو، ان تقود الجيوش الفرنسية في سنة ١٩٤٠ إلى انهيار سريع أمام القوات الألمانية. ولم يكن بمقدور استياد برستس، الذي سبق له ان منح تلميذه هذا علامات سيئة بالستراتيجية، فهم حرب الحركة التي كان يفكر فيها هذا التلميذ، مثله في ذلك مثل غابيلان الذي كان في ذلك العهد رئيساً للبعثة الفرنسية في ريو. وقد سبق لبرستس ان كتب إلى ايزيدورو يقول: « بالنسبة إلينا، نحن الثوريين، الحركة هي الانتصار. الحرب في البرازيل، في أي مكان حصلت، هي حرب حركة ». وبدأ ايزيدورو، الذي كان قد تحصن في منطقة ايفواسو، يدفع غالياً ثمن اخلاصه لحرب المواقع. انه لم يكن يرى، كما يرى برستس، ان حرب المواقع تناسب، أكثر ما تناسب، الحكومة التي تملك معامل الذخيرة وتصلك العملة وتملك عدداً كافياً من الأمنيين لكي ترمي بهم ضد رشاشات المتمردين.

وبينما كان برستس يتوجه نحو مصب الايفواسو، كان ما يزال يأمل بانه سيقنع الرؤساء الثوريين بضرورة القيام بحرب الحركة وبترك البارانا للفرق الحكومية وبالتفغل في داخل البرازيل. وبذلك يمكن انقاذ الثورة بانتظار

ثورة فرق وطوابير أخرى. وإن أصدق دليل على أفضلية حرب الحركة، قد أعطي بالسير الذي انتهى هو نفسه من انتمائه. وهو، وقد أسهم في حصار سان لوليس، قاد رجاله، - ألفان في أول الأمر، ثمائثة في آخره -، حتى إيفواسو، هازماً عشرة آلاف وخمسمئة خصم، بجنازاً ألفاً وخمسمئة كيلومتر ومحطاً معنويات القوات المعادية.

وفي الثاني عشر من نيسان سنة ١٩٢٥، عُقد مؤتمر الرؤساء الثوريين عند مصب الأيغواسو، وحضره: ايزيدورو، ميغيل كوستا، باديليا، مانديس لتيشيرا، غيتار، الفارو دوترا ودموننت.

إنها أصعب مرحلة من مراحل الثورة، يا صديقي. معنويات الفرق والضباط في المخطط عميق، الهرب هي الكلمة التي تردد دائماً. «جوان غاي» و«فيليننو مولر» يطردان من صفوف الطابور: إنهما رجلان مناهضان للثورة، يحرضان الناس على الهرب، لاجتياز الحدود إلى الخارج، ويخلقان جواً من الهزيمة. ضباط عذبون آخرون يذهبون، جنود كثيرون يهربون. وتبدو الثورة وكأنها قد اخفقت. إن هزيمة فرق ايزيدورو في كاتاندوفاس، ترمي بثقلها على ذهن الجيش. ولم يرفع قدوم رجال برستس الثمانية، مع «سيكويرا كامبوس» و«كورديزودي فازيا» و«جوان البرتو»، القادمين من الجنوب، معنويات فرق سان باولو. هناك ألف وثمانئة رجل لا يجدون فعلاً ما يأكلون. لقد اجتازوا، منذ سبعة أشهر، في كل الجهات، الأرض التي يقاتلون عليها، ولم يبق لديهم أي طعام. الخونة يروجون أخباراً رهيبة. ووحسن طرد «فيليننو» و«غاي»، الذي قرره برستس، الوضع فوراً. ومن الآن وصاعداً لن يفكر أولئك الذين يودون الهرب، بجرا أناس معهم. سيذهبون وحدهم. ضباط وجنود يهربون، حاملين مؤناً ومالاً. والحقيقة أنه لم يبق سوى القليل من الضباط، القليل من الجنود، القليل من المؤن والقليل من المال.

وعندما افتتح مؤتمر الرؤساء الثوريين، بدا أن الاتجاه نحو تصفية الثورة هو الذي سوف يفوز. ولكن اللواء الذي يبلغ السادسة والعشرين من العمر،

القادم من الجنوب ، والذي كان قد احتفل بعيد ميلاده وهو يقاتل ، في رامادا ، شرع بالكلام وبدأ تقريره بان أعلن انه هو وجنوده لن يذهبوا ، حتى فيما لو ذهب الجميع ، حتى فيما لو اعتقد جميع الآخرين بان الثورة قد فشلت . هو ورجاله سيتابعون النضال . وأعلن برستس انه سينجاز البرازيل هو وطابوره . سيدخل ماتوغروسو ، ويتوجه بعد ذلك نحو الشرق ويهدد عاصمة البلاد . وكان لهذا الكلام تأثيره الآسر على الرؤساء الثوريين ، وأصدروا قرارهم بسفر الطابور إلى داخل البلاد وبصالح متابعة الحركة الثورية .

ان هذا اللواء ، هذا العبقرى . ذا الستة والعشرين ربيعاً ، الذي كان بالأمس نقيباً ، والذي قاتل منتصراً خلال خمسة شهور مضت ، كان يؤثر تأثيراً سحرياً على الألوية ، على الزعماء ، على رؤساء الجيش الهرمين الذين استعادوا شجاعتهم وأملهم . وسلم ايزيدورو ، الذي كان عليه ان يذهب إلى الأرجنتين للدفاع عن مصالح الثورة ، قيادة رجاله إلى برستس وإلى ميخائيل كوستا . ولا يستطيع برناردو باديليا ، اللواء الآخر ، ان يبقى في منصبه : صحته لا تسمح له بذلك . وأصبح الماجور ميغيل كوستا ، الآن ، القائد الأعلى . وعُين النقيب لويس كارلوس برستس زعيماً ورئيساً لاركان الحرب : وأحبط الجنود علماً بمجريات الأمور . عليهم ان يتوغلوا في داخل البلاد ، لا كجنود ثورة مندثرة ، بل كجنود ثورة تناضل من أجل النصر . ان السير الكبير سيبدأ ، يا صديقتي .

- ٤ -

لقد توجب في أول الأمر، يا صديقتي، النضال ضد السفلة، ضد الخونة، ضد الكفرة، ضد أولئك الذين كانوا تحت تأثير الخوف أو النية السيئة أو عدم اصالة النظر في الحوادث، يعارضون تقدم الطابور ويعلنون بأن الثورة قد فشلت. ولم يكن السير الكبير قد بدأ بعد، عندما لاحظت قوات ريو غراندي دوسول وقوات سان باولو - أي قوات برستس وقوات ميغيل كوستا التي كانت قد توحدت - بأن عددها بدأ يتناقص بشكل يثير القلق. ان هزيمة كاتاندوفاس الحديثة العهد، وكون الفرق الثورية محاصرة وموضوعة، حسب تعبير اللواء روندون، « في قنينة مقفلة »، والمخفاض معنويات الضباط والجنود الجياع، العائشين منذ أشهر حياة تكاد تكون بهيمية، وتأثير جراحهم المخيفة، كل هذا كان يشكل دعوة للهرب إلى الخارج. وبالقرب منهم توجد حدود البلاد التي تطفئ لهيب جوعهم وترد إليهم حريتهم، البلاد التي يجدون فيها راحة وصحة. ومن الناحية الأخرى من الحدود، يوجد سر البرازيل غير المكتشفة، الخالية من الطرق، يوجد عدو أقوى بألف مرة، كما يوجد الجوع، والأمراض الموضعية الخاصة بداخلية البلاد، وتوجد الانهار المجهولة وجبال الغرب. وبالنسبة للكثيرين منهم، كانت فكرة الضباط برستس مستحيلة التحقيق؛ كيف يمكن اجتياز هذه البرازيل غير المحدودة؟ « أراضٍ إلى ما لا نهاية »، كتب أحد الشعراء في أحد الأيام، يا صديقتي، وهو يتحدث عن البرازيل. أراضٍ مغلفة بالأسرار، بأساطير، بأوهامها، بأمراضها - الملاريا، التيفوس، البرص الحمى الصفراء - بحمياتها المختلفة الألوان، الجائلة بصورة فاجعة عبر البلاد حلم فاجع! وكان الضباط والجنود الممتلئون رعباً لا يرون في هذه الرحلة سوى فاجعة، سوى مأساة لم يسبق لها مثيل في الماضي. وأخذ البعض يذكر

انسحاب لاغونا خلال حرب الباراغواي . ولم يكن هذا اليعد شيئاً يُذكر بالقياس لحلم برستس العقيم . على هذا النحو كان يفكر السفلة ، الخونة ، أولئك الذين كانوا لا يريدون ان يروا ان هذا السير وحده هو الذي يستطيع ان ينقذ الحركة الثورية ، أولئك الذين كانوا لا يرون في هذا النقيب عبقرية عسكرية ، ولدت في أميركا ، لا يرون فيه وريثاً « لبوليفار »^(٧) و « لسان مارتين » ، ولا يفهمون ان منهجه لم يكن لا مجنوناً ولا عقياً ، بل نتيجة لئالي طوال من الدرس ولحدس يقرب من الأعجوبة .

في الأدغال ، في الغابة العذراء ، في هذا العالم المجهول وهذه الطبيعة الخطرة ، كثير من الضباط والجنود والمدنيين أخذوا يفرون ؛ لقد تملكهم خوف من الموت . وكانوا يقولون : « نحن لا نريد أن نتحرر » . ولكن الكثيرين ظلوا كذلك . ووثقوا . فان السير الذي قام به برستس منذ ريو غراندي ، أقنعهم بانهم يواجهون لواءً جديراً بتحقيق مآثر عسكرية كبرى . ماذا تهم الطبيعة المتوحشة والأمراض والمصاعب ومكان الموت في كل لحظة ؟ الموت هو امرأة جميلة ، وعلى كل فارس بارع بفن الحب ان يحسن مغالته والسيطرة عليه كما يُسيطر على امرأة جميلة : ببطولة وحياة متوقدة النشاط .

« محصورون في قنينة » ، ذلك ما قاله روندون بابتسامة خبيثة . وبين ذهشة الخضم الكبرى ، حطم برستس « قعر القنينة » . لقد قرر اختراق حدود الباراغواي ، واجتياز البلاد مع قواته والدخول بهذا الشكل إلى ماتو غروسو ، في وجه العدو الهازي .

وبدأت القوات الثورية ، في أول الأمر ، تقاتل متراجعة . وشق برستس لنفسه طريقاً ، من سائتا ايلينا ، حيث توجد معظم قواته ، إلى بورتو منديس ، حيث كانت هذه القوات تجتاز النهر لتدخل الباراغواي .

وبدأ سيرهم البطولي في الثلاثين من آذار . ولم يكن قد بقي من الطابور

(٧) لواء ورجل دولة أميركي ولد في كاراكاس (١٧٨٣-١٨٣٠) ، حاول تحرير بعض بلاد أميركا اللاتينية من النير الإسباني ولوحدها (ملاحظة من المَعْرَب) .

القادم من سان باولو، بعد حوادث الحرب وخسائر المعارك، سوى سبعة رجل. أما في ما يتعلق بالطابور، الذي عاد إلى اجتياز ريو غراندي تحت قيادة برستس، فقد حافظ على رجاله الثمانية الذين كان يملكهم ساعة وصوله. وقد دلّ طرد الخونة المثالي، من أمثال فيلنتو، على حزم الرئيس. وكانت الفرق التي حققت، تحت قيادة برستس، السير الأول البالغ مئتين وخمسين فرسخاً، تؤمن بقائدها وبمشروعه. وكان برستس، بالنسبة لجنوده، نوعاً من اله النصر، اله المعارك، وكان صديقاً أيضاً. إنه لم يكن يتخلّى عنهم.

وتم الإنسحاب نحو بورتو منديس بنظام كامل. وكانت الطريق التي شقها برستس، تسمي للفرق بالوصول إلى ضفاف بارانا. ها هم أمام البارانا، أمام هذا النهر الذي يشكل حداً للبرازيل، وللباراغواي وللارجنتين. وكان عرض المكان الذي تفكر قوى الثورة باجتيازه يبلغ خمسمائة متر. ان جنود برستس هم هنا، يا صديقي. إنها الفترة التي سيحطمون خلالها « قعر لقنينة ». تطلعوا نحو المجرى الهائج الذي يفتح بشكل دوارت، إن الموت يهدر في جزئي النهر السريع. إن من الصعوبة اجتياز النهر على هؤلاء الألف والخمسمائة من الرجال الذين لا يملكون سوى مركب صغير، « الأسّي برازيل »، بالآلات معطلة، وسوى قارب واحد. هناك رجال، - ضباط وجنود -، وهناك نساء، بائعات المون للعساكر، اللواتي يرافقن الطابور، واللواتي يفوق جبهن للجنود الذين يتبعونهن جميع المصاعب، وهناك كذلك ألف وخمسمائة حضّان. وفي الناحية الأخرى من النهر، بلاد أجنبية، ستخترق حدودها، تسيطر عليها حكومة صديقة لتلك التي يقاثلها هؤلاء الرجال. كيف سيستقبلون؟ ألن يجدوا الموت في الباراغواي، فيما إذا سلموا منه في النهر؟ وفي هذه الفترة الأخيرة من عدم الاستقرار، فرّ بعض الضباط والجنود: لقد كان يبدو لهم باطراد، ان منهج برستس هو مغامرة غير محمودة العواقب. ولكن الجنود ثبتوا في أماكنهم. بالنسبة إليهم لم يكن هناك من شيء خارج نطاق الثقة الهائلة المؤثرة التي يمنحونها رئيسهم. ووصلوا إلى أمام البارانا في السادس والعشرين من آذار. وكانت أكثر المسائل استعصاء على

الحل هي مسألة وسائل النقل لاجتياز النهر . من البديهي ان لا يكفي لذلك المركب الصغير ، « الأسي برازيل » ، بمحركاته المعطلة ، ويكمن الخطر في كون قسم واحد من الفرق يمر بينما يتعرض القسم الآخر للنار العدو ، على الضفة البرازيلية . ولكن في صباح السابع والعشرين وصل إلى بورتو أدريلا المركب « بل » ، رافعاً علم الباراغواي . فأرسل برستس جوان ألبرتو للاستيلاء عليه . واستولى هذا الضابط ، الذي برهن منذ وصوله من ريو غراندي على انه جندي ذو مناقب خارقة ، على المركب بعد معركة قصيرة . فأصبح الثوريون يملكون الآن مركبين لاجتياز النهر . واجتاز جوان ألبرتو النهر على القارب ، وهبط أراضي الباراغواي وسلم قائد الحصن رسالة يفسر الثوريون فيها حركتهم ويطلبون السماح لهم باجتياز أراضي البلاد الشقيقة ، متعهدين بالقيام بهذا الأمر بنظام كامل .

وفي الثامن والعشرين من نيسان ، اجتازت الفرق الثورية البارانا ودخلت الباراغواي . وفي التاسع والعشرين منه ، وصلت أولى الدوريات العدو إلى « بورتو ارتازا » و « بورتو منديس » ، حيث كانت تعسكر قوات برستس . وكان روندون واثقاً بأن برستس وجنوده متكبدسون على ضفاف نهر بارانا ، في قعر « قنينته » الشهيرة . وما لبث ان أحيط علماً بأن القنينة لم يكن لها من وجود بالنسبة لبرستس .

لقد كان على جنود الطابور اجتياز مئة وخسة وعشرين كيلومتراً في أراضي الباراغواي ، والوصول إلى حدود ولاية ماتوغروسو . وسارت طلائع القوات ، بقيادة جوان ألبرتو ، في الثامن والعشرين من الشهر ، وسار القسم الأكبر ، مع القيادة العامة ، بعد ظهر التاسع والعشرين منه . وفي المؤخرة ، كان يحرس المدفعية الكتيبة التي يرأسها النقيب آري ساغالدفريير . وكانت المدفعية تتقدم بصعوبة عبر بحاري المياه والمستنقعات . وكان يتوجب ، في أحيان كثيرة ، سحب المدافع عبر الأنهر ، مع ما كان يتعرض إليه هذا الأمر من صعوبات خارقة . وقرر برستس ، بعد ذلك بفترة وجيزة ، ان ينخلي عن المدفعية التي لم تكن تستطيع ان تقدم له عوناً كبيراً خلال سيره .

وكانت الفرق الثورية تشكل لوحة ممضة من البؤس. وكان الرجال، المرتدون الاسمال والمحتذون أحذية مثناة أقسامها الخلفية إلى الداخل، الهزالي والمفتقرون إلى الرقاد، قذرين غلاظاً. ولقد قام برستس بكل هذا السير، البالغ مئة وخمسة وعشرين كيلومتراً، سيراً على قدميه، لكي يستطيع جنديّ متعب أو جريح ان يستعمل حصانه. وعندما كان يرى جندياً منهوك القوى، غير قادر على متابعة طريقه، ولا على سحب جسمه المتداعي تعباً، كان يهبط عن راحلته ويقدمها للجندي، ويسير هو، اللواء، القائد المنتصر في العديد من المعارك، على قدميه، كأبسط الجنود الراجلين. وكان الجيش كذلك يضعه من نفسه في القلب، ويتحمل، دون أي ظلٍ من تردد، جميع المتاعب والمصاعب. ان أحداً لا يستطيع ان يبدو ضعيفاً أو خائفاً أمام عينيّ الرئيس الكبير.

ووصلت الطليعة إلى ماتوغروسو في الثلاثين من نيسان، واجتاز الطابور الحدود في الثالث من أيار، داخلاً أرض البرازيل من جديد واجتيزت أراضي الباراغواي بمنتهى النظام، كما وعد بذلك برستس وميغيل كوستا. وبعد ان خرج الجنود من سايكارو، حيث استوقفهم أمر تصفية المدفعية، اجتازوا «ماركولينوغو» و«بانشيتا» ونهر «بانوي»، باتجاه «باتريمونيودا أونياون». وفي هذه الأثناء، كانت القيادة العامة للقوات التي تقاتل الثوريين في ماتوغروسو قد أصبحت بين يدي الماجور «برتولدو كلينجر»، الذي أعاد جمع قواته مع قوات الزعيم «بيريكال البوكيركي»، وانتظر الثوريين على رأس جسر نهر آبا. وهاجمهم جوان البرتو في هذا المكان، بثلاثمئة رجل ضد ما ينوف على الألفين، ثم عاود الاتصال بسيكيرا كامبوس، وتوجهوا معاً نحو جبال «الأمباي»، ثم دخلا «ريتيروميزابل» حيث أخذوا ينتظران وصول القسم الأكبر من الطابور. ووزعا، على الضفة الشمالية من «الدورادو»، فريقا من «الفدائيين». وعلى ضفة هذا النهر صنع برستس أطواقاً^(٨) بواسطة البراميل، لكي يجتاز الطابور النهر فوقها. وفي أول حزيران، وصل الطابور

إلى « رنروميزابل » ، بعد ان اجتاز سلسلة من الأنهار وعدداً لا يُقدر من الكيلومترات. وعند غسق المساء الممطر لليوم التالي ، وصل الطابور إلى سكة الحديد ، وفي اليوم الرابع من الشهر ، وصل إلى « باتريونيوي دي جاراغواري » حيث انفصلت فرق سان باولو وريو غراندي ، لتسير كل منها في طريق خاصة بها ، قبل ان تعود إلى الاجتماع من جديد ، في العاشر من الشهر ، عند مصب نهر كامابوا .

وفي هذه الأثناء كانت قيادة الطابور قد أعيد تنظيمها ودفعت مظاهر الحسد بين جنود سان باولو والغاوشوس ، التي كانت تتجسد أحياناً ببعض الحوادث والاصطدامات ، الرؤساء إلى توحيد الفرقتين . وكان يحصل أحياناً خلاف بسيط في وجهات النظر ، بين ميغيل كوستا وبرستس ، حول الاستراتيجية الواجب اتباعها . وعند مدخل ماتوغروسو ، كان الرفيقان ، يا صديقتي ، على خلاف بالتفكير . فلقد كان ميغيل كوستا يريد أن يقوم بمعركة حاسمة ضد قوات الحكومة ، بينما كان برستس يعارض هذا الرأي ، إذ أنه كان يعتقد باستحالة الانتصار في مثل تلك الحال ، ويفهم بأن الأمر سينتهي ، بمعركة من هذا النوع ، لا إلى تصفية الطابور فقط ، بل وإلى تصفية الثورة كذلك ، لأن هذه لا يمكن إعادة إذكاء جذوتها إلا إذا ظلّ الطابور على قيد الحياة في داخل البلاد .

كان ميغيل كوستا ، بنظر الكثيرين ، جندياً رائعاً ووجهاً إنسانياً نادر المثال . انه ، وهو قائد الطابور الأعلى ، لم يخالجه ظل من حسد لكون اسم برسس - روح ودليل السير الكبير - كان أكثر الأسماء شعبية . لقد أطلق على الطابور اسم رئيس أركان حربه ، ضد إرادة برستس نفسه ، واستجابة لإرادة جنود وشعب البرازيل . ولم يتفوه ميغيل كوستا مطلقاً بكلمة واحدة حول هذا الموضوع ، إلا إذا ما كان الأمر يتعلق بامتداح رفيقه وخلّ ، وبالقول كم كانت هذه السمعة تتجاوب مع الحقيقة . وكان ، بصفته قائد الطابور ، يؤيد دون تحفظ مذهب برسنس . واخفت الخلافات البسيطة التي كان يذر قرنها بينهما في الأمور العسكرية ، منذ اللحظة التي أصبح فيها برستس ، بعد إعادة

تنظيم القيادة، مسؤولاً بصورة فعلية عن كل القسم الاستراتيجي والتكتيكي في الطابور. ولم يحدث مطلقاً بينهما بعدئذ أي شقاق؛ كان برستس يعترف بكل جاذبية ميغيل كوستا؛ وكان ميغيل كوستا ينضح اعجاباً بعبقرية برستس العسكرية. ويمثل هذان الرجلان المتحدان، العظمة المعنوية لثورة سنة ١٩٢٤، ميغيل كوستا هو الثوري الذي لا يحمل في نفسه أقل أثر من كبرياء جريئة، والذي كان ينحني، بصفته ثورياً واعياً، أمام الواقع الدقيق لعبقرية لويس كارلوس برستس العسكرية. إنه الأول في الاعتراف بأن برستس هو شخص غير عادي. إن وجه ميغيل كوستا، يا صديقي، هذا اللواء الذي انتزع العديد من الانتصارات، معبود جنود سان باولو، هذا الرجل ذو الخلق المستقيم، ذو الشعبية الهائلة، لم يزدد سموً إلا عندما اعترف وأيد عبقرية برستس. وإن موقف ميغيل كوستا هذا، الذي يدل على قوة ثورية عميقة، حدّد مستقبل الرجل. وسنجد، وهو الشجاع، الكفؤ والمتناسق مع نفسه، مرة أخرى، في سنة ١٩٣٥، إلى جانب برستس، في الاتحاد الوطني التحريري، كرئيس في سان باولو.

توجه الطابور نحو مدينة بوس، حيث عسكر الماجور كلينجر. وذهبت إحدى الكتائب في أول الأمر للاستكشاف، بقيادة دجلما دوترا. واجتاز القسم لأكبر من الطابور نهر بوس، بينما اشتركت قوات كورديرو دوفاريا وقوات سيكيرا كامبوس بالقتال مع العدو. وحوصر الماجور كلينجر، ولكن برستس فك الحصار، لأن المواقع التي يحتلها كلينجر يسهل الدفاع عنها. وكان على الطابور أن يخسر قسماً كبيراً من رجاله ومن مؤنّه، إذا ما انتقل إلى الهجوم. ولكن انتصاراً على كلينجر لم يكن ليعادل هذه الخسائر. وعاد الطابور إلى متابعة سيره نحو حدود غواياس، حيث دخل في الثالث من حزيران، بعد أن كان قد اجتاز مستنقع ماتو غروسو منذ حدود الباراغواي حتى جبال سانتا مارتا.

وتزوّد الطابور، خلال مروره عبر ماتو غروسو، بالغذاء والكساء. ففي هذه الولاية الغنية والمهملة من قبل السلطات الادراية، وجد برستس الطعام

والثبات لرجاله. ولم يبق الطابور الآن مؤلفاً من هذا الجمع من المتسولين الخلقي الشباب، الذين اجتازوا الباراغواي أمام ناظري السواء ووندون المندھسین.

وحصل برستس في ماتوغروسو، كذلك، على جیاد جيدة للطابور. وعاشت الدوريات المكلفة بـ «البوتريار»^(٩) أوقاتاً بطولية في ماتوغروسو، فكان بُعث بفرق مؤلفة من ثمانية، عشرة أو خمسة عشر رجلاً للبحث عن الجیاد والماشية للطابور. انهم كروافد نهر كبير: الطابور، انهم ينقبون الأراضي، بقنادون الثيران والجیاد، يسنقصون أخبار العدو ويساعدون في الاهداء إليه. إن البوتريادور هم بمثابة رجال الشرطة للطابور، يا صديقي؛ لقد كانوا بضللون القوات المعادية في نطاق نصف قطر يبلغ عدة فراسخ. وعندما كانوا يبتعدون نحو الشرق، نحو الجنوب أو الشمال، بحثاً عن البهائم، كان الخمر سري فوراً بان الطابور بتقدم جنوباً، شمالاً أو شرقاً؛ وكان يظن بان البوتريادور هم طليعته. لقد قام هؤلاء الرجال القليلو العدد، يا صديقي، بمآثر حربية لا تُنسى، حورتها أساطير الكانتادور^(١٠) الشعرية في السرتاو، لدرجة لا تزال معها تشكل حتى الآن أساطير داخلية البرازيل الشعرية، وان كثيرين من البوتريادور لم يعودوا أبداً؛ لقد قتلهم العدو. وفقد غيرهم الاتصال بالطابور، وهاجروا إلى الخارج. ولكن أكثرية هذه الدوريات كانت تعود دائماً. وقد فقدت اثنين أو ثلاثة من رجالها. قائدة جياداً، حاملة أخباراً جديدة ودقيقة عن موقع وتصميم الحكوميين. ان هذه الدوريات، التي كانت تحتاز عشرين، خمسين وحتى مئة فرسخ قبل ان تتصل بالطابور من جديد، كانت تقايل ضد جيوش، تحتل المدن والقرى، تحوّل العدو بعيداً عن الدروب التي كان الطابور يفتتحها. ولقد ساعد البوتريادور، بصفتهم رواد وانصار طابور برستس، الطابور على بناء وتوسيع طرققات

(٩) فعل يستعمل في البرازيل للدلالة على الابحاث التي تقوم بها الدوريات من أجل إعادة الماشية والخيل الشاردة.

(١٠) فئة من المغنين الشعبيين، ينقلون من قرية إلى قرية، ينشدون ويغنون وهم يمزفون على كمنجة.

البرازيل . ان بطولتهم كانت تبرز في كل يوم ، في كل لحظة .

ان الصفة الملحمة لطابور برستس ، يا صديقي ، كانت ، بصورة خاصة ، نتاج هذا العدد الذي لا يُحصى من الأعمال البطولية والشخصية التي كان يقوم بها هؤلاء الرجال . وكان للفرد ، في هذا الجيش الثوري ، قيمة لا تُقدر . ولم يُقرأ في أية صفحة أخرى من تاريخ البرازيل ، انه كان للاندفاع الذاتي الشخصي ، للبطولة الشخصية ، هذا التناسق الكامل مع الفكرة الجماعية ، مع قيادة الرئيس . ان عبقرية وبطولة برستس ، وسرعة اتخاذه للقرارات ، وكفاءته في حل أصعب المسائل ساعة حدوثها ، كانت تتراءى لكل ضابط ، لكل جندي ، لكل فرقة ، لكل دورية من البوتريادور . لم يكن هناك سوى الرئيس . كان هناك الرئيس ، الذي هو أكبر جنود وطنه ، وكانت القيمة الانسانية للجنود . هذا ما كانه الطابور ، يا صديقي .

- ٥ -

سأروي لك أسماء بعضٍ منهن ، يا صديقتي ؛ إحداهن كانت تدعى « أي » .
جزءه « ، وهي خلاسية منصنعة . وهناك « أونسا » : لقد كانت ترقص
« الماشيشبس »^(١١) ، أثناء الليل ، في الغابات العذراء وفي الكاتنغا ، قرب الأنهار
المغلقة بالأسرار . وكانت « كارا دوماكاكا » متجلية بالجلد ، ولم يكن
بمقدور أي إنسان أن يميزها من رعاة البقر في ماتوغروسو وفي الحقول الشمالية
الشرقية . وانجبت « ساننا روزا » صبياً سُمي بـ « جوزيه » ، ابن الثورة .
وهناك إيرمينيا ، الشجاعة والمخلصة إيرمينيا ، النمساوية التي أصبحت بطلة
برازيلية ، الشقراء إيرمينيا التي وجدت السعادة مع الزنجي فيرمينو . و « إيزابيل
ببسكا - بسكا » التي كانت تسمي نفسها بين أكثر السرتونيين جهلاً بإيزابيل
المخلصة . وألبرا الجميلة ، بسنيها الثاني عشر وفمها القذر . وتياماريا ، ماريا
الهرمة التي كان يخشاها الحكوميون وينهمونها بمعاطاة السحر ، وقد قتلها
هؤلاء بطريقة في منتهى الوحشية . وشينينيا الضخمة ، التي لم يكن يجازيها في
المشي بجاري ، والتي كانت تتقدم بسرعة تفوق سرعة أي جندي ، بالرغم من
بدانها . وهناك أخيراً أجل من ذكرنا من النساء ، ألبرتينا ، ألبرتينا الجميلة ،
التي سقط رأسها كشهيدة في فترة طيبة بطولية . وقد حصل ذلك كما يلي : كان
الملازم أجينو بزبرا دوسوزا ، من القوات الثورية ، وقد جرح في معركة
بيانكو ، بنى الركب موضوعاً على ثمل ينقله الجنود ، وكانت حالته تزداد
خطورة يوماً بعد يوم . وعندما وصل الطابور إلى ميناس دوريو دوكانتاس ،
في باهيا ، أشفق الناس على مصيره . ان هذا الملازم ، الذي أصيب بالسل
خلال أبام هذا السر الصعبة ، كان ينازع دون ان يجد أقل شيء يستطيع ان

(١١) رقصة برازيلية شعبية لمودحبة ، زنجية الأصل .

يخفف عنه شيئاً من ألمه. وهو، وقد جاء من ريوغراندي، كان من أفضل مقاتلي الطابور. وكان القواد والجنود يشاهدونه يسير نحو نهايته بهدوء. لم يكن هناك من دواء، فلم يكن بمقدوره ان يرتاح. واقتراح عليه أناس محسنون في ميناس دوريو دو كانتاس، ان يضيفوه، فقبل. وطل معه أخوه أليوب، الشاب الفتى العود، البالغ من العمر سبعة عشر عاماً، والذي صبرته معارك الطابور رجلاً، وبقيت كذلك ألبرتينا، أجل بائعات المون للعساكر، إحدى زهرات ربوغراندي، تلك التي كان قلبها طيباً بقدر ما كان جسمها جليلاً، بقيت لكي تساعد الملازم في أيامه الأخيرة.

وذهب الطابور مخلفاً ألبرتينا تحرك مندليها الأحمر، كثورية، وقد امتلأت عيناها بالدموع ونالأت ابتسامة أخوية في شفيتها. ثم عادت ألبرتينا إلى الملازم لتعني به بجنان الأخت، وإخلاص المرضة. لقد كانت تفكر بأنه ربما كان من الممكن ان تتحسن حالة الملازم اجينو، ويصبح بمقدوره ان يُنقل إلى باهيا، حيث الأطباء بارعون والمستشفيات جيدة. وعندها ستعود إلى اجتياز السرتونات من جديد، وتذهب للبحث عن الطابور، وتجد رفاقها في السير الكبير.

ولكن جنود برناردس، يا صديقتي، دخلوا ميناس دوريو دو كانتاس. وتعرفت المدينة إلى مظالمهم. كل واحد أخذ ينهب على هواه، واختار أحد الملازمين ألبرتينا كمحظية له. ان شهوته المكبوتة، خلال مكثه الطويل في السرتون، حطمت عقالها أمام جمال ألبرتينا، التي كان وجهها الأبيض محاطاً بمنديل الثورين الأحمر. انها أشبه ما تكون بزهرة، برؤيا رائعة. ولم يرَ الملازم الرجل المريض، المحتضر، لم يرَ الشاب الذي تعلم الكرامة والبطولة في الطابور، لم يرَ سوى امرأة جميلة. واندفع نحوها كبهيمية في مرج، وقد جهل انه كانت لبائعة مؤن في طابور برستس شجاعة الرجال. ولكن ألبرتينا قاومت، فلم تكن تحس نحو هذا الرجل إلا بالقرف. وانضم الغلام للدفاع عنها. وتدحرج رأسها، رأس الغلام ورأس المرأة. وكان المسلول يحتضر في سرير، أمام هذا المشهد المعزى. وتضرجت يد الملازم بدم الضحيتين؛

وأخذ الوحش بضحك ويُري الجنود رأس ألبرتينا، الرأس المجرد من الجسد، المغتلى بكفن الثورة الأحمر.

خنيق جندى ابتسامة، وأرسل المسلول، بضعف وهو يسعل، احتجاجاً، واجهشت امرأة بالبكاء، وأرسل رجل ضحكة هستيرية. ارتجف الرجال، والملازم نفسه أصفر لونه. وكان الرأس الدامي، المجرد من الجسد، بشره المسك بالكفن الأحمر، لا يزال يبتسم ابتسامة قرف أمام هؤلاء الوحوش، المبايعي جسداً وروحاً للحكومة. لقد كان رأس ألبرتينا يبتسم.

أواه يا بائعات المؤن في الطابور! أواه يا نساء الشعب اللواتي تبعن رجالهن، تبعن الثورة! انهن وحدهن اللواتي اسنطعن ان يعلن برستس يغير رأسه. فبعد ان تلقين منه الأمر بمغادرة الطابور ساعة اجتياز نهر الأوروغواي، وافقن بإشارة من الرأس. لقد كان برستس يوحى إليهن احتراماً عميقاً. لقد كان يعاملهن كصديقات، ولا يوجه إليهن لا مديحاً ولا إهانة. وفسر لهن بأن الأمر لا يتعلق بنزعة لنساء، بل بسير صعب لرجال أشداء، وكان عليهن ان يبقين. أشارت النساء برؤوسهن ان نعم، يا صديقتي. ولكن في اليوم التالي، عندما انتهى اجتياز النهر، شاهدن برستس على الضفة الأخرى. لقد كن على استعداد لمعاودة السير. كانت إحداهن تحمل بندقة رجلها، والأخرى تهتم بمريض، وثالثة تهنس، مزيلة بابتسامتها تعب الجنود. فابتسم برستس هو أيضاً. وظلت البائعات في صفوف الطابور.

لقد كانت البائعات جديرات تماماً بعطف برستس، جديرات بأن يبقين. لقد اجتزوا الانهار، اجتزوا الجبال. لقد قاتلن كالرجال، وماتت الكثيرات مهين مئة الابطال. لقد انجبن أولاداً خلال السير. وكان الحب بفضلهن بضى لبالي الطابور. خلال سير الطابور كله، على ضفاف الانهر، في صحارى الشمال- الشرقي، في الكائنغا المنوحشة، في الغابات العذراء، في الجبال المستطر عليها خلال الليلة السابقة ليوم المعركة، حيث كان الرجال يخاطرون بحياتهم، خلال الليالي المنجمة أو المقمرة حيث كانت تسمع انغام

القيثارات والأغاني، خلال الليالي الخالية من النجوم، المسكونة بالأشباح وبالأوهام، كانت تأوهات الغرام تتصاعد نحو السماء، وكانت قلوب الرجال ونساء شجعان تخفق هياماً.

سأحدثك، يا صديقي، عن القصيدة الغرامية للشقراء إيرمينيا وللزنجي فيرمينو. لقد قدمت من النمسا، من فيينا رقصات الفالس والسرور. لقد كانت، وهي المخلصة والطيبة، الشجاعة والحاذقة، شقراء، كان لها شعر بلون القمح ووجه بلون الطحين. وأصبحت، وهي ممرضة الطابور، أماً للجنود الجرحى، أختاً للضباط المرضى. واشتركت في سير الطابور كله حتى الدخول النهائي إلى بوليفيا. وخلال المعارك، كانت تظل قرب خط النار، لكي تسارع للبحث عن الجنود والضباط والجرحى. وخلال حصار ترازينيا، ذهبت عدة مرات إلى خطوط الثوريين والخطوط العدو، واقتادت إلى المركز الصحي في الطابور، الجنود الجرحى. ولم تكن تهب نفسها لحظة واحدة من الراحة. وكانت يداها البيضاء ملطختين بالدماء. وكانت تبحث بنظرتها عن الجرحى، وتقودهم تحت تدفق القذائف. وكثيراً ما اتخذت هذه الشقراء الشجاعة كهدف للرماية. لقد ولدت في فيينا، حيث تتصاعد الحان موسيقية رائعة من كل مقهى، من كل فم، وترعرعت في سان باولو، الهادئة الساكنة. ومشت مع الثورة التي كانت تحملها في قلبها. وكانت تتقدم بين القذائف بهدوء، وقد حملت جريحاً بين ذراعيها يا للممرضة إيرمينيا، النمساوية البرازيلية في الوقت نفسه! وفي أحد الأيام، خلال معركة كانت تبسو خاسرة، ذهبت بشجاعة للبحث عن فرق الرشاشات الثقيلة البعيدة، في وسط الطابور. وحصل هذا خلال معركة أنابوليس، وتدين الثورة بانتصارها في هذه المعركة لحركة الممرضة هذه.

إن قلبها الذي يخفق للموسيقى، خفق أمام الملازم فيرمينو. وكان لهذا الملازم، المتحدر من صلب أبطال البالمار، شجاعة الزنوج المبتسمة، وابتهامة نقية. وفي الليل، عندما كانت القيثارات تنشد، وكان الحنين إلى مسقط الرأس في القرية يستولي على رجال الطابور، والمغنون يثيرون ذكرى غرام بعيد

ومسحبل ، وكان القمر مهبط لتأمل الأبطال ، والنجوم تلمع في السماء ، كانت الشقراء إرمينيا والأسود فيرمينو بتبادلان عبارات الغرام . وكانت الانهار تنصت إليهما ، وتحتفظ بهما الجبال في قلبها الغرائبي . وحلت المياه في تياراتها مع سيقى عبارات الزنجي البرازيلي والبيضاء النمساوية . وفي الغايا في بوليفيا ، با صديقتي ، بعد الحجرج على الطابور ، كان على كثير من الخلاسين البرازيليين ان به لدوا نتيجة لهذا الحب . وفي يوم ما ، سيطر أولاد إرمينيا وفيرمينو من جدد أرض وطنهم . وسوف يجددون ، كجنود جدد للثورة ، بطولات أبهم ، وبطولات أمهم . وسيكون لوجوههم الخلاسية بياض لون وجه إرمينيا الطحني والسواد العسلي لقصب السكر ، لوجه فيرمينو .

في اللالي التي كان سوقف فيها الطابور وينشر في المروج كنهر انساني ، بعد أن يكون قد خلف وراءه درباً ضيقاً انتهى من شقه ، هذه اللالي التي تكن فيها الأدغال غمر مسيطر عليها بعد ، وقد وقف في أحد الجوانب عدو أكثر عدداً ، ووقعت في الجانب الآخر الأمراض وانعدام الغذاء وحنين أولئك المدن طلوا في المدن والقرى التي اجتازتها الحركة الثورية ، في هذه اللالي كانت الخلاسية « أونسا » الشهوانية الذابلة ، تحرك وركيها وهي ترقص الماشيشبس . لقد كانت ترقص للجنود أكثر الرقصات برازيلية ، أكثرها شهوانية وأكثرها دعارة . وعندما كان جسم « أونسا » السنوري يميل ، كانت ذكرى مناسبة صائغة تظوف في عيني كل من هؤلاء الرجال : رقصة ، امرأة عابرة في الشارع ، اطراء ألقى كيفها اتفق ، عيد ، ذكرى حب .

ان جسد أونسا ، حيث كان الردفان بعيشان حياة مستقلة في نغم الماشيشبس ، كان يحمل ذكريات الماضي على الندفق . وكانت رقصتها في الغابات العذراء خفيفة وداعرة . وكانت تندفق مواكب الأوهام ، الله بسومس^(١٢) ، المولادوبادر^(١٣) الكايبورا^(١٤) ، حيوانات الغابة ،

التابير^(١٥)، نمر الثلوج والسعدان، العصافير والأسماك، وثبتت انظارها مع الرجال على جسد «أونسا» المتوج في الفضاء، بفخذيها الشبيهين بمؤخر سفينة تتقاذفها أمواج قوية، متمسكة الأشجار، مادة إحدى ذراعيها نحو النهر والأخرى نحو السماء. كانت الخلاسية، ذات الردفين المدورين اللذين لا يرفع الرجال نظرهم عنها، ترقص، يا صديقتي، في أعماق الغابة العذراء.

إنها لم تكن ترقص دائماً؛ لقد كانت تحمل البندقية أحياناً، وأحياناً أخرى كانت تنقذ الرجال. ولم يكن جسدها فقط جسداً للخطيئة، ولم يكن يُستعمل فقط لإرواء شهوات الحب. ففي أحد الأيام هوجت إحدى الفصائل بقوى تفوقها بعشرين مرة. فتاه الرجال كما تاهوا في ليالي الماشيشيس الداعرة. وانطلقت «أونسا» بين القذائف، وأقامت اتصالاً مع قوى الطابور الرئيسية، وانقذت الرجال من الموت. لقد مرت بين القذائف، وسيطرت على الأعداء بالمشية الشهوانية لجسدها الخلاسي الشهواني، فدانت لها منهم الرقاب. ورجعت مع النجدة، ورقصت هذه الليلة رقصة الماشيشيس كرقصة انتصار. على هذا النحو كانت «أونسا» يا صديقتي.

في السرتون، بين الجنود الحكوميين وبين الأهالي المتطيرين، كانت تسير الأساطير حول الطابور. إن هذه الأساطير، العديدة والمطبوعة بجمال غريب، والتي كان العميان يغنونها في الأسواق، كانت تجعل من وجه برستس بطلاً لها، شبيهاً بوجه إله جديد طهر في سماء البرازيل. وكانت هذه الأساطير تمجد محاسن الطابور. وكانت إحداها، وهي تتحدث عن سرعة حركة الطابور، تقول بأن الجنود لم يأكلوا سوى القوائم الأمامية من الحيوانات لكي يستطيعوا السير بسرعة أكثر. وكثير من هذه الأساطير وُلدت بسبب وجود نائعات المؤن في الفرق الثورية. فبعد مرور عشرين دقيقة لانجباب سائتا روزا لولدها الذي دُعي جوزيه، ابن الثورة، كانت هذه قد اعتلت صهوة جوادها، واستعدت لمعاودة السير. فأصبح السرتونيون يتخيلون عندها أن

النساء اللواتي كن يسافرن مع الطابور ، كن بضعن على ظهور الجياد ، وكان أولادهن بأنون إلى العالم وهم يحسنون المشي ، وبعد عدة شهور من ولادتهم يحملون البندقية .

ولكن البائعة المكلفة بالأسرار ، والتي كان اسمها يتنقل من فم إلى فم بين الجنود والحكوميين ، كانت تياماريا ، الزنجية الهرمة اليايسة ، ذات العينين اللامعتين ، التي لقيت ميتة فاجعة في العذاب . وكان يُقال بانها ساحرة الطابور ، وبانها ، عشية المعارك ، عندما كانت شابة « فافورينو » تأخذ مكان الطبول ، كانت تبتهل ، وقد تعرت أمام الرشاشات الثورية ، إلى الهة الماكومبا السود ، إلى أوشوسي ، آله الحرب ، إلى كنگو ، آله الصاعقة والرعد وإلى أوغن أوشوليفان ، وبفضل من ذلك ، كانت القذائف العدو تفقد القدرة على اختراق أجساد جنود الطابور . وكانت هذه الاسطورة تسير من فم إلى فم ، وكان جميع الجنود الحكوميين يعرفون اسم تياماريا ويكرهونه كعدو خيف ، يستعمل قوى جهنمية ، قوى الالهة السود ، القادمين في زمن العبودية من غابات أفريقيا ، من أراضي أيوكا ، إلى غابات البرازيل ، إلى أراضي اللانهاية .

وأسرت تياماريا عقب معركة بيانكو . وكان الحكوميون يكرهونها أكثر مما يكرهون رقباء وجنود الطابور . وشد ما عُدَّت . لقد أمرت بأن تحفر حفرتها بنفسها ، بأن تحفر القبر الذي سَيُلْقَى بجسدها فيه بعد قتلها . وكجندي من جنود الطابور ، رفضت البائعة ماريّا ، الزنجية الهرمة اليايسة ، تنفيذ الأمر . وجلدت بضربات العصا ، كهؤلاء الجنود وشتمت ، مثلهم ، الأشقاء الذين يعذبونها ، ومثلهم مُزقت إرباً إرباً ، بهدوء ، بضربات سكين . ان عذاب الموت البطيء الذي لاقته ، يفوق حد التصور . ومع هذا لم يضعف صوتها لحظة واحدة . وبينما كانت تُعذَّب ، كانت تبتهل إلى آلهتها وتدعوها إلى ملاحقة أعدائها واعداء وطنها . وماتت وهي ترسل آخر شتيمة من فمها اللالطع كزنجية ، كهرمة . على هذا النحو كانت تياماريا ، يا صديقي .

يا لبائعات المؤن في الطابور ، يا لهؤلاء النسوة البرازيليات ! ان دمهن ميلاً

أرض الوطن . ان ابتسامتهن تتلألأ فوق الانهار ، وتتصاعد آهات جبهن في
الحقول ! لقد كن يمتطين صهوة الجياد ، يساعدن الرجال ، يعتنين بجراحهم ،
يحملن على كتفهن بندقية الجندي الذي يحبهن ، ليتحن له ان يأخذ قسطاً من
الراحة . لقد سكين دماءهن ، ووهبن حياتهن . وفي ملحمة الطابور ، كن
جديرات ببرستهن . وعمالاً اليوم اسماؤهن وكنياتهن أغنيات العميان في الشمال
الشرقي . إن ذكراهن ، وقد وضعن منديلاً أحمر على شعرهن ، ووردة خلف
أذنين ، لا تزال باقية . إيه يا بائعات المون ، إيه يا زهرات البرازيل !

- ٦ -

في الثالث والعشرين من حزيران، دخل الطابور الغواياس. لقد كان قادماً من البارانا؛ فبعد اتصال قوات برستس بقوات ميغيل كوستا، اجتاز الطابور أراضي الباراغواي وماتوغروسو. وكان متوجهاً نحو الشرق بطريق سهول البرازيل الوسطى. لقد كان البحر بعيداً، وكان برستس يحمل الثورة إلى وسط البلاد نفسها، يا صديقي، إلى قلب بلاد الذهب المغلفة بالأسرار، إلى أراضي «الماتي»^(١٦) المملوءة بالادغال، إلى بلاد الأحجار الخضراء التي طالما أثارت الأوهام في رؤوس البانديرائتي^(١٧).

ماتوغروسو وغواياس، مناطق غير مطروقة، أراض لا متناهية، ممتلكات كبيرة بقدر بلاد، حيث كل شيء هو بدائي، بربري وبجهول. لم تكن القوانين قد وصلت إلى هناك، حتى ولا تلك القوانين الشوها السارية المفعول في العواصم والولايات الساحلية الأكثر تمدناً. فهناك كان الأسياد الاقطاعيون قد صنعوا قوانينهم الخاصة، قوانين بربرية، وحشية. على هذه الأراضي لم يطبق قانون الغاء الرق مطلقاً؛ لقد كان الفلاحون لا يزالون أرقاء، وكان بضعة رجال فقط أسياداً للأرض. وفيها لو وضعنا، يا زنجيتي، في كل من هذه الممتلكات أحد بلاد أوروبا، لظل هناك فراغ واسع أيضاً.

في ماتوغروسو وغواياس تخص «لاتيفنديا شركة الماتي لارنجيريا» أسياداً اقطاعيين؛ ويعيش الرجال عليها كأشقي العبيد، مجردين من أقل الحقوق،

(١٦) Mateo.

(١٧) غزاة تغلبوا في داخلية البرازيل في القرن السادس عشر، متشبهين من المعدن الثمين. وقد قتلوا الهنود أو حولوهم إلى أرقاء - (المعرب).

لا يحميمهم أي قانون، إن هذه اللاتيفنديا^(١٨) تشكل رؤيا داننية^(١٩).

في الوقت الذي انتهى فيه لويس كارلوس برستس من اجنياز مانوغروسو ليدخل إلى الغوياس ويبدأ سيره نحو الشمال، كان قد عرف أن بالبرازيل حاجة لثورة عميقة، وأن أمامه عالماً بمشاكل لم تكن لتخطر له ببال، وهي تعترضه الآن ليس من خلال قراءة لذيدة لكتاب، أو لإحدى الخطب الأنيفة الملقاة في مجلس النواب، والتي نستمع إليها جلوساً مرتاحين، بل من خلال الحياة نفسها. وأمام هذه الرؤيا المخيفة شعر لويس كارلوس برسس كم كانت نداءات الثوريين غامضة. كيف كان هؤلاء ينظرون إلى الأشياء، ما الذي كانوا يطلبون؟ إن المشاكل التي كانت تغلي في المدن الساحلية، كانت أقل خطراً بما لا يُقدَّر. وكان الثوريون يطلبون إصلاحات إدارية صغيرة. ذلك كان السبب الذي جعل حركة المدن الساحلية الشورية لا تهرز شعب الداخل المستعبد. فأمام عبوديته، ماذا كان يعني الانتخاب السري؟

إن العسكري الشاب، الذي كان لا يزال يدرس وكان قد بدأ حياته كضابط، سمع، كما سمع زملاؤه جوريس، كوستاليت، سيكيرا كامبوس وادواردو غومس، الصراخ الذي كان يتصاعد من لحم البرازيل المعدب وخفق قلب هؤلاء الرجال غضباً وقرروا أن يضعوا سيفهم في خدمة البرازيل. ولكنهم لم يكونوا قد لمسوا قعر الشقاء الذي كان يسبب هذا النحيب الهائل. إنهم لم يكونوا قد رأوا سوى السلسلة الأولى من المشاكل. وكانت أكثرها عمقاً قد غابت عن شعاراتهم الثورية. وتكشف هذا الأمر على حقيقته أمام لويس كارلوس برستس عندما اجتاز ماتوغروسو، يا صديقي! وقليلًا ما كان يهجه الآن أن يزحف على ريودي جانيرو، أن يقلب أرئور برناردس ليضع مكانه سياسياً ينشر بعض القوانين، ويغمض العينين ويسد الأذنين أمام المشاكل التي كان لويس كارلوس برستس قد اكتشفها، تعرف

(١٨) La Tifundia القطاعية كبيرة من الأرض.

(١٩) نسبة إلى الشاعر الإيطالي المشهور دانتي.

إليها وكابدها. وفي أحد الايام، في المنفى، عندما انتهت ملحمة الطابور، قال برستس، يا صديقتي، بصوته الصافي:

« عندما قررنا الزحف نحو شمالي البلاد، كانت أهداف الطابور العسكرية، حتى من الناحية التكتيكية، قد أصبحت في الدرجة الثانية من الأهمية ».

وأضاف مفسراً عباراته هذه بما يلي:

« إن ما كنا نهدف إليه بصورة خاصة، هو أن نوقظ جماهير الداخل، أن نرفعهم من حالة الجمود المتردين فيها والتي جعلتهم لا مبالين بمصير البلاد، يائسين من إيجاد علاج لأوجاعهم وآلامهم. لقد كانت تلك هي عملية ذات طابع سياسي واجتماعي قبل كل شيء... وإن كل الدلائل تشير إلى أن ما استهدف قد حُقق على أحسن الوجوه ».

إن هذه الأهداف قد حُقت، يا صديقتي، فبالنسبة للأناس اليائسين في الداخل، بالنسبة لهؤلاء الناس المحنني الظهور تحت نير العبودية، كان مرور الطابور يترك وراءه فيهم ذهنية جديدة.

ذلك كان السبب الذي دعا إلى تسمية قائد هذا الطابور: بـ « فارس الأمل ». فمن على سرج حصانه، ومن على حد سيفه، كان يحمل الأمل إلى البؤساء، إلى ملايين البؤساء: إلى شعب البرازيل. وعند اجتيازه لماتوغروسو، لأنها المغلقة بالأسرار، للاتيفندياها الواسعة، حوّل لويس كارلوس برستس ثورة سان باولو وريو غراندي العسكرية إلى ثورة اجتماعية. وصنع بذلك ما يشبه التمديد لانتفاضة وانتفاضة ميغيل كوستا. لذلك لم يكن لقلب الحكومة بالقوة واستبدالها بمعارضة تستند على القوى الاقتصادية التي انتخبت الرئيس الآخر، أية جدوى. كان يتوجب إثارة الشعب من أجل الدفاع عن حقوقه، وجعله يعي مشاكله، ويخلق رؤساء قد يرتبط مصيرهم بمصير هذه المشاكل، لا رجالاً يناقشون القضايا السياسية المحلية، في البرلمان وفي الصحف. تلك كانت فترة حاسمة في حياة برستس، يا صديقتي، فترة

تعطي فكرة عن مسنواه الذهني وعن كفاءته كقائد . وخلال معركة بارانا ، عرض برستس منهجه على المارشال ابيدورو ، وكان قوام هذا المنهج الزحف على ريو دي جانيرو ، بعد قلب الحكومة . ولكن برستس تخلى عنه بعد قليل من ذلك .

لقد كان برستس قد انتهى من اجتياز داخلية البرازيل ، من اجتياز البارانا وماتوغروسو ، وشاهد المشاكل والفواجع ، والمأساة التي لا شبهة لها . ولم تكن الأسباب التي دعت به إلى التخلي عن منهجه في الزحف على ربودي جانيرو ، بهذه السرعة ، ذات طابع عسكري . فبفضل عبقرية الاستراتيجية ، التي طالما فرضت نفسها ، كان باستطاعته ، دون شك ، أن يقود هذا الزحف إلى نهايته الفضلى . ولكن برستس كان يفكر بأن أكثر ما كان يهم ، هو أن تحمل الثورة إلى الشعب ، وأن يدفع هؤلاء اليائسون إلى وعي حقيقة مأساتهم ، وتفهم وسائل حلها . لقد كان يحمل الثورة إلى الشعب .

لقد قلتُ لك ، يا صديقي ، إن برستس كان قد بدأ بمرحلة السير الكبير ، قبل أن يدرس في الكتب الحلول التي اقترحها ماركس ولينين . كان قد شاهد الاستئثار الوحشي للإنسان على أراضي الزمرد في ماتوغروسو وغوياس . وعندما تعرف ، في المنفى ، إلى الماركسية ، لم يكن لسرويه من حدود . لقد كانت الحلّ لكل المشاكل . وإذا ما كان السير الكبير لم ينته ، يا صديقي ، إلا في سنة ١٩٢٧ ، فذلك لأن برستس ، الذي كان شرف المبادئ والعمل ، بالنسبة إليه ، شرطاً للحياة ، لم يكن يؤذ خداع الشعب . كان عليه ، هو نفسه أولاً ، أن يجد حلاً لمشاكل البلاد . وعندما يجده ، يحمله إلى الشعب ! وخلال السير الكبير ، مثله في ذلك مثل اوكليدس دكوين أمام نضال السرتون ، ومثل كاسترو ألفيس أمام استعباد الزنوج أيام الامبراطورية ، كان برستس ماركسياً دون أن يكون قد درس الماركسية بعد . لقد كان لهذا اللواء الرؤى العبقريّة والنبوءة للشعراء . وشعره ، لقد كان يكتبه مع جنوده ، بسيفه ، بالرشاشات ، مع بائعات المون للعساكر ، كان يكتبه بشجاعته وكفاءته . لقد كتب هذا الرجل ، ولا يزال ، أجمل القصائد

الأميركية. اسمه هو أروع عنوان لقصيدة. وإن قصيدته حول السير، هي قصيدة الأمل، حيث سار الفارس لويس كارلوس برستس على رأس طابوره.

وأطلقت على جنود الشعب جميع الاسماء: طابور الموت، طابور الفينيكيكس^(٢٠)، طابور لم يُقهر، طابور برستس. ولكن الشعب عندما كان يقول طابور برستس، كان يقول أيضاً طابور الأمل. وكان لويس كارلوس برستس، فارس الشعب، فارس الأمل، بلحيته الطويلة، وعينه المشتعلتين، ووجهه الهادئ، وقد افترّ ثغره عن ابتسامة حزينة إنما مملوءة بالثقة، يسير على رأس الطابور.

منذ أيام باتوغروسو، منذ أيام غوياس، أمام المشهد الرائع لهذه الأرض الخضراء، الفيضة الغنى والخصب، والتي تستطيع اطعام العالم، وأمام المشهد المتناقض للفقير - الفقر اللامتناهي، - للفلاحين الذين يموتون جوعاً على أغنى أراضي العالم، - بدأ برستس يقدّم العدالة. لقد كان يعرف جيداً، يا صديقتي، أنه، بإتلافه السجلات التي سجلت فيها الضرائب الفادحة على الطبقات الفقيرة، بتحريره المساجين الأبرياء، ضحايا قسوة أسياد الأرض، بالغائه المحاكمات الوحشية، لم يكن يحل مسألة تفتقر إلى الحل. ولكنه كان يعرف أيضاً أن كل سجل ضرائب أتلّف، كل سجين بريء حرّر، كل جريمة قتل أوقف تنفيذها، كل فم جائع أطمع، كل حكم أحرق، كل قاضٍ عُزل، كان يعرف أن كل عمل مما ذُكر كان يقدم درساً رائعاً للشعب، درس ثورة ودرس أمل. وعندما كان يعطي الأمر للدكتور لورنسو موريرا ليا، المحبوب والفاتن، والملقب بـ «حامل البكالوريا الضاري»، لأن يدرس الخيل القضائية التي استطاع بواسطتها الأسياد الاقطاعيون تغطية أعمال السلب، والاتهامات الموجهة ضد الفلاحين الفقراء الذين ناضلوا دفاعاً عن

(٢٠) Phenix، طائر الفينيق وهو طائر خرافي وحيد من نوعه، عاش خلال عدة قرون وسط الصحارى العربية وقتل نفسه على كومة حطب مشتعلة، ثم بعث حياً، من خلال رماده - العرب.

قطعة أرضهم الصغيرة، عند ذلك كان ألوف الفلاحين يفهمون بأن النضال من أجل الأرض كان عادلاً. وعندما كان يأمر، أمام الشعب، بتمزيق السجلات التي تحتوي الضرائب الفادحة التي تغني أسياذ الحكم، كان يعلم الشعب بأن بنور ضد ضرائب وقرارات وقوانين العبودية. إن هذه الجماهير المفتقرة إلى الغذاء، والتي تموت جوعاً وسط غنى لا يُصدق، لم تكن قد ناضلت مطلقاً من أجل طعامها. فكان برستس يقدم لها هذا الدرس، كل يوم، بتقديمه العدالة.

كان يحمل الثورة بين جنبيه. ولم يكن يعرف تماماً أية ثورة هي هذه. عندها، يا صديقتي، بدأ يقرأ. وخلال السير، وفي وسط المعارك، أثناء اجتيازه على ظهر حصانه الدروب التي كان قد افنتحها بين الأدغال، كان يقرأ، مفتشاً في الكتب عن حلٍ للمشاكل التي كانت تعترضه. ولكن الكتب كانت نادرة على طريق الطابور. ولم يتلق من المعجبين به مكتبة ماركسية كاملة، كهدية في عيد ميلاده، إلا في ما بعد، في منفاه في غايا.

وبالرغم من أيام الطابور المنقلة بالعمل، حيث كان عليه أن يضع خطط المعارك، وكان عمله كقائد يأخذ منه جلّ وقته، وعمله كرئيس أركان الحرب يتطلب منه توضيب الأعمال، ابتداء من تخمين عدد الزوارق الواجب تهيئتها لاجتياز الأنهار الكبرى، حتى وضع الخطط والتصاميم، بالرغم من كل ذلك، كان برستس يجد وقتاً للمطالعة. وصنع برستس خلال سير الطابور، مخططاً جديداً للبرازيل، وضع عليه أسماء أنهار وجبال كانت لا تزال مجهولة حتى ذلك الحين. لقد كان لواءً، مهندساً، جغرافياً، طبيباً - وبالأحرى أية مهنة لم يتقنها خلال هذا السير؟ أية تفاصيل معارف انسانية غابت عن عبقرته العظيمة؟

إنه الآن على أراضي الغوياس، حيث مرّ قبله «البنديرانتيون» خلال مطاردتهم للهنود، وبحثهم عن الزمرد في المياه الخضراء لهذه الأنهار السحرية، وافتتاحهم للطرق وبنائهم للمزارع. لقد كانوا قادمين من ماتوغروسو - لغز العالم، فتنة المغامرين والعلماء، بهنودها المتوحشين، بصيادي حيواناتها

المفترسة، بعلمائها المختفين إلى الأبد. وتشكل الغوياس جزءاً متمماً لأسرار غابة ماتوغروسو. إن النجد المتوسط يثير الأسرار الغامضة للنباتاته وحيواناته. انهار خضراء نحلة بالزمرد والذهب، ترافقها سهام الهنود ومسدس الأبيض المشر.

وفي الثالث والعشرين من حزيران، دخل الطابور بوراكاو، في سفح جبال سانامارتا. واحتفل هناك ببليلة القديس يوحنا ذلك القديس الذي كان يلقي الخطب على الشعب على ضفاف الاردن، خطباً ضد الوالي وسجنه المظلم القذر، وكانت عبارته تتجاوب كاللعنة ضد الحكام العاطلين. بالليلة القديس التقادة، أكثر ليالي الأعياد شعبية في داخل البلاد. وقبالة البيوت أوقدت النيران وتعالى لهيبها في الفضاء مهماً. إنها أيضاً عيد الذرة؛ حيث تؤكل الكانجيكاس^(٢١) والمانوس^(٢٢) والباموناس^(٢٣) والكوسكوس^(٢٤) والمانزوكا^(٢٥)، وطفقت السنابل في المجامر. واحتفل الثوريون في هذه الليلة من حزيران، بقديس الاردن، الذي تحدث عن الثورة على شاطئ نهر. وأوقدت النيران في النجد الواسع، وكانت نجوم الأرض تلمع لمعان نجوم السماء. وكان الجنود برقصون ويغنون على أنغام (مزىكة)^(٢٦) وقبشرات هُيت منها جوقة موسيقية؛ وكانت بائعات المون للعساكر يرقصن، وكانت أونسا ترقصن؛ وكانت الانغام تذكر بليال أخرى للقديس يوحنا، في القرية التي ولدنا فيها. وكان لهذا العيد الذي يحتفل به الجنود وسط أسرار النجد، بين المياه الزمردة لأنهار الغوياس، شيء ما، نوراني خارق؛ وكان الرجال والنساء يقفزون من فوق النيران ويسرون مزدوجين؛ وكانت السماء مشعة بالنجوم وقد أحاطت بها أرض يتوجب السيطرة عليها. وكان الرجال خلال هذه الساعة الشعرية الخنونة التي يحتفلون فيها بالقديس، يذكرون أعياد الوطن اللطيفة الهادئة، وينسون المعارك والسير اللامتناهي بين القذائف، والحمات والمصاعب. ثم، وقد سيطر عليهم نغم الآلات الموسيقية وغرقوا في

(٢١) (٢٢) (٢٣) (٢٤) (٢٥) نوع من الكعك مصنوع من الذرة يحبه البرازيليون كثيراً.

. Accordéon (٢٦)

بجار الذكريات، تركوا لأنفسهم العنان لترتمي في أحضان حتى الرقص طيلة الليل، إلى أن أعلن النفير، عند الفجر، نداء السير.

واحتفل بمرور السنة الأولى على ثورة سان باولو بعد ذلك بوقت قليل، وصادف ذلك، الذكرى السنوية الثالثة لثورة حصن كوبا كابانا. وألقى جوريس وبنبيرو ماشادو بالما خطباً، وأقام أحد الكهنة قداساً، وانضم كاهن آخر إلى الطابور، هو الأب مانويل دي ماسيدو.

خلال هذه السنة من السير، اجتازت الثورة طريقاً طويلاً. وهي لم تحتز داخلية البرازيل، ولم تتآلف مع مشاكلها فقط، بل أعطت كذلك الأمل للشعب. وخلال هذه السنة، أصبح الاسم المجهول سابقاً لنقيب الفرقة الفنية، لويس كارلوس برستس، اسماً للواء لويس كارلوس برستس، رئيس الطابور، الذي يحمل الثورة خلال البرازيل. إن سيكيرا كامبوس، الذي كان قد عاصر وعاش الصباح الملحمي لرجال كوبا كابانا الثانية عشر، والذي كان يفهم الثورة «كأنفاضة» تسمح بقلب الحكومة بالقوة، يعرف الآن أن الثورة بدون الجماهير تعني استبدال رجل بآخر. إن الضباط والجنود يفيدون من درس برستس. والعشب يقترب الآن من الطابور بينما أخذ الحكوميون يواجهون كثيراً من الصعوبات خلال تجنيد طوابيرهم من «المتطوعين». ومن أعماق أقاليم داخلية البلاد، كان الفلاحون يفدون لمشاهدة اللواء لويس كارلوس برستس، لمشاهدة الرجل الذي يجعل من سجلات الضرائب والاحكام الجائرة وقوداً للنار. يفدون لاستشارة ضباطه، لمشاهدة سيكيرا كامبوس، الذي اقترب منه سوري متأثر ودود، وقبل منه اللحية بحركة مودة ترفقية مضحكة.

وكتب الفلاحون رسالات إلى برستس، ليحيطوه علماً بأنهم يطلقون اسمه المحبوب على مواليدهم، وأنهم، لما كانوا لا يستطيعون إطلاق هذا الاسم على الساحات العامة، فهم يطلقونه على حدائق منازلهم الفقيرة. وأضحى الشعب بتوجهه إلى الرؤساء الثوريين مقدماً إليهم طلبات محددة. إنه يثق بهم.

ذلك كان مثال سكان مدينة أنابوليس، مثلاً. فعندما كان الطابور

- وهو يتابع سيره - قد وصل في وقت ما إلى مسافة لا تبعد أكثر من ثلاثة فراسخ عن المدينة، جاء السكان بطلبون إليه أن لا يدخل المدينة لكي يتجنب معركة مع القوات العدو، المنتظر وصولها. لقد كان هذا طلباً محدوداً وتحذيراً في الوقت نفسه: لقد أضحت حياة الطابور شيئاً يهم الشعب. وقبل برستس الطلب وتوجه الطابور نحو الشمال.

وما كاد الطابور يعاود السير، حتى رأت فصيلة كورديرو دي فارياس نفسها، وقد انتهت من اجتياز أحد الأدغال، بصفتها فصيلة الطليعة، تواجه قوات كلينجر المغادية. وكانت صبيحة العراك هذه ضد القوات الحكومية في الغوباس، صبيحة حاسمة. كان كلينجر وقواته يسرون على الطريق الرئيسية، أمام الهضبة غير البعيدة عن تلك التي تقبع فوقها مدينة أنابوليس، تلك المدينة التي كان من الممكن أن تصبح ساحة للعراك، فيما لو لم يُحذَر برستس من قبل الشعب. لقد كانت الساعة هي العاشرة صباحاً عندما بدأ كورديرو دي فارياس القتال مع كلينجر. واحتل جوان ألبرتو منعطف الطريق لكي يسد على العدو سبيل الهرب. واستمر القتال حتى الساعة الرابعة بعد الظهر. ولم يستطع الافلات سوى سيارة واحدة، تقل طبيب القوات الحكومية. أما شاحنات كلينجر، تلك الشاحنات التي ضحى الملازم مودستو وكثير من الجنود حياتهم في معركة «أنفرنا دازيكالويس» من أجل الحصول عليها، قد استولي عليها الآن. واحرز الطابور انتصاراً عظيماً على قوات كلينجر، وأجبرها على التوغل في الدغل، خلفت وراءها شاحنات وسلاحاً وذخيرة وعدداً من الأسرى والقنلى.

ومن خلال الامطار العرمة والحرائق التي أحدثها الجنود، تقدم الطابور نحو الشمال. إن السكان بتجمعون الآن، يا زنجيتي، حول الطابور، يتعلقون به، في المناطق البائسة، تلك التي كانت إلى أمس القريب مناطق الذهب، حيث كان المغامرون القادمون من كل النواحي يلقون بأنفسهم في بحار حتى الربح. وهناك كاهنان زنجيان هرمان كانا يقرآن القدايس من أجل انتصار السبر الكبير. وكان جوريس يتحدث مفسراً للشعب ماهية الثورة. وكان

الرجال يقبلون يد ميغيل كوستا، القائد، بينما كان البائر يستحوذ عليهم أمام برستس، اللواء العظيم. وكان الأمل يسبق الطابور. وحيثما كان يذهب هذا، كان يلاحظ أن وجوده قد خلق الأساطير. وكان يجد في كل مكان الثقة التي بعثها في الناس، يجد الأمل، يجد الأمل يا صديقتي. وكان الناس يتدفقون من كل الجهات لرؤية فارس الأمل، لمشاهدة الطابور لم يدحر مطلقاً، لمشاهدة اندلاع اللهب في سجلات الضرائب.

وتابع الطابور سيره نحو مارينياون. ودحر سيكيرا كامبوس شرطة غوياس المندفعة لمطاردة الطابور. ووصل هذا الأخير إلى نهر بالما، فاجتازه، ودخل مدينة ناتيفيداد، وتوجه بعد ذلك شطر بورتو ناسيونال، حيث صدر أحد اعداد الـ « أولير تادور »، جريدة الطابور. ومن بورتو ناسيونال، سار الطابور باتجاه حدود مارينياون. وطلبت القبائل الوطنية، المحاطة بظروف عيش فظيعة، والمضطهدة من الجميع، حماية الطابور، وذهب الشافنتس^(٢٧) والجافاس^(٢٨) لمقابلة برستس في جبال بيابانا. حدثوه عن تعاساتهم ورافقوا الطابور في سيره بضعة أيام. وفي بدرو الفونسو اجتازوا نهر سونو، ومشت طلبة الطابور باتجاه مارينياون. وحاذى القسم الأكبر من الطابور في سيره شواطئ التوكانتس، ليصل في اليوم الحادي عشر إلى نهر مانويل أليفيس غراندي، متغلاً بذلك في ولاية مارينياون. لقد سار برستس، يا صديقتي، بحملة غوياس، نحو نهايتها المظفرة، فدحر فرق كلينجر وأثار شعب هذه الولاية.

إن التعطش للثورة وطعم العدالة، اللذين أثارهما الطابور في هذه الشعوب خلال مروره، ظلا ثابتين، ثبات الاطمئنان إلى أن حياة أفضل كانت ممكنة، وأن من الواجب العمل للحصول عليها. وبقي البذار الثوري في هذه الحقول، في منطقة نجاد وانهار غوياس، بين أناس غارقين في بحار العبودية.

لقد امتلأ قلب برسنس، ألماً، يا صديقتي، لملاحظته استمرار عصر

العبودية في ماتوغروسو وفي غوياس. لقد شاهد العبودية في البراري في أقذر مظاهرها. شاهد في اللاتيفنديا، الأسياد، أرباب المهن، رؤساء الورش، حاملين السوط في يد، والمسدس في يد، وشاهد في وسط المزرعة أدوات التعذيب، والمخزن الذي تباع فيه البضائع بأسعار فاحشة؛ لقد شاهدت عيناه كمرجل هذا المنظر. ومنذ ذلك الحين، ظل يسيطر على ابتسامته أثر الحزن كبير. وعلى وجهه ارتسمت بثبات أعظم عزيمة الثورة. وفي الليالي المنجمة، حيث كانت تلمع الحباحب، شاهد جموع «البابودوس»^(٢٩) الغفيرة التعيسة، وفي غوياس، طالعه المنظر الفاجع للبؤساء المصابين «بمرض الشاغاس». في هذه الأرض الخضراء، حيث يتدفق الزمرد، كان عدد الحباحب يفوق عدد النجوم. لقد كانت هذه الأرض الغنية الجميلة، يا صديقتي، أكثر الأراضي ففراً بالقباس إلى الانسان الذي كان يسكنها، وكانت أفجعها أيضاً. في هذه البلاد المهجورة من قبل الاطباء، من قبل الحكومة، من قبل الوزارة وأمانة سر الصحة العامة، كان مرض الشاغاس - أكثر الأمراض خطورة - يقوم بجولاه المخربة. الوزارة كانت تفكر بالخطب الجميلة التي سوف تلقيها. وكان أمين السر يفتش عن وسائل تزوير الانتخابات. ما الذي كان يهمها من مرض الشاغاس؟ ما الذي كان يهمها من «بابودوس» الداخل الذين يموتون بالعشرات؟ وفي مدخل سان باولو دي بندوكا، في بلدة تقع على حدود مبناس وغوياس، وجد برستس جميع الأهالي مصابين بمرض الشاغاس. لقد كانوا زنوجاً مهجورين من العالم كله. إنه جنس كان يزول، إنها مدينة كانت تموت، بعيدين عن كل مدنية، دون أدوية، دون أطباء. لقد كان مشهداً لموت جماعي. ولقد عاش زنوج «البابودوس» خلال أشهر وسمات، مجردين من أي أمل. لقد كانوا ينطفئون ببطء، وكان الصمت يسوق قلباً قلباً على المدينة. وبعد هذا المشهد ازداد وجه برستس الطلق قساوة، وازدادت ابتسامته حزناً، يا صديقتي. وشعر برستس مجدداً بأنه أكثر نعداً عن الرؤساء السياسيين الثوريين في المدن الكبرى، الذين كانوا يظهر

له تسميهن بالرؤساء الحكوميين. وأحس باطراد أنه قريب من الشعب. لقد كان يقدم العدالة، يعلم نفسه، يعيش، وقد بدأ يفكر بيوم الثورة الكبرى.

وعلى ضفاف النهر، يا صديقتي، شاهد الهنود يأتون إليه، شاهد الشافاننس والجافاس، المجردين من كل شيء، المطرودين كالحیوانات المفترسة، المضطهدين كالمجرمين. لقد كانوا يطلبون إليه، هو، لواء الثورة، الحماية وتقديم الأدوات للعمل في الأرض. وشاهد في بورتو ناسيونال الزنجي جوان فرنسيسكو، المسربل بالقيود منذ أربع سنوات، والذي تعرض قبل ذلك، وخلال سبع سنوات، لضروب من العذاب المرعب. وكان القاضي الذي لفظ حكمه بإبداعه السجن طيلة ثلاثين سنة، ثملاً عند إصداره الحكم، ولم يكن قد سمع اعلان المحلفين براءة المتهم. ولم يهتم المحامي باستئناف الحكم لأن موكله لم يكن يملك مالاً يدفع به أجره. وهكذا قُدر على الزنجي الهرم البريء جوان فرنسيسكو، الذي لم يكن قد ارتكب جرماً، والذي برأه المحلفون، أن يدفع من حياته سبع سنوات جحيم وأربع سنوات تكميل بالسلاسل، « بالرجلين وباليدين »، ثمن عادة السكر لدى قاضيه. هكذا كانت، ولا تزال، تقدم العدالة، يا صديقتي، في داخلية البرازيل.

واملاّت عينا برستس بالكآبة أمام كل هذه المظالم وهذه التعاسة، أمام هذا الألم وهذا البؤس وفي داخلية نفسه كانت تتجاوب بقوة أصداء هذه الفكرة: إنه لن يكون أبداً في صف أولئك الذين كان تفكيرهم لا يزال غير واضح المعالم وغير حازم. إنه من الآن وصاعداً سيكون في خدمة الشعب، السائر بأمل، بشجاعته المطمئنة، نحو اليوم الذي سوف تنتصر فيه العدالة.

وخلف الطابور، يا صديقتي، في ماتوغروسو وفي غوياس، كما كان قد خلف في ربوغراندي دوسول، في سانتا كاتارينا وفي بارانا، ذكرى مرور فارس الأمل، ذكرى لويس كارلوس برستس متقدماً على رأس طابوره، تامة ثبوت الأمل.

وفي جميع البيوت الفقيرة، يا صديقتي، في بيوت أولئك الذين كان

يُرفض تقديم العدالة إليهم، في بيوت الجياع، كانت تقوم إلى جانب صورة القديس روك وصورة القديس بينيديتو وصورة العذراء، صورة، هي أشبه ما تكون بصورة قديس، مقصورة من جريدة، للضابط الشاب الملتحي، الرزين، المكتئب بعض الشيء، ذي العينين الملتهبتين والمتطلع نحو المستقبل. وكما لو كان الأمر يتعلق بقديس، كان الناس يشعلون شمعتين تحت الصورة، ويصلون أمام ذلك الذي كان عليهم أن يضعوا فيه أملهم. وفي كل بيت فقير، في كل ضيعة، في كل ناكمبو^(٢٠)، وفي كل مكان كان يُنشق فيه عبر الحرية، كانت صورة لويس كارلوس برستس معلقة، يا صديقتي، كلوحة تمثل الأمل: في أسفلها تقوم شمعتان، وفي ما حولها يشع الأمل.

وكان على الطابور أن يبدأ الآن حملة مارينيان وبياي، ومن ثم يهبط نحو الشمال - الشرقي، يجتاز آسيارا، ريوغراندي دونورتي، بارايبا، برنموكو وباهيا. وكان عليه أن يربح معارك، يقاتل ويتقدم باطراد. وكانت عائلات بكاملها تغادر المزارع والبلدان والمدن، لتشاهد، مغلفة بالفرح، مرور جنود برستس، كما لو كان الأمر يتعلق بيوم عيد، وكانت تحمل معها البن والحليب وكعك الذرة والأدوية للجرحى. وسوف يستمر عرض هذه المشاهد كل يوم من الآن فصاعداً. لقد كانت ماهية الطابور قد وضحت، كما كانت قد عرفت أسباب وجوده وأسباب نضاله. وكان قد عُرف من هو برستس وماذا كان يريد، وماذا كان يعمل. وكان اسمه قد أصبح أكثر الأسماء شعبية في جميع أنحاء البلاد. وبالرغم من أنه قد حُدد ثمن في ريو للاثيان برأس برستس، فإن السرتونيين الشماليين، كانوا يحملون الزهور والمال كل إليه وإلى جنوده. ووسط مظاهر هذا التضامن الشعبي المثير، يا صديقتي، جرت حملة بياوي مارينيان.

واجنازت مفرزة جوان البرتو، بصفتها فصيلة الطليعة، إلياسو كوديرو نحو مارينيان. ولم يمر القسم الأكبر من الطابور إلا فيما بعد. وفي الثالث عشر

من الشهر، تقدمت مفرزة كورديرو دي فارياس، نحو مدينة كارولينا، في الشمال، حيث كان جوريس تافورا. وتوجه قسم آخر من الطابور شطر سان انطونيو داس بازاس، ومن ثم توجه نحو سان رايموند وداس مانغابيراس، ودخلها في الثامن والعشرين من الشهر. وكان جوان البرتو قد ذهب ومفرزته نحو غراجو. وكانت مهمته أن يحرق الليوتنان كولونيل باولو كروجر، الذي كان ميغيل كوستا وبرستس قد أرسلوا به بمهمة سياسية لمقابلة زعماء المعارضة في مارينياون فأسرته القوات الحكومية ونقلته إلى عاصمة الولاية قبل وصول جوان البرتو وقواته. وفي الثاني من كانون الأول، احتل الطابور قرية لوريتو على حدود بياوي. وستنضم إليه، في ري شون، مفرزة كورديرو. وسيطر « دجلما دوترا » على بلدة سان فيليكس وبدأ معركة ليست بذي بال. ووصل الطابور إلى مورادور في السابع من الشهر. وتقدم باطراد في ولاية مارينياون، نحو الشمال، بغية تهديد مدينة تيريزينا، عاصمة بياوي، الواقعة على حدود مارينياون.

وبأسر كروجر، أخفق منهج قيام ثورة كان عليها أن تقدم الولاية لقوات الطابور. فقرر برستس، بالاتفاق مع ميغيل كوستا وجوريس، مهاجمة سيارا. ولكن، بما أن هذه الولاية محروسة جيداً من قبل قوات برناردس، فقد خطر لبرستس أن يحرض قوات الحكوميين على مطاردته، بفضل حملة سريعة في مارينياون وبياري وفيما إذا تأخر في هاتين الولايتين، مهدداً المدن، متنقلاً بصورة سريعة من ناحية إلى أخرى، فسوف تندفق القوات الحكومية لمطاردته، ويصبح بالامكان عندها اجتياح السيارا. وحقق برستس هذه الخطة بصورة رائعة. وكانت قوات الطابور في أول كانون الأول معسكرة في لوريتو، على بعد ثلاثة عشر فرسخاً من نهر بازاس. وتقدمت مفرزة جوان البرتو وحدها من غراجو نحو ميرادور.

كانت القوات الحكومية البالغ عددها الاجمالي ألفاً وخمسمئة رجل - فوج من الجيش، الفوج الثالث والعشرون من قوات شرطة سيارا ومفازز الكانغاسيروس المأجورين للحكومة - كانت كل هذه القوات معسكرة في

« بينيديتو لاييتي » وفي « اوروسوي »، وهما مدينتان من مدن بياوي. ومن هناك تقدم الطابور نحو ميرادور. وقد خدعت دجلم دوترا، وهي تتقدم بصورة موازية للقسم الأكبر من الفرق، العدو بأن حوّلت لجهوها الانتباه البرناديسيين. وكانت في كل الأيام تتبادل معهم إطلاق النار، إلى أن ترك العدو « بينيديتو لاييتي » و « اوروسوي ». عندها توجه الطابور نحو فلوريانو بيشوتو، إحدى مدن بياوي. وخلال هذا الوقت أرسل برستس مفرزة جوان البرتو، القادمة من غراجو، نحو ضفاف البارانا.

وفكر برستس باحتلال مدينة فلوريانو بيشوتو، ولكن العدو غادرها، كما غادر أمارانتي، المهدة من مفرزة سيكيرا. ووصل جوريس، الذي كان تابعاً لهذه المفرزة، في العشرين من الشهر إلى أمارانتي، حيث كان برستس قد وصل قبل عدة ساعات من ذلك. وأقيم مركز أركان الحرب في فلوريانو بيشوتو بينما توجه دوترا وجوان البرتو، بقيادة جوريس نحو تيريزينا، باتجاه الضفة الشمالية للبارابيا، كما سار كورديرو دي فارياس وسيكيرا كامبوس على محاذاة الضفة الشمالية بقيادة اللواء برستس المتقدم مع مفرزاته. أما ميغيل كوستا، فقد كان يدافع عن مواقع فلوريانو مع قسم من الطابور. وهكذا كانت مهاجمة عاصمة بياوي قد بدأت، يا صديقتي.

وفي الثالث والعشرين من الشهر، وصل تافورا إلى سان بدرو، وتحدث في يوم عيد الميلاد إلى برستس في رياشون سيكو، وفي الثامن والعشرين منه، اتصل بالعدو. وفي هذا اليوم نفسه وصل برستس إلى فلورس. وكان ثلاثة آلاف رجل بدافعون عن فلورس وتيريزينا بقيادة غوستافو بنتومولر. وكان اللواء جوان غومس هو القائد الأعلى للقوات الحكومية في الولايتين. ومن مركز أركان حربه في سان لويس دي مارينيان، كان يقود سبعة آلاف رجل. وكانت القوات السائرة لمواجهة الثلاثة آلاف حكومي، مؤلفة من ثمانمائة رجل، أربعمئة منهم بقيادة برستس، وأربعمئة بقيادة جوريس.

وبينما كان جوريس يهاجم تيريزينا، انقض برستس، بدوره، على مدينة فلورس، وقطع مواصلات السكك الحديدية مع الكاشيلاس. إن عملية

برستس هي الآن في أهم مراحلها. وها هي الحكومة، وقد خشيت أن تسقط عاصمة البياوي بين أيدي الطابور، ترسل إلى هذه الولاية بجميع القوات التي تملكها في السيارة. وجُردت السيارة بصورة ضمنية من جميع قواتها. وأعطى برسس الأمر برفع الحصار عن تيريزينا وفلورس، وتوجه، بين دهشة الحكوميين العظيمة، نحو السيارة. وهكذا وجد العدو نفسه أداة طيعة تماماً بيد الطابور، بفضل خطة اللواء الثوري.

ووسط هتافات الجنود، عُيّن برستس لواءً في العشرين من شهر كانون الثاني، من قبل ميغيل كوستا. وأصبح جوان ألبرتو وسيكيرا زعيمين. وبعد أن اجتاز الطابور الكاتنغا وغابات الكارنوبييراس^(٣١)، واجتاز سيارا غراندي، وصل إلى بلدة بيوشيز، على حدود السيارة. وفي الثاني والعشرين من الشهر دخل هذه الولاية، ارتاح في إحدى المزارع، ثم سار فوراً نحو أرثيروس، على نهر جاغواربي، واجتازها في الخامس والعشرين منه. أما جوان ألبرتو، فقد تغلغل وفرقه أكثر إلى الشمال، شطر مدينة أيبو، التي تسيطر على قسم من سكة حديد سوبرال، مهدداً بذلك هذه المدينة وعاصمة الولاية. وما كادت قوات الطابور تعاود تجميع نفسها، حتى واصلت سيرها في السيارة نحو ريو غراندي دو نورتي. وفي التاسع والعشرين من الشهر، اجتازت خط سكة حديد باغوريقي، واحتلت محطة سوسويارانا. وفي الواحد والثلاثين منه اتصلت بالعدو. ووصلت في الثاني من شباط إلى بوانيستا. وكانت نطمح إلى دخول ولاية برغمو كو، حيث يُنتظر قيام ثورة كليتو، وهو ضابط في الجيش كان قد توصل إلى الاتصال ببرستس، وأطلعه على خطته للقيام بانتفاضة في برغمو كو وفي باراييبا. توجه برستس إذن نحو هذه الولاية لكي يؤازر الانتفاضة. وفي الرابع من شباط، اجتاز الحدود الفاصلة بين السيارة وولاية ريو غراندي دو نورتي، من منحدر مينيونس.

إن صعود هذا الجبل على صراط جهنمي، تحت وابل من نيران العدو

(٣١) شجرة كبيرة من أشجار الغابة العذراء.

القابع في القمم، هي واحدة من أعظم بطولات الطابور. وكانت دماء الرجال، وقد اضطروا إلى التقدم بطريقة الخط الهندي، تسيل عندما كانت أجسادهم تصطدم بالصخور المحيطة بالصراط. لقد كان نقل المحامل فظيماً، وحقت بنقل الرشاشات متاعب لم تكن بالقليلة. ومن أعالي جبال ميونس، كان العدو يطر الطابور بنيرانه الرشاشة. ولكن لم ينتب جنود برستس أي بأس، يا صديقتي. فلقد طردوا العدو من معاقله، احتلوا قمة المنحدر ودخلوا ريو غراندي دونورتي.

اجتاز الطابور منذ خروجه من غوياس ثلاث ولايات: مارينياون بياوي وسيارا. ووسط حى المعارك والخطط الموضوعة خلال السير احتفل برستس بأكثر من عيد ميلاد. لقد سُمي لواء، وفقد مؤازرة جوريس، وبفضل قوته المعنوية، استطاع أن ينتصر على تمرد بينيسيو دي سانتوس. لقد كان هذا الأخير كوشياً قرر مرافقة الطابور منذ ريو غراندي دوسول، مع رفاق له. وكان النظام العسكري، القاسي العنيف، أثقل من أن يتحملة هذا الرجل، الذي اعتاد العيش بحرية في البامباس. في ليل الثالث من كانون الأول، وجه برسس، بينما كان يحتفل بعيد ميلاد ميغيل كوستا، تنبيهاً إلى أحد الرقباء لمخالفته النظام. ولما قابل هذا ما وجه إليه بقلة احترام، أوقف كما أوقف عدة جنود. وعندما علم برستس بأن تصرف هؤلاء الرجال قد حصل بناء لأوامر بينيسيو، منع ميغيل كوستا من معاقبتهم، وأرسل بهم إلى مفرزتهم. ثم ذهب برفقة مساعده في المعسكر، لاندروسي، إلى فوج بينيسيو. واستدعى هذا إليه، ووضع نفسه على رأس فوجه وقرر القيام بسير طيلة أربع وعشرين ساعة مع أولئك أنفسهم، الذين حاولوا قتله بالأمس. وكان برستس ولاندروسي سيران في الطليعة، يتبعهما بينيسيو والرقيب الذي سبق له، بناء لأوامر سنسبو، أن شهر مسدسه على برستس. واجتازوا أراضي مغطاة بالأدغال، وانهارا. وسرعان ما أخذ الندم يتآكل بينيسيو والرقيب والجنود. واسرول عليهم برستس بهذا الشكل. على هذا النحو كان برستس المستقيم الشجاع، يا صديقتي، على هذا النحو كان يحوز على تقدير واحترام واعجاب رجاله.

خلال حملة الولايات الثلاث هذه، كان برستس في صراع مع الملاريا. ولقد انقضّ الجرب، في أول الأمر، على الطابور؛ وكان الرجال الملقحون الكثيفو الشعر، يحكّون جلودهم كقافلة عظيمة من السعادين. وخلال اجتياز البياوي، في فترة الامطار الغزيرة، انقضت الملاريا على أربعمئة من رجال الطابور. وكان برستس يمشي مع الحمى، التي لم ينج من برائنها أي ضابط. ولكن هؤلاء الرجال ما كانوا يشعرون بالحمى، فما كان بمقدور المرض أن يلحق بهم الهزيمة. وكانت الحمى تقودهم إلى القيام بأعظم الاعمال البطولية. ولم يكن بالامكان أن يُحطّم هذا السير الخيالي بوباء بسيط من الملاريا. وكان الرجال المفتقرون إلى الكينا والأدوية، يرتجفون من الحمى؛ ولكنهم حتى في هذه الحال، كانوا يمشون وهم يقاتلون. ولم تكن ساعات هذيان الملاريا المومة، في تتابعها الرتيب، شيئاً كَلَّى الجدة بالقياس لهؤلاء الجنود والضباط، ولهذا الرئيس. وكان سير الطابور في حد ذاته، حلماً مضطرباً. لقد كان شيئاً يعتبره الكثيرون مستحيلاً، ولكن الجنود كانوا يحققونه وسط الدهشة العظيمة لأكثر مراكز اركان الحرب فهماً في جيوش العالم كله. ماذا كان بمقدور الملاريا أن تعني بالقياس لهؤلاء الرجال؟ في البياوي اسنوطنت الملاريا الطابور ورافقته حتى بوليفيا. ولم ينقطع الجنود عن الاحساس بالحمى؛ ولكنهم اعتادوها وأصبحت لا تُعد مرضاً بالقياس إليهم.

على أراضي السيارات القاحلة هذه، حيث كانت الشمس تشكل أخطر الأعداء، المخفض الوباء. وكان القليل من الرجال يموتون: ستة من كل أربعمئة مريض. وعلى أثر الأمطار الطوفانية، عرضت عليهم السيارات مناظرها التي أقفرها الجفاف. وكانت ريح محرقة ترفع في الفضاء رمالاً تلمح فيها الشمس لمعانها في مرآة. لقد كانوا يمشون كما لو على نار، وقد اشتعلت منهم الأقدام وجفت الحناجر. وعقب أسرار غابات ماتوغروسو العذراء، عقب البراري، عقب نجد الغوياس وأمطار البياوي، جاء الآن دور أتون السيارات، حيث فنيت أجيال من أهالي الشمال-الشرقي على أثر الجفافات الموسمية وفي وسط الحر المخيف، كان الطابور يتقدم داحراً الشمس والريح النفاثة، كما

كان قد دحر الملاريا ، ودحر الكانغاسيروس .

كان لامبيون قد عرض خدماته على برستس ، ولكن اللواء رفض العرض . ولقد بقي لامبيون ، خلال فترة طويلة جداً ، سيد ولايات الشمال - الشرقي ، فإن مظالم أسياذ الأرض والقوانين البربرية الموجهة ضد الفقراء ، دفعته إلى الانتقام من الكانغاسو . ولكن ثورة لامبيون كانت قد أصبحت لصوئية ، نهياً ، عنفاً وموتاً . وجندت الحكومة لامبيون لمقاتلة الطابور ، وكما لو أنها كانت تريد إهانة الجيش - إهانة إضافية في عصر الاستبداد هذا - منحت لامبيون رتبة نقيب . ولم يكن لامبيون وحيداً من نوعه ، فلقد استعانت الحكومة بجميع كانغاسيروس الشمال - الشرقي وألقت بهم ضد برسنس ، وخاصة رجال الأب سيسيرو . وكان أهالي الشمال - الشرقي ، المؤمنون بأعاجيب الأب سيسيرو وتعاطفه مع العذراء ، يقطعون الفراخ لتلقي بركات هذا الرجل . وكان الأب سيسيرو يقطن جوازير في السيارة ، تلك المدينة التي كانت تشكل في الوقت نفسه مدينته وحصنه ، لأن إليها كان يلجأ الكانغاسيروس . وكان الأب سيسيرو عراب لامبيون ، وكان يعد جميع البؤساء بأنه سوف تهبط اعجوبة من معطف العذراء الممتلئ بالنجوم . وكان يقول : سيأتي يوم تشلهم فيه أعجوبة من تعاسة العيش . ولم يقبل الأب سيسيرو أن يسهم في النضال ضد برستس . ولما كان يريد مساعدة السرتونيين ، وما كان يستطيع أن يقدم إليهم سوى الاعجوبات ، وكان يجهل المسالك التي يمكن أن تؤدي هؤلاء الرجال إلى حياة أفضل ، فلربما يكون قد شعر وسط جنونه الصوفي وطيبته النائية ، بأن برستس كان يحمل هؤلاء التمساء من السرتونيين خلاصهم الحقيقي . لقد رفض الاسهام في النضال ضد برستس ، ولكن جميع « الفلوروبارتولومو » الذين كانوا يستثمرون ، تجاه أهالي الشمال - الشرقي ، احترامه كقدس خرافي ، تقبلوا بطيئة خاطر الأموال ورتب الجيش التي عُرِضت عليهم فسلحوا الكانغاسيروس ، ولما لم يتوصلوا إلى دحر الطابور ، جعلوا ينهبون المدن والقرى ، البلدان والمزارع . وأخذت تعترض الحكومة صعوبات مطردة ، يا صديقتي ، أثناء تشكيلها لأفواج

« المتطوعين ». وكان هؤلاء « المتطوعون » يُطردون بواسطة الانشطة (٣٢)، من قبل الأسياد الاقطاعيين وملاكي اللاتيفانديا في ماتوغروسو وغوياس. وكانت صحافة برناردس، الخاضعة لرقابة جاكسون الاكليريكية، تصور هؤلاء العبيد، الذين كان يُلقى بهم ضد الطابور، كمواطنين متطوعين بحرية للدفاع عن « النهج السوي ». إن نشاط الطابور العسكري والاجتماعي، وواقع كونه يقدم العدالة خلال مروره، منع مطاردة « المتطوعين » من قبل « الرؤساء » السياسيين. وكان الأهالي يفرون من الجندية لكي لا يشتركوا في النضال ضد برستس. واضطرت الحكومة إلى طلب مساعدة الكانغاسيروس، للصوص المحنزين، مرعي السرتاوس، لكي تؤلف الفرق لمقاتلة الطابور. وعلى هذا الشكل، أصبح فيرغولينو، الذي كان قد ازيل نفوذه قبل عدة سنوات من ذلك على ضفاف سان فرنسيسكو، نقيباً، يا صديقتي. وأصبح النقيب فيرغولينو فربر لامبيون واحداً من رجال برناردس، وأخذ بقاتل ضد برستس. لقد كان الحكوميون يصلّون من أجل لامبيون، الذي كان يغتصب النساء، بقتل الأبرياء، يخصي الرجال، ينهب الاغنياء والفقراء كانوا يصلون من أجله « أبانا » و « السلام ».

لقد دحر لويس كارلوس برستس الملايريا، دحر الشمس، الغابات العذراء والأنهار، ودحر كذلك الكانغاسيروس. وكان أسمه يتموج في سماء البلاد كطلقة نار اندفعت لتستقر في وجه اعداء الشعب في الصميم. في البيوت الفقيرة، في الأكواخ، في الما كومبا، في « سنزالس » البلاد، كانت النساء ذوات الوجنت المجوفة، والأولاد المرضى، والرجال الأرقاء، يبتهلون إلى السماء، إلى الآلهة البيض، إلى الآلهة الهنود، والآلهة السود، من أجل انتصار فارس الأمل. ومن الكاتنغا المحرقة كذلك، كانت تتصاعد صلوات أخرى نحو السماء، يا صديقتي.

- ٧ -

دخل الطابور، با صديقتي، أراضي الشمال - باتجاه نهر سان فرنسيسكو. وكان على جنود برستس أن يجتازوا ثلاث ولايات أخرى: ريو غراندي دونورتي، البارابيا وبرغمو كو. واشتركوا، خلال هذا السير، في معركة بيانكو الدامية، حيث تكللت هجمات كورديرو دي فارياس وجنوده بالغار، وحيث تجاوز الرنارديسيون جميع فظائعهم السابقة، بتعذيبهم، حتى الموت، الثوريين الذين سقطوا بين أيديهم. وخلال هذا السير كذلك، وعندما حاولت ثلاثة طوابير حكومية أن تحاصر الطابور المعسكر في مزرعة بوينوس أيرس، الواقعة على سلسلة جبال سيررا لينغا، استطاع برستس، بفضل عبقريته العسكرية، أن يحقق واحدة من أجراً مناوئاته. كان قد سبق لحاكم برغمو كو أن أخبر ربودي جانيرو بأن القوات الثورية كانت محاصرة ومقضيّاً عليها بالفناء، وأنه لم يبق عليها إلا أن تتلاشى عند محاولتها اجتياز السير. وكان خمسة عشر ألف رجل يهثون أنفسهم لانتهاء قضية طابور برستس، لتصفية الثورة السائرة عبر البلاد. وكان برستس يتأخر في تلك الأماكن، بانتظار تلقي أخبار ثورة كليتو كمبيلو، التي كان عليها أن تندلع في رسيقي. وكان فشل هذه الثورة، الذي لم يكن قد وصل إلى مسامع برستس، قد زاد في سرعة استعدادات الحكوميين. ولم يُعرف أمر تطويق الطابور إلا خلال بعد ظهر يوم الثاني والعشرين من الشهر. وسرعان ما رجع برستس على أعقابهِ، ثم اجاز، وهو بفتح لنفسه طريقاً صعبة المسالك في الكاتنغا ثلاثة وعشرين فرسخاً، ممتحاً الدروب في منطقة لم يكن الكانغاسيروس أنفسهم قد اجازوها مطلقاً. وبينما كانت الطوابير الحكومية تتابع تطويقها لمزرعة بونوس أيرس، وتجهّد نفسها لكي تحصر جنود برستس بين هذه المزرعة وبين سيررا نغرا، كان الطابور يتقدم تحت وابلٍ من مطر جهنمي، سائراً

ليل نهار بمعدل ثلاثة عشر فرسخاً في اليوم. وبعد أن سار برستس بشكل فوس دائرة، وصل إلى نهر سان فرنسيسكو باتجاه باهيتا. ولم تجد الفرق الحكومية أقل أثر للطابور في مزرعة بوينوس أيرس. وخلال هذه المناورة، التي كانت من أروع ما قام به هذا اللواء البالغ من العمر سبعة وعشرين ربيعاً، أثناء سيره عبر البرازيل، دحر برستس دروب الكاتنغا الصعبة، التي كان عليه أن يسيطر عليها، ودحر الأراضي الموحلة التي لم يكن قد غامر أحدًا باجتيازها، وحيث كان الجنود يمشون في وحل يصل إلى بطونهم. وكانت الحملات المملوءة بالجرحى والمرضى، تُحمل حتى نهاية المطاف، بالرغم من المصاعب، بالرغم من غوص الخيول في الوحل، بالرغم من الكانغاسيروس الدبن كانوا ينتظرون رجال الطابور، لتصفية أمرهم، في أطراف الكاتنغا، حيث لم يكونوا، هم أنفسهم، قد تجرأوا مطلقاً على الدخول. لقد كان ذلك سراً مربحاً خلال الليل والنهار.

كان الجنود يتقدمون في بحر من الوحل، وكان يبدو أن لم يكن لآثار السير العميقة من نهاية. وخلال الليل، الذي لا تنتهي ساعاته، كان الطابور يتقدم، ورؤسة في الطليعة، غارقاً في القناذورات حتى الكتفين، وكانت أشواك الكاتنغا تمزق من جنوده الأجساد. وكانت حيوانات الليل تضيء بعيداً، كوم دبة فيه الرعب. وأخذت صفدة تنق في فم صل، بينما ظل الجنود يتابعون سيرهم، وظلت الأراضي الموحلة لا تتعرف إلى نهاية. وكان المرضى المتأرجحون على حمالاتهم، يخنقون تأوهاتهم. وكانت الليالي مجردة من القمر، والسماء خالية من النجوم. وكان الرجال يحملون في الفم زفرة مؤلمة، بينما انقبض منهم القلب ضيقاً. ليس بمقدورهم النكوص على أعقابهم؛ فلقد أحاط بالحكوميون الخمسة عشر ألفاً بالمزرعة التي كانوا قد غادروها. وأخذ الرعب يسيطر على الكاتنغا، بينما كان الجنود يتطلعون إلى السماء القائمة، التي جردت ولو من نجم واحد لهدايتهم. لقد كانوا يسمعون نقيق الضفادع المرتعبة، ونعيب البوم. إنهم وقد غرقوا في حماة الوحل، كانوا يتطلعون إلى أمام، وكان نجمهم، يا صديقتي، هو هذا الرجل الذي كان يتقدمهم مفتتحاً

المسالك الضيقة الموحلة، هو لويس كارلوس برستس. وكان المرضى يخفقون رفرات ألمهم، والجنود يطردون الخوف من قلوبهم. ووصلوا بعد يومين من ذلك، إلى ضفاف سان فرنسيسكو. وبذلك كانوا قد اجتازوا الطريق الجهنمية، حيث لم يكن لاميون، الذي ولد في الكاتنغا، مع هذا، ويسكنها منذ الأبد، ليجرؤ مطلقاً على وضع قدميه. ولقد أنقذ برستس، بسيره عبر هذا الدرب، رجاله من الموت. لقد أنقذ الطابور من الهلاك.

لقد كانت هذه المناورة هي الأخيرة، يا صديقتي، في حملة الولايات الثلاث. وكان الطابور قد انتهى من اجتياز منحدر ميبونس تحت وابل من نيران العدو. وفي مدخل ريو غراندي دونوتي، في بلد سان ميغيل، صفت مفارز آري وجوان البرتو، أمر قوات «الوطنيين»، المؤلفة من الكانغاسيروس المأجورين للدولة. وفي الخامس من شباط، اجتاز الطابور سراً لويس غومس ودخل القرية الحاملة للاسم نفسه، على حدود البارايبا. لقد دخل هذه الولاية، حيث أرسل جوان البرتو لمحاولة الاتصال بالملازمين «سروا داماتا» و«سوزا دانتس»، اللذين كان عليهما أن يحاولا، عند اندلاع الانفاضة في برنغو كو، إشعال ثورة في العاصمة بارايبا. ولكن هذه الثورة باءت بالفشل. فبعد مقاومة بطولية، إثر الهجوم على أحد عشر ثورياً من قبل أربعمئة رجل، سقط «سيرويا» و«سوزا» أسيرين. وفي البارايبا، اجناز الطابور جبال «بوافيستا»، «بدرا سيرادا» و«بيتو مبراس»، كما اجنار عدة أنهر. وفي الثامن من الشهر كانت مفرزة آري في «بوكيرايو دي كوروما» حيث دحرت العدو، وفي التاسع منه سار الطابور باتجاه بيانكو؛ كوردبرو دي فارباس في الطليعة، هو ومفرزته. وفي مكان غير بعيد عن القرية، استقبل كوردبرو برصاص جنود شرطة بارايبا ورصاص الكانغاسروس. وكان الكاهن اريستيدس فريادا كروز، نائب الولاية، مفود القوات الحكومية. وفي الوقت الذي هوجم فيه كوردبرو، كان هذا هبط مع رجاله المنحدر المؤدي إلى مدينة بيانكو. واستمرت المعركة التي اندلعت، ثلاث ساعات، وتميزت بكثير من آيات البطولة. وقُتل وجرح كثير

من ضباط وجنود الطابور. ولكن بيانكو كانت قد سقطت تحت سيطرة كورديرو دي فارياس.

وانضم جوان البرتو، الذي كان قد حاول الاتصال «بسيرويدا موتا» و«سوزا دانتس»، إلى الطابور. وكان قد هاجم في ما سبق القوات العدو في قرية مالتا، حيث كان قد غنم سلاحاً وذخيرة. ودخل الطابور برنمبو كو. وفي الرابع عشر من الشهر، قضى دوترا وجوان البرتو على قوات شرطة برنمبوف، التي يقودها الرعيم جوان نونس، والتي ما لبثت أن تشتت أيدي سبأ، مخلقة السيارات والشاحنات والسلاح والذخيرة. وتقدم الطابور نحو مزرعة سان بويافتورا. وكان ينتظر، بين حين وحين، وصول اخبار عن انتفاضة كليتو كمبيلو. وفي الخامس عشر من الشهر، دخل الطابور سان كاتانو، بينما احتل سيكيرا بمفرزته بيتانيا، وطرد منها شرطة برنمبو كو. ورأت مفرزة جوان البرتو أن نوكل لنفسها مهمة الاتصال بكليتو كمبيلو، وقاتل سيكيرا في مولوغو، وقاتل جوان البرتو في كامبو اليغري. وتقدم الطابور على دروب صعبة، حيث كان المطر غير المنقطع يحول المسالك الضيقة إلى مستنقعات موحلة. ووصل في الثاني والعشرين من الشهر إلى مزرعة سيبو. وهوجم من قبل العدو في اللحظة نفسها التي وصل فيها. لقد هاجمته فرق الجيش والشرطة، وهاجمه الكانغاسيروس. وأوقف كورديرو دي فارياس، بطليلة الطابور تحت وابل من النيران، العدو، بينما اجتازت معظم فرق الطابور المزرعة. وكانت مفرزة سيكيرا كامبوس ودجلبا دوترا، أكثر من تعرّض للقتال. وفي وقت من الأوقات، دبّ الهلع في جنود سيكيرا كامبوس، وقد شاهدوا العدو يزداد قرباً منهم باطراد. وابتدأ التشتت. فجمع سيكيرا فريقاً صغيراً من الرجال الثابتين، وتقدم نحو العدو. وعندما أحس الجنود الهاربون بخطة قائدهم الجريئة، استداروا مهاجمين وهزموا الخصم. وعندما غادر الطابور مزرعة سيبو، رافقه كورديرو وقاتل العدو، مانعاً إياه من التقدم. وبعد عدة ساعات من ذهاب الطابور، وصلت مفرزة آري إلى المزرعة، فواجهتها القوات الحكومية العسكرية فيها. فقاتلتها وتوصلت إلى الانسحاب

والالتحاق بالطابور في مزرعة بوينوس أيرس. ومنذ الفترة التي كان رجال الحكومة الخمسة عشر ألفاً قد اقتربوا فيها، كان برستس قد بدأ مناورته خلال الكاتنغا. فقطع عندها ثلاثة وعشرين فرسخاً بشكل قوس، ليمر بمزرعة بريجينيو، على مسافة ثلاثة فراسخ من سان فرنسيسكو. وأطلقت مفرزة سكبيرا كامبوس من هناك كفصيلة للصدام، وتحولت للهجوم في الخامس والعشرين من الشهر، وحاصرت، حتى السادس والعشرين منه، قرية جاتوبا، على ضفاف سان فرنسيسكو، حيث كانت تعسكر القوات الحكومية. وخلال هذا الوقت، اجتاز الطابور النهر ودخل ولاية باهيا. وحصل الاجتياز من بلدة فارزيا ريدوندا، على مسافة فرسخ ونصف من جاتوبا، حيث طوق سيكبيرا العدو. ولقد اجتاز الملازم برازيل وعدد من الرجال شاطئ باهيا، على أحد القوارب، واستولوا على زورقين شرعيين، استطاع الطابور بفضلها اجتياز سان فرنسيسكو.

كان الليل قد غد في السير عندما نشرت المراكب، التي تحمل رجال طابور برستس، أشعتها على النهر. وكان القمر - قمر باهيا الكبير الأصفر - يلعب، بينما كان رجال برستس قد بدأوا يجذفون على المياه التي تسيطر عليها تامنجا، سيدة جميع بحار، جميع بحيرات، جميع شلالات وانهار الولاية السوداء.

لم تكن تامنجا في تلك الليلة، يا صديقتي، منتصبة فوق صخرتها التي تلو أرضة باهيا، لم تكن تتطلع إلى القمر الكامل، ولم تكن تغري بشعرها المنثور البحارة الهائجين. لا، لقد كانت في تلك الليلة تبهر على شعاع من أشعة القمر نحو مياه نهر سان فرنسيسكو، لكي تشاهد اللواء برستس فوق مؤخرة أحد المراكب، تدور لحيته الريح، وتتفحص عيناه الليل، وقد خفق قلبه من أجل جميع زنوج وجميع بؤساء هذا النهر الفاجع. وبردت تامنجا النسيم بنفحة من نفسها، ونشرت شعرها على المياه لكي تظل هذه ساكنة هادئة، وقادت بيدها اليمينين، أمانة البوصلة، المراكب التي تحمل جنود الطابور. وثبتت عينيها الخضرابين برستس الذي يعرف طريق أراضي السعادة، برستس

الذي لا بشكل أباً للجنود وللسرتونيين فقط، بل هو أيضاً أبو جميع البحارة،
با صديقتي .

- ٨ -

لقد كانت الأساطير تظل ثابتة بعد مرور الطابور ، يا صديقتي ، بل وكانت تستبقه أيضاً . على أرض الخرافات هذه ، المملوءة بالروايات ، على أرض السرتون القاسية ، تنطلق الأساطير في كل لحظة ، وبمناسبة أي شيء وإن داخل البرازيل كله لمملوء بالأشباح ، فالأدغال تنتج الخرافات ، والشعر يسيل متدفقاً من شفاة العميان عازفي القيثارة ، والقصاصين الزنوج ، والزنجيات الهرمات اللواتي يسهرن على رقاد الأولاد البيض والخلاسين . على هذه الأراضي ، يا صديقتي ، يصبح الشعراء أبطال المغامرة ، ولا يُتاح لأي إنسان مطلقاً أن يعرف أين كانت تبدأ حدود الحقيقة ولا أين كانت تبدأ حدود الخيال . ولقد جاءت الأساطير الزنجية من إفريقيا إلى جوانب باهيا وبرنمبوكو ، جاءت الأساطير الهندية من الغابات العذراء في غوياس وماتوغروسو . وكان الطابور قد اجتاز هذه المناطق . وكان مرور هذه القبضة من الجنود الشجعان يولد الأساطير . وكان الطابور يحمل البطولة والعدالة ، ولكنه كان يحمل الشعر أيضاً ، يا صديقتي . لقد كانت الأساطير تظل ثابتة بعد مرور الطابور ، ولكنها كانت تتقدمه أحياناً .

لقد سبق أن قلت لك إننا ما إذا أخذنا بأقوال السرتونيين ، فإن جنود الطابور كانوا لا يأكلون سوى قوائم الحيوانات الأمامية ، وعلى هذا الشكل استطاع الطابور أن يمتلك ناصية سرعة التحرك الرائعة في السير الكبير . إن القوائم الأمامية تدفعك إلى أمام ، وتجعلك القوائم الخلفية تدورين حول نفسك في الموضع نفسه . وتحفظ القوائم الأمامية بسر السير السريع . ذلك ما كان بقوله السرتونيون^(٢٣) الذين أدهشتهم سرعة حركة الطابور .

(٢٣) سكان الصحارى الواسعة في البرازيل .

كانت الأساطير تولد بسبب حركة دوريات البوتريادور الجريئة، وكانت تولد أيضاً بفضل شجاعة بائعات المؤونة، وبطولة الضباط وعبقريّة برستس. وبالقياس لسكان الداخل، كان الطابور شيئاً في تمام الجدة، لم يسبق له أن نظر، ولم يكن يُتوقع ظهوره. وكان السكان قد اعتادوا على الكانغاسيروس، الذين كانوا ينهبون، يحرقون، يجتاحون، يغتصبون النساء والأُملاك. وكان هؤلاء السكان قد اعتادوا كذلك على الشرطة التي كانت تلاحق الكانغاسيروس ولكنها لم تكن لتختلف عنهم بشيء. إن كل فريق من الرجال المسلحين، كان يشكل دائماً بالقياس لفلاحِي الداخل، تهديداً ضد حياتهم، ضد عائلتهم، ضد أملاكهم الفقيرة. وكان وجود الفرق المسلحة يزيد دائماً من التعاسة الضاربة الأطناب؛ وكانت العصابات تحمل معها قوانينها، التي كانت كذلك أشد قسوة من قوانين العبودية المسيطرة. ويجب أن يُضاف إلى قانون اللصوص، قوانين الشرطة الملاحقة للصّوص. وبالإضافة إلى الفيضانات التي كانت تخرج خلالها الأنهار عن مجاريها وتحمل معها الزروع والماشية، وبالإضافة إلى الجفاف المفترس للمزروعات والمستنزف لقوى الحيوانات، كان الكانغاسيروس والشرطة يشكلون مورد تهلكة يومية للسرّتون.

أما الطابور، فكان شيئاً آخر. إن هؤلاء الرجال المسلحين الذين كانوا يقاتلون في كل يوم، هؤلاء الرجال الملتحين، الكثيفي الشعر، القذرين والخلقي الثياب، المرتدين للجلد كالكانغاسيروس^(٣٤) وكرعاة البقر، هؤلاء الرجال الذين كانت تتآكلهم الحمى خلال السير، وكانت الملاريا تنقض عليهم وتتخذ لها فيهم مستقراً، ما كانوا يحملون الموت ولا السرقة ولا الجريمة ولا العنف. لقد كانوا يحملون شيئاً ما، لم يكن يعرفه السرّتون، شيئاً لم يكن قد شوهد في المحاكم ولا في الإدارات العامة ولا لدى مراقبي المالية ولا في النزاعات الاجتماعية. كان الطابور يحمل العدالة، وكان هذا الأمر بعيداً عن التصور، ما صدّقتني.

ولكن عندما كان السرتونيون يطمثون إلى أن الأمر حقيقة لا ريب فيها، وأن هؤلاء الرجال الهزيلين جاءوا ليقدموا لهم العون، كانوا يتناولون قيثاراتهم و«اكورديوناتهم» ويؤلفون أساطير الطابور. وفي هذه الأساطير لم يكن هناك من حديث حول التعاسات، كما في أناشيد الكانغاسيوس أو في روايات رجال الشرطة. إنها أغنيات لدنة، تظهر بطولة الطابور، وتبرز أعماله الحارقة البطولة، وتصور وجه رئيسه، الذي لم يبق وجه رجل بل أصبح وجه إله للغابة العذراء، لمجاري الأنهار، يقرأ أفكار الفنانين البسطاء، ويؤلف جسده كيانه واحداً مع القذائف.

وكان يُروى، يا صديقي، بأن النار كانت تنطلق على طول الدروب التي كان الطابور يفتتحها بضربات الفؤوس في الأدغال وفي الكاتنغا لتحمي الجنود من اقتراب العدو. وإن النيران التي كانت تشتعل بسبب لفاقة تبغ ألقيت دوغماً حذر، أو بسبب الشمس المحرقة التي أضرمت النار بقطع الخشب الجافة، كانت تصبح حاميةً سبوعية لفارس الأمل. وفي أحد الأيام، يا صديقي، كان أعمى في أحد الأسواق يُبرز غناءً، على هذا الشكل، وجه لويس كارلوس برستس:

«عند مغادرته لجنوده

كان يجتاز النهر على قدميه،

وتصبح المياه تحتها أرضاً.

لقد كان يظل قرب النار،

والنار كانت تحرسه.

وكانت تنطفئ جذوة الجمر الملهب،

عندما كانت تطأه قدماه.»

تلك كانت فضائل برستس بنظر السرتونيين. وكان ينظرهم جديراً بالقيام بكل الأعاجيب. مياه الأنهار «كانت تصبح جامدة»، كانت تتحول إلى أرض صلبة عندما كانت تطأها قدماه. النار كانت تحرسه، وكان الجمر الملهب ينطفئ عند مروره. على هذا الشكل كانوا يتصورون البطل،

يتصورون الرجل الذي كان ، كالمساحر ، يريهم أشياء كانت السرّون قد فقدت حتى ذكرها ، أشياء بعيدة بعد العدالة ، يا صديقتي .

وفي إحدى المرات ، يا زنجيتي ، التقى كورديرو دي فارياس بهرمين - أب وابن - أحدهما في الخامسة والثمانين من عمره والآخر في الستين . وطلب كورديرو إليهما أن يرشدها إلى قوارب لاجتياز النهر ، من الضفة التي كانا يقفان عليها . فرسم الهرمان إشارة الصليب وقد أدهشها السؤال . لم القوارب ا وقد كان من المعلوم أن الطابور كان يحمل معه أداة « ماكسية » ، يجتاز بفضلها الأنهار . وحدّثا كورديرو أيضاً عن « شبكة » كان الطابور يستعملها لالتقاط الناس ، ولم يكن بمقدور جنود الحكومة أن يفلتوا منها حتى ولا بأعجوبة .

لقد كان هؤلاء الناس يحترمون الكهنة ، لأن رجال الكليروس الفقراء تنبؤا ، في وقت من الأوقات ، أمر الدفاع عن مصالحهم . ولكن بعد ذلك ، كان قسم كبير من الكهنة قد انضم إلى صف الأغنياء ، وأصبح أداة للسيطرة الاستعبادية . وظلت ذكرى الكهنة الطيبين ، مع هذا ، ثابتة في أذهان أهالي السرّون . وعندما كان الطابور يصل إلى ناحية ما ، كان الفلاحون أحياناً يقبلون يد ميغيل كوستا ؛ ورغبة في منحه لقباً سامياً ، كانوا يدعونه بالكاهن . وبالشكل نفسه تصوروا بأن إحدى بائعات المون هي النبيلة ايزابيل ، التي ظلت ذكرها ثابتة في ذاكرة الفقراء ، لتوقيعها على مرسوم تحرير العبيد . أما برستس ، فقد كان يشكل سرّاً أعظم كثيراً أيضاً ؛ لقد كان السرّونيون يعزّون لعينيه المتوهجتين المقدرة على التنبؤ . لقد كان يكتشف تفكير جميع الناس . ولم يكن بمقدور أي انسان أن يخفي عنه شيئاً . لم يكن هناك من أسرار بالنسبة إليه ؛ ولم يكن بمقدور الحيوانات نفسها والطبيعة ، أن تقاومه . لقد كان أكبر من كل شيء ، لقد كان عرّافاً .

رجال الطابور كانوا ينابعون سيرهم . وكانت قد وُضعت أثمان لرؤوسهم . وفي صحف ريّودي جانيرو ، كانت الحكومة ، بوقاحة غريبة ،

تعرض مبالغ اسطورة ثمناً لرأس لويس كارلوس برستس. لقد كان هذا
أمراً لا جدوى منه، والسرطونيون كانوا يعرفون ذلك جيداً. لم يكن هناك
من رجل، من جندي، من شرطي، حتى ولا من كانغاسيرو يستطيع دحره.
كيف يمكن دحره ما دام هذا ليس رجلاً كبقية الرجال، ما دام واحداً من
آلهة الغابة العذراء، ما دام عرافاً عجيباً؟ وكان السرطونيون يبتسمون عندما
يعرفون بأن ثمناً قد وُضع لرأسه. واليوم أيضاً، يا صديقتي، وقد مضى
العديد من السنوات على السير الكبير، لا يزال العميان في أسواق مناطق
الشمال - الشرقي يتغنون بأناشيد لويس كارلوس برستس.

« كانت عيناه تكتشفان

أفكار الناس،

وعندما كان يتطلع في الوجه،

كانت عيناه تريان كل شيء ».

والبوم أيضاً تُرسم صورته ويتحدث عن شجاعاته. لقد بقي ثابت الأثر
في قلوب السرطونيين وعلى أوتار قيثاراتهم. ولقد خلف وراءه الأمل.

« لقد اجماز السرنون كلها

مفتحة طربقه بضربات الفأس.

وحينما كان يمر،

كانت الأشياء تتغير،

وكان الرجال الصالحون يبقون،

ونتهي الأمر بالأشياء العاطلة إلى الاندثار ».

إن المغنيين العميان، إن أهالي السرنون التعساء، إن هؤلاء جميعاً، الذين
ترك لهم برسس الأمل وطعم العدالة الرائع، يحملون بعودته:

سينتهي أمر الظلم

في اليوم الذي يعود فيه.

كما سبزل الجفاف واللصوص

والمجرمون الحاملون الموت ،
وفي السرتون المخلّصة .
سيختفي سوء الطالع
في اليوم الذي يعود فيه .

- ٩ -

لقد ارتاحوا في ساكو ، وهي بلدة صغيرة على شاطئ سان فرنسيسكو من ناحية باهيا . وكان الطابور قد بدأ مرحلة جديدة ، مرحلة النهر الكبير ، حيث كان على عبقرية برستس ، يا صديقي ، أن تصل إلى ذروة تألقها . لقد كانت سنجر جر خلفها ، في سباق مجنون ، الجنود الحكوميين التائهين تماماً . إن حملة سان فرنسيسكو مملوءة بالمآثر العسكرية العظمى . وعند دخول الطابور باهيا ، كان مجموع عدد أفرادها يبلغ ألفاً ومئتي رجل ، بينما كان عدد أفراد الفرق الحكومة الممتدة بين باهيا - برلمبو كو وميناس ، يبلغ الثلاثين ألف رجل تقريبا . ولقد دحر ثمانية عشر لواءً وعدة زعماء خلال السير الكبير . واستعملت الحكومة جميع مواردها العسكرية في محاولتها إلحاق الهزيمة بالطابور . ولكن دون جدوى . ولقد لعب برستس بالقوات المعادية للثورة ، وصنع بها ما شاء له الهوى : جعلها تتقدم وتراجع ، أجبرها أن تتجمع في ولاية ما عندما كان يريد لها ذلك ، أن تذهب إلى ولاية أخرى ، أن تقا تل بعضها بعضاً ، أن تولي الادبار في العديد من المرات . وتوصل دائماً إلى نشئتها . وكان عراف السرتونيين يكتشف حركات العدو دون أن يخطئ أبداً ، ولم يكن يترك له مجال استيعاب المفاجأة . لقد كان يقا تل عندما كان يرى ذلك مناسباً ، وكان يخدع الرنارديسين في أي وقت يختاره .

وها هو الآن ينهأ لاجتياز الصحارى الغربية ، وهي منطقة من الرمال والحجارة والخصي ، أطلق عليها مارتينوس هذا الاسم ؛ ومن بعدُ لاجتياز كل الشاباتا دامانينا ، وللاقتنا ل ، خلال ذلك ، مع كانغاسيروس هو راسيو دي ماتوس . ومن هناك ، سوف يهبط حتى ميناس ويعود إلى باهيا ، متممً بذلك مناورة بارعة : « عقدته المنغارية » الرائعة . وسيصعد بعد ذلك من جديد نحو

الشمال، قبل أن يذهب نحو الغرب، لكي يعود إلى الغوياس. سوف يجوب كل ولاية باهيا، من الشمال إلى الجنوب، من الشرق إلى الغرب، وسوف يتعرف هكذا إلى السان فرنسيسكو خيراً من أي انسان.

إن السان فرنسيسكو هو كالشريان الأهر بالنسبة للبرازيل، يا صديقتي. ومشاكله، ثرواته ومآسيه هي قاعدة مشاكل، ثروات ومآسي البرازيل. إن أدباً كاملاً كتب حول هذه المنطقة. ولقد جُمعت فيها ثروات عظيمة... ولم تكن العبودية لتُعد فيها سوى مأساة تافهة. وسوف يدرس برستس هذه المشاكل، كما سبق له أن درس مشاكل البرازيل الأخرى: خلال الحياة.

واجتاز الطابور الصحارى الغربية في ثمانية عشر يوماً. ومشى أياماً طوالات في مناطق لا ماء فيها، واجتاز في بعض الأيام مناطق في الكاتنغا مغروسة بالماندا كاروس، بالكيكزاباس، بالكروواس، بالفافيلاس، بالبالاماتورياس، بالكولومبيس، وبمزروعات شوكية كاملة، كانت تصبح الدروب فيها شيئاً خبالياً مستحيلاً. وفي الساعة الثالثة من بعد ظهر يوم السادس والعشرين من الشهر، انطلق الطابور من ساكو نحو نهر دو انفرنو، الذي بشكل الحد الجنوبي للصحراء، واجتاز جبال كيبادو وسانتاروزا. وسار الرجال على الأقدام. وتُركت الخيول على الضفة الشمالية للسان فرنسيسكو؛ لقد كانت متعبة أكثر مما يتوجب، ولم تكن تساوي القدر الذي يُمكن أن يبذل للتخلص منها. إن المرضى والجرحى والمهرمين وحدهم امتطوا ظهور الجياد. وسار برستس على قدميه، إنه يحب السير الطويل الذي يستطيع خلاله أن يفكر في كل شيء. ووصلوا في الثالث من الشهر إلى بلدة دي فارزيادا ايماء، حيث استقبلت طليعة الطابور، التي يقودها النقيب بنيسودوس سانتوس، بطلقات النار، ولكن هذا سرعان ما أمسك بزمام الموقف. ومنذ هذا الوقت أقْلَع رجال الطابور عن التقدم سيراً على الأقدام، بل تقدموا ممطّين ظهور الحمير. وأخذ السرتونيون يتطلعون، بفم مفتوح، إلى أبطال الطابور المظفرين، يتأرجحون بشكل مضحك على ظهور حميرهم البطيئة، وقد أخذت مهامهم تلمس الأرض. وفي السادس من الشهر، اجتازوا جبال

دو كيلادو ، وفي الثامن منه عسكروا على مسافة خمسة فراسخ من اويا اويا ، وهي مدينة كان ستمئة من رجال الشرطة ينهبون السكان فيها . وعندما علم الملازم هرمينيو ، الباهي الأصل ، بالجرائم التي ارتكبتها الشرطة ضد مواطنيه ، ذهب مع ستة جنود ومع بائعة المؤن أُلزيرا إلى اويا اويا ، ليجعل أسياد المدينة الستمئة الجدد يقضون فترة سيئة خلال ربع ساعة من الزمن . وبعد تبادل نيران طويل ، لم يفقد سوى أُلزيرا ، التي أُسرت في طريق العودة .

وفي الحادي عشر من الشهر اقترب الطابور من سانتاروزا ، وهي بلدة صغيرة استولى فيها آري على قافلة ذخيرة ومؤن كانت الحكومة قد أرسلت بها إلى الشرطة المعسكرة في اويا اويا ، وتبادل خلال الليل إطلاق النار مع العدو . وتتابع السير بعد ذلك بطيئاً ، وتقدمت المفاوز الواحدة تلو الأخرى . واجتازوا على هذا الشكل خط « لست برازيليرا » الحديدي ، وعسكروا في مزرعة سيبو حيث تلقى برستس أنباء فشل ثورة كلينو كمبيلو في برنمبو كو . ووصلوا في الخامس عشر من الشهر إلى شاطئ نهر سلتير . وفي السادس عشر منه وصلوا إلى إنفرنو ، فيكونون بذلك قد خرجوا من الصحارى الغربية بعد أن جالوا فيها عبر مساحة تبلغ خمسمئة وثمانية وخمسين كيلومتراً .

وها هم أمام الشاباتا ديامنتينا ، في اتجاه حدودها الشمالية . إن هذه المنطقة الغنية بالماس ، حيث كانت الأحجار الكريمة تغري الرجال ، وكان المغامرون يتدفقون ، هذه المنطقة التي حوّلها الكانغاسو إلى حصن ، ظلت خاضعة خلال سنوات طوال ، لسيطرة الوجه المثير للفضول لهوراسيو دي ماتوس ، سيد المنطقة غير المنازع .

ودخل الطابور مدينة ميناس دوريو دي كانتاس ، بينما غادرها في الوقت نفسه تقريباً الكاهن ماد سيدو ، ذلك لأنه اعتبر أن كرامته قد حُطّ من قدرها إثر حادث جرى له مع أحد الجنود ، وحكم برستس بأن الحق هو في جانب الجندي . وعرف برستس في هذه المدينة بأن جيرالدورو كا قد عرض على ملاكي اللاتيفندبا في السرتون ، باسم الحكومة ، أن يمنح مكافأة قدرها

خمسمة « كونتوس دي ريس »^(٣٥) لمن « يصفى » أمر الطابور . وكان قد سبق لعضو الأكاديمية والكاتب باشيكو أن تقدم بعرض مماثل في البياوي :
مئة كونتوس دي ريس مقابل كل رأس من رؤوس قادة الطابور .

ومن ميناس دوريو دي كانتاس ، توجه الطابور نحو مدينة كوندوبا ، محتلاً خلال سيره البلدان ، مجتازاً الأنهار . وفي السابع عشر من الشهر غادر كوندوبا ليدخل ولاية ميناس جيرائس . وبذلك انتهى من اجتياز ألف وثلاثمئة وستة وخمسين كيلومتراً في أراضي باهيا ، خلال اثنين وخمسين يوماً .

وكان برستس ، بدخوله ميناس جيرائس ، يسير وفق خطة مدروسة بعناية . لقد كان يرغب في أن يحمل القوات الحكومية على دخول هذه الولاية ، في وقت كانت فيه هذه القوات تعتقد بأن برستس يسير نحو الجنوب ، وربما باتجاه ريو دي جانيرو ، أي ما كان برستس يريد القيام به بالواقع . لقد كان يتوجب إذن الرجوع نحو الشمال ، واختراق أراضي باهيا من جديد . ومن جديد بدأت القوات الحكومية ، وقد خدعتها مناورة برستس الاستراتيجية ، تتبعه نحو ميناس ، ورحلت جميع جنودها من باهيا . ونقلت هيئة أركان الحرب الحكومية جميع قواتها ، بصورة سريعة ، إلى شواطئ سان فرنسيسكو ، من ناحية ميناس ، وهي تعتمز ، بصورة خاصة ، الدفاع عن سكة حديد ليوبو لدينا . ومن ناحية أخرى ، تغلغلت فرق اللواء تورينو ورجال فرنكلين دي البور كركي وهو راسيودي ماتوس وفولني ، في ولاية ميناس ، لملاحقة الطابور . ولكن برستس أصدر فوراً الأمر لجنوده بأن يزيلوا كل آثار لمرور الطابور في البلاد ، بصورة متناسقة مع تقدمهم . وكان اللواء ماريانتي ، الذي لم يستطع ، كما كان يريد ، القضاء على الطابور في الشابادا ديامنتينا ، يفكر بأن يدحره في شالي ميناس جيرائس .

وتظاهر برستس ، مخادعاً بذلك العدو ، بالتوجه نحو الغرب ، كما لو كان يريد أن يتركز على طول نهر سان فرنسيسكو ، حيث كان الحكوميون

(٣٥) عملة برازيلية قديمة لا تستعمل اليوم .

بالضبط ينتظرونه ، ولكنه غير اتجاهه فور ، ودخل ولاية باهيا من جديد ، ثم اتجه نحو الشمال بموازة العدو ، الذي كان يسير باتجاه الجنوب بشكل دائرة ، ويتعقبه : إنها « العقدة الهنغارية » للسير خلال باهيا ، وهي مناورة ضللت الفرق الحكومية تضليلاً تاماً . وصعد الطابور بين القوات البرنارديسية التي تهبط . وكانت الدوريات تشاهد مرور العدو المتعقب للطابور . وبعد أن قطع طابور برستس ما يقرب من مئة فرسخ في ميناس جيرائيس ، متغلغلاً بين التشكيلات العدو ، التي كانت تعتقد بأنها ستجده في الجنوب ، دخل ولاية باهيا من جديد في العشرين من شهر نيسان . وأتم برستس بذلك وإحدة من أشهر مناوراته العسكرية ، مكنته من إبعاد الجنود الأعداء عن المنطقة التي كان يود اجتيازها .

وأخذ البرنارد يون ، كما في لعبة الاستخفاء لأولاد « شياطين » ، يبحثون عن برستس الذي اختفى في ميناس جيرائيس . وأخذ الجنود الحكوميون يتطلع بعضهم إلى بعض ويهمهمون في ما بينهم بكلمات الدهشة . إن هذا اللواء ليس رجلاً ، إنه ساحر ، والطابور مسحور حقيقة ، يظهر ويختفي ، ولا يدري أحد أين هو . وانتهى الأمر بهذه المطاردة غير المجدية ، في خضم الأخبار المتناقضة التي كان الجنود الحكوميون ، التائهون عن السبل المستقيمة بفضل الأساطير المتناثرة حول الطابور ورئيسه ، يغرقون فيها ، انتهى الأمر بهذه المطاردة بأن جعلت الملح يسيطر على هؤلاء الجنود . لقد كان طابور برستس يمثل بالنسبة إليهم الشيء الخارق للطبيعة . وعندما نعلم بأن أولوية الجيش أنفسهم ، لم يكن بمقدورهم أن يفسروا حركات الطابور الجريئة ، واختفاءاته المفاجئة ، وظهوره غير المنتظر كذلك ، كيف يكون بمقدور الجنود ، الذين تسيطر عليهم الاعتقادات الخرافية ، أن لا يرتجفوا رعباً في كل مرة بتوجب عليهم فيها الاندفاع في مطاردة آثار الطابور ؟ وأين إذن كانت هذه الآثار التي لم يكن يتوصل انسان إلى اكتشافها على طرق ميناس جيرائيس ، على شواطئ سان فرنسيسكو ؟ إن اللواء ماريانتي مرتبك ارتباك ولد لا يتوصل إلى اكتشاف محباً ولد آخر أكثر ذكاء منه . إن السرتونيين ،

والكانغاسيروس أنفسهم، المعتادين على تتبع آثار أكثر الحيوانات دهاء في الكانتغا، وإن رجال فرنكلين وهوراسيو وفولني، الذين تعرف عيونهم جميع أسرار الأرض، لم يتوصلوا هم كذلك، إلى اكتشاف درب الطابور. وانتشروا، كعصابة من النمل فقدت طريق المنملة، في ميناس جيريس، وقد علقت عيونهم في أراضي الطرق الضيقة، باحثين عن آثار الطابور. وسيطر الاعتقاد على الجنود بأنهم يواجهون حادثاً خارقاً للطبيعة أمام قوى الآلهة السود أو الآلهة الهنود في الغابة العذراء. وبالقياص للسرطونيين كان هذا الطابور، الذي يظهر ويختفي، شبحاً، أعظم الأشباح، شبحاً جديداً في الدغل. وكانوا يرسمون إشارة الصليب ويتطلعون إلى رؤسائهم بحذر. فلن يستطيع مطلقاً لا هوراسيو ولا فرنكلين ولا فولني، بصورة أخص، لن يستطيع لا الألوية ولا الزعماء، ولا ماريانتي نفسه بأسلحته الحديثة، لن يستطيع هؤلاء جميعاً أن يدحروا الطابور. كيف يمكن دحر الخارق للطبيعة؟ وأخذ المخطاط المعنويات يسيطر على القوات الحكومية. وزادت مناورة «العقدة الهنغارية» إلى حد كبير من الرعب المستولي على العدو. وكان الألوية مرتبكين، والسرطونيون يؤمنون بجميع الأساطير، وجحظت عيون الجنود من الخوف. أما برستس، فقد كان يصعد مع الطابور من جديد نحو باهيا، بينما كان ماريانتي، المندفع في تعقبه، يتلمس الطرق، يا صديقتي، ونقب المسالك الضيقة. ودخل برستس من طريق مديرية كاندوبا، التي سبق له أن اجتازها، إلى أراضي باهيا من جديد. وفي ليلة قمرء، كانت تلمع خلالها مياه الأنهار كالفضة، وتنتحب القيثارا في الأدغال، دخل الطابور أراضي الولاية السوداء.

وكان لبرستس مصلحة في التوقف في باهيا، ذلك لأنه، حسب ما كان متفقاً عليه، كان عليه أن يتلقى هناك الأسلحة والذخيرة المرسلة من ايزيدورو ومن الرؤساء المدنيين للثورة. ولكن هذه الأسلحة وهذه الذخيرة لم تصل قط، لأن الأشخاص الذين كلفهم ايزيدورو بهذا الأمر لم يفعلوا شيئاً. وها هو الطابور في أول أبار يجتاز نهر كافيو ويبدأ بتسلق جبال سنكورا.

إن هذه الجبال وعرة بشكل غريب، ومسالكها مملوءة بالأحجار. الرجال بتسلقونها سيراً على الأقدام، ويقودون الحيوانات بالجسم، وقد رُفعت الحملات على اكتاف الأشداء. وأضيء السير بشموع كارنوبا^(٣٦) الصفراء الكبيرة، بينما أخذ السرتونيون، يتطلعون، من أكوأخهم الواقعة في سفح الجبال، إلى هذا الصعود الشبحي المخيف. وكان الصاعدون يشبهون حجاجاً يؤدون نذراً مقدساً باجتياز منحدر صلب في ليلة ظلماء، على ضوء الشموع. وكان السرتونيون، من على مسافة عدة أميال، يشاهدون الخط الغريب المضيء اللامع في السماء الليلية. سماء لاقمر فيها ولا نجوم، ولا يظهر فيها سوى هذه النجوم الحمراء التي يتبع بعضها بعضاً، كمجموعة من البروج المجهولة الالامعة على «الافراس ديامنتيناس». كان طابور برستس، يا صديقي، يتقدم في سماء السرتون.

جماد الثورة منجولون الآن في حقول باهيا الخضراء. إنهم يدخلون بارادا اسما، في كوكوس. فرقة من «البوتريادور» تتبادل إطلاق النار مع العدو في سور جزوس. وبرسل برستس بمفرزة دجلا دوترا إلى مدينة «موكسجه»، حيث يُحتمل أن تجد السلاح والذخيرة التي يفتقر إليها الفلابور. وعلى دوترا، هو، أن يتصل بالقسم الرئيسي من الطابور في غينيا دي سبا، التي كان يقصدها هذا الأخير. واشتركت مفرزة دوترا في موكسجه بمركبة غير متساوية مع قوات دوكا مدرادو، العسكرية هناك. ولقد أرسل رئيس الكانغاسيروس هذا، بجيلة دنيئة، بولده لمقابلة برستس، لعرض عليه مقترحات للصدقة. وهكذا هوجم دوترا في وقت لم يكن معه مطلقاً. ولم يكن قد انتهى بعد من اجتياز المضيق، الذي تشكله الجبال إلى جانب نهر باراغوكي، عندما انهالت على مقدمته، التي يقودها آري، سران العدو الكامن في أعلى الجبل وفي أولى منازل موكيجيه. إن رجال دوكا مدرادو الأربعمئة - من الشرطة والكانغاسيروس - يدافعون عن المدينة. وسقط دوترا على مئتي رجل من الطابور. وقاتل آري ببطولة من الساعة

(٣٦) شجرة في البرازيل.

التاسعة صباحاً حتى المساء. ووصل في هذا الوقت دوترا مع القسم الأكبر من المفرزة... مواقع العدو لا تُنال. العدو يطلق نيرانه من أعالي الجبال على المضيق الذي يقبع فيه رجال الطابور. وأرسل دوترا باللائم سيلستينو فريرا إلى أحد المرتفعات ليطرد العدو منها. وأدى سيلستينو مهمته بنجاح، واجتاز الجبل تحت وابل من النيران. وأصبح هذا المرتفع، بعد الاستيلاء عليه، هدفاً لنيران العدو، ومكن بذلك الرجال المحاصرين، الذين يقاتلون منذ الصباح، من الانسحاب. وغطى دوترا انسحابهم بقتاله ثم ذهب للالتحاق بالطابور في غينيا دي سيبا.

وتابع الطابور طريقه متبعاً شواطئ الكوشو، ووصل أخيراً إلى سانتا ايميليا، في وسط الكاتنغا.

ويبدأ في سانتا ايميليا سير خفيف، خلال الكاتنغا، دون أدلاء ودون طرق، وفي وقت يطوق فيه العدو الدغل الذي توغل فيه الطابور. ويشكل هذا الحادث مرحلة من أصعب وأطول مراحل السير الكبير. الجاغونسوس، رجال الشرطة والجيش، يحيطون بالكاتنغا وهم موقنون بأن الطابور لن يخرج منها مطلقاً ليس هناك من صراط (٣٧) واحد. وبعمل دائم ليل نهار، بدأ برستس وجوان البرتو بافتتاح مسلك ما للوصول إلى طريق شابادا ديامانتينا، التي بلغها بالفعل في السابع عشر من الشهر. ليس هناك من ماء، ويكاد الرجال لا يجدون ما يأكلون. وفي أحد الأيام، نُحر ثور لإطعام رجال الطابور الآلف. الماء بعيد المورد، هناك بئر واحدة، يتوجب القيام بعدة سفرات يومية للوصول إليها وارواء الجنود. وكانت الفرق الحكومية على يقين من الانتصار. فإن هذه المنطقة من الكاتنغا لم تكن قد اجتيزت مطلقاً. وكان العدو يعتقد بأن الأشواك والعطش والجوع ستصفي قسماً كبيراً من الطابور، وسيكفلونهم بتصفية القسم الباقي؛ وهكذا حاصروا الكاتنغا. ولكن جرأة وثقة ومقاومة الرجال، الذين كان برستس يقودهم، لم تكن تخضع للعرف العام. فعندما أكمل جنود برناردس حصارهم وهاجوا

الكاتنغا، كان الطابور قد اختفى بواسطة الصراط الذي كان قد شقه والمؤدي إلى الطريق الكبرى. ومرة أخرى جحظت عيون السرتونيين الثقيلة من الدهشة. إن هذا لسحر، وإن من المستحيل مقاتلة ودحر رجال لا يكونون احتراماً لقوى الكاتنغا التي لا تقهر، ولا للجوع أو للعطش. على هذا الشكل كاب رجال الطابور با صديقتي.

إن هذا النهار وهذه الليلة من الجحيم، حيث كان الموت يترصده جنود الطابور لدى الخروج من الدغل، وفي الدغل، في الدغل نفسه، بسبب انعدام الماء والطعام، إن هذا النهار وهذه الليلة قد انتهيا. وكانت الأشواك قد مزقت من الرجال الأقدام، وخذشت الأيدي، وكان الرجال قد خرجوا من هذا الجحيم ليقعوا في جحيم آخر أكثر رعباً، هو جحيم سان فرنسيسكو المجلبب بالفيضان. واجتازوا بلدان الماس، «بون - غوستا» و«بدرنياس»، حيث ارتاحوا من مغامرتهم الأخيرة.

ثم جاء السبر الذي لا يوصف، الذي تخللته شعاعة ومقاومة خارقتان. خلال الاسترادا القاسية «الطريق القاسية». ولقد أحسن اختيار هذا الاسم يلاحو هذه المنطقة الفقيرة بالغذاء، المغطاة بمياه سان فرنسيسكو، التي كانت قد حملت كل شيء معها في فيضان تجاوز قوة فيضانات السنوات السابقة. وفي التاسع عشر من الشهر، وصل الطابور إلى الاسترادا القاسية، وشاهد المنداكاروس، الستيكيزيكركي وأظافر الهر وتيجان الراهب وجميع النباتات المعادبة، الشوكية، في الكاتنغا. ولم يكن يوجد هناك سوى شجرة واحدة صديقة للإنسان، هي الامبورانا، التي يحتفظ جذعها بالماء الذي يباركه المسافرين الظمان، بنما ينشر الجمال الوانه في النباتات المتسلقة، مخفياً أشواك الكاتنغا تحت أزهار زرقاء وقائية، حراء كالدوم، زرقاء كالسما. والاسترادا القاسية هي صراط ضيق بشكل غريب تنشأ في الأشواك والزهور. وكان مما يدخل العزاء إلى قلوب الرجال، من وقت لآخر، رؤيتهم لإحدى شجرات الامورانا ومشى برستس، وقد تملكته إرادة لا تتزعزع، في مقدمة رجاله، يخطى سريعة وجسم ملتهب من الحمى، إلى الأمام.

مشوا على هذا الشكل مئتي فرسخ. لقد كانت حيوانات المنطقة تناصبهم العداء، كما كانت نباتاتها عدوة لهم أيضاً، يا صديقتي. فعلى هذه الأراضي اللامتناهية، لم يكن بمقدور أي حيوان أن يعيش فيما عدا الاصلال والعظاءات، الهوام وأصناف مختلفة من أخطر أنواع القمل. وكانت الاصلال تنطلق من جانب الصراط حاملة صغیرها المخيف وقبلنها المميته، وكانت الأوراق اليابسة تصر تحت وطأة أجسامها، وكانت هناك عظاءات يعود تاريخ وجودها في تلك الأراضي إلى بداية الكون، وحيوانات من عصر آخر يعود تاريخها إلى ماضي نائي البعد. وكانت الأفاعي ذات الأجراس والجارا كوكوس^(٣٨) واصلال الدغل، تراقب سير طابور برستس بين تيجان الراهب وأطراف الهر. وبينما كان الرجال يتقدمون، وقد استبد بهم العطش والجوع، كانت الاصلال والكابيسا^(٣٩) والبلاتونا^(٤٠) تصفر. وكان الرجال المرتجفون رعباً أمام هذه الهوام السامة، يتابعون طريقهم. وكان برستس يسير في مقدمتهم.

ها هم يتقدمون خلال ضياع بائسة السكان. ولقد أغرقت مياه السان فرنسيسكو، التي فاضت عن مجرى النهر، الحقول، حاملة معها الغلال والمواشي. الطابور لا يجد شيئاً يقتات به. ومن المستحيل أن يستطيع اجتياز السان فرنسيسكو إلى تابوليير وألتو، فلا زوارق هناك؛ وينتشر النهر بعد الفيضان، على مسافة خمسة فراسخ، كبواء^(٤١) هائل يرتاح بعد التهامه للغلال والزرع. وقرر برستس عندها أن يسير نحو سانتوسي، وهي سرتون خصبة جداً.

ولكن العدو كان براقب الخمسة والأربعين فرسخاً التي تفصل تابولييرو عن سانتوسي. لقد كان الحكيوميون ينتظرون هناك موت الطابور في الكاتنغا الغارقة في مياه سان فرنسيسكو.

إن انعدام وسائل المواصلات والبواخر التي تقوم بالحراسة على النهر،

والبؤس المسيطر على الضفة الشمالية، كل هذا كان يمنع الطابور من اجتياز النهر. وكان العدو يحرس مضيق جبال دوانكليرو، عند مدخل مدينة سانتوسي؛ وسار برستس في هذا الاتجاه، ودخل مع رجاله مياه النهر. وتقدموا خلال مستنقعات حقيقية، في وسط مياه كانت تصل منهم إلى النحور أو إلى الاكتاف، أو وسط أراضي واسعة كان الوحل فيها يؤخرهم عن السير. وكانوا لا يكادون يجدون ما يأكلون؛ فلا طحين ولا سكر ولا بن ولا ملح. ولم يكن لديهم إلا القليل من الطعام. وذبحت آخر ثيران الطابور الهزيلة. ولم يبق من اثر للطباق. من الواجب السير بسرعة، بسرعة أكثر من أي وقت مضى. الموت يتعقبهم، وعلى الجنود أن يربحوا هذا السباق. وفي هذه المرحلة، حطم الطابور جميع الأرقام القياسية لسير المشاة؛ وضرب جنوده للمرة الأولى رقماً يفوق جميع أرقام حرب الـ ١٤ الكبرى؛ وتجاوزه بعد بضعة أيام من ذلك. وكان سرتونيو المنطقة، المحيطون علماً بجميع أسرار هذه الأرض، يقدرون بأنه لا يمكن لأي انسان أن يجتاز أكثر من أربعة فراسخ في اليوم على أرض كهذه. وتوصل الطابور إلى اجتياز تسعة فراسخ، خلال سير تسع ساعات. وأصبح السرتونيون لا يندهشون من أي شيء. وكانوا ينظرون باحترام غير محدود إلى هذا الفتى الهزيل الذي كان يقود هذه الفرقة. وكانوا يهزون رأسهم بحركة اعجاب عريضة في القدم.

دخل الطابور مزارع وقرى مهجورة. وهوجت مفرزة دوترا، وقد كانت في ذلك الوقت في المؤخرة، من قبل قوى عدوة كثيرة العدد. فاشتكت في العراك وردت الهجوم. وهاجم الطابور المعادي هذا، المؤلف من رجال الشرطة ورجال فرانكلين وفولني، طابور برستس، في مكان أبعد أيضاً. وفي هذه الأثناء كانت قوات حكومية هامة تنتظر برستس في بريجينوس، المكان الذي كان يقصده. سيؤخذ بين نارين. فشق برستس لنفسه طريقاً خلال الكاتنغا، وغادرها وبرز في مؤخرة العدو، في ضواحي بلدة سيرين، بالقرب من سانتوسي. وخلال هذا الوقت، تابعت القوات الحكومية، من جهتها، التقدم بالطريق الكبرى، معتقدة بأنها كانت تقتفي أثره. طلت هذه القوات

تتقدم إذن على الطريق الكبرى حتى الفترة التي التقت فيها بالقوات الأخرى لرجال الشرطة، التي كانت تنتظر وصول الطابور إلى بريجينوس. ومرة أخرى ارتكب العدو خطأ فادحاً، فقد قاتلت مفرزتا برناردس كل منهما الأخرى، ظناً منها بأنها تقاتل طابور برستس. إن برستس، وقد انتصر على أقسى الأحوال الطبيعية، وسار في مياه سان فرنسيسكو وقام بأعجوبة لا تزال أساطير السرتون تنغني بها حتى الآن في أسواق الشمال - الشرقي، أكمل في الثاني من حزيران سيره المرعب من تابولييرو ألتو حتى سننوسي، ذلك السير الذي كان السرتونيون أنفسهم يعتبرونه مستحيلاً. أعجوبة للعبقريّة، يا صديقي، أعجوبة لا تتاح إلا للشعب الذي غذى جنود ورئيس الطابور.

ها هم الآن من جديد على ضفاف سان فرنسيسكو، عند حدود برنمبوكو. وظهر الطابور أمام القوات المتجمعة لهذه الولاية، التي ما كادت تندفع لمطاردته، حتى كان برستس قد أعطى الأمر بالسير نحو الجنوب، باتجاه مدينة مونتي اليجري، في ولاية باهيا. وهنا أيضاً سوف يجتاح ولاية سبق له أن أفرغها من القوات العدو. ومن جديد سوف تُخدع القوات الحكومية بمناورة من الرئيس العظيم. وخلال هذا السير رسم الطابور قوساً من سيريا إلى مونتي اليجري. ووصل بعد ذلك باستقامة إلى سيرينيون، لكي يتجه بعد ذلك نحو الشمال، حيث سوف يمر بجوار مدينة جيريمويابو، ويجتاز بعد ذلك حدود رويلاس لكي يدخل برنمبوكو الخالية من القوات العدو. لقد اجتاز برستس هذا القوس الهائل، الذي يبلغ طوله ألفاً وأربعمئة وسبعين كيلومتراً، باثنين وثلاثين يوماً، وتوصل الطابور خلاله إلى أن يجتاز ثلاثاً عشرة فرسخاً في اليوم.

إن المرحلة الأولى، من سيريا إلى مونتي اليجري، قد انتهت في الثامن عشر من الشهر. لقد دخلت طليعة الطابور هذه المدينة في السابع عشر منه، واستقبل الطابور بسرور من قبل السكان المقيدين، السعيدين برؤية جنود الحرية. وسيرقد الضباط في الاسرة للمرة الأولى، في مونتي اليجري. ولقد كانوا قد فقدوا عادة كهذه، لدرجة استعصى عليهم معها الرقاد. وعشية

الوصول إلى مونتي البغري ، تقبل برستس ، الذي كان قد توصل إلى تدبير جياد لمعظم أفراد الطابور ، حصاناً أحضره له أحد جنوده . وكان ، خلال الشهور الأخيرة ، قد قطع ما يزيد على مئتي فرسخ سيراً على الأقدام ، وبينما كان الطابور يرتاح في مونتي البغري ، حيث يُحتفل به ، غادر برستس المكان كمحارسٍ طليعي . وتبع الطابور رئيسه في اليوم التالي وتوجه شطر البحر : لقد كان يقصد مدينة سيرينيون . ولكنه احيط علماً في رياشون بأن ثمانية من رجال شرطة باهيا وصلوا إلى سيرينيون . واندفعت هذه القوات لمطاردة الطابور ، ولكن هذا كان قد غادر رياشون واجتاز ، في الثاني والعشرين من الشهر ، سكة حديد شرقي البرازيل ، بين سيرينيون وسلغادو . وتابع التقدم نحو قرية بومبال ، واجتاز ايتابيكورو وهزم قوات الشرطة قبل مدة وجيزة من دخوله المدينة . واحتفل بالطابور من جديد . إن الطابور ، صديق الشعب ، مقدم العدالة ، هو حقاً أمل شعوب السرتون . حُملت إليه الحلوى والثياب ، مياه النبع ، الأدوية والأطعمة . ولم تعطِ حملة السفالة ، التي كانت قد شنتها صحافة برناردس في البلاد ضد الطابور ، أية نتيجة . لقد كان السرتونيون يشاهدون الحقيقة ، يعيشون ملحمة الطابور ويجدون فيها سبباً للأمل . ذلك كان السبب الذي دفع المغنين - المغنين المساكين بآلاتهم غير الموزونة - في المدن والقرى ، لأن يخرجوا إلى الطرق ويحيوا جنود فارس الأمل . ومن أجل ذلك كانت الصبايا يحملن إليهم الزهور ، والنساء يحملن الأدوية والخبز .

ها هم في « بون كونسليو » ، ها هم يجتازون « سرا ايتيابا » ، وفي أحد أسواق قرية غولوزو ، انضم إليهم « متطوعون » . ودخل الطابور منطقة كانودوس ، حيث قام السرتونيون اليائسون بثورة فاجعة قبل بضع سنوات . إن انطونيو كونسلييرو ، نبي السرتون ، ابن المجاعة والاستثمار والبؤس ، كان قد ثار مع قواته طلباً للعدالة . لقد قاتل جنود الحكومة ، ولكنه سُحق في نهاية المطاف . لقد كان لويس كارلوس برستس يجتاز الآن هذه الأمكنة التاريخية ، حيث اندلعت ثورة كانت تفتقر إلى التوجيه . لقد كان أولئك الرجال يجهلون كل شيء ، فيما عدا تعاسة عيشهم . لقد كانوا يستدرّون عون

السماء ، وعندما حملوا السلاح ، كانوا يجهلون المطالبة بحقوقهم . وبرستس ، هو أيضاً ، كان قد ثار ، وكانت ثورته في مبدئها ، هي أيضاً ، تفتقر إلى اتجاه . ولكنه الآن يعرف لم يقاتل . وسوف يجد غداً الحل لهذه المسائل ويدل الشعب عليه .

وفي الثاني من تموز ، وصل الطابور ، خلال غسق حزين ، إلى ضفاف سان فرنسيسكو ، على بعد كيلومتر واحد من دوديلاس ، على حدود برنمو كو . وبمقدوره الآن أن يجتاز النهر . فإن قوات حصن برنمو كو كانت مبعثرة في ولاية باهيا ، تلاحق الطابور الذي لم يكن يتوصل أحد إلى العثور عليه .

وهكذا انتهت حلة باهيا ، التي اجتاز برستس خلالها خمسة آلاف كيلومتر ، وثلاثة وثلاثين نهراً ، وطورد من قبل ثلاثة آلاف جندي ومن قبل الجوع والعطش ، والحمى ، ومن قبل طبيعة معادية . وأفاع سامة . وتختلف مئتان من رجال الطابور في الحقول وفي كاتنغا باهيا ، وقد جرحوا ، اختفوا أو ماتوا . ودحر العدو عدة مرات ، واصبح ألوية برناردس انفسهم ، عقب مآثر برستس البطولية العسكرية الأخيرة ، لا يؤمنون بإمكان التغلب عليه . وكانوا على سبيل العادة فقط ، لا يزالون يبرقون إلى ريو دي جانيرو معلنين بأن الطابور محاصر وعلى وشك أن يُقضى عليه ، ولكنهم أقلعوا هم أنفسهم عن الايمان ببرقياتهم ، با صديقتي . إن الألوية يا زنجيتي ، تركوا أنفسهم عرضة لأن تتأثر بأوهام الكانغاسيروس . لقد كانوا هم أيضاً يعتقدون بأنهم يواجهون شيئاً خارقاً للطبيعة : لم تكن لديهم جدارة لتقدير عبقرية برستس . لقد كان برستس ، بنظرهم ، شيطان الحرب المراقب لجميع دروب جحيم لكاتنغا . وبنظر السرتونيين كان نجمةً في سماء باهيا .

وفي هذه الليلة من شهر تموز ، على ضفاف سان فرنسيسكو ، جاءت يامنجا مرة أخرى أيضاً لزيارة البطل . لقد كان يتأهب للذهاب إلى مياه أخرى لم تكن مياهه ، إلى ياناس دي غوياس وماتوغروسو . ونشرت يامنجا شعرها على مياه سان فرنسيسكو ، وجعلت النسيم أكثر هدوءاً ، وأوقفت رياح العاصفة ، وأقلع الطابور خلال ليل صافٍ وهادئ . وشاهدته يامنجا يتوغل في الدغل . وكان لويس كارلوس برستس في مقدمة جنوده ، يا صديقتي .

- ١٠ -

في ليل الثاني من أيار سنة ١٩٢٥، يا صديقتي، هاجم النقيب « كوستالايي » بصحبة « جنسن دي ميلو » و « ديسيو مندرس دي فونسيكا » و « لوبس كالسو ايشويا » و « ماريو شافس فرييرا » و « ليوبولدونييري » و « فيلاس غاما » واحد الرقباء ، الفيلق الثالث ، في برايا فرمليا التابعة لريو دي جانرو .

ومن سنة ١٩٢٤ حتى سنة ١٩٢٧، بينما كان الطابور داخل البلاد ، تابعت الانفضاضات والثورات ومحاولات الثورة في كافة أنحاء البلاد . إن أمم له الطابور ، الحامل لواء الثورة ، كانت تدفع إلى العمل جميع أولئك الذين كانوا لا يؤيدون النظام الدكتاتوري المفروض على البلاد . وكانت المؤامرة تُحاك في السجون الخاصة بالمعتقلين ، في المدن ، في الشككات ، في عيادات الاطباء . وكان الضباط والرقباء والجنود والمدنيون ، المتبعون للحمة الطابور ، ينظرون لحظة حمل السلاح لكي يفتتحوا طريق ريو دي جانرو أمام الطابور .

وكان كوستالايي قد أوقف ، سنة ١٩٢٤ ، عندما كان يقوم بمحاولة للانسحاق بالحركة الثورية في تلك السنة ، بتهيته لحركة ثورية في ريو دي جانرو ، وكان عليها أن تندلع في شهر تشرين الثاني .

وكان كوستالايي قد هرب عقب ارساله إلى إلياغراندي ، هو وبضعة صباط معتقلين آخرين ، هم : تاسو تينو كو ، اريستوتيلس سوزا دانس ومارم سالس فرييرا . واجتازوا الجون على أحد القوارب وتوغلوا في الدغل . وتلقى رجال الشرطة الامر باعتقالهم « موتى أو احياء » .

وكان كوستالايي قد أصبح شبحاً بالنسبة إلى شرطة البلاد السياسية. وإذا ما صدقنا الشرطة، فهو كان يجتاز المحطات بلباس امرأة - امرأة سمراء ناضجة إلى حد ما، لذيذة جذابة، لتحتها شمس الشواطئ، امرأة سمراء كانت تحمل تحت ثياب مفصلة حسب آخر تطورات الفن الباريسي، مسدسات وجعبات رصاص، وتحمل، بدلاً من الثديين، قنابل جديرة بأن تدمر مدينة كاملة.

في ليل الثالث من أيار، وصل كوستالايي مع رفاقه السبعة إلى الفيلق الثالث. نزل الرجال الثمانية عن عرباتهم. وكان الهجوم على الفيلق الثالث مرتبطاً باحتمال قيام انتفاضة في حصن سان جوايو وبعصيان طابور من الشرطة معسكر في بونافوغو. دخل الضباط، وتكلم مشروعهم البطولي، بإثارة الفيلق، بالنجاح خلال فترة من الزمن. ولكن بينما كانت الفرق المؤلفة تنتظر السلاح، توصل فريق من أنصار الحكومة إلى السيطرة على بضع نقاط، وأطلق النار على الجنود المجردين من السلاح وعلى الضباط القادمين من الخارج. وأجاب الاخيريون على النار بالمثل. وسقط جنسن دي ميلو جريحاً، ومات بعد عدة لحظات من ذلك في «الكازا دي ساوودي بدرو ارستو»، وهي نوع من الأركان العامة لجميع متأمري وثائري ذلك العهد. واضطر الثوار إلى ترك الثكنة، وفشلت الانتفاضة ومحاولة الاستيلاء على الفيلق الثالث. وكان مقدراً لهذه الفترة من البطولة الخارقة: تسعة رجال يهاجون فلقاً، أن تظل كصفحة من بطولة جنونية، من حماس ثوري، وأن تصبح أسطورية بين قصص الثورة، التي كانت تنتقل من فم إلى فم في البرازيل.

لقد كانت «٥ دي يوليو»^(٤٢) جريدة سرية تنتقل من يد إلى يد. أين كانت تختبئ مكاتبها يا صديقتي؟ أين كانت تطبع هذه الجريدة العنيفة الصغيرة الحجم، التي كان كل عدد من أعدادها يُقرأ من الوف الناس، والتي

كانت أكثر تأثيراً على الرأي العام من كل الصحافة الحكومية المتغنية بامتداح برناردس، والمتنبئة السفالات حول الطابور بلغة جكسون دي فيغيرو القائمة ولغة نلامده؛ وفي حياة بدرو مونتاليا الصحفية الرائعة، وهو الروائي بالطبيعة، الذي جعلت منه الثورة نقاداً لا يُجاري، كانت هناك فترتان نادرنا الحال والتأثر. أولاهما الفترة التي ظهرت فيها «٥ دي يوليو»، وكان فيها هذا الصحفي هو الناطق بلسان ثورة «تينتيستا»، هو صوت طابور برسس المصاعد من السرنونال والمخاطب للمدن. والفترة الثانية هي فترة ظهور «أمنبا». في سنة ١٩٣٦، تلك الجريدة المقدمة، الشريفة والجديرة بنا جميعاً، حيث كان الناطق بلسان الاتحاد الوطني التحريري، هو الناطق بلسان الثورة من أجل استقلال البرازيل، وكان مرة أخرى أيضاً، الناطق بلسان برسس في البلاد. لقد ظل قلمه عشرين عاماً في خدمة الشعب. إنه من عائلة كبيرة، وجدوده يُدعون «جوزيه دو باترو نيسيو» و«ألسندو غوانابارا» و«ليسو نادارو» و«رول بومبيا». وهو، كجده الأخير، روائي. ولكنه عند ملاحظته بأن مفالاً عابراً هو أجدى للشعب من رواية خالدة، تخلى عن الرواية للتحق بالصحافة. وإن «٥ دي يوليو» مثلها في ذلك مثل «أمسا». ارتطفت خلال أيام سنة ١٩٣٥، بتقليد «كارتاس شيليناس» القديم، حيث كان الشعراء يجعلون من فنهم أداة للنقد الاجتماعي والسياسي، وبدعوا الشعب للثورة.

كانت جريدة «٥ دي يوليو» تلهب حماس جماعة الـ «تينتيستا»؛ وتؤثر في الشعب. وفي هذه السنوات المحبوبة أيامها بالمؤامرات الدائمة، كانت هذه الجريدة الصمرة تطلع البلاد كلها على الغليان الثوري. وبينما كانت الصحافة، الخاضعة للرقابة، لا تستطيع أن تقول شيئاً، لا عن فظائع معسكر الاعتقال في كليفيلندا، (صورة مسبقة تامة لمعسكرات الاعتقال الألمانية). الذي أقامه برناردس على ضفاف الامازون القاتلة، والذي يشكل العمل الدجيد الذي قام به هذا الأخير في هذه المنطقة من البرازيل - وبينما كانت هذه الصحافة لا تستطيع أن تنفوه بكلمة واحدة عن العصيانات التي

كانت تتابع في البلاد، كانت « ٥ دي يوليو » تمنح الشجاعة والثقة لسكان المدن. لقد كانت تتحدث عن العبودية المفروضة على البلاد، وعن بطولة الناس الذين كانوا يرفضون أن يظلوا عبيداً.

كانت « ٥ دي يوليو » مضيق الهواء الذي يمكن المتآمرين القابعين في بيوت « ميريلس »، و « بدرو إرنستو »، و « فيرياتو شاكر » « التيننتيسية » - كانت زوجة هذا الأخير، كارولينا الشجاعة، تقوم بالحراسة والمسدس في يدها، بينما كان « كوستا » و « برسيلوس » يتان وضع خططها الثورية - كانت المضيق الذي يمكن هؤلاء جميعاً من الاتصال بالخارج.

وكانت « ٥ دي يوليو » تنشر بصورة مستمرة، أخباراً عن مختلف الانتفاضات في البلاد. وعندما ثار ميانارغومس على فترتين في سني ١٩٢٤ و ١٩٢٦، وجز معه جميع سكان الولاية، كانت جريدة موتاليا هي التي نشرت الشعارات، هي التي تحدثت عن عمق واندفاع هذه الحركات.

وخلال السنوات التي كان فيها الطابور ينتقل في البلاد، وكان الضابط والمدنيون يتآمرون، والرقباء والجنود ينتظرون الساعة التي سوف يثورون فيها، كانت الشرطة تبحث بنشاط عن مكاتب ومحوري هذه الجريدة الصغيرة، البطلة المناضلة.

وفي كل البلاد، كانت الانتفاضات تتتابع، يا زنجيتي. « ريبيروجونيور » و « ماغالاس باراتا » يسيطران على مدينة مناوس ويتقدمان نحو الامازون، باذرين هناك أيضاً بذور الثورة، قبل أن يدحرا.

ويستقبل في بارايا أحد عشر ثورياً، بطلقات النيران، رجال الشرطة الاربعمة القادمين لاعتقالهم. فلقد باعهم خائن للشرطة، وقد كان على حركتهم أن تندلع بصورة متناسقة مع حركة كليتيو كمبيلو في برغوبو كو. وكان « اريستوتيلس دي سوزا دانتس » و « سيرويا داموتا » يترأساهم. وكان يرافقهم تسعة رجال، من بينهم أربعة بحارة من سان باولو، قدموا من مونتفيدو للالتحاق بطابور برستس. واشتركوا معاً في معركة عنيفة مع

جنود السلطة العامة الاربعمئة. وثبتوا طويلاً. ولقبتهم الصحافة الكبرى
بـ «اعداء القانون»، يا صديقتي. اعداء للقانون، نعم، يا صديقتي، إنهم
اعداء لقانون أسياد البلاد، لقانون الاستعمار السافل للإنسان، للقوانين
المهجه ضد الشعب.

وبالرغم من كون هذه العصيانات ومحاولات الثورة هذه لم تتوج بثورة
حاسمة، فإنها كانت تبرهن على الأقل بأن سير جنود برستس في الداخل،
كان يفظ البلاد من سباتها. ولدى مرور الطابور، كانت المشاكل تطفو على
السطح. ولم يكن برناردس يسيطر على بلاد هادئة. وإن بلاغات وزارة
الداخلية المعلقة في كل صباح بأن: «الهدوء يسيطر في جميع أنحاء البلاد»، لم
تكن تعول الحقيقة. وكان الشعب يعرف ذلك تماماً. الحقيقة، لقد كان
السبب بعدها في الصفحات السرية لـ «٥ دي يوليو»، التي كان يحرقها لها
وبرناردو في خبئتها، ناشرين أخبار العصيانات المنطلعة في البلاد، كأولى
الأزهار بعد الشتاء، كملك الأزهار التي تذبل منذ ولادتها، ولكنها تبشر، يا
صديقتي، بمقدم الربيع.

- ١١ -

لقد أخفقت الحركات الثورية التي كان عليها أن تساعد الطابور، يا صديقي. ولما لم يصل السلاح والذخيرة، اللذان وعد بهما ايزيدورو، اضطرب الطابور إلى انتزاع سلاحه وذخيرته من العدو. وبعد أن خلق معنى الثورة في داخل البلاد، بعد أن اجتاز أربع عشرة ولاية^(٤٣) (من سان باولو ومن ريو غراندي حتى الشمال)، باذراً الأمل في كل انحاء البرازيل، معلماً الناس ومتعلماً منهم، بعد كل ذلك قفل الطابور راجعاً في طريق العودة. لقد هب الطابور كريح العاصفة، كالصاعقة، على المظالم والاستثمار والتعاسة. وسوف يؤدي فوق ذلك إلى ولادة العديد من الروائيين، ولادة أدب اجتماعي سيلتهمه الشعب في طمئه إلى المعرفة. وسوف يسمح بقيام انتفاضة التحالف اللبيري، في سنة ١٩٣٠، عندما قام الشعب، إبان نضاله ضد الحكومة، بثورة انتزع خلالها السلطة من يدي واشنطن لويس. وسوف يجعل الطابور ورئيسه من الممكن قيام التحالف الوطني التحريري، في سنة ١٩٣٥. لقد فتح الطابور دروب الحرية واستقلال البلاد الاقتصادي. إنه هو الذي جرّد مشاكل البلاد، خلال سيره الملحمي، من دماغها، ومنه ولدت الثورة البرازيلية. ولن يكون بالمستطاع مطلقاً التخليّ به بما فيه الكفاية، إن من أجل البطولة الخارقة التي ظهرت في حملاته العسكرية، أم بسبب عمله الاجتماعي الواسع. لقد كان

(٤٣) لقد اجتاز الطابور اثني عشرة ولاية برازيلية، واجتاز مسافة ما من أراضي الباراغواي. وهذه الولايات هي: سان باولو وبارانا (اجتازها بواسطة قوات المقاومة من العاصمة سان باولو)، ريو غراندي، سانتا كاتارينا (اجتازها بواسطة قوات برمتس التي التحقت بفرق سان باولو في البارانا)، غوياس، ماتوغروسو، بياوي، مارينياون، سيارا، ريو غراندي دونورتي، بارايبا، برنمبوكو، باهيا، ميناس جيرائس (ملاحظة من المؤلف).

الطابور بالنسبة للبرار مل تكدّم الثورة الجديد .

وفي اليوم الخامس من الشهر ، بدأ الطابور سيره خلال برنمبو كو . فبعد معارك عنيفة ، تهجد نحم حدود باهيا ، متبادلاً كل يوم تقريباً طلقات النار مع المدو . الغذاء بدأ بالنقص من جديد ، الرجال يمضون أياماً كاملة في حقول مشبعة . إنهم يحارون جبلاً لا يتابع فيه ، حيث السير يزداد صعوبة بقدر ما تأخذ العطش بنعديب الرجال . ومن هناك سيدخلون منطقة خصبة حيث تنمو شجرات اللمون والمانفوس والكاجوس^(١١) . وسوف يُغرق الطابور عطشه فيها . ولكنه سيصل ، وهو يتابع سيره نحو الجنوب الغربي ، إلى منطقة أشجار بدون أوراق ، ونباتات وهمية ، ميتة ، ضائعة في هذه الصحارى . وبعد أن اجناز حدود باهيا ، سار الطابور بموازة ضفاف سابايو ، التي اجنازها لدخل ولاية غوباس ، ذات الانهار الخضراء وقطعان الماشية العديدة . وسطيع الان جنود الطابور ، الذين اضطروا حتى هذا الوقت أن يقتنوا غذاءهم ، أن يسأكلوا كفائتهم . لقد دخلوا إلى التشاسباداداس مانغابراس ، ما صديقتي .

في الغوباس ، ما صديقتي ، الربيع هو فصل السنة الوحيد . فهذا السهل اللامتناهي لا نعرف لا على برد الشتاء القارس ، ولا على حر الصيف غير المحتمل . والخريف لا يحمل أوراق الاشجار ، ولا يجعل الاصفرار يسيطر بكأبة على منظر البلاد العام . الخضرة دائمة في هذه الأراضي التي تسقيها عدة أنهار . ففي هذا الربيع الذي يدوم اثني عشر شهراً يجري التوكانتنس والأراعوايا والارانا وروافد السان فرنسيسكو . وإن المياه التي تجتاز هذه الولاية ، هي التي نصنع غناها ، لأنها جعلت من الممكن تنظيم طريقة رائعة للري . وخلال اجتياز غوباس ، تعرف الطابور إلى أيام حلم ، يا صديقتي . ومن هناك توجه نحو بورتوناسيونال ، ليذهب في ما بعد إلى الجنوب .

وفي أول أيلول ، اجتاز برستس مع رجاله خط دفاع البرنارديسين الأول .

ولم تستطع الفرق الحكومية، التي كانت قد حاولت عبثاً أن تحاصر الطابور، حتى على إجباره على القتال. لقد كان برستس يتنقل بين القوات العدو دون أن تشعر هذه بوجوده.

لقد حلم برناردس بأن يخنق القوات الثورية في الغوياس؛ فأرسل، من أجل تحقيق هذا الهدف، بشرطة سان باولو إلى هذه الولاية - أربعة آلاف رجل يقودهم الزعيم بدرو دياس دي كامبوس، زودوا بأحدث الأسلحة، رشاشات وبنادق رشاشة، بل وحتى بعدد من الطائرات.

وفي هدوء المكتب الوزاري في سان باولو، كان الزعيم بدرو دي كامبوس قد رسم على خارطة، بين فرح الرؤساء البرنارديسيين العظيم، خطة للقتال، كان عليها أن تكون معصومة عن الخطأ. فبواسطة الأربعة آلاف رجل وفيلقي الخيالة، اللذين كانت الحكومة قد وضعتهم تحت تصرفه، سوف يغطي خطين، يمتد كل منهما أكثر من مئتي فرسخ على طول حدود الغوياس. ويمتد الخط الأول من ساو جوزيه إلى دورو في بورتو ناسيونال؛ ويتبع الخط الثاني في سيره اتجاه وادي البارانا. ودون أقل صعوبة، اجتاز برستس الخط الأول، وهو يتابع سيره الآن نحو الجنوب.

وعندما وصل إلى جنوب ولاية غوياس في أول تشرين الأول، أصدر برسنس الأمر لجوان البرتو لكي يسير نحو الشرق، لمهاجمة ترينكيلو منهيرو، ومن ثم لتهديد مدينة سانتا ريتا رغبة منه في أن يجذب إليه القوات الحكومية. وفي هذه الأثناء بسير الطابور نحو الغرب، نحو ماتوغروسو. وأتم جوان البرتو غارته بنجاح، والتحق بالطابور في ماتوغروسو، بعد أن اجتاز ثلاثمائة وخمسين كيلومتراً.

وعندما علم برستس بأن فرقتين حكوميتين - فوج من شرطة سان باولو بقيادة الماحور أرثور الميدا، ومفرزة من الجاكسنوس بقيادة هوراسيو دي ماتوس - تحاولان مهاجمة الطابور من عدة جهات دفعة واحدة، قرر أن يلقي بالواحدة منها ضد الأخرى. وغادر، في هذا السبيل، مزرعة جوان باتيستا

عند منتصف الليل، حيث لم نترك سوى عدة رجال أوكلت إليهم مهمة جذب أساه قوات ارتور المبدأ وهوراسيو نحو هذه النقطة. ومرة أخرى سقط العدو في المصيح. فدخلت الشرطة والجاكنسوس، دخلت الفرقتان الرنارد وسمان المزرعة، "كل" من جهة، واخذتا تتبادلان إطلاق النار حتى الساعة الثامنة صباحاً، وهم الوقت الذي تعرفت فيه كل منهما إلى الأخرى، وشعرت بفخطئها وعدد مشان من القتل على ساحة المعركة، يا صديقي! وانحمر الماجور ارتور المدا عندما عرف بواقع الحال.

الطابور بمشي نحه ماتوغروسو برجاله الثمانية، الذين فقد مثنان منهم اهلبهم للقتال، فهم إما جرحى أو منهوكو القوى أو مجردون من السلاح؛ ولم يبق، فوق ذلك، من ذخيرة مع الرجال الستمئة الذين يستطيعون أن يقاتلوا، فلم يكن لديهم سوى بنادق هرمة وبضعة مسدسات. لقد انتهوا من اجسامز الرارمل بكاملها. ولقد انتظر الطابور عبثاً أن يبدأ زعماء الثورة المدنسون والعسكريون الحركات الثورية التي وعدوا بها، والتي كان عليها أن تكون نقطة انطلاق لثورة نعم البلاد كلها. كما انتظر عبثاً السلاح الذي وعد به انزودورو. عندها قرر برستس أن يرسل دجلها دوترا وموريرا لهما إلى ليرس. لسحتنا مع انزودورو وأسس برازيل مصير الطابور، وفيما إذا كان على هذا الآخر أن سقى في البلاد، بانتظار ثورة قريبة، أم يهاجر منها.

وذهب دوبرا وموريرا لهما تحرسها مفرزة سيكويرا كامبوس، التي لن تجد الطابور لدى عودتها، فقوم بجولة جريئة تقطع أثناءها تسعة آلاف كيلومتر خلال العباس ومسانس، حتى جمهورية الباراغواي، حيث سيستقر بهذه المعركة المطاف أخيراً.

وفي مانه عروسه جعل برستس بناور مع الطابور بانتظار الرسل. وليس الوقت الذي سوف تدخل الطابور خلاله إلى بوليفيا ببعيد، يا صديقي. وكان الطابور، وقد نساءل إلى النصف، وأضنته الحمى، يعيش آخر شهور ملحمة. وكاتب الملاما سباب من وقت لآخر الرجال السائرين خلال الغابات العذراء في مانه عروسو.

- ١٢ -

وكالكوكب السيار، المنطلق بسرعة البرق، اجتاز كوشيم سيكيرا كامبوس مع مفرزته خلال خمسة أشهر، ولايات الغوياس، ميناس وماتوغروسو، في سير مدوّخ مسافته تسعة آلاف كيلومتر. لقد كان قد ترك الطابور في منطقة كوشيم وواكب موريرا لها ودجّلها دوترا خلال بومين. وكان عليه، حسب ما كان متفقاً، أن يلتحق بالطابور بعد ذلك مباشرة. ولكنه لم يجده، وطل خمسة أشهر يبحث عنه من منطقة إلى أخرى. وكان رجاله يسبرون أحياناً ستاً وعشرين ساعة متواصلة على القدمين أو على ظهور الخيل. ولقد اجتاز على رأسهم ثلاث ولايات، قاطعاً عشرين فرسخاً في اليوم.

ومن بين الرجال الثمانين الذين انطلقوا معه، سقط أربعون في الطريق، موتى أو جرحى، أو استنفذت منهم القوى. ولكن أناساً آخرين، مجندين أو متطوعين، كانوا يأخذون مكان أولئك الذين لم يستطيعوا الثبات على هذا السير. ولقد احتل هؤلاء الرجال الثمانون، مع قائدهم العجيب، عشرات المدن، ومروا خلال الخطوط العدو، وقاتلوا في كثير من الأحيان على مسافة قريبة جداً من مقر هيئة أركان حرب الحكومة. وكان من الممكن أن يُقال بأن صاعقة مجهولة القوة تنقض على الغوياس، على ماتوغروسو وميناس.

وكان سيكيرا كامبوس، بطل الخامس من تموز، في مقدمة هؤلاء الرجال، يا صديقتي، وكان هذا الرجل، المخاطر بحياته في كل لحظة، هيئة الفروسية التي يتميز بها، وبالابتسامة الخالدة التي لا تفارق فمه الفتي، والتي كان هزوها المربر يسمّر العدو في أشد الاوقات خطورة، كان صديق برستس المفضل.

وإن مستنقعات تاكواري المجهولة وغير المكتشفة، في ماتوغروسو، قد اجنزت من طرفي لآخر، للمرة الأولى، من قبل رجال سيكيرا كامبوس الذين حققوا هذه البطولة، التي ظلت تعتبر مستحيلة حتى هذا التاريخ. ومشوا خلال أسابيع في مستنقعات لا تنتهي، مشوا بسرعة، منتصرين على هذه المنطقة المخيفة بفضل حيوية لا يمكن تصورها. وكان تريفينو، الذي كان لا يزال ولدًا صغيراً وإنما جندياً كبيراً، يسير إلى جانب سيكيرا. وفي بعض الابام، كان الجنود يقطعون أكثر من مئة كيلومتر.

ولم يتمتعوا خلال هذه الشهور الخمسة بفترة واحدة من راحة، بفترة واحدة من هدنة. وكان رجال سيكيرا يتركون خيولهم المتعبة عندما تصبح غير فادرة على القدم، ويستبدلونهم بأخرى جديدة ويعادون السير، بينما سر العدو على أعقابهم. وبالنسبة إليهم، كانت الراحة تتحدد بالدقائق الضرورية للانتقال من صهوة الجواد المعتل إلى صهوة الجواد الجديد وساروا، بعد اجساز المستنقعات، على أراضٍ رملية. ولقد اجتاز هؤلاء الأشباح الحدود، الذين كانوا يحيطون بالمدن، بل ويتغلغلون أحياناً في امكنة التجمعات الكبرى، جبلاً وانهاراً.

وإن مائر الفروسية الحديثة هذه، التي حققها سيكيرا، قد زوّدتته بجرأة خافه، حتى انه اجاز، بين مدينتي جاتاي وريو فردي، معسكر العدو النائم، لكي بسر سرعة أكثر. فلقد اندفع رجاله الثمانون، واخترقوا المعسكر الذي اقامه الحكوميون، موقظين الجنود والرؤساء، الذين ما كادت تطلّعهم الرغبة في ملاحظتهم، حتى كان الوقت قد فات ولم يفكر أحد في مطاردهم وهم يسرون بمثل سرعتهم الجنونية تلك.

وسار سيكيرا من مفاجأة إلى مفاجأة، وجعل يظهر دائماً في المكان الذي كان العدو قلماً ينتظر ظهوره فيه، سار متجاهلاً المسافات والمصاعب، صاعداً، هابطاً، يجتازاً السرتونات المجهولة عدة مرات، من طرف إلى طرف. وكان من الممكن أن يتابع سيره الجامح هذا، مفتشاً عن الطابور، لو

لم تصل إلى مسمعه انباء دخول هذا الأخير إلى بوليفيا. وعندما دخل الباراغواي، كان قد اجتاز تسعة آلاف كيلومتر على أصعب الطرق، وبسرعة قباسة.

لقد سار على طرق سلك حديدية، على طرق عربات، ولكنه شق لنفسه كذلك طرقاً جديدة خلال المستنقعات والصحارى. لقد اكتشف مناطق مجهولة، وكجندي أصبح عالماً بتخطيط رسم الأرض، أطلق الاسماء على الانهار والجبال. وفيما لو تناولت، يا صديقتي، مخططاً للبرازيل مع دليل للسبر الكبير، وقارنته بمخطط يرجع تاريخه إلى ما قبل سير برستس خلال البرازيل، لشاهدت مئات ومئات من الطرق الحديدية التي شقها الطابور عبر البلاد. وفي هذه الايام، يستعين الخيالة والثيران الهادئة والعربات بهذه الطرق التي أنشأها رجال مدهشون، أنشأها برستس وسيكيرا، اللذان اخترقا اسرار مستنقعات ماتوغروسو.

وكان سيكيرا يمتطي جياداً أصيلة، مأخوذة من مزارع مربي خيول انكليز، أو يسير على قدميه. وفي كلتا الحالتين، ما كانت سرعة مفرزته، المؤلف من ثمانين رجلاً والمطاردة بالوف الجنود الاعداء، لتخف مطلقاً، وأصبحت عاملاً من التخييل الصافي، كما في سفر اسطوري.

سيكوبرا كامبوس... إن اسمه ليعني بطولة، شجاعة وسرعة في الحكم... إن اسمه بذكر بكوكب يشق طريقاً هائلاً. لقد كان، والابتسامة المرحية تعلق شفته الرقيقتين، يواجه العدو في ساعة الخطر بحيلة ما، يستحق من أجلها الشنق، ولكنه سرعان ما يعطي أمراً دقيقاً ينقذ الجميع بواسطته على هذا الشكل كان سيكيرا كامبوس، يا صديقتي.

وعندما كان بسأل شخص ما برستس مع من سيكون سيكيرا كامبوس اليوم لو كان حياً، فيجيب، يا صديقتي، وهو الذي عرف سيكيرا تمام المعرفة:

- بكون معي، هنا، في السجن.

وليس بمقدورنا أن نزجي مديحاً أفضل من هذا لسيكيرا يا صديقتي.
لا شيء أكثر منه يعطي صورة عن شجاعته، عن ذكائه وعن مزاجه. نعم، لو
كان سيكيرا كامب س حياً، لكان اليوم بجانب الشعب وبجانب بطل الشعب.

- ١٣ -

لقد ذهب الرسل، يا صديقتي، ولكن لم يكن بمقدور الطابور أن ينتظر عودتهم في معسكر هادئ. إن مصير الطابور ومهمته هما في أن يمشي. لقد كان الرجال الستمئة مرهقين، إنما ماذا يهم هذا؟ كان يتوجب اجتياز الغابات العذراء والماتوغروسو والغوياس من جديد، وتجنب العدو قدر الامكان، لان المؤونة أصبحت نادرة. وقاد برستس الطابور خلال مهالك أنهار ماتوغروسو وغوياس. لقد كان يهرب من العدو قدر الطاقة، ويدحره في كل مرة يرى نفسه فيها مضطراً لقتاله.

وفي السادس والعشرين من الشهر، وصلت الطليعة التي يقودها جوان ألبرتو إلى جسر على نهر جورو حيث التقت بالعدو الذي يحتله. كانت الساعة نبلغ العاشرة والنصف صباحاً، وكانت الفرق التي تدافع عن الجسر كثيرة العدد؛ وقاتل جوان ألبرتو حتى الساعة الخامسة بعد الظهر، وهي الساعة التي توصل خلالها إلى حمل العدو على الفرار. وأعطت هذه المعركة المجال لحصول حادث من نوع خاص: تعرض عشرة رجال، وأخذوا بين أسنانهم عصائب الفشلك، واجتازوا النهر سباحة، وكل منهم يعلق في كتفه بندقية من حالتها، لكي مهاجوا مؤخرة العدو. وفي هذا الوقت، اجتاز برستس بدوره، مع فيلقين بقيادة آري، لكي يهاجم مؤخرة البرناديسيين من الجانب. وتوصل كوردبرو، الذي كان في مؤخرة الطابور، إلى الانسحاب بنظام تام، عندما هاجته خيالة العدو؛ انسحب، وهو لا يكاد يجيب على نيران العدو، بسبب من فقدان الذخيرة. ولقد بذر الجنود العشرة العراة الذعر بين القوات المدافعة عن الجسر، على الأقل؛ وعندما وصل برستس مع فيلق آري، كان الحكوميون قد بدأوا يقاتلون متراجعين. واجتاز الطابور الجسر، ثم اشعل فيه النار.

سوف ينقدم الطابور من الآن فصاعداً خلال أنهار و غابات ماتوغروسو العذراء. سوف يحتاز منطقة ماسية، يسكنها ثلاثون ألفاً من أناس جذهم إليها الامل بالعودة إلى المدن، بعد مكثي يمكنهم، عقب تجميعهم للثروة، من شراء جميع ممتلكات هذا العالم.

واجاز الطابور الغوياس بحثاً عن سيكيرا. تغلغل في ممتلكات، اجتاز سواقي وانهاراً، طرقاً ودروباً. وبعد أن اقتنع بأن اخبار وجود سيكيرا في هذه الامكنة كانت مغلوطة، عاد على اعقابهم نحو ماتوغروسو.

وخلال المرحلة الأخيرة من السير، كان برستس حريصاً أكبر ما يكون الحرس على الابتعاد عن البلدان والمدن والقرى، حيث كان من الممكن أن يلتقي بالعدو فإن مؤونة وسلاح الطابور لم يكونا ليمكنانه من مواجهة معارك مواصلة. ومع ذلك فقد قاتل الطابور أكثر من مرة قبل أن يدخل الأرض الاجنبية. فبعد أن اجتاز، في الثامن عشر من الشهر، ريوداس غاركاس، اشرك في اليوم التالي بقتال عنيف مع قوات الشرطة. وانسحب العدو، وقد دُحر عماماً، مخلفاً قتلى وجرحى وأسرى، بينهم أحد الملازمين. وفي العشرين منه احتل جوان ألبرتو كولونيدوس تيشوس، طارداً منها فرقة من جنود الحكومة. أما الطابور فقد كان يتقدم باتجاه نهر مورتاتنداد، وفي الرابع والعشرين من الشهر، استولت مفارز كورديرو وآري وجوان ألبرتو، بعد قتال وجيز، على غنيمة عظيمة تركها العدو في ساحة المعركة، تتألف من: ٧٥ سدفية، ١٥٠٠ فشكة، ١٤ صندوقاً من ذخيرة الرشاشات، ٦٠ معشاب بنادق تحوي على عشرين الف فشكة، سيارتين شاحنتين، سيارة عادية، خيول وثياب عسكرية.

وفي يوم رأس السنة، كان الطابور في مدينة هاسندا رافائيل، التي مالبت أن غادرها تحت وابل من المطر العاصف. ولقد احتفل الجنود في هذا اليوم بالذكرى التاسعة والعشرين لميلاد برستس، وبالدكرى الثالثة لابتداء سيرهم عبر البرازيل. ولم يكن برستس في سن السادسة والعشرين، يا صديقتي، سوى

نقيل في فرقة الهندسة سبق له أن لمع في المدرسة الحربية. وعندما عين مهندساً انتصب بعنف، بدافع من شرفه، ضد التصرف الفاضح بالأموال العامة. وفي سن الثامنة والعشرين طهر أن برستس قد خُلِقَ للأعمال المكتبية. ولقد كان قبل كل شيء رياضياً، بناء طرق ومصانع كهربائية. وإن الذين كانوا يعرفونه، كانوا أبعد ما يكون عن التصور بأن بمقدور برستس أن يتجلبب بجلباب لواء، فيضع تصاميم المعارك وخطط الهجوم والانسحاب. وفي درس الاستراتيجية العسكرية كان يناهض استاذَه، ولم يكن ينال سوى علامات هزيلة، لان طريقته في حل المسائل كانت تختلف عن طريقة معلمه. وبعد ثلاث سنوات من ذلك، أصبح برستس أشهر الألوية في أميركا اللاتينية: فلقد نجح بالقيام بأعظم هجوم خيالي في العالم، ولقد دحر ثمانية عشر لواء مشهورين، واجتاز ثلاثة آلاف كيلو متر عبر أراضي البرازيل المجهولة، غير المخترقة والبربرية، وظهر كعبقريّة لا مثيل لها في هذا الجزء من العالم. ودُرس سير الطابور بدّهشة بالغة، ليس فقط من قبل اساتذة برستس الذين شكوا بمواهبه الاستراتيجية، بل وكذلك من قبل هيئات أركان الحرب في بلاد أميركا وأوروبا. ولقد حطم جميع الأرقام القياسية لسير المشاة، خلال سيره من تابو لييرو ألتو إلى سانتوسي: بواسطة رجاله الالف والخمسمئة، الذين اصبحوا خمسمئة في نهاية السير. لقد قاتل ضد الجيش، ضد شرطة مختلف الولايات، ضد الكانغاسيروس المنظمين. ولقد انتصر عليهم جميعاً، كما انتصر على الطبيعة المعادية، على الحميات والحيوانات، على الكاتنغا والغابة العذراء. وأعلن ألوية الحكومة عشرين أو ثلاثين مرة نبأ هزيمته. وبينما كان يتقدم وهو يقاتل، وقد بلغت درجة حرارته المئوية التاسعة والثلاثين، كانت الحكومة قد وضعت ثمناً لمن يأتيها برأسه. وطوّق طابوره مرات عديدة، وكان في كل مرة يفك الطوق. فلقد كان هذا الطابور يُحوّل الانكسارات الأكيدة إلى انتصارات بفضل عبقرية رئيسه. ولم يكن يحس بالحمى مطلقاً حتى عندما كان يسير في الاماكن الموحلة، راجلاً، بعد أن يكون قد تخطّى عن حصانه لجندي جريح أو منهوك القوى. ولقد كان يحمل في بلاد واسعة يستبد بها الضيق والتعاسة، الأمل بمستقبل أفضل. ودفع الشعب إلى النهوض،

يا زنجيتي، ورسم دروب الحرية للبرازيل.

وكان أكثر الاوقات إثارة للرعب في سير الطابور، الوقت الذي دخل فيه هذا الاخير منطقة المستنقعات القريبة من حدود بوليفيا. لم يبق هناك أي حصان. ومن بين الالف والخمسمئة رجل الذين غادروا شواطئ البارانا، بقي خمسمئة فقط يحيطون برئيسهم، بينما فني الالف الآخرون في الولايات الاربع عشرة التي اجتازها الطابور. إنهم لم يكونوا سوى خمسمئة، وكان من بينهم كذلك كثير من الجرحى والمرضى والنساء والهرمين والاولاد. وكان لا يكاد يوجد لديهم اية مؤونة، أي سلاح، أي طعام، أي حصان؛ وكانوا يمتطون الثيران القليلة الباقية، التي كان عددها يتناقص باستمرار يوماً بعد يوم، لانهم كانوا يذبحونها ليقتاتوا بها وكانوا يأكلون، فيما عدا اللحم الهزيل لهذه الثيران المتعبة، « البلميتو »^(١٥) الذي كانوا يجذونه من وقت لآخر على طول الطريق. لقد كانوا يسرون حفاة؛ فلم يبق لديهم أحذية، ولم يبق لديهم ثياب؛ ولقد كانوا يرتدون أسبالاً باللون غير محددة، مغطاة بالوحل، بوحل المستنقعات. وكان البعض منهم لا يضع سوى خرقة يستر بها عورته، خرقة اقتطعها من بقايا دثار. وكان آخرون يرتدون أشياء تذكر « بالكلاسين » أو بالسراويل. وكان البعوض، الحامل لمختلف أنواع الحميات بخراطيمه الحادة، يطوف في الليل حول الطابور. ولم يبق لديهم شيء من التوابل من أجل الطعام. ولقد كانوا يأكلون القليل من اللحم المتبقي لديهم دون ملح. وكعصاة هائلة من القروء، كان الرجال يضطرون إلى تسلق أعلى أغصان الاشجار لكي يرتاحوا.

ولكن حيويتهم لم تكن لتتراخي أبداً. فعندما كان برستس يقول: « إلى الامام ! »، كان الرجال يندفعون سائرين خلال الوحل، يساعد بعضهم بعضاً. وكان برستس يسند جندياً لم يبق بمقدوره التقدم، بينما يتخلى كورديرو دي فارياس إلى جندي آخر، متعب أكثر منه وأقل مسؤولية، عن

(١٥) لم من نوع من النخل، يؤكل في البرازيل.

الثور الذي يمتطيه، ويحاول جوان ألبرتو أن يجد طريقاً سالكة في هذا البحر من الوحل، ويعتني آري باحد المرضى. وكانت النساء يحملن، خلال ساعات طويلة، بنادق الرجال لكي يتمكن هؤلاء من الاستراحة، ولم يكن الاولاد يتصرفون تصرف الرجال، بل تصرف الابطال. وكالعادة، كان برستس في الطليعة.

ولم يكن هناك أية طريق ولا أية درب بين نهر سيبوتوبا وبين كاباسال. وافتتح برستس مع جنوده صراطاً من مئتين واربعة كيلومترات في ثمانية أيام. وإن هذا العمل المضي، بالقياس لرجال أصحاب، متمتعين بأعظم راحة واحسن غذاء، قد قام به بهجة وسرور، رجالاً منهوكة القوى يكادون لا يجدون ما يأكلون.

وفي الثالث من شباط سنة ١٩٢٧، في الساعة الخامسة والنصف صباحاً، بينما كان الفجر يرسل أول أشعته على ماتوغروسو، وكان الرجال يتهبأون لمعاودة السير، هدر صوت امرأة:
- تقدموا!

تطلع الرجال إلى أمام؛ لقد كانوا قد وصلوا إلى حدود بوليفيا، وخلفوا البرازيل وراءهم. ولم يكن هؤلاء الجنود، يا صديقتي، يعرفون بوضوح ماسق لهم القيام به. لقد رافقوا برستس، وهم يعرفون أنهم يناضلون من أجل الحرية ومن أجل حياة أفضل. ولكنهم كانوا يجهلون أنهم غرسوا إلى الابد بذرة الثورة على الأرض البرازيلية.

لقد كانوا يسرون ببطء الآن. وإن هؤلاء الرجال الذين لم تتعرف مآقيهم إلى الدمع مطلقاً، يا صديقتي، هؤلاء الذين صُلب منهم العود بألوف المعارك، كانوا يتركون الآن المجال لدموعهم لأن تنهمر على أسألمهم ولحأهم وصدورهم العارية، وهم يغادرون أرض الوطن. وكما كانت عادتهم كلما استبدت بهم فكرة ما، فتشوا بعيونهم عن اللواء **لويس كارلوس برستس**. تطلعوا إلى أمام، حيث كانوا يجدونه عادة. ولكن برستس في هذا اليوم،

با صديقتي، كان في المؤخرة. إنه الأخير الذي سوف يغادر أراضي البرازيل. وشاهده أحد الجنود بوجهه الهادي، وهيئته الساكنة وعينيه المتوهجتين، ففهم ما يعمل في داخلته من عزم. وصرخ عندها مخاطباً الآخرين بصوت مرح كصوت البوق:

- سنعود في يوم من الايام...
وبعد ذلك كان المنفى، يا صديقتي.

- ١٤ -

لقد قال رومان رولان في أحد الايام، بصوته العظيم الارتفاع، يازنجيتي، بان الاجيال ستحتفظ إلى الابد بذكرى ملحمة الطابور^(٤٦) ولقد كتب حول الطابور هذه الكلمات الصادقة: «إن وحدة الجنس والروح في البرازيل قد صُنعت من خلاله». نعم يا صديقتي، بفضل الطابور عاشت البرازيل خلال ثلاث سنوات في جو من الملحمة، من أناشيد الحرية وحب الوطن والناس، ذلك الجو الذي كان يخلقه خلال مروره.

سأحدثك، يا صديقتي، عن الضباط والجنود، عن الكبار والصغار، سأحدثك عن أولئك الذين انتصروا في المعارك، انتصروا على الحميات والرذيلة، على الطبيعة المعادية، على الجوع والعطش والانهار والجبال.

وفي البياوي... مرّ الطابور أمام كوخ جدرانه من لبن وسقفه من قش، بسكنه شخص من السرتونيين يُدعى جو وال، ويشبه الوف السرتونيين

(٤٦) كتب رومان رولان في ندائه حول طابور برستس، في سنة ١٩٣٦، ما يلي: «إن دكتاتوربي البرازيل الذين يعتقدون انهم بفضل مال أسبادهم - رأسالي أوروبا وأميركا - وبفضل الصمت المأجور لصحافة محرمة، يستطيعون ان يطمسوا أخبار بطل الاستقلال الفتي، يخطئون خطأ بالغاً في تقدير الصدى العالمي للمحمة، والحب الذي يحيط بوجه «فارس الأمل» الأسطوري. لقد دخل لويس كارلوس برستس حياً في المعبد المقدس للتاريخ، وستغنى الأجيال بأنشودة البطولة لرجل الطابور الخمسمئة، ولسيرهم طيلة ثلاث سنوات عبر البرازيل الواسعة، من البارانا إلى الأطلسي. ولقد صنعت من خلاصهم، وحدة الجنس والروح في البرازيل. ومجانين هم أساد البرازيل إذا لم يقدرُوا انهم بتوجيه ضرباتهم إلى لويس كارلوس برستس، انما يوجهونها إلى شعب البرازيل نفسه. بل وأكثر من ذلك أيضاً ان لويس كارلوس برستس مقدس بنظرنا، وهو يضمن الانسانية كلها. وان من يوجه إليه ضربة ما، يوجهها إلى الانسانية بأسرها». (ملاحظة من المؤلف).

الآخرين في البرازيل. و اراد هذا الرجل أن يقدم للطابور هدية ما ، معبراً بذلك عن تقديره لجنود الحرية. وتقدم جو وال من لويس كارلوس برستس حاملاً جرة ملاءى بالطحين. لقد كان هذا كل ما يملكه من طعام. وقال :
- خذ هذا الطحين يا لوائي ، فانه كل ما املك في كوكبي من طعام...
أعطاه للجنود...

ولكنه ، عقب محاكمة أجزاها بينه وبين نفسه ، رجع إلى كوكبه وهو واثق بأن ما قدمه غير كاف. وكان في البيت حمار صغير ، فجزّاه من لجامه وتقدم من جديد نحو برستس :

- إلبك بهذا الحمار الصغير يا لوائي ، إنه الشيء الوحيد الذي يمكنني من كسب العيش... خذه وأقلع عن السير راجلاً من الآن فصاعداً...

وعندما رجع إلى كوكبه مرة جديدة كان لا يزال موقناً بأن ما قدمه غير كاف ، يا صديقتي. ولكن لم يبق لديه أي شيء ليهديه ، لم يبق لديه أي شيء على الإطلاق. لا ، لا يا صديقتي ، إنه لا يزال يملك شيئاً آخر ، إنه يملك حياته التي يستطيع أن يهبها من أجل الحرية. وعندما تقدم من جديد ، والابتسامة تعلو شفثيه ، نحو برستس ، لم يكن يحمل شيئاً في يديه الخلاستين :
- لقد أعطيتك يا لوائي ما أملك ، أعطني الآن بندقية ومكاناً في طابورك...

ذلك كان شأن تطوع الجندي جو وال في طابور برستس في أعالي سرتون بياوي.

سوف أحدثك ، يا صديقتي ، عن ميغيل كوستا ، اللواء القائد. سوف أحدثك عن كورديرو دي فارياس ، عن سيكيرا كامبوس ، عن جوان ألبرتو ، عن دجلما دوترا ، عن موريرا ليا ، عن جواريس تافورا ، عن تريفيانو كورتبا ، عن آري فريري ، عن مانويل ليرا ، عن باولو كروجير ، عن ألبرتو كوستا وعن اينالولاندروسي ، ذلك الايطالي الذي كان مساعد برستس العسكري ، عن فرجيليودوي سانتوس ، عن الملازم هرمينيو وعن الملازم

سوزا، عن هؤلاء جميعاً الذين تتجاوب أسماؤهم تجاوب أصداء قصيدة من الشعر. سوف أحدثك كذلك عن أولئك الذين بدأوا السير وهم جنود ورقباء، وأنهم وهم ملازمون ونقباء.

ولكنني أريد أن أحدثك الآن عن موريرا لبا، ذلك المحامي الذي دجبت يراعه أخبار التشابايف في أميركا الجنوبية، والذي هجر مركزه كأمين سر للطابور ليصبح نقيباً، والذي ترك البندقية جانباً ليدرس ملفات الدعاوى التي أقامها الملاكون العقاريون ضد شغيلة الأرض، والذي أعطى الأمر باتلاف وثائق المحاكمات. ودُعي بـ «حامل البكلوريا الشرس» لشجاعته في المعارك، وهو لقب يعادل وساماً. ولم يكن بمقدور العدو مطلقاً أن يفكر بأن هذا النقيب، الذي لا يعرف الخوف قلبه، الشجاع المتمرس بالحروب، كان رجل أدب لا عسكرياً ممتناً.

سأبدأ به يا صديقتي، لأنه ترك لنا كتابات مفصلة عن السير الكبير لطابور برستس. لقد كان مثقف الطابور، وكان يحمل السلاح على كتفه، بينما ينبض قلبه من أجل الشعب. لقد كان يهيم إعجاباً أمام منظر جيل، ويرسل بالاهاجي المقذعة ضد العدو، ويروي ببساطة أعظم مراحل الملحمة تأثيراً. ولقد أخطأ عديداً من المرات عند محاولته تحليل الوقائع الاجتماعية، ولكنه في كل مرة تحدث فيها عن الطابور، تحدث صواباً. إنه، وهو جندي من جنود برستس، وهو نقيب الحرية إلى جانب برستس في الاتحاد الوطني التحريري لسنة ١٩٣٥، قد خرج من السجن ليموت بعد ذلك بقليل. ولم يكن بمقدوره، في أيام التعاسة تلك، التي كانت تحتازها البرازيل، أن يتحمل رؤية لوائه موقوفاً ومعذباً في سجون ريتو. لقد كان رجلاً نموذجياً في الطابور. إن الانحطاط الخلقي والطعن المستمر بالكرامة الإنسانية، اللذين تميزت بهما سنوات «العهد الجديد»، جعلاه يتداعى خجلاً وقرفاً. وعندما كتب إليه برستس، في سنة ١٩٣٥، حول الاتحاد الوطني التحريري - وكان لا يزال في ذلك العهد نقيباً في الطابور - أجابه، يا صديقتي، بما يلي: «انني على ثقة بانك إذا ما دخلت البرازيل على رأس الطابور، ستنهار البطانة

المستولية على الحكم بمنتهى السهولة». وإن هذا هو الرجل نفسه الذي كتب «مارشاس أي كومباس» ذات الأفكار المشوشة، إنما الملائى بالحرارة والحيوية. ولقد تطورت مفاهيمه الثورية تطوّر مفاهيم برستس والطابور. لقد تطور اليسار عقب السير الكبير. ولقد كتب ابن الشعب في المنطقة الشمالية الشرقية، هذا الرجل الذي يحسن استعمال القلم والبندقية وارتداء ثوب المحاماة والثوب العسكري، كتب لورانسو موريرا ليا، المحامي والنقيب في الوقت نفسه، إلى برستس، يا صديقي، يقول: «إلى اليسار! إنها الكلمة التي ترددها جميع الافواه».

وأقدم لك الآن يا صديقي بطلاً آخر مات هو أيضاً: أقدم لك سيكيرا كامبوس، بطل الابطال، الذي كانت حياته قصيده من الشجاعة، والذي قضى مجاداة طائرة. لقد كان يسافر من أجل ثوري سنة ١٩٣٠، بعد أن كان قد تأمر في سان باولو، حيث كان قد اختبأ في بيوت صديقه. وكان اسمه وحده كافياً لادخال الرعشة إلى قلوب رجال الشرطة، وكان خبر وجوده يقوي عزائم الجميع، يشجع الضعفاء، يسكب الامل في نفوس أولئك الذين كانوا لا يؤمنون بالنصر. وتحطمت الطائرة التي كان يسافر فيها من براتا إلى سان باولو، في البحر. واختفى جسده في البراتا، في يوم ارتدت فيه البرازيل كلها ثوب الحداد. وإن بائعات المؤن المرافقات للطابور، اللواتي كن يرمينه بمختلف النعوت لينتقم من معارضته للاحاقهن بمفرزته، قد بكن هن أيضاً في هذا اليوم عند تفكيرهن بالقائد الشاب. ولقد كان في مقدمة الرجال الذين ساروا على الرمال في الخامس من تموز، وكان يغلف صدره بقطعة من علم. وكانت القذائف أضعف من أن تودي بحياته. فلقد ذهب إلى المستشفى بجسم منخور بالقذائف، ولكنه خرج منه بعد ذلك ببضعة شهور. وعندما تشكل الطابور كان هو معه. إن سيكيرا، الذي كان يحوز على ثقة برستس كلها، كان رئيساً يقود خلفه جنوده في كل الظروف. وكان نبه مثلاً يحتذى. وبعد برستس، كان هو وميغيل كوستا من أكثر أبطال الطابور قرباً من قلوب الشعب. إن هذا القائد الشاب، الذي يبلغ الرابعة والعشرين من

عمره، الشجاع إلى حد المجازفة، السريع في اتخاذ المقررات، كان سريع الخاطر في فهمه أدق المواقف وأكثرها غموضاً، وفي تقرير ما يجب القيام به في أصعب الظروف، بسرعة فائقة.

لقد كان أفضل رمز لنبل الجيش. وهو بعينه المتوقدتين نشاطاً وبغمة الصارم، كان دوماً على استعداد لارسال نكتة ما، وكان يملك الموهبة لاضحاك برستس. لقد كان مرحاً، ولكن لم يكن هناك أي ضابط يُحسن خيراً منه النظام واحترام هذا النظام وخلال اجتياز برنمبوكو، عند اندلاع المعارك العنيفة التي كانت مزرعة سيبو مسرحاً لها، في ذلك الحين، وقد هاجم رجال الشرطة والكانغاسيروس وفرق الجيش، الطابور، جاء وقت دب فيه الهلع في الفيلق الخامس من مفرزة سيكيرا، بعد أن هوجم بقوات تفوقه عدداً بمقدار عظيم، وتفرق الجنود أيدي سبأ وهم لا يفكرون إلا بإيجاد مخبأ يحتمون به، عندها تقدم سيكيرا على رأس عدد من الجنود الصامدين، نحو العدو، بصدر مكشوف، وأخذ يطلق النار من مسدسه، وقد ارتسمت على شفثيه ابتسامة من سخرية، واشتعلت عيناه باللهيب. وشاهد جنود الفيلق الخامس من مخابثهم الامينة، سيكيرا والملازم سادي ماشادو يتقدمان مع الرجال القلائل الذين يتبعونها، نحو موتٍ عنيف. وكان لهذه الرؤية تأثير أشد عنفاً من الخوف، يا صديقتي. وكان سيكيرا بصدره المكشوف، يتقدم مزهواً، بينما كانت القذائف تصفر من حوله، وكان الجنود الاعداء يتساقطون صرعى امامه، وبرباطة جأش تابع تقدمه وقد سيطر عليه هدوء كان بمثابة نداء للرجال الذين استبد بهم الخوف، ودرس لاولئك الذين آثروا الفرار. وكانت هذه اللوحة أقوى من الخوف، يا صديقتي. وعاد الجنود الفارون إلى قواعدهم. وخرجوا، واحداً واحداً، من خلف الاشجار، وتجمعوا، وبعد عدة دقائق كان الفيلق الخامس بكامله مشتركاً في القتال، وقد امتلأت منه البردتان من جديد بالشجاعة والجرأة. ودُحر الحكوميون بفضل بأس رجال الطابور. إن قوة تأثير رئيس الكوبا كابانا وابتسامته اللامبالية بين القذائف، وهدوءه أمام الموت، كل هذا كان أقوى من الخوف، يا صديقتي.

وفما لو قصصت عليك، يا صديقتي، مرحلة مرحلة، وحادثة حادثة، جميع مآثر بطولة سيكيرا كامبوس، لكان علينا أن نبقي على الارصفة إلى أن يبدأ البدر القادم من البرازيل بالتقلص ويصبح قمراً لا يام حزينه. إن حياة سيكيرا القصيرة، الجلييلة الشأن، هي قصيدة حربية، تتخللها معركة عند كل بيت، وقتال مسلح عند كل مقطع، يا صديقتي.

إن جوان ألبرتو ودجلا دوترا وآري سلغادو قد تكلمت منهم الهامات، هم كذلك، باكالييل الفخار. ولقب جوان ألبرتو بـ «مبعوث العناية الالهية»، لانه كان يظهر دائماً في أصعب الاوقات. لقد كان يتميز بشجاعة خارقة. وكان، بصفته مواطناً من برنثوكو، يتمتع بجميع صفات مواطنيه: ومن بينها عدم التأثر أمام المخاطر. لقد كان يمر بين القذائف، ويقترح الحلول غير المتوقعة لأعقد المشاكل وأكثرها حدة. وكان رجلاً جديراً بالقيام بأي شيء خلال سير الطابور، وكان قائداً ومهندساً، طبيباً ورجل مدفعية، يسير لتأدية مهمته، لا فرق لديه إن كان راجلاً أو ممتطياً صهوة حصان، ولا تمييز عنده بين أيام الانتصار وأيام المجاعة.

على هذا الشكل كان دوترا وآري، يا صديقتي، وعلى هذا الشكل كان أيضاً تريفيينو، شجاع ذلك العهد وكل العهود، وكذلك لاندروسي وكروجر ومويرا وليرا وجميع الآخرين.

لقد مات كثير من هؤلاء الاشخاص، يا صديقتي، ولكنهم لا يزالون أحياء في قلب الشعب. ولقد اتبع آخرون طريقاً هي ليست طريقنا. ولكنني أقول لك، يا صديقتي، بأن علينا أن لا نياس من الرجال الذين كانوا مع الطابور. ففي قلوبهم تنطبع علامة عميقة. وإذا ما كان طابع الحيانة والشقاء قد ناء بكلئله على أولئك الذين خانوا الطابور في سنة ١٩٢٤، والذين لا يُنتظر منهم القيام بأي عمل، فإن علينا مقابل ذلك أن لا نتخلى عن كل أمل في أن نرى أولئك الذبن طلوا مع الطابور، والذين اتخذوا اليوم مواقف نعتبرها خاطئة أو خطيرة، بأن يغيروا اتجاههم هذا. وعلينا أن لا ننسى بانه مهما كانت فداحة اخطائهم، فإن الشعب كان علماً لهم وإن نداء الشعب

لأقوى من جميع النداءات. لقد سمعوه مرة، ومن الممكن أن يسمعه الآن أيضاً، وقد بلغ الألم الشعبي ذروة لا يمكن لها وصف.

إن رجال الطابور الالف والخمسمئة هم أبطال الشعب البرازيلي. ولقد جرح أكثر من ثمانين بالمئة منهم مرة واحدة على الأقل. ولقد اجتازوا ستة وعشرين ألف كيلومتر في قرابة ثلاث سنوات، وإن أكبر راحة منحوها لانفسهم خلال مدة توقفهم، لم تتجاوز مطلقاً الشامي والاربعين ساعة. ومات منهم ستمئة جندي وسبعون ضابطاً. واستعمل مئة الف حصان في سير الخيالة هذا، الذي يظل أعظم سير تعرف إليه العالم. وذبح ثلاثون الف ثور. وحصلت ثلاث وخمسون معركة مهمة وألوف المناوشات.

آه! يا صديقي، ستكون الليالي قصيرة جداً إذا ما أردت أن أقص عليك جميع مآثر الجنود البطولية، مأثرة مأثرة، وإذا كان علي أن أحدثك عن الجنود، واحداً واحداً. ليس هناك أي جندي ولا أي عريف ولا أي رقيب ولا أي ملازم في الطابور لم يقم بمأثرة بطولية. إن الطابور الذي كان يقوده رئيس عبقرى، كان عملاً جماعياً، كان نتاجاً لألوف المآثر البطولية المتشابهة. ولم يكن الرؤساء يغمطون أبداً حق الفرد من التقدير، وكان الرجال يقدرتون تماماً ما كان يُنتظر منهم.

ولقد اجتاز زبه فيوفو، الذي جرح في ساقه، مرحلة كبيرة من السير على حماله. وشاهد، وهو متمدّد ومحمول من قبل رفاقه، العمل الذي كان كل مريض يقدمه للآخرين. وكان يعرف أيضاً بأن الطابور لم يكن يترك خلفه جرحاه، ولأ الرجال الذين فقدوا القدرة على القتال؛ لقد كان يحملهم معه، وكان بذلك بنقدهم من تعذيب يحمل لهم في طياته موتاً محتملاً. وكان زبه فيوفو يعرف كذلك بأنه لم يكن بمقدور أي مريض أن يترك الطابور، أن يهجر الكن الذي استولى عليه. إنه، وهو العاجز، لم يترك حالته إلا ليمتطي ظهر حصان. لم يكن بمقدوره السير. فصنع لنفسه عكازتين استطاع بواسطتهما أن يجر جر نفسه وهو يسير. وفي أحد الأيام ذهب لمقابلة برستس وطلب إليه

أن لا بدعه بين العجزة، وأن ينيط به القيام بعمل ما. وكان برستس يعرف الناس، ولم يكن في قلوبهم سر يخفى عليه. فابتسم لزيه فيوفو وأعطى الأمر بأن ترد إليه بندقيته. وأصبح زيه فيوفو، والسلاح في يده، يقوم بحراسة الطابور عندما كان هذا يعسكر، وكان يضع عكازيه بالقرب منه، يأخذ بندقيته بين يديه ويجلس بين الادغال، لأن ساقه الوحيدة لم تكن تمكنه من البقاء واقفاً. ولم يكن هناك من حارس موثوق أكثر من زيه فيوفو. وويل للعدو الذي يخاطر بالاقتراب من المعسكر في أيام الحراسة هذه! وكان السلاح المرتكز على ساق زيه فيوفو العاجزة لا يخطيء إصابة الهدف مطلقاً. ولم يتعرض الطابور لأي هجوم مفاجيء خلال ساعات حراسته. على هذا الشكل كان العجزة يستطيعون خدمة الطابور، يا صديقتي.

وجرح أغري كولا باتيستا أربع عشرة مرة، وبالرغم من ذلك تابع السير حتى بوليفيا، التي دخلها حاملاً شرائطه كمنقب. ولقد تلقى ثلاث قذائف في الساق نفسها، وبالرغم من ذلك كان يقوم بالأعيب يستحق من أجلها الشنق ويتحدث عن بتر ساقه. على هذا النحو، يا صديقتي، كان جنود الطابور.

وكان هناك أيضاً رجال من أمثال لويس كريتيرو الذي لم يترك خلفه سوى النساء من عائلته. وجاء إلى الطابور مع أخيه وأولاده الثلاثة. وماتوا جميعاً، ولم يصل أي واحد منهم إلى بوليفيا. لقد سقطوا الواحد تلو الآخر، وكان هو آخر الضحايا، وصُرع بالقرب من بيانكو. لقد كان هراً ووهب دمه ودم أولاده الفتي.

ولقد قدم عامل الطباعة العملاق بيراسيسابا من سان باولو، وهو يقاتل بشجاعة. ولم يكن يطمح في سذاجته الفخورة إلا أن يُدرج، على سبيل المكافأة، نبأ موعد عيد ميلاده في جريدة «الليبرتادور»، وهي الجريدة التي كان ينشرها الطابور من وقت لآخر، ساعة دخوله إحدى المدن أو عند عثوره على مطبعة. وتم له ما أراد فشعر بأنه كوفيء على الدماء التي سكبها. على هذا النحو كان هؤلاء الرجال، يا صديقتي.

وكان الزنجي بلدوينو، الهرم الابيض الشعر، البالغ من العمر سنين لا يمكن عدها، قد سبق له أن حارب في سنة ١٨٩٣ مع بينيرو ماشادو، وهو برافق الآن بينيرو ماشادو آخر يسير مع الطابور. وكان بمقدور هذا الرجل، الذي هو معلم له، أن يكون له ابناً. وكان بلدوينو يوبخه، وكان دائماً إلى جانبه. وفي أحد الايام اشتركت كتيبة بينيرو في معركة غير منساوية، وطوق العدو القائد. عندها تقدم بلدوينو من بينيرو وأصدر إليه الامر، بسلطته كزنجي هرم، لأن يفتش لنفسه عن ملجأ يختمي به. ثم ترجل عن حصانه وأطلق صرخة حرب الغابات العذراء الافريقية، وواجه العدو والمسدس في يده. وعندما نفذ منه الرصاص، استل حسامه - حساماً يرجع عهده إلى معارك ١٨٩٣ - واندفع في قلب المهاجمين حتى سقط صريعاً، وقد اخترقت جسده ألوف القذائف وطعنات الحراب. وهكذا انقذ بلدوينو في هذا اليوم حياة زبه بينيرو، يا صديقتي.

إن فافورينو بنتو الذي فقد القدرة على القتال بسبب تقدمه بالسن، والذي سبق له أن قاد الحركات الثورية بين الكوشيين، بقي في الطابور لمرافقة ولديه واسداء النصبحة إليهما خلال المعارك. وكان بومبيكو، ساحر السوق، يقوم بتمثيل روايات مسرحية أمام الجنود، أبام التوقف، وتصدر عنه أعظم آيات البطولة بين المقاتلين، أيام القتال. ولم يكن للزنجي كاستورينو، القوي الضخم كاحدى شجرات الغابات العذراء، من يماثله بالشجاعة. لقد خلف ذكرى خالدة عميقة في السرتون، ورقى إلى رتبة رقيب بفضل من شجاعته. لقد كان يحب القتال وحيداً ضد المئات من الاعداء. وعندما غادر الطابور بيكوس عاد على اعقابه، وتوقف في وسط أحد الحقول، والابتسامة تعلو شفثيه، وأخذ يطلق النار على جنود مدينة بيكوس. وكانت طلقات الرصاص تقطع الاعشاب وتدوي من حوله. ومات كاستورينو في الشابادا ديامانينا. لقد قاوم وحده عصابة من الجاغونسوس، في معركة أخرى مشابهة. وسقط صريعاً، بعد أن أودى بحياة كثير من الاعداء، يا صديقتي.

ولقد رُقّي عدد من الاولاد، يا صديقتي، إلى رتبة عريف،

كـ « جاغونسينيو »، ومات عدد غيرهم من التعذيب الذي استهدفوا إليه على يد الحكوميين، كـ « ألدو ». وكان هذا الأخير ابناً للنقيب هيلديرنندو دي أوليفيرا، وعندما شاهد أباه يموت في أحد خنادق العدو، لم يصدر عنه أي صراخ، ولم تظهر في عينه أبة دمعة يأس. وبالرغم من أنه لم يتجاوز السابعة عشرة من عمره، كانت الشهور التي قضاها في الطابور برفقة أبيه قد أكسبته خبرة عدة سنوات من التجارب. فأخذ سلاح أبيه بين يديه وتقدم إلى الخندق الذي كان فيه، وجعل يقاتل مكانه.

على هذا النحو كان رجال الطابور يا صديقتي، وعلى هذا النحو كان الأولاد الذين أصبحوا رجالاً خلال السير الكبير. إنني لم أحدثك إلا عن بضعة أفراد منهم، يا صديقتي. ولكن مآثر الطابور الفاجعة البطولية، تُعد بالعشرات وبالمئات. فلم يمر يوم دون أن تجري به حادثة بطولية. وكان لكل من هؤلاء الرجال عمل رائع شبيه بالأسطورة. وعلى الليل أن يتمدد إلى ما لا نهاية، وعلى القمر أن لا يتعرف إلى الرقاد، لكي استطع أن أروي لك ولو قسماً بسيطاً من مآثر هؤلاء الرجال.

أنظري إليهم: هذا واحد فقد ساقه إلى الأبد، وآخر قد ذهب أحدى القذائف بذراعه إلى غير رجعة، وثالث قد شوه الرصاص منه الوجه، ولكنهم جميعاً يتقدمون والابتسامة تعلو منهم الثغور. إنهم جرحى وعجزة ومرضى، ولكنهم لا يزالون جميعهم جنوداً، لقد قاتلوا دون أن يستسلموا، وتقدموا دون أن تفتر منهم العزيمة وكلهم ثقة بالمستقبل. لقد كان هؤلاء الرجال صورة للثورة يا صديقتي.

- ١٥ -

وعندما كان أحد الجنود يشعر بأنه لم يبق لديه سوى بضع دقائق للتمتع بنور الحياة، وقد جرح جرحاً بالغاً، كانت لا تتردد على شفثيه سوى هذه الكلمات :

- أريد رؤية اللواء قبل أن أموت.

تلك كانت رغبة المحتضرين في الساعة الحاسمة. لقد كان بهم شوق لرؤية برستس وهم يموتون. وقد زالت من ذهنهم كل صورة للاراضي العدو وللشعوب الجائعة التي تحدروا هم أنفسهم منها. وزالت كذلك صورة التعاسة الحاضرة. وكانت عينا برستس المشتعلتان تمثلان بالنسبة إليهم مستقبل الحرية، الذي سيصبح مستقبلاً للبرازيل كلها. إنهم كانوا يحلمون باليوم الذي ستصبح فيه الاراضي الغنية الخصبة في البلاد مفتوحة أمام الجميع... سيتعرف الناس عندها إلى الحرية والسعادة، وسيعملون على أرض هي أرضهم وبآلات هي آلاتهم.

من أجل هذا السبب أجاب أحد المحتضرين عندما اقترب منه أحد الضباط وسأله، بصراحة فظة، إذا ما كانت به رغبة لأن يكتب كلمة ما إلى خطيبته، لأن يرسل مالاً إلى أهله، لأن يدخن لفافة أو يشرب كأساً.

فأجاب المحتضر :

أريد رؤية اللواء قبل أن أموت.

وكان برستس يقترب، وقد علت شفثيه ابتسامة ودودة، وانبسبت يدها، واشتعلت عيناه باللهيب. وكان المستقبل يأتي معه. كان يجلس قرب سرير المحتضر، ويتحدث الاثنان، يتحدث اللواء والجندي عن الماضي، عن

المعارك، عن المسافات المجتازة وعن الانتصارات. وكانا يتحدثان كذلك عن المستقبل، عن المستقبل الذي يولد من دم الجنود الصرعى. كان الجندي يعرف جيداً بأن رجال المستقبل سيتحررون من الألم والتعاسة. ألم يكن وجه برستس الهادئ وعيناه المشتعلتان، وابتهامته الحارة، اللدنة، ألم يكن كل هذا بالقرب منه لكي يؤكد له هذا الامر؟

وكان الجندي السعيد يبتسم، يا صديقتي، وكان يموت سعيداً في الغابة العذراء أو في الكاتنغا، وهو يتطلع إلى وجه لويس كارلوس برستس المحبوب. هذا ما تحدثنا به الاخبار الشفهية يا زنجيتي، وهذا ما يرويهِ العميان في المنطقة الشمالية الشرقية.

- ١٦ -

عدما طهر الطابور ، يا صديقتي ، في سنة ١٩٢٤ ، ساعة اندلاع الثورة في ربو عراندي وفي سان باولو ، كان الرؤساء المدنيون والعسكريون لا يعرفون سوى بعض من الاسباب التي كانت تدفع الشعب إلى الثورة . ولم يكن هؤلاء الرؤساء يقاتلون إلا من أجل اصلاحات سطحية . ولم يكن يصل إلى آذانهم سوى صدى فاتر للصحب الهائل من اليأس المتصاعد من قلب البرازيل . ولم تكن تطالع عيونهم سوى صورة المشاكل المحلية . لقد كانوا يجهلون المشاكل الكبرى في البرازيل . وكان سكان الداخل غير المعروفين ، العائشون على شواطئ الأنهر الكبرى في اللاتفنديا ، يخضعون لنظام من العبودية لم يكن له فربن إلا في روسا الفيصرية .

ولقد تعرف رؤساء الثورة ، وفي مقدمتهم برستس ، إلى حقيقة البرازيل أثناء السير الكبير . لقد كان للطابور أثران مهمان يا صديقتي . فلقد حمل الامل إلى الشعب ، وزود قاداته بالتجربة التي كانت تنقصهم . لقد كان على الرجال الذين اندفعوا من الشواطئ البحرية المتمدنة ، من المدن الكبرى ، من ريو ، من سان باولو ، من بورتو اليغري ، أن يواجهوا شيئاً بعيداً عن حدود التصور . وكان أول ما لاحظوه هو أنهم يجهلون البرازيل جهلاً تاماً . وإذا ما كانت المشاكل السياسية والاجتماعية التي واجهتهم في المدن قد حملتهم على القيام بالثورة ، فإن نظرة واحدة يلقونها من الآن فصاعداً على مشاكل البلاد الرئسية ، تجعلهم يفهمون بأن الثورة التي فكروا فيها لم تكن سوى شيء سطحي

من أجل ذلك كانت ثورات سنوات ١٩٢٢ - ١٩٢٤ وانتفاضات ١٩٢٥ - ١٩٢٦ ، التي لم يكن لها جذور شعبية ، هي أشبه ما تكون

بالانتفاضات البسيطة منها بالثورات ولكن سير الطابور سوف يغير الوضع. فلقد تعلم أشياء جديدة وعلم أشياء غيرها. وبالرغم من انه لم يكن في أول الامر سوى فريق من جنود لجوا بحياتهم عقب انتفاضة فاشلة، فهو قد حمل الثورة إلى الشعب. وفي نهاية السير الكبير، أصبح الطابور يمثل الثورة السائرة في البلاد، ولقد ألّب الشعب حول منهجه. ولم يكن بمقدور ثورة سنة ١٩٣٠ التي سبقتها ورافقتها حركة شعبية هائلة، ان تتعرف إلى الوجود، لو لم يوقظ الطابور وعي الجماهير وينشئ لها قادتها. وفي سنة ١٩٣٠ سوف يفيد التحالف الليبرالي من كل ما علمه الطابور إلى الثوريين ومن بذرة الحرية التي غرسها في أوساط الشعب. وإن الناطقين بلسان ثورة ١٩٣٠، الذين - كما توقع برستس - قد خانوا بمعظمهم قضية الشعب وانقلبوا ضده، لم يستطيعوا الاستيلاء على الحكم إلا بفضل منهج من مطالب حقيقية. هذا المنهج الذي سوف يتخطاه برستس بمراحل كبيرة، في سنة ١٩٣٥، عندما سيقف أمام الشعب الذي خانته قادة سنة ١٩٣٠، ويخلق التحالف الوطني التحريري. أما في ما يتعلق بالتحالف الليبرالي فلقد كان يتأرجح بين المطالب الشعبية وبين التعهدات التي قطعها رؤساؤه السياسيون للاستعماريين الذين كانوا يمولونهم. ولم يكن التحالف الوطني التحريري مقيداً بأي تعهد، بل كان يمثل فقط مصالح الشعب.

إن نظرة واحدة للحدود التي تفصل بين هاتين الحركتين، تمكننا من رؤية الطريق التي اجتازها برستس والرجال الذين تبعوا، في سنة ١٩٣٠، التحالف الليبرالي. لقد شاهد هؤلاء الرجال، مثلهم في ذلك برستس، المشاكل وعاشوها، وحلوا في نفوسهم آثارها التي لا تمحى. ولكنهم قد تقبلوا، وهم يهبطون انفسهم سلفاً للخيانة، الحدود التي كان يضعها السياسيون الماهرون للمطالب الشعبية. في نهاية السير كان برستس قد تجاوز حتى هذا المنهج نفسه. وكان هناك شيء واحد يستأثر باهتمامه: لقد كان يريد إيجاد السبيل الصالحة التي تمكن من حل مشاكل البرازيل بصورة حقيقية. ولم تبق الثورة بنظره مغامرة يجب اغتنامها كلما سنحت الفرصة. لقد اصبحت تشكل

استجابة لحاجات الشعب، استجابة حقيقية ايجابية، وليس استبدال حكومة بحكومة أخرى. لقد كان على الثورة أن تقدم الحلول الحقيقية لآلام البرازيل. ولقد تحدث برستس حول الطابور فقال:

«إن ما كنا نهدف إليه بصورة رئيسية هو ايقاظ وعي الجماهير في الداخل وانقاذها من الغفلة المتردية فيها، من اللامبالاة بمصير البلاد ومن اليأس من إيجاد علاج لأوجاعها وآلامها». وإن هذا هو ما توصل برستس إلى القيام به، وهذا ما حققه الطابور بصورة رئيسية.

ولكن كان للمسألة وجه آخر: فعندما شاهد ممثلو الشعب آلام الشعب، تعلموا كثيراً من الأشياء. لقد فهموا مقدار ما كانت عليه المناهج الثورية لحركات سنتي ١٩٢٢ و ١٩٢٤، من السطحية. ومنذ ذلك الحين بدأت فكرة «التيننتيسما» تتحول إلى فكرة «الوطنية التحريرية». وبينما كان كل شيء يدل أن «التيننتيسمو» قد بلغت الذروة في سنة ١٩٣٠، كان القسم الذي لم يتطور من «التيننتيسمو» هو الذي تركز كنظرية في سنة ١٩٣٠. وإن «التيننتيسمو»، الممثلة للتقدمية، كان قد سبق لها أن تطورت إلى فكرة أوسع. وتحدث برستس في المنفى، بعد التراجع الذي كانت قد حلت به إليه السنوات المنصرمة، عن المظهر الثاني، وسجل التطور السريع «للتيننتيسمو»:

«ليس هناك من حل ممكن للمشاكل البرازيلية في حدود القوانين الشرعية المرعية الاجراء. إن الامر لا يتعلق بالرجال، بل بالاعمال، أي بمنهج وبنظام. إن أي حكومة، مهما كانت تحركها أشرف الدوافع في العالم، لن تستطيع، في حدود القوانين الحالية، أن تحل المشاكل الوطنية، بأي شكل من الاشكال. فعلى الحل أن يكون نتاجاً لتحول جذري في جميع الحقول الاجتماعية لا في الحقل السياسي فقط: يجب إعادة تنظيم البلاد على أسس جديدة. يجب إعطاء أسس اجتماعية واقتصادية جديدة للعلاقات بين الناس الذين يسكنون هذه الارض الكبيرة ويشغلون فيها. يجب أن نحطم، بصورة جازمة، السلاسل التي تقيد البرازيل وتمنع تطورها وانطلاقها المثمر الوهاج».

لقد تعلم برستس هذا الامر، خلال السير، بفضل الطابور. لقد قدم

الشعب لرجال السير الكبير مشهداً جديداً للحياة البرازيلية. لقد انهى الشعب صناعة قائده، وطبعه بصورته، وعمّده بنيران مشاكله. وخلال السير، تحدث برستس عن «تقسيم اللاتيفنديا». ولكنه بعد انتهاء حوادث الطابور، انتصب يناهض الاستعمار، وارتفع صوته متوجهاً إلى جميع بلاد أميركا اللاتينية يدعوها إلى الاتحاد ضد العدو المشترك: الاستعمار. إن قائد الشعب البرازيلي يبدأ مهمته كقائد لا أميركا كلها. وذلك لأنه تعرف في داخل بلاده إلى المشاكل التي هي في الوقت نفسه مشاكل البلاد اللاتينية الأميركية كلها.

تطلعي، يا صديقتي، إلى هذه الثورة كيف تعاطمت! فلم يكن منهجها يحوي، في سنة ١٩٢٤، أية كلمة عن اللاتيفنديا، عن المسألة العمالية، عن الاستعمار. وكان ايزيدورو، يخشى، في هذه السنة، أن يتقبل معونة عمال سان باولو. وفي نهاية السير الكبير، أخذ صوت برستس يرن على شكل آخر. فلقد أصبح هذا الصوت، بعد اتصاله بالشعب، أعظم قوة، وأخذ يتجاوز حدود البرازيل ليصبح حادثاً أميركياً، ذلك لأن مشاكل البلاد الأميركية اللاتينية متشابهة كلها وليس هناك سوى طريقة واحدة لحلها، جميعها، يا صديقتي.

وبالرغم من المرض الذي كان ينهش برستس، ومن الحمى التي كانت تتأكله، كانت توجه إليه النداءات من أربعة أنحاء البرازيل، وكانت الاحزاب تدعوه لأن يصبح رئيساً لها. لقد كان الجميع يريدون استثمار الاحترام الذي يتمتع به. وتوجهت إليه كذلك أحزاب بلاد أميركا الأخرى. وأحاطت باسمه هالة من البطولة الاسطورية. إنه أمل شعبه. ولكن الجميع يريدون استعماله من أجل مصالحهم الخاصة. ولكن برستس، يا صديقتي، كان لا يهتم بكل هذه النداءات ولا بكل هذه العروض، لقد كانت به حاجة لشيء واحد: لقد كان يريد أن يجد حلاً لمشاكل بلاده. وسوف يستعمل فترة المنفى، التي ستلي ذلك، للتفتيش عن هذا الحل بصورة لا يفتر لها نشاط. ولن يدخل البرازيل من جديد إلا وقد تركّز في ذهنه شيء واضح دقيق لي ما يتعلق ببلاده.

القسم الثالث

دروب المنفى

« ... إنه يسكن كوخاً حقيراً
ويأكل قليلاً. ولكن هذا الرجل
الهزيل، الشاحب، الفقير، الذي تنهشه
الملاريا، هو أمل وقوة الشعب
البرازيلي! »

« اوكتافيو برانداو »

« ... لقد أضحي أصدقاء برستس
القدامى لا يفهمونه؛ فهو ينظر الآن
إلى الأشياء على شكل آخر، وأصبح
يتميز من أصدقائه هؤلاء بأن إيمانه
بطريقته القديمة في التفكير قد
تزعزع. إنه يفتش عن دروب
أخرى... »

« رودولفو غيولدي »

- ١ -

إن دروباً جديدة تفتتح الآن أمام برستس ، هي : دروب المنفى . وسوف بتطور تفكيره خلال مراحل المنفى الثلاث : الغايبا ، البراتا ، والاتحاد السوفياتي ؛ ويجد هذا التفكير لنفسه مستقراً . إن هذا الرجل الذي انتهى من اجتياز عتبة الخلود على رأس طابوره ، لم يكن بمقدوره أن ينأى عن أكاليل غاره ؛ فهو لم يبق بالسير الكبير ليرتاح في وسط الاعجاب الذي يحيط به المعجبون بمآثره البطولية . لقد انتهى من القيام بثورة . ولكنه يريد أن يجد الثورة الجديدة محل المشاكل الهائلة التي رآها وأحسها . وهو الآن ، وقد انتهى من تلمس التعاسة التي تسيطر على الحياة في داخل البرازيل ؛ يفتش ، بالمثابرة العظيمة التي يتميز بها ، في الكتب ، عن أجوبة للأسئلة الحادة التي وجهتها إليه شعوب السرتونات الجائعة .

في الغايبا با صديقي ، كان الطابور هو الذي لا يزال يستأثر باهتمامه ؛ فإن الجنود الخمسمئة الذين يرافقونه يستأثرون بكل مشاغله اليومية . ألم يهجروا الأرض والراحة ، البيت والعائلة ، الزوجات ، الأولاد ، الأمهات والخطيبات ، ليرافقوه في هذا الحج المميت خلال البرازيل ؟ وبينما كان معظم ضباط الطابور بنوجهون إلى أراضٍ أخرى أكثر مدنية ، مفتشين عن رغد العيش ، عن الأدوية ، عن الصحة والهدوء ، وعن كل ذلك الذي حُرِّموا منه خلال ثلاث سنوات ، ظل برستس مع جنوده في الغايبا . كان يشعر بأنه مسؤول عنهم . فإن الحس بالمسؤولية كان منهجه الثابت في الحياة . سيعيدهم إلى بلدانهم واحداً واحداً ، وهو لن يدخلهم البرازيل فقط ولكنه سيرسل بهم إلى المدينة ، إلى القرية ، إلى البلدة ، إلى المزرعة التي انطلقوا منها ليتطوعوا في الطابور . إنه لن يرسل بجنود الطابور إلى بلدانهم فقط ، بل سيرسل بهم إلى بيوتهم . وهكذا

يقدم اليهم أقصى ما يستطيع ، وهو بذلك يبعث أيضاً برسلاً للثورة إلى أربعة أنحاء البرازيل ؛ فإن الرجال العائدين إلى بيوتهم سيروون ما قاموا به في الطابور ، سيقولون إلى أى حد كانت الثورة ضرورية للبرازيل .

لقد وصل جنود وضباط برستس إلى الغايا يرتدون أسلحة أحقر من أسلحة المسؤولين . ولقد امتلأوا قملًا وطال شعرهم إلى درجة هائلة ، وتجوّفت منهم الوجنات وغارت العيون . وكانت الحمى التي رافقت هؤلاء الرجال خلال سير السنوات الثلاث ، هذه الحمى التي كثيراً ما استمدوا منها القوة الضرورية للقيام بواحدة من أشد مآثرهم البطولية جرأة ، كانت تنهكهم الآن ، وقد أصبح ذهنهم لا يتطلب من جسدهم أن يقدم كل ما يستطيعه من جهد . وكانت هذه الحمى قد انقضت على الطابور ، قرب ضفاف الأنهار الكبرى المحاطة بالمستنقعات ؛ لقد انقضت عليه بهذيانه وأوهامها الشبيهة بهذيان وأوهام الكوكابين ، وسيطرت على أربعمئة من الرجال مات ستة منهم فقط ، بينما تابع الآخرون التقدم وهم يحملون هذا العبء الإضافي على اكتافهم الهزيلة ؛ بل لقد استمدوا من الحمى نفسها القوة للتقدم ، حتى أن بعضهم لم يكن يشعر بأن الملاريا تستأثر به . فإن جو الحمى هذا كان هو جو الطابور الاعتيادي . أما في ما يتعلق ببرستس فلقد اجتاز القسم الأكبر من السير الكبير وهو مصاب بحرارة تتراوح بين ٣٩ و ٤٠ درجة مئوية . وكان الرجال ، وهذه حالهم ، وقد أخذوا يرتجفون من الملاريا ، يسرون ، يحاربون ويهزمون العدو . وكادت الحمى ، خلال السير ، أن لا تكون مشكلة هامة بالقياس اليهم .

ولكن في الغايا ، حيث توصل الطابور إلى إكمال السير الكبير ، أخذت الملاريا تضغط على الرجال بثقل هائل من الحمى والهذيان . وكان الرجال المنهوكون يستسلمون إليها . وكانت تراءى لهم في ساعات الهذيان المستبدة بهم ، صور السير الكبير ، صور الأيام المجيدة الماضية . وإن أول معركة شنها برستس في المنفى هي معركته ضد الملاريا ؛ فلقد أصبح ، مع دجلادوترا الذي ظل بجانبه ، الطبيب والمرضى لجنوده . لقد كان يؤاسيهم إن بوضعته

الودودة أو بكلماته، وكان يمنحهم الشجاعة. وبالرغم من أنه هو نفسه كان يرتجف من الحمى، لم يكن ليفتر لحظة طويلة اليوم. لقد كان يهتم بإيجاد عمل للجنوده، ويهتم في الوقت نفسه بإعادتهم إلى بيوتهم.

كانت الحكومة البوليفية قد منحت شركة انكليزية امتيازات عقارية كبرى في المنطقة التي لجأ إليها برستس وجنوده؛ وبالواقع، كانت عدة أقسام من البلاد قد مُنحت للاستعماريين الأجانب. وكانت مكاتب شركة «بوليفيا كونسيشن» في لندن. ولم يكن على الأرض البوليفية سوى بضعة أفراد انكليز يناقشون في الغايبا، حول اقتراح الوسكي، الوسائل التي تمكنهم من استثمار هذه الأراضي. واقترح عليهم برستس أن يعمل معهم هو وجنوده. وبالرغم من معارضة المهندسين الانكليز الموجودين في المنطقة، اقترحت الشركة على برستس، بناءً على تعليقات وردت من لندن، أن يعقد معها اتفاقاً شخصياً. فرفض. لقد كان يريد الحصول على عقد لفريقه كله. وأخيراً كُلف باصلاح هذا القسم من البلاد وبجعل الغابات العذراء صالحة للزراعة، وبناء الطرق. وأخذ عدد من رجال الطابور يعملون تحت إدارة الشركة المباشرة. وكان من بينهم لاندروسي النقيب السابق، المثير للفضول، في مدفعية الجيش الإيطالي. وكان هذا النقيب قد هاجر إلى البرازيل، وقد عافت نفسه نفسه تحمّل جو الفاشية الآسن، حيث التحق بالثورة في سنة ١٩٢٤، وعُيّن في ما بعد مساعداً عسكرياً لبرستس خلال معظم سر الطابور. وكان الآخرون يعملون مع برستس، الذي حصل لهم على عقود وقعتها الشركة. وقاموا جميعاً بأعمال كبرى.

وبعد توقيع هذه العقود، جمع برستس رجاله ليحدثهم عن ظروف العمل وعن أجر كل منهم. وكان، وهو اللواء، ينال كأقل شغيل منهم دون زيادة أي قرش. لم يكن هناك من مُناظر للعمل. إذ ما جدوى ذلك ما دام كل إنسان بعِي مسؤوليته ويعرف بأنه يتلقى أجراً لما يعمل؟ لقد كانت الثقة هي التي تسيطر بين الرئيس والشغيلة، وكان هناك عمال وفنيون، ومن بين الأخيرين كان هناك واحد عبقرى.

وهكذا بدأ برستس عمله الثاني الكبير الجماعي. ولقد التقت، كما في السير

الكبير، عبقرية لويس كارلوس برستس وقوة الشغيلة.

وكان الجنود القدماء، الذين أصبحوا عمالاً، يعرفون بأن برسس لا يقودهم ليغتني بأتعابهم ولا ليستثمرهم. إنهم يعرفون بأنه يسكن كوخاً مزرعياً كما يسكنون، ويرتدي الأسهل نفسها التي يرتدون، ويأكل الطعام نفسه ويتناول الأجر نفسه، بل وهو، حتى من هذا الأجر الضئيل، يوفر شيئاً ما يقدمه للأشخاص الذين اقتصدوا، المال اللازم لاعادتهم إلى وطنهم. وهم يعرفون أنه رفض أن يأخذ ولو قرشاً واحداً من المال المرسل من ريو على اثر التبرعات التي جمعت لمساعدة الثوريين. فلقد وُزع هذا المال على جميع الثوريين باستثناء برستس. ويعرف الجنود القدماء، الذين أصبحوا عمالاً، بأن برستس يقاسمهم جميع مصاعبهم وظروف عيشهم، وأنه، فوق ذلك، يعمل أكثر منهم، أكثر كثيراً منهم، وبأن له عدداً أعظم بمراحل من المشاغل، وبأنه يقود كل شيء، وبأنه لا ينام لأن ليس لديه وقت لذلك، وبأنه لا يعتني بنفسه، وبأنه قد فقد كل أسنانه، وبأن الحمى تنهشه. إن برستس لم يبق رجلاً، إنه شعلة من الحب تحرق نفسها لتنير للآخرين دروبهم، با صديقتي.

إن القول بأنهم يعبدونه لا يفي بالمراد، يا زنجيتي. فإن برستس بالقياس لعمال «بوليفيانس كومباني ليمتد»، بالقياس لرجال الطابور كما بالقياس للبوليفيين الذين ينظرون إليه يعمل ويحيا، كان أكثر من رئيس، أكثر من عبقرية، أكثر من لواء، أكثر من دليل. إنه والد، إنه والد ودود لا يحيا إلا من أجل رعاية أولاده. وبشعر رجاله نحوه بحب رائع لا يمكن تقديره.

وبدأ عمله باصلاح القسم الهائل من أراضي المنطقة الشرقية البوليفية. وتوصل إلى اقتطاع أشجار غابات عذراء كاملة وطرده المزارع منها. ثم افتتح دروباً وأصلح أراضي وحفر آباراً. وكان تقدير الشركة له، في لندن، ينعاطم يوماً بعد يوم. ولكنه كان يشعر، في المكان الذي يعمل فيه، بالحرب الباردة التي بشنها عليه أولئك الذين يستثمرون العمال. وكان العمال البوليفيون

يتركون العمل تحت الإشراف المباشر للشركة، لينضموا إلى المهندس لويس كارلوس برستس، إلى اللواء برستس سابقاً.

وعندما وقّع برستس عقوده في الغايا، كان العامل يقبض «بوليفيانو»^(١) واحداً في اليوم. فرفع الأجور إلى ثلاثة وأربعة أضعافها، وتوصل إلى تخفيض أسعار المواد الضرورية للعيش بالمقدار نفسه، وحتى ذلك الحين، كانت مخازن الشركة أو المخازن التي تخص أشخاصاً تحميمهم الشركة، تباع البضائع بالدين وبأسعار فاحشة الغلاء. وكانت الشركة، بناءً على تصميم مدروس، تجعل العمال يغرقون في الديون لكي تتمكن من إحكام سيطرتها عليهم. وكان هذا الشكل من الاستعباد يسيطر من الأمازون إلى خط الاستواء، ومن سهول الجنوب في شيلي إلى مزارع الكاكاو في باهيا، ومن مزارع البن في سان باولو إلى مزارع الارجنتين. وأمام هذا الوضع، افتتح برستس مخازن للعمال؛ لم يفعل ذلك ليساعد العمال، يا صديقتي، بل ليسهل لهم سبل العيش. وبعد أن فتح له تجار الكورونبا اعتماداً، قرر أن يبيع في مخازن المستعمرة هذه، بضائع بأسعار أقل بأربعة أضعاف من أسعار البضائع في مخازن الشركة وحلفائها. ولقد غيّر وجود برستس في الغايا الحياة بصورة عميقة في هذه المنطقة. ولقد لاحظ البوليفيون المستعبدون النتائج المتحدرة من نبلة واهتمامه الإنساني.

وأمّ برستس ورجاله، خلال ثلاثة أشهر، الأعمال التي كان المهندسون قد قدرروا لإنهائها فترة سنتين. وكان مقاتلو الطابور القدماء مبعثرين في منطقة تضم الغايا بورتو سواريز، فيتوريا وسانتو كورازون. وكان ميغيل كوستا يعمل مع عدد من رفاقه في ليبرس وكان برستس، وهو الرئيس، المقاول، المهندس، القاضي، التاجر، العامل. المنظم، يجد، مع هذا، الوقت للقيام بدراسة عميقة لخط الحدود البرازيلية البوليفية، ويرسل تقريراً بنتيجة عمله إلى وزارة الخارجية. وهكذا كان هذا الثوري، المنفي، بالرغم من قيامه بعمل

مضن، يجد الوقت للدفاع عن مصالح بلاده. ومن البرازيل، توصل المعجبون به إلى تزويده بمكتبة كاملة تحتوي على مؤلفات علمية وأدبية، وتحتوي بصورة خاصة على مؤلفات اجتماعية، ابتداءً برستس يتوصل بفضلها إلى إيجاد جواب عن مشاكل البرازيل.

ولقد ملأ المنطقة الشرقية البوليافية بالطرق: دروباً للمشاة، طرقاً معبدة، طرقاً دولية. ولقد حفر الآبار وفلح الأراضي وأصلح الأرض المملوءة بالادغال، وجعل الأمراض تفر من هذه المنطقة. لقد جعل من هذه المنطقة في الغايا، البربرية المجهولة، مستعمرة متقدمة. وإن هذا الثوري، الذي سبق له أن ظهر كواحد من أعظم الألوية في أميركا، أخذ يتكشف عن كونه من أعظم المنظمين. وبفضله أصبحت هذه المنطقة عامرة أهلة.

وكان اهتمامه الرئيسي يتركز على إعادة جنود الطابور إلى بلدانهم. وفي كل يوم تقريباً، كان فريق منهم يغادر المنطقة في هذا الاتجاه. وأخذ عدد المهاجرين ينقص يوماً بعد يوم. وكان برستس قد قرر بأن لا يغادر الغايا إلا بعد أن يكون آخر جندي من جنوده قد دخل الأراضي البرازيلية. وكان معظم الضباط قد أصبحوا في بوينوس ايرس؛ وكانوا يطلبون إليه أن يلتحق بهم ولكنه بقي بالقرب من جنوده لكي يقودهم في عملهم، لكي يعمل معهم ويساعدهم على دخول البرازيل. وسوف يظل في الغايا طيلة سنة ١٩٢٧ وقسماً من سنة ١٩٢٨، إلى أن يتمكن جميع الرجال، الذين كانوا قد تطوعوا في الطابور، من دخول البرازيل. عندها فقط سوف يفكر بصحته، وسط الفاقة المربعة التي يتردى فيها. وهو لن يكرس لنفسه سوى قسم من الليل ينكب فيه على كتبه، بينما تترأى له ذكرى البرازيل التي اجتازها، والصورة المربعة للسرنوبيين الجياع. وكان يفتش في الكتب عن جواب للأسئلة الموجهة خلال السير الكبير. وكان الوقت الذي لا يكرسه لحياة جنوده، يمضيه في الدراسة، في الدراسة من أجل البرازيل.

ما كان بهم هذا الرجل من الحمى ومن انعدام وسائل الراحة؟ إن عظمة النفس وحس المسؤولية والتعطش للمعرفة، كل هذه الأشياء كانت لديه

أقوى من المرض، من قذارة كوخ لا يمكن العيش فيه، من انعدام وسائل الراحة، ومن التعاسة التي تحيط به. إنه يصمد بفضل هذه القوة الداخلية التي تصنع القادة والقديسين والأبطال. إن لواء الطابور الأسطوري هذا، الذي كان يكره الشهرة كرهاً عميقاً، لن يذهب به الأمر، في نهاية سيره العظيم، إلى أن ينقلب، في المدن الكبرى التي يمر بها، مدائح العسكريين المدهوشين، وهتافات الجماهير المأثرة، وعروض رجال السياسة الذين كانت بهم حاجة إليه. وكان ممثلو معظم الأحزاب السياسية البرازيلية، يظهرون الواحد تلو الآخر، في كوخه. وجاء إليه كذلك صحفيون ومعجبون. وأجيبوا جميعاً بأن برسنس لم يكن نقدر بأن مهمته كرئيس للطابور قد انتهت. ولم تكن الغابا سوى فصل إضافي من الملحمة الخالدة. إن مهمة برسنس لن تنتهي إلا عندما يعود آخر جندي إلى وطنه، ويتمتع بالسرور والسعادة بين عائلته. هذا ما قرره برسنس، يا صديقي!

أي تأثر كان ينظر كلاً من هؤلاء الرجال عند سفره! إن مقاتل الطابور الذي رافق لواءه عبر البرازيل الغامضة، والذي قاتل وجرح وسار راجلاً أو على صهوة حصان أو على ظهر حمار أو تور انهكه التعب، الذي استبدت به الحمى وشفي منها، والذي تخلص من الموت ألوف المرات، والذي واجه جميع المخاطر دون أن بشوب نظرتة أي تردد، والذي لم يتعرف إلى الخوف مطلقاً، إن هذا الرجل كان يرتجف الآن، كان يتردد ويبكي في هذه اللحظة التي سوف يغادر فيها رفاقه، ويودع خلالها لويس كارلوس برسنس.

وكان هذا المقاتل يتقدم بخطى وثيدة، وقد وضع جرابه على كتفه، وتسمرت عيناه بالأرض. وفي نهاية بعد طهر يوم العمل، كان الرجال الباقون ينتظرونه لنوديعه. آه، يا صديقي! إن توديع هذا المقاتل للطابور هو أشبه ما يكون بتوديع الإنسان لامرأة ما، بنوديعه للمرأة التي تعادل منه الروح! إن الجندي الذي سوف يذهب. كان يتقدم وقد انطبعت على جبينه ذكريات الوطن الحبيب، صورة العائلة التي تنتظره، وصورة الأم والخطيبة. إنه سوف يغادر الطابور والرجال الذين رافقوه خلال ثلاث سنوات من البطولة...

سوف يبتعد عن الرجل الذي قادهم ، الذي سار في مقدمتهم وانتقل بهم من نصر إلى نصر ، والذي اعتنى بهم كالوالد ، وعلمهم كثيراً من الأشياء وأحاطهم بكثير من الحب ... آه ! يا صديقتي ، لم تكن تتردد في حناياه في تلك اللحظة سوى رغبة واحدة : هي البقاء .

★ ★ ★

وكان اسم الجندي الذي سوف يذهب يتجاوب صداه على الأرض البولييفية ، تحت سماء الغسق . وكان رفاقه يهرعون إليه من كل ناحية ، ويبدأ الجميع بإثارة الذكريات الماضية .

- أتذكر ذلك اليوم حيث ...

وكان هو بتنقل من شخص إلى شخص ويردد :

- إلى اللقاء ، أيها الرفاق ...

- نتمنى لك حظاً سعيداً ...

وها هي ساعة الوداع تأتي مهرولة ، ويأتي معها عناق اللواء ، وكلماته التي تنضح بالطيبة . وكان الجندي الذي سوف يذهب إلى وطنه ، ذلك الشجاع الذي لم يرتجف له قلب في وطيس المعارك الحامية ، ولم يتطرق إليه الخوف في أصعب المواقف وأشدّها قسوة ، ذلك الذي انتصر على الحمى ، على الحيوانات ، على الغابة العذراء .

- ٢ -

وفي يوم من الأيام، كان آخر جندي من جنود الطابور قد غادر المكان. وبعد أن أعيد الجميع إلى أوطانهم، ذهب لويس كارلوس برستس بدوره إلى الأرجنتين.

وكان ثوريو البرازيل، والأحزاب السياسية البرازيلية، وثوريو أميركا اللاتينية كلها، ورجال السياسة في كل أميركا، ينتظرونه بنفاد صبر. لقد كان في ذلك الوقت يمثل الرمز الكامل للقلق الذي تردى فيه جميع شعوب أميركا اللاتينية النائرة ضد الاستبداد. ولكن سبق له أن كان رمزاً لأكثر من قلق لا هدف له، يا صديقتي. إنه يبحث الآن عن مخرج من المفترق الفاجع من المشاكل التي لم تكن طبقته جديدة بأن تجد لها حلاً. ولم يكن ثوريو أميركا الجنوبية، الذين اشتركوا بالانتفاضات المسلحة في بلادهم، يفكرون إلا بالقيام بانقلابات جديدة. ولم يكن الأمر كذلك بالقياس إلى برستس. لقد كان يفكر مسائلاً عن سبب فشل جميع هذه الثورات. وما دامت المشاكل التي تتطلب الحل عظيمة السعة فلم كانت المناهج والشعارات محدودة وضيقة بهذا الشكل؟ ولم كنا نلاحظ، بعد عدة شهور من انتصار ثورة ما، أن شيئاً لا يميز الثوربين الذين استولوا على الحكم، من رجال السياسة الذين أبعدوا عنه؟ ماذا بكمين خلف كل هذا الأمر؟ أية فلسفة حياتية، وأي مذهب سياسي، كان بمقدورهما أن يقدموا أجوبة لهذه الأسئلة، وحلولاً لمشاكل الشعب؟ على الكاتنغا، وعلى الفيضانات، والذي اجتاز الأنهار والجبال والسهول التي استل منها الجفاف صلاحها وخصبها، والذي تعرّف إلى جفاف الصحراء، ذلك الجندي الذي لم تسلم من مقلتيه قط دمة عند رؤيته لرفاقه يتساقطون صرعى من حوالبه، كان الآن يترك لنفسه الحرية في أن تصعد الزفرات وترسل العبرات على هواها، عندما كانت تحين اللحظة التي سوف

يودّع فيها لويس كارلوس برستس. ولن يتردد في ذهن هذا الجندي، القائد إلى وطنه، طيلة حياته، سوى رغبة واحدة: هي في أن يرى برستس من جديد. وعند منعطف الدرب الأخير، كان للمرة الأخيرة يتطلع خلفه، لبلقي على برستس، وقد بلّل الدمع منه العينين، نظرة طافحة بحب عظيم...

لم يكن برستس يريد الاستيلاء على الحكم؛ لقد كان رجلاً يفتش عن السعادة لشعبه. وأوثق الثوريون وأنصار الانقلابات والمعارضون والابريسناس^(٢) في البيرو، والمغامرون البوليفيون، وفوضيو الباراغواي، كل هؤلاء أوثقوا علاقاتهم به. لقد كانوا يعتبرونه الرجل الموعود لإذكاء جميع هذه الحركات في أميركا كلها. إنه يتحدث، يناقش، يفسر ويوضح، ولكنه لم يكن يتقبل أي عرض، ولا يربط نفسه بأي التزام. وبينما كان الجميع يحيطون به، كان هو، با صديقي، بصفته القائد واللواء، بصفته أعظم وجه ثوري أمريكي، لا يعتبر نفسه مستعداً للثورة. إنه لا يعرف حتى الآن، حقاً، ماذا عليه أن يقوله لشعبه، للشعوب الأميركية. إنه يبحث، إنه يبحث بعناد ومثابرة. يجب أن يكون هناك طريق ما. أين؟ أية طريق هي؟

وكان يحيط به ممثلون عن كل الأحزاب البرازيلية. وكان رفاقه في الثورة، المنفيون مثله، لا يفارقونه، وكان هو أيضاً الذي يعتني بهم، فيبحث لأحدهم عن عمل ما، بينما ينصح آخر بنوع معين من المطالعات. ومن البرازيل بعث إليه أولئك الذين يتآمرون ويعتقدون بأن الوقت مناسب للإنقلاب، برسول إلى بوينوس ايرس، يسألونه نصحاً، وكان هذا يحمل تقريراً قرأه برستس ونصح بعدم القيام بالانقلاب المقترح. إنه أصبح لا يؤمن بهذه الثورات الباردة، بالانتفاضة من أجل الاستيلاء على الحكم. وهنا كانت تكمن عظمتها، وكان يكمن تفوقه المعنوي على جميع المتآمرين الذين كانوا يتقبلون وجهة نظره دون نقاش. وتجمّع حوله ثوريون من جميع الاتجاهات. لقد كانت جميع الأحزاب تفهم أهمية نبتي برستس لأفكارها.

(٢) أعضاء الـ A.P.R.A.، وهي منظمة سياسية نصف فاشية في البيرو.

فإن أية من هذه الثورات بمقدورها أن تنال قوة جديدة بفضلها. ولكن برستس، اللامبالي بالنداءات، يمضي الوقت في الدراسة والتنقيب في كتبه.

وكان يعمل أيضاً لكي يؤمن لنفسه ولرفاقه، في المنفى، العيش. واستطاع، بصفته مهندساً كبيراً اختصاصياً فنياً مرموقاً في مهنته، الحصول على عقود للعمل. وفي سنة ١٩٢٨ ذهب إلى سانتافي، في داخل الأرجنتين، حيث أشرف على إنشاء شارع في عاصمة الريف. ولحق به الشوريون الأميركيون إلى هناك. ومن ذلك التاريخ ابتدأت صداقته مع أوسكار كريدت الباراغوياني^(٣) الذي كان هو أيضاً، في ذلك الوقت، يفتش عن طريق جديدة. وهرع كريدت إليه، كالأخوين، خلال بحثه عن قائد للثورة الأميركية اللاتينية. لقد كان قائداً من باراغواي منهوكة، جائعة، تعج بالانفصالات والاضطرابات ومحاولات الثورة. ومنذ مرور الطابور، كان اسم برستس معروفاً هناك. وكان هذا الاسم الذي طاف في أميركا كلها مكللاً بالبطولة، ومغلفاً بالأساطير. وكان صغار البرجوازيين، الثوريين الأميركيين، سرون فيه القائد الكبير الذي طال انتظارهم له. وكان في هذا الحج نحو برستس ما يذكر بالحج نحو المسيح في الزمن الماضي. وكان كريدت، كبقية الآخرين، كالمغامر ماروف، كالأبريستيسيين في البيرو، يشعر كما يشعر المذكورون جميعاً أمام هذا الشاب الهزيل، الذي يشبه استاذاً أكثر منه لواء، بأن برستس كان يرفض أن يكون مسيحاً، وكان يناضل بعنف ضد الميل لخلق مبدأ جديد هو البرستيسية، التي لم تكن بعرفه سوى كلمة مجردة، لا تحمل في طياتها أي حل لأية مشكلة. وشعروا بأنه كان يفتش في الكتب وفي دراساته للمشاكل الأرجنتينية وللأحزاب، التي كانت تقترح الحلول لهذه المشاكل، عن الطرق الصالحة، عن طريقه، عن طريق شعبه والشعوب الأميركية. وكان قد انتهى من اجتياز المرحلة المسيحية للثورة، من تحطيم الانفصالة المجردة التي تضع مصيرها بأعنة القدر والظرف المؤاتي. ولم يكن

(٣) نسبة إلى الباراغواي.

يعزو مطلقاً سبب فشل ثورتي ١٩٢٢ و ١٩٢٤ إلى أسباب سهلة وموقنة، بل وحتى لم يكن يعزوها إلى عوامل عسكرية غير مؤاتية. لقد كان يفهم أن لهذا الفشل أسباباً أكثر عمقاً.

وأدهش هذا الموقف الثوريين الأميركيين. وسوف يتطور بعضهم أيضاً ويجدون الطريق الصالحة. وهذا ما حدث لكريدت. فبالقياس إليه، كان مثال لويس كارلوس برستس، اللواء المظفر والقائد غير المتنازع، - الذي كان يعترف بصراحة بأنه لا يزال يفتش عن طريقه، - أكثر الأمثلة إفادة له. إن مثال برستس سوف يساعد هؤلاء القلقين جميعاً على التخلص من زهو غير مجدي، ويفتح أعينهم على مشاكل بلادهم من أجل إيجاد حل لها.

وكان برستس قد بدأ في ذلك العهد قراءة الأدب الماركسي، باندفاع وحاس من يكشف شيئاً جديداً. وكان أول هذه الكتب قد وصل إلى الغايا. وفي الأرجنتين استغرق في قراءتها وأخذت تفتح أمام عينيهِ معالم عالم جديد. ولكنه مع هذا لم يكن يحب الاندفاع والتسرع في هذه الطريق الجديدة، وكان يريد أن يدرس بطريقة بطيئة حكيمة. لقد كان يود أن يرى إذا ما كان سيجد حقاً حلاً للمشاكل جميعها.

وتعرف، بعد سنة من ذلك التاريخ في بوينوس آيرس، إلى رودولفو غيولدي. وسوف تلعب هذه الصداقة دوراً هاماً عجباً في تكوينه الفكري.

سأحدثك عن رودولفو غيولدي، يا صديقتي. من ذا الذي لا يعرف هذا الرجل؟ من ذا الذي لم يسمع بهذا الاسم، وقد طفحت نفسه سروراً، في المعامل والأرياف الأمريكية؟

وإنهم ليتغنون بهذا الاسم، بالطريقة نفسها التي يتغنون بها ببيت من الشعر الغنائي أو البطولي ولقد تعرفنا، نحن البرازيليين، إلى غيولدي في زمن الارهاب. لقد ناضل معنا من أجل سعادة وطننا. ولم يكن هناك من هو أحب إلى القلوب في سجون البرازيل من هذا الأرجنتيني، ذي العينين الصافيتين النفاذتين، والصوت اللطيف الودود. وكان صوته العميق الصافي،

يرتفع عالياً وقد امتلأ ثقة وإيماناً بالمستقبل في ليالي التعذيب في سجون ريو . وربما كان تلقيبه بـ « الهندي » يشير إلى أي حد كان مرتبطاً بالأرض وبالمشاكل الأميركية . لذلك دُعي بهذا الاسم العام في كل البلاد الأميركية . لقد كان يحيط بالمعرفة المكتسبة من الكتب وبذلك المكتسبة من الحياة . لقد ناضل ، منذ الطفولة ، ودرس منذ الطفولة أيضاً . ولم تُفقد الكتب هذه المقدرة الإنسانية : الفهم . ولم يكن هناك من هو أكثر إنسانية منه ، ولا أكثر مطالعة . ولم يكن هناك من يتمتع بموهبته في عيش المشاكل الكبرى وتفهمها ، وفي تفهم وعيش المشاكل الخاصة الصغرى في الوقت نفسه . ولقد وصفه أحد الشعراء بأنه محاط بـ « هالة زرقاء » . وإن الشعراء لمصيبون دوماً ، يا صديقتي ، وإن من كتب هذه الكلمات لشاعر كبير ، إنه صوت الشعب الأرجنتيني . لقد كان كمن أحيط بـ « هالة زرقاء » . وإن هذا الرجل الذي ثبت غرسه في أرض الواقع ، وصُنعت جذوره من ألم الناس ، كان محاطاً بـ « هالة زرقاء » . ولم يكن هناك من هو أجدر منه بفهم برستس وبأن يفهم من برستس .

وسوف تظهر بعد قليل الخلافات في وجهات النظر بين برستس وبقية المنفيين ، وسوف تزداد هذه الخلافات بعد ذلك خطورة . وأخذ برستس يتباحث في كل يوم سبت مع غيولدي وغيره من الشيوعيين . فكانوا يعرضون المفاهيم والمشاكل البرازيلية ويناقشون ، ويستخلصون النتائج . وكان برستس يقرأ كثيراً وبفهم عظيم . وعندما كان يعود من عمله ، - ذلك لأنه كان لا يزال يتابع مهمته كمهندس وكمُنظم لموارد المنفيين الهزيلة ، - كان يندفع نحو الكتب . وفي تعطشه للمعرفة ، كان ينسى الطعام والراحة والتسمية . وكان يود أيضاً أن يقرأ الآخرون . فوزع الكتب واستشهد بالمقاطع ؛ إنه يتقدم في الطريق التي رسمها لنفسه بالدقة التي جعلت منه لواءً كبيراً ومهندساً كبيراً .

وكانت الحركة العالمية الأرجنتينية معينة استمد منه برستس الشيء الكثير . إنها حركة قديمة يا صديقتي . فقد سبق لانجلس ، منذ الألفية الأولى ، أن ترأس مع القادة البروليتاريين في براتا . ودرس برستس مطولاً الأحزاب

الرادكالية والاشتراكية والشيوعية، أثناء دراسته لجميع مظاهر السياسة الأرجنتينية. ودرس فوق ذلك التجربة السوفياتية. وجعلته هذه المحادثات والتحليلات والأبحاث والدراسات، يفهم أهمية الطبقة العاملة في الثورة، وأهمية دورها كطبقة ثورية بشكل عضوي. وفهم بأن الدور الطبيعي لقيادة الثورة يعود للبروليتاريا، وبأن على البورجوازية الصغيرة والمتوسطة، بل وعلى البورجوازية التقدمية كذلك، إذا ما كانت تريد أن تنقذ نفسها في هذه المرحلة التاريخية، أن تنظم صفوفها إلى جانب الطبقة العاملة وأن تسير معها. واكتشف تفكيره آفاقاً جديدة، يا صديقتي.

وكانت سنتا ١٩٢٨-١٩٢٩ سنتي دراسة عميقة بالقياس إليه. فانكب على المشاكل، على الحوادث وعلى الكتب. ولم يكن يمنح نفسه أية فترة من الراحة، فهو يشعر بالمسؤولية العظيمة الملقاة على عاتقه. فلقد علفت به عيون الشعب البرازيلي وأخذ صخب البرازيل يصل إلى أذنيه متدافعاً متتالياً، إنهم بثقون به. إنه بطل في الثلاثين من عمره، إنه أمل شعبه.

وبدأ التحالف الليبرالي في البرازيل يتحرك، في ذلك الحين. وكان هذا التحالف نائماً لما قام به الطابور. واختار رئيس الجمهورية، واشنطن لويس، ممثل مصالح أصحاب مزارع البن والمرتبطة بالاستعمار الانكليزي، حاكم سان باولو، جوليو برستس، ليخلفه في منصبه.

ولم يكن مربو المشية في ميناس وريو غراندي، وصناعيو المنطقة الشمالية الشرقية، ومن ورائهم استعمار الولايات المتحدة، يرضون عن هذا الترشيح. وأثيرت عندها مسألة ترشيح جيتوليو فارغاس، وكان هذا ساعتئذ حاكماً لريو غراندي دوسول، وهو المنصب الذي شغله بعد منصبه كوزير للمالية في عهد واشنطن لويس. وكانت الجماهير القلقة، المضطهدة، تتابع تطورات هذا الترشيح الذي يؤيده التحالف الليبرالي. وكان فارغاس وسباسيو الغاوشوس الذين تحالف معهم، في ميناس وبارابا، وهم: انطونيو كارلوس، ارثور برناردس، ميلو فرنكو، باتيستا لوزاردو، جوان بستوا، سيررا، يعرفون

جيداً كل معالم الآلة الانتخابية، التي طالما أفادوا منها، ويعرفون تماماً بأنهم لن ينتصروا مطلقاً في الانتخابات، حتى ولو شنوا حملة انتخابية حازمة وقاموا بدعاية عظيمة. ففي البرازيل كانت الحكومة هي التي تنتصر في الانتخابات، بصورة تقليدية. وهكذا بدأوا فوراً بالاستعداد للقيام بثورة. لقد كانوا يملكون المال والرجال - وهم أعضاء الشرطة العسكرية للولايات الثلاث التي كانت المعارضة تشرف عليها، كما كانوا يعتمدون على مؤازرة الوول ستريت. ولم يكن ينقصهم سوى الشعب. فتوجهوا إليه بمنهج واسع ينضمن المطالب الدقيقة للجماهير، بما فيها جماهير الشغيلة. واستعملوا اسم برستس كضمان لتحقيق هذا المنهج. فلم يكن ثوريو سنة ١٩٣٠، في اجتماعاتهم ومقالاتهم وأحاديثهم، يتقدمون إلى الشعب باسم فارغاس، أو باسمي انطونيو كارلوس وبورغاس ميديروس. فلقد كانت هذه أسماء مهترئة، تردد على مسامع الشعب. إلى جانب أسماء برناردس وواشنطن وجوليو برستس.

لقد تقدموا وهم يحملون اسم لويس كارلوس برستس، بالرغم من أنه لم يجر بينهم وبين رئيس الطابور سوى محادثات في منتهى البساطة. وعندما عمد برستس إلى فضحهم بصورة عملية، في بيانيه اللذين صدرا في أيار وتموز سنة ١٩٣٠، نابع «الوتوبريستاسيون»^(١) استعمال اسمه المشهور في جميع أنحاء البلاد، بصورة غامضة مبهمة. وبفضل هذا الاسم، استطاعوا أن يجمعوا الشعب البرازيلي حول التحالف الليبرالي. ولم يكن الضباط الثوريون: جواريس تافورا، وادوار دو غومس، وجوان البرتو، وكورديرو فاريا، يُقدمون بأسمائهم المجردة فقط. بل كان اسم جواريس يُذكر مرفقاً بلقب رئيس أركان حرب الطابور، ويذكر اسم كورديرو وجوان البرتو بصفتها من أبطال السر الكبير؛ لقد كان الجميع يُقدّمون على اعتبارهم حائزين على ثقة برستس. إن استئثار رجال السياسة البارعين هؤلاء، هؤلاء الضباط الذين

(١) أعضاء حركة سياسية كانت تجمع حولها صغار البرجوازيين الأحرار عند قيام ثورة

كانوا يساندون التحالف الليبرالي لخلافهم في ذلك الوقت مع النهج الذي اختطه برستس، (لقد كان هذا يرفض التحالف مع ثورة سنة ١٩٣٠ لأنه لم يكن يؤمن بانتصارها)، يبرهن مرة أخرى على الاحترام العظيم الذي يتمتع به برستس في وسط الجماهير البرازيلية. وبالرغم من البيانات التي نشرها برستس عن هؤلاء الأشخاص، عمد السياسيون الذين يديرون الثورة، عند اندلاعها، إلى نشر شائعة في البلاد تؤكد بأن برستس هو قائد الحركة العسكري وأنه يترأس الفرق الثائرة.

وكان برستس قد اجتاز درباً طويلة خلال سنتي ١٩٢٨ و ١٩٢٩. فلقد أصبح يملك ثقافة ماركسية، وأضاف إلى فهمه الثوري عناصر جديدة هي: البروليتاريا وحزبها الطليعي والجماهير. وكان، حتى قبل إذاعة نبأ انتسابه إلى الحزب الشيوعي البرازيلي، يظهر بصورة علنية مع قادة الحزب الشيوعي الأرجنتيني، ويأخذ مكانه على المنصة إلى جانبهم. وأسهم في اجتماعات عصبية مقاومة الاستعمار؛ وازدادت الخلافات بين برستس وبين رفاقه في الثورة حدة وعنفاً. فلقد كان الآخرون يؤمنون بحركة التحالف الليبرالي كحل حقيقي لمشاكل البرازيل.

وعند ابتداء الاستعدادات لثورة سنة ١٩٣٠، كان برستس على اتصال مع «الجيتوليساتيين»^(٥). ولكن سرعان ما تكشف له حقيقة الفكرة الوهمية التي كونها عنهم؛ فلقد كانوا يتملصون من الإجابة بصورة واضحة عن الاقتراحات الخسبة التي قدمها حول الثورة المناهضة للاستعمار، ومحاولين باستمرار تأجيل النقاش حول المنهج الحقيقي للثورة. فئس برستس منهم وأذاع عندها بياناً، في أبار. سنة ١٩٣٠، أعلن فيه انتسابه إلى الحزب الشيوعي، مشيراً إلى أن دور الثورة القيادي يعود للبروليتاريا.

وبالرغم من العبارات المتطرفة التي كان يبانه في ذلك الحين مملوءاً بها، كان يفهم بأن الوقت لم يحن بعد للقيام بثورة سوفياتية، وجُل ما يُطلب الآن

(٥) أنصار جيتولير فارغاس، الذي أقام نظاماً دكتاتورياً فاشياً في البرازيل.

هو ثورة ديموقراطية بورجوازية . ومن هنا انبثقت محاولته إنشاء حزب سياسي يجمع قوى البروليتاريا والفلاحين والبورجوازية الصغيرة والبورجوازية التقدمية . وفي بيانه الذي أذاعه في تموز سنة ١٩٣٠ ، أعلن نبأ تشكيل عصبة العمل الثوري ، وهي حزب أراد بواسطته أن يوقف التأثير المتزايد للتحالف الليبرالي - الذي استمر على استغلال اسمه بين الجماهير - وأن يهيئ الثورة .

وبلغت خلافاته مع « التيننتيستين » الذروة . وفي مونتيفيدو ، رفض برستس بصورة حازمة ، الاسهام في ثورة التحالف الليبرالي . ثم دعا رفاقه المنفيين من أعضاء ثورة الطابور ، إلى اجتماع شرح لهم فيه الوضع على حقيقته . ولم يحمل أي واحد منهم على السير معه ؛ فمن يريد ذلك فليفعل بمحض اختياره . أما هو ، فسوف يتابع السير في الطريق الجديدة التي اختطها لنفسه . فلقد وجد أجوبة الأسئلة التي كان قد وجهها لنفسه ، ولم يكن من المنطقي ، بالقياس اليه ، أن يحاول ، مرة أخرى ، القيام بمغامرة يائسة . ومع هذا انضمت أكثرية « التيننتيستين » الساحقة إلى التحالف الليبرالي . وذهب جواريس تافورا إلى شمال شرقي البرازيل ، حيث سيتولى قيادة ثورة ١٩٣٠ . وذهب سيكيرا كامبوس إلى إثارة الناس في سان باولو ، وصُرع بمحادث طيارة . أما جوان البرتو وكورديرو دي فارياس ، فقد التحقا بميغيل كوستا ، في ريوغراندي دوسول ، حيث سيتولون قيادة القوات الثورية .

ولقد أيد بضعة أفراد فقط من ثوريي سنتي ١٩٢٢ و ١٩٢٤ العصبة الثورية ، ولكن كان مقدراً لهذه العصبة أن تفشل . فالحزب الشيوعي لا يشق بها ، إذ ما دام هناك منظمة طليعية لقيادة نضال البروليتاريا ، فما الفائدة من خلق منظمة أخرى ؟ ومن ناحية ثانية كانت الجماهير تؤيد التحالف الليبرالي ، الذي كان يقوم بدعاية وتحريض هائلين ، بينما كانت العصبة ، وهي التي لا تملك صحافة خاصة بها ، مقاطعة من قبل جميع الجرائد ، وكان من المستحيل عليها أن تعقد اجتماعات ، كما كانت قيادتها في الخارج مجهولة من قبل الناس ؛ بل وأكثر من ذلك ، كانت الجماهير على ثقة بأنها إذا ما أيدت التحالف الليبرالي فهي تؤيد برستس في الوقت نفسه . واندلعت ثورة سنة ١٩٣٠ ،

وانتصرت، وسرعان ما خان السياسيون المتآل الأعلى الثوري، الذي أعلنوا أنهم يسرون على هديه، وأخذ برستس من مونتيفيدو، حيث كان إذ ذاك، يكشف النقاب عن هذه الخيانات الواحدة تلو الأخرى. وعمد إلى تحليل الوضع في البرازيل في بيان أصدره في ذلك الحين.

(لقد اضطر برستس إلى مغادرة بوينوس ايرس بسبب حديث كان قد أفضى به إلى وكالة صحافة اميركية حول حركة ٦ أيلول في الارجنطين، نعت فيه مؤيدي الاستعمار السابقين بالرجعيين. ولم يُنشر الحديث، ولكن الشرطة تلقت نسخة عنه، مما اضطره إلى السفر إلى مونتيفيدو).

ووجه من هذه المدينة رسائل متشابهة إلى أصدقائه ورفاقه، الذين سبق لهم أن ناضلوا معه. وشرح لهم فكرته: من الآن فصاعداً أصبح الماركسي هو الذي يتكلم. وبدأ برسنس يتحدث بلغة جديدة. إن هذه السنوات من الدراسة والتجربة والنقاش والأخطاء، هذه السنوات التي استنفدت للتفتيش عن طريق، قد جعلت منه ثورياً واعياً. إنه يعرف الآن ما يحتاجه الشعب البرازيلي. وهو بدعو في تحاريره تلك جميع أولئك الذين يودون التعاون معه من أجل تهيئة الثورة البرازيلية، إلى المجيء إلى مونتيفيدو.

وفي مونتيفيدو أخذ يفسر، يدرس ويحرض. وأخذ البرازيليون الذين بدأت تتبخر أوهامهم حول ثورة سنة ١٩٣٠، يحيطون به. وتوافدت الرسل من البرازيل. وكان برستس، بعد قيامه بمحاولته في عصبة العمل الثوري، يعمل الآن بالتعاون مع الحزب الشيوعي البرازيلي. وأخذت جواهر البورجوازية الصغرى والجواهر البروليتارية تطلب إليه أن يضع لها شعاراتها: وأن الشعار الصحيح الوحيد الممكن، هو تقبل خطة الحزب الشيوعي البرازيلي، ومؤازرته ورص الصفوف من حوالبه.

سوف يجد طريقه، يا صديقتي. فإن هذا الرجل، الذي يعتبر الشرف الأدبي قاعدة رئيسية في الحياة، لا يتردد أبداً في ولوج الطريق الشائكة التي انفجحت أمامه. وهو يرى بأن هذه هي الطريق الوحيدة الصالحة التي يمكنها

أن تسير بالبرازيل نحو تحررها ونحو المستقبل. وهو لم يتردد مطلقاً، خلال السبر، من ولوج صراط صعب العبور، عندما كان هذا يشكل الطريق الوحيدة التي يتوجب عبورها. وهذا ما يحدث الآن أيضاً، يا زنجيتي. إنه يعرف جيداً بأن أصدقاءه السابقين سينقلبون إلى أعداء الداء عندما يرونها يتبع الطريق الصحيحة للثورة، إلى جانب الطبقة العاملة. وإنه، وهو الذي كان بمقدوره أن يصل إلى اسمى المراكز العسكرية والسياسية في ملاك ثورة لم تكن تستهدف سوى استبدال أشخاص الحاكمين، يعرف الآن تماماً بأن هذا المستقبل قد أقفل ابوابه في وجهه، منذ اللحظة التي انتسب فيها إلى الحزب الشيوعي. وهو يعرف أيضاً بأن الناس الذين كانوا يهتفون له كلواء وكرئيس، سوف يرمونه بمختلف التهم. ولن يتأخر هذا الأمر كثيراً! فسرعان ما اتهم بأنه تصرف على هواه بالأموال التي وُضعت تحت تصرفه، ولكن ما هو مصدر هذه التهمة؟ إن الحكاية تتلخص في ما يلي: لقد تلقى برستس من جيتوليو فارغاس، في اليوم الذي تلا رفضه الاسهام في الثورة التي هأها التحالف الليبرالي، صندوقين من ولاية ريوغراندي دوسول، يحتويان على ألف كونتوس دي ريس. فوضع برستس هذا المال في مصرف الارجنتين. لقد كان يفكر بأن أموال الصناديق العامة، سوف تُكرّس لموازرة ثورة لن تحمل في طياتها أبة فائدة حقيقية للشعب البرازيلي. وإعادة هذا المال إلى فارغاس، تعني تبذيره والتصرف به في النضال من أجل إيصال هذا الرجل إلى الحكم.

لذا وضع برسنس هذا المال في أحد المصارف، وهو لن يتصرف بأي فلس منه لا من أجله ولا من أجل رفاقه؛ ولن يُمسّ هذا المال مطلقاً حتى سنة ١٩٣٥، حيث سيُنفق من أجل تمويل التحالف الوطني التحريري، أي في السبيل الذي يفيد شعب البرازيل منه، هذا الشعب الذي يملك وحده حق التصرف به.

وكان برسنس، عند انتسابه إلى الحزب الشيوعي، يعرف بأن الكره الذي يعمور في حنايا السادة في العالم أجمع، سوف ينصب عليه، ولكنه، وقد ارتضى

الماركسية منهجاً له في الحياة، ووجد الأجوبة للأسئلة التي كانت تتردد في ذهنه، لن يجد التردد ولو مرتعاً ضئيلاً في أعماق نفسه. فإن هذا اللواء الذي كان، لفترة قريبة، يستعير دروباً تقشعر منها أوصال رفاقه، قد وجد الآن الحقيقة، وستبعتها.

وفي مونتيفيدو أخذ يهيئ رحلته إلى الاتحاد السوفياتي، إلى بلاد الشمال البعيدة هذه، حيث كان الناس الجدد يبنون مدينة جديدة. لقد سار هؤلاء الناس على الدرب الذي يعبرها، هو، الآن. إن عالماً جديداً تحل فيه جميع المشاكل، يولد اليوم.

لقد درس برستس النظرية الثورية، وسوف يحيط الآن علماً بالنتائج العملية لهذه النظرية. واتجه اهتمامه وتفكيره في المنفى، يا زنجيتي، في الطريق الصالحة. لقد درس في الكتب، وسوف يتلقى بعد ذلك الدروس من الحياة الجديدة، سوف يشاهد الحياة الاشتراكية في طريق البناء، في وطن الاشتراكية.

وكانت البرازيل، خلال الفترة الواقعة بين سنتي ١٩٢٨ - ١٩٣١، وهي الفترة التي نُفي فيها برستس، تفتش عن نفسها هي أيضاً. وكانت قد انتهت من القيام بتجربة سنة ١٩٣٠. وسيرتفع من جديد صخب من اليأس والتعاسة مطالباً بالعدالة. ومن جديد سيهيئ برستس نفسه للإجابة عن هذا الصخب، يا صديقتي، وسيقف من جديد في طليعة شعبه.

- ٣ -

الاتحاد السوفياتي، يا صديقتي، هو وطن شغيلة العالم، وطن العلم والفن والثقافة، وطن الجبال والحرية، إنه وطن العدالة الإنسانية، إنه حلم للشعراء حوّلته العمال والفلاحون إلى حقيقة رائعة.

كان الناس، في الماضي، عبيداً في هذه الأراضي البيضاء من الثلج، السوداء من النفط، الشفراء من القمح، كانوا عبيد الحقول والمعامل، وسجناء الجامعات والمكتبات. لقد كان هذا الشعب يعيش حياة تعيسة، فلم تكن النساء تضحك تحت حكم القياصرة وكبار الدوقات، ولم تكن وجوه الأطفال الجياع تتعرف إلى الحبور. وكانت تهب على سهوب روسيا ريح من المجاعة والاضطهاد. فالتاس كانوا يُضربون بالسياط، بينما كان يخنق صراخ الجماهير أزيز طلاقات الرشاشات المنظفة للساحات العامة. وكان ملايين الأشخاص يعملون من أجل قلة ضئيلة، وكان الفجر في روسيا تمدداً لليل رهيب، يبرز في سماء عبودية مجردة من النجوم، ويتكشف عن نهار لا شمس فيه ولا أمل. ولم يكن سكان روسيا، البيض منهم والصففر والنحاسيون اللون، يرون نجمة واحدة في السماء. لقد كانوا يعيشون في ظلام أبدي، متحدر من ماضٍ يعود تاريخه إلى ألوف السنين، ويبدو أبدياً كالأرض وكالبحر. وهناك أيضاً، كما في سهول البرازيل، يا صديقتي، كان الفلاحون المتردون في الأوهام يقولون:

- إن مصير الانسان يتقرر هناك، في الأعلى...

ويشرون بأصابعهم إلى السماء التي تناصبهم العداء ويستنتجون:

- ليس باستطاعة أي انسان أن يفرّ مما قُدر له!

آه، يا صديقتي، المصير هو شيء تُنسج معالمه على الأرض، بواسطة أسيا

الأرض . إن أسياد المال والحياة ، هم الذين يخطون في دفاتر صناديقهم المصير
التعس للعمال ، للفلاحين وللحرية أيضاً . المصير ، إنهم يكتبونه بأحرف من
ذهب .

وفي أحد الأيام ، يا صديقتي ، جاء رجل يقول بأن المصير لم يكن مكتوباً
في السماء ، وأن القوانين التي تسوس حياة الناس مصنوعة على الأرض ، من
قبل اناس لهم فيها مصلحة . وكان هذا الرجل يدعى كارل ماركس ، وكان
بقرأ بلراك وبدرس تاريخ حياته . وجاء رجل آخر ، وُلد في ليل روسيا
المظلم ، وقال بأنه إذا ما كانت الأقلية قد صنعت هذه القوانين ضد مصالح
الأكثرية ، فإن بمقدور هذه الأكثرية أن تصنع قوانينها بنفسها ، أن تصنع
مصيرها ، وعندئذ يتبدد الظلام ويبزغ الفجر وينير العالم . وكان هذا الرجل
بدعى فلاديمير ابلتش اوليانوف ، ولكن اسمه الحركي لينين ، اجتاز روسيا
من طرف لآخر ، كريح الأمل ، يا صديقتي ، كذلك الأمل الذي يدعى
برسس تحت سجاوات البراريل . واكتشف العمال والفلاحون والفنانون والعلماء
والجنود والبحارة ، برففه ، يا صديقتي ، أن مصير الأسياد هو بين أيدي
الشغيلة ، وكتبوا بأحرف من دم مصير الناس الجديد على الأرض . وكان
مصبراً من السعادة والحبور ، من الخصب والحب .

إن روسيا القيصرية ، يا صديقتي ، هي بلاد الضغط والكراهية ، بلاد
النعاسة والجوع ، رغم امتلائها بحقول القمح ، بلاد كانت تنقصها الثياب ، بينما
كانت المصانع فيها تعمل باستمرار ، ناسجة الجوخ والكتان . وكانت أجناس
كاملة ترزح فيها تحت نير العبودية ، وقوميات كثيرة تحني ظهرها لضربات
سوط السيد وبعض النظار . على هذا الشكل كانت روسيا ، يا صديقتي ، منذ
زمن لا يزيد عن عشرين وبضع سنين ، وكان يبدو أن هذا الوضع سيستمر
إلى الأبد .

إن مصبر العالم مكتوب بأبدي الشغيلة . هذا ما قاله لينين ، ودعا بعده
الناس ، من الرعاة إلى حافري الآبار ، إلى الحصادين ، إلى الخياطين وخدم

المقاهي، إلى عمال المناجم ومصانع اللعب، إلى الشعراء ومؤلفي كتب الزراعة والتعدين، إلى الأطباء والأساتذة، إلى مؤلفي الروايات وبجارة الفولغا، إلى الضباط والجنود، دعا جميع تعساء الأرض، وجميع من تثيرهم العاسة، إلى القضاء على هذا المصير المجرد من الجبال، وإلى خلق السعادة على الأرض. لقد دعا العالم كله إلى النورة، إلى ثورة تنطلق من ارادتها أعياد الفقراء.

وهكذا أقلمت هذه البلاد، يا صديقتي، عن أن تكون روسيا المجاعة والعبودية، لتصبح الاتحاد السوفيائي، بلاد الخصب والحرية، بلاد المرح والحب.

إن الاتحاد السوفيائي اليوم با صديقتي، هو بلاد الشعوب الحرة، بلاد الأوطان والأجناس الحرة والناس السعداء. لا يوجد فيه أغنياء ولا فقراء بل أشخاص كاملون، أكفاء، أسياد لمصيرهم. ولقد بنى هؤلاء الناس، خلال عشرين سنة، عالماً جديداً. إن الأولاد السعداء، في ريف ومدن الاتحاد السوفيائي، لا يفتر ثغرهم مطلقاً عن الضحك، وهم لن يتعرفوا أبداً، يا صديقتي، إلى بؤس الولادة في أحضان العبودية. واليوم، يا زنجيتي، تنقض جحافل الاستعباد على بلاد السعادة الانسانية. إن أسياد الحياة والمال يخطون مصبرهم على الأرض. ولكنهم لن يتوصلوا مطلقاً إلى القضاء على الاتحاد السوفيائي، يا صديقتي، لأن الشعب السوفيائي، الذي عرف كيف يبني السعادة، يعرف أيضاً كيف يدافع عن حقه في هذه السعادة، ولأن حب الحرية ينبض دفاقاً في صدره الفولاذي، صدره المصنوع من فولاذ ستالين، شمس العالم الجديد.

لنحو هذه البلاد، يا صديقتي، لنحو بلاد الحرية التي حُلّت فيها جميع المشاكل الانسانية بشجاعة وحزم، توجه لويس كارلوس برستس، ذلك الرجل الذي كان يريد أن يجد حلاً لمشاكل بلاده وشعبه، والذي انصت لنداء فلاديمير ايليتش في عيد الثورة. لقد درس هذه النظريات، وسوف يعمل على ضوء هذه الحقيقة. ومن الواجب على هذه البلاد وهذا الرجل أن

يتفاهما. ألا يهدفان كلاهما إلى نشر حرية وسعادة الإنسان على الأرض ؟.

إن السنوات التي فضاها برستس في الاتحاد السوفياتي هي سنوات سعيدة بالقياس إليه، وهي كذلك سنوات لها أثرها في حياة البرازيل. وكان برستس، وقد سبطر عليه التفكير ببلاده وبشعبه المستعبدين، يدرس ليل نهار بلا هواة. وفي اليوم التالي لوصوله إلى موسكو، باشر العمل بصفته مهندساً في الـ (Tsentrally Solouzstroy). وبفضل هذه المنظمة، التي كانت تشرف على مؤسسات تعمير بلاد السوفيات، والتي عرفت كيف تستغل مواهبه كمهندس كبير، استطاع أن يسافر عبر الاتحاد السوفياتي، وأن يتعرف إلى البلاد بالتفصيل، ويرى كيف كانت توضع مناهج ومعضلات العمل وكيف كانت تُحل. وبصفته مهندساً في الـ (Tsentrally Solouzstroy)، عمل في إنشاء كثير من المصانع في منطقة موسكو الصناعية، وفي مناطق أكثر بعداً، وفي تلك القرية من الأورال.

ولكي يتغلب على قلة كفاءته باللغات الأجنبية، تعلم الروسية بشكل سريع، لأنه كان يريد أن يستوعب التجربة السوفياتية على أكمل وجه ممكن. ووضع لنفسه منهجاً قاسياً للدراسة. فدرس الماركسية، ودرس التجربة السوفياتية. وكان درسه لهذه الأخيرة مفصلاً كاملاً، بصفته مهندساً يسهم في أعمال البناء، وبصفته رجلاً يعرف الحياة في الريف البرازيلي. ودرس دراسة عميقة، بصفته لواء، تنظيمات الجيش الأحمر، جيش الشعب هذا، الوحيد من نوعه في العالم، الذي ينتصب اليوم وسط عالم أدهشه بانتصاراته على الوحش الهتلري.

ودرس كذلك التنظيمات السياسية. فزار مختلف الجمهوريات السوفياتية حيث شاهد عبقرية الشغيلة السياسية. لقد درس، دون توقف ودون هواة، نتاج التجربة السوفياتية، واختزن المعلومات من أجل شعبه.

إن هذا الرجل، يا صديقتي، لم يصنع شيئاً مطلقاً وهو يفكر بنفسه فقط، لقد عمل وعاش دائماً من أجل شعبه، من أجل سعادة هذا الشعب. وكذلك

كان شأنه خلال الأيام الممتلئة حماساً، التي امضاها في الاتحاد السوفياتي.

إن برسنس، وهو رئيس الثورة البرازيلية وقائد العمال والشعب، قد أصبح الآن يجد الحلول واضحة بينة لجميع مشاكل بلاده. وهو يعرف بأن من الواجب، في الوقت الحاضر، القيام بثورة ديمقراطية بورجوازية، بثورة تحرر وطني. وعندما انتخب، في المؤتمر السابع، عضواً في اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية، وأصبح أحد قادة البروليتاريا العالمية، إلى جانب ستالين وديميتروف ومانويلسكي، كان قد اجتاز درباً طويلاً. إنه، وهو الذي كان بالأمس نقيماً في الجيش، وكان لواءً في ثورة أميركية جنوبية ومهندساً في بوبنوس ايرس، لا يتحدث الآن إلى المحرومين في البرازيل، كما كان يفعل في زمن الطابور، ولا إلى المحرومين في أميركا، كما كان يفعل خلال نفيه على ضفاف البراتسا: إن صوته، كبطل وكرفيق، يتعالى من أعلى منصة للمضطهدين، من منصة اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية، مخاطباً جميع المعذبين في الأرض. وإن هذه الطريق التي اجتازها لم تكن طريقاً لمغامر، يا صديقتي. لقد كانت طريق عبقرية تألف منه الذكاء مع الطبع. إن لويس كارلوس برستس، الذي تعرضت عبقريته لكثير من التجارب والذي لم تكن نزاهته مطلقاً عرضة لأي شك، هو أحد قادة البروليتاريا العالمية.

ولكن لويس كارلوس برستس، يا صديقتي، هو قائد وبطل شعب. وفي موسكو، حيث كان يعمل ويدرس بشكل محوم، كانت تصل إلى مسامعه أصوات التعاسة البرازيلية. لقد كان شعبه يدعوه، لقد كان بهذا الشعب حاجة إليه، إلى وجوده، إلى شجاعته، إلى حزمه، إلى نزاهته، إلى معارفه وإلى عبقريته.

وكان في الاتحاد السوفياتي في ذلك الحين، خونة سوف يحاكمهم الشعب في ما بعد. كان هناك أناس لا يفكرون في سعادة شعبهم، ويريدون، وقد استبدت بهم شهوة الحكم، بيع بلادهم السوفياتية من أعداء الإنسانية. إن هذا الشعب الذي بنى بلاده وسط اهازيج عيد، أهازيج عيد العمل، عرف

كيف بناضل صد الخونة بين صفوفه، كما يناضل في أيامنا ضد السفاكين النازيين، وبالعزم نفسه والجرأة نفسها. واشترك لويس كارلوس برستس بهذا النضال. فعندما أرسل مع بعثة من الفنانين لدراسة سوء الحالة في بعض الأعمال في منطقة مملوءة بالمستنقعات في صواحي ايجفسكي، عاصمة ولاية فوتياكس ذات الاستقلال الذاتي، اكتشف منهجاً كاملاً للتخريب. فلقد كان بتوجب، نظراً لطبيعة الأرض المملوءة بالمستنقعات، أن تقوم البنايات على دعائم. وعندما كان يصل البناء إلى علو معين كان ينساقط وينهدم. وتكرر الأمر مرتين، مما كبد الدولة السوفياتية مصاريف باهظة عظيمة. ودرس برستس القضية بالعناية نفسها التي كان قد بذلها، في أول عهده بالمهنة، عند تقديره لمصاريف انشاءات النكنات في جنوب البرازيل. وتوصل إلى الاستنتاج بأن في الامر تخريباً منظماً دقيقاً. ولم يكن رئيس البعثة، وهو مهندس روسي عاش طويلاً في الخارج، من رأيه؛ فلقد أعلن بأن ليس هناك أي ذرة من تخريب، وعزا سوء حالة الأعمال إلى المعدات واليد العاملة وإلى تنظيم الأعمال نفسه في الاتحاد السوفياتي. وأصر برستس على وجهة نظره. وفي ما بعد، عندما وضح الأمر، وثبت وجود التخريب، بدا المهندس الرئيس في صورته الحقفية: صورة المخرب وعدو الشعب.

وعاش برستس خلال هذه السنوات إلى جانب الشعب السوفياتي نفسه، وقاسمه حياته، وتعلم منه أشياء كثيرة، وساعده جهد طاقته: فبصفته مهندساً أسهم في إنشاء البنايات، وبصفته عسكرياً ساعد في دراسة تنظيم الجيش الأحمر. واشترك في «أيام السبت الحمراء»، وقدم عونه في الاعمال ذات المنفعة العامة، في ساعات الراحة غير المحدودة. وعندما كان المتطوعون الآخرون يفدون، وقد امتلأت نفوسهم سروراً لتمكنهم من تقديم المساعدة المجاسة من أجل بناء الاشتراكية، كان برستس، البطل الأسطوري الأميركي، عضو اللجنة التنفيذية للأمم، قد سبق له أن بدأ بهتم في تمهيد الأرض في نفق لمترو قيد الإنشاء، وفي تصنيف البطاطا في البرادات الكبرى، وفي انتقاء وتصنيف الأدوات القديمة في المعامل. لقد كان سعيداً في وسط

السروور الدافق . على هذا الشكل كان لويس كارلوس برسنس ، يا صديقتي .

لقد اجاز دروب المنفى وهو ينضح بالشجاعة والثقة بالمستقبل ، اللتين تميز بهما في البرازيل . وعندما بدأ ، في سنة ١٩٣٤ ، بتهيئة عودته إلى وطنه ، كان قد وجد طريقه : لقد تخلصت نفسه نهائياً من عناء البحث عن حلول . إنه يعرف الآن ما يحتاج إليه شعبه ، ويعرف بأن حل مشاكل هذا الشعب هو اليوم بمنتهى السهولة ؛ ولقد وجد ، وهو بعيد عن بلاده ، السبيل التي يتوجب على الشعب البرازيلي أن يسلكها . وبالطريقة نفسها التي افتتح بها برستنس دروباً في المجاهل المعادبة ، في مناطق البرازيل الداخلية ، هذه الدروب التي تسير عليها اليوم العربات والخيول والسيارات ، كان يعمل خلال سنوات النفي هذه ، على افتتاح الدروب لتفكير البرازيل السياسي .

إن فترة الثورات التي حركت البرازيل خلال سنوات ١٩٢٢-١٩٣٢ ثورة سنة ١٩٢٤ الفاشلة ، ثورة الطابور من سنة ١٩٢٤ إلى سنة ١٩٢٧ ، ثورة سنة ١٩٣٠ المنتصرة ، نضال سنة ١٩٣٢ - قد اظهرت أن البرازيل كانت تفتش عن نفسها حتى ذلك التاريخ ؛ إن فترة جديدة أخذت تفتح الآن أمام هذه البلاد هي : فترة برازيل تعرف ماذا تريد ، وتثور وقد وضعت لنفسها شعارات واضحة محددة . وفي سنة ١٩٣٥ ، سنة التحالف الوطني التحريري ، كانت الثورة ستبدأ في تشرين الثاني ، يا صديقتي . ومع ابتداء نضال شعب ضد الاستعمار ومن أجل تحرير الوطن الاقتصادي ، ستفتح براعم عصر جديد .

وأرسلت النداءات من مختلف الحاء البرازيل إلى برستنس . لقد كان الغائب العظيم ، ولكنه كان يرتع في جميع القلوب . وفي البيوت الفقيرة ، في المنطقة الشمالية الشرقية ، كانت شموع الأمل لا تزال مشتعلة حول رسمه . وأطلق اسمه على المواليد الجدد . فدعي ألوف الأولاد بلويس كارلوس ، في البرازيل ، حيث كانت القلوب تلتهب حباً وأملًا من أجل البطل . وفي وسط النعاسة المسيطرة ، كان الرجال والنساء الذين يحلمون بمستقبل أفضل

لأولادهم، يرسلون إليه النداءات تلو النداءات. وانتزعه صخب هائل، يا صديقي، من قلب شوارع موسكو المشعة، ليضعه في قلب ريو دي جانيرو، حيث سيعمل في الخفاء. إن بشعبه حاجة إليه. وإن نداء الاستغاثة الذي أرسله إليه هذا الشعب يرن في قلب لويس كارلوس برستس، يا صديقي.

القسم الرابع

نشيد التحالف الوطني التحريري

« نريد وطناً حراً! نريد بلاداً
برازيلية متحررة من عبودية
الاستعمار! نريد تحرراً اجتماعياً ووطنياً
للشعب البرازيلي! »

(من منهج التحالف الوطني

التحريري في البرازيل) .

« برستس هو بطل معارك الشعب
البرازيلي الاسطورية » .

« دولورس ايباتوري »

(باسيوناري)

- ١ -

في سنة ١٩٣٥ البطولية ، يا صديقتي ، تذكر الشعب البرازيلي بيتاً من الشعر لكاسنرو ألفيس . فلقد قال هذا الشاعر في أحد الأيام « ان الشارع هو ملك للشعب » . ففي الشارع يتحدث الشعب عن قلقه وعن يأسه ، ومن هناك يبدأ دائماً ثوراته . وفي سنة ١٩٣٥ ، قام الشعب البرازيلي بتظاهراته في الساحات العامة ، وهو يحمل علم التحالف الوطني التحريري .

أتذكرين ، يا صديقتي ، تلك الاجتماعات والتجمعات ، التي لم تتعرف البلاد إلى قرن لها في الماضي ، كما لم يحدث ما فاقها في الأيام التي تلت ذلك . لقد كان الجمهور يتدفق من الملاعب نحو الساحات العامة في الشوارع ، ويعلن بحماس تأييده وأمله المتعاضم في كل عبارة يتفوه بها قادته الشعبيون . وكان عدد قليل نادر من الناس يعرف بوجود لويس كارلوس برستس في البرازيل ، يا صديقتي ، ولكن كان يبدو كما لو ان هذا الأمر قد اكتشف ، إذ أن الوجوه كانت تطفح ببشر يخفي وراءه أملاً بانتظار سعيد .

آه ! ليجرأ أن أي إنسان على القول ، يا صديقتي ، بأن الشعب البرازيلي لا يحب بطله ! لا يحبه حباً يقرب من العبادة ، حباً تُسجّت معاملة من العرفان بالجميل ومن الأمل . انها لقريبة تلك الأيام التي كان فيها ألوف الرجال يندفعون بحماس ليستمعوا إلى أصوات الحقيقة تُعلن في اجتماعات التحرر الوطني ، حيث كان سيُسمع صوت برستس . أي هذيان انتاب هذه الجماهير عندما أعلن عن اسمه ، في الوقت نفسه الذي أعلنت فيه الشعارات من أجل تحرر البلاد ، هذا الهذيان الذي كان يبرهن للناس بأن الحركة التي كان يدبرها هذا الرجل لم تكن حركة مغامرين وخونة . لقد كان الشعب بكامله يندفع في الشارع ليهتف باسم بطله ، وليصفق لافكاره . وكانت القلوب ملاًى

بالأمل، بالرغم من انها قد خينت العديد من المرات من قبل رجال السياسة الذين وضعت فيهم ثقتها، إذ أن هذه القلوب كانت تعرف بان برستس لم يكن رجل سياسة، بالمعنى الضيق لهذه الكلمة، بل كان قائداً للشعب، ناطقاً بلسان المضطهدين، كما كان قلب الشعب يخفق مع قلبه.

إن اجتماعات التحالف، يا صديقتي، والجهير الضخمة التي كانت تشترك فيها، والصحف السرية، كل هذا كان يشكل منظراً رائعاً للغيرة الوطنية البرازيلية، يشكل فترة رائعة من وطنية هذه البلاد. لقد كان الوطن في خطر، لقد كان مباعاً، مخاناً، مستعبداً. ووضع برستس شعاراً لانقاذ الوطن، شعاراً ضد الاستعمار واللاتيفانديا واستعباد الريف والمدن، من أجل انقاذ الشعب البرازيلي. واندفعت الجماهير في الشوارع هاتفة لهذا المنهج، مناضلة من أجله، وسائرة خلف أحب الأولوية إليها وأحب قادتها. وكان هذا اليوم عيداً لا يمكن مقارنته بأي عيد آخر. قدّري كم كانت مرحلة مسألة الضغط على الأيدي المجهولة وسط اجتماع مليء بالتأثرات، واحتضان اشخاص لم يسبق لنا معرفتهم، ولكنهم رفاق بالقرب منا يتحركون. لقد كان عيداً مرحاً يشبه صباحاً مشعاً انبثق من بين غيوم ليل حزين، لا قمر فيه ولا نجوم، صباحاً من الحرية، صباح عيد بالقياس إلى البرازيل.

إن هذا الشعب الذي ينضح بالأنشيد والبطولة، هذا الشعب الذي يروح تحت وطأة الاستعباد منذ العديد من السنين، قد أخذ بكلمة الحرية، الحرية هي صوت التحالف، صوت لويس كارلوس برستس. لقد خرج الشعب إلى الشارع، سارع إلى الساحات، يهتف وقد ضم قبضته ورفعها في الهواء وحطم أغلاله.

إن عمّ التحالف الوطني التحريري، وقد نُشر مرة جديدة في سنة ١٩٣٥. كان في الوقت نفسه عام التيرادنتس نفسه أيام الأنكونفیدنسيا، علم الكرامة أيام التعذيب وعلى درجات المشنقة. لقد كان عام زامبيدوس بالمارس السائر في مقدمة العبيد المنطلقين إلى الجمهورية الخالدة التي شكلها الزنوج، علم

بنجمين كونستان وايجايبه عند فجر الجمهورية، علم فراي كانيكافرايوس، علم جمعة خط الاستواء، علم فلوريانو بيشوتو المرتفع من أجل الدفاع عن الشعب. لقد كان علم طابور برستس موزعاً العدالة.

تطلعي، يا صديقتي، ان مليوناً ونصف المليون من الرجال يسرون في ظل هذا العام. هناك ضباط ورجال جيش، هناك رجال بحرية. هناك أجيلدو وسيسون، اغليبرتو وكاسكاردو، هناك جنود وبحارة، عمال وفلاحون، كهنة وتجار، أطباء ومهندسون، سائقو سيارات وعمال تفريغ، هناك أشخاص من كل الطبقات، اغنياء وفقراء، وهناك كل أولئك الذين يحملون في حناياهم قلباً شريفاً يخفق بحب البرازيل. ويسير معهم، يا صديقتي، أبطال الماضي، الرجال الذين ناضلوا من أجل الشعب ضد الارهاب في الزمن الذي كانت البرازيل مستعمرة فيه، خلال سنوات الامبراطورية والجمهورية، كان معهم: فيليبي دوس سانتس، الذي رُبط إلى ذيل حصان وجرجر في شوارع فيلاريكا، وتيرادنتس الذي رُفع على خازوق في إحدى ساحات ريو دي جانيرو، وفراي كانيكا الذي قتل رمياً بالرصاص وقد اسند إلى أحد الجدران، وكان معهم زمي الذي اندفع من أعالي أحد الجبال لكي يتخلص من الاسترقاق، وكان يرافقهم كذلك بدروايفو على حصانه الأسود، وبنجمين كونستان وهو يلقي محاضراته على تلامذة المدرسة العسكرية، وفلوريانو مرتدياً ثياب مرشال الشعب العسكرية. كان هؤلاء جميعاً يسرون، هم أيضاً، تحت لواء التحالف التحريري في سنة ١٩٣٥ البطولية. وأمام الجميع كان يسير برستس، كان يسير لويس كارلوس، فارس الأمل.

على هذا الشكل يا صديقتي، جرى هذا العيد، أجل أعياد البرازيل، وأكثرها شعبية ومرحاً. لقد كان عيداً للحرية في الشوارع والساحات، وكانت الوجوه والقلوب تطفح سعادة وبشراً.

وفي هذه الايام، يا زنجيتي، كان أنصار الاستبداد والعبودية والتجويع، الذين يخونون الشعب، يرتجفون على كراسي الحكم. وخلال اجتماعاتهم السرية المكتتفة بالفرع، كان لون وجوههم يتحول إلى الاصفرار. وفي الخارج كان

الجمهور يحطم قيوده. وكان الطغاة يرتجفون في قصور الحكومة. وكان صوت الشعب الذي يصرخ باسم برستس في الساحة العامة، يلقي برودة الموت في قلوب أعداء الوطن. كانت سنة ١٩٣٥، يا صديقتي، سنة بطولة وأمل.

- ٢ -

كانت الأمواج تضرب بفتور هيكل السفينة، يا صديقتي، وتغلقت سماء المناطق الاستوائية بالنجوم وبأشعة القمر لتحيي أولغا زوجة لويس كارلوس. كانت أراضي البرازيل قد أصبحت قريبة، وكان الليل قد أصبح ليلاً برازيليّاً يحمل صليب الجنوب، الذي لا يكاد يتميز من أنوار الصواري المتأرجحة. وكان لويس كارلوس وأولغا ينظران إلى السماء من على ظهر الباخرة، لقد كان بודהما لو يخترقان الظلام، كي تتراءى لهما من خلفه الأرض، أرض وطنها المضمخة بالعديد من الألوان، تلك الأرض التي يشعران أنها أصبحت منهما قريبة. ومن خلال هدير الأمواج كان يخيل إليهما بأنهما يسمعان أنغام الموسيقى البرازيلية: أنغام السمباس^(١) والكوكوس^(٢) والمودينياس^(٣) والكاتيريش^(٤)، والتنهدات الرخيمة لجنس جبل بالالام وذاق منها أمرتها. وكان لويس كارلوس يحدثها عن البرازيل، كان يحدثها عن مدن البرازيل وريفها، عن صوت هذه البلاد العميق، عن الرجال الذين شاهدتهم في الطابور، على ضفاف سان فرنسيسكو، عن بطولتهم غير المحدودة، عن حماسهم العظيم. وعند تحدث لويس كارلوس عن هؤلاء الرجال الأبطال الممتلئين حماساً، كان يروي لأولغا مآثر الحوادث التي شاهدها في سهول السرتونات النائية وفي منفى الغايبا. وتحدث عن بائعات المؤونة للطابور، اللواتي كن يحملن بندقيات الرجال، وعن النمساوية الشقراء إرمينيا، التي تزوجت من الزنجي فيرمينو تحت سماء البرازيل السحرية.

ولم يفكر لويس كارلوس برستس بالحب، إلا بعد أن ناضل كثيراً، بعد أن اجتاز البلاد بكاملها، وبعد أن وجد، عقب اندفاع محوم قلق في

(١)(٢)(٣)(٤) أغان ورقصات برازيلية شعبية.

التفتيش، الطريق التي يتوجب على شعبه اتباعها. ولم يفتش برستس بيأس، يا صديقتي، كما نفعل نحن جميعاً، عن امرأة حياته في أجساد النساء. لقد كان له من اهتمامه بالبحث عن دروب الحرية، عن دروب السعادة لشعبه، ما يستأثر بكل وقته.

وفي أحد الأيام شاهد في إحدى المدن الأوروبية، فتاة ألمانية شابة. وأحس فوراً بأن هذه المرأة سوف تصبح زوجة له، سوف يخفق قلبه من أجلها، سوف تكون أمّاً لأولاده، تسهر عليه وتريح نفسها على كتفه، فيعمل بالقرب منها من أجل البرازيل، وتكون له زوجة ندية العود فهيمة. وتحابا في ربيعٍ أوروبي، وكانت الأزهار تحنو عليها مرحبة، والأطياف تزقزق فرحة بمقدمها، والربيع ينتقل من مدينة إلى مدينة ويقودها عبر أوروبا نحو السفينة التي ستحملها إلى البرازيل. وسيرافقها الربيع حتى المرفأ، ثم يعهد بها إلى البحر الجميل لكي يسلمها هذا بدوره إلى البرازيل الساحرة.

وحدثها على سطح السفينة عن الوطن، عن وطنه هو، الذي أصبح الآن وطناً لأولغا بيناريو برستس. وكانت هذه المرأة، التي أغرمت برجل يشكل مصيره مصيراً للبرازيل نفسها، تشعر بأنها مرتبطة بشكل عميق، وباعجاب وسر شعريين، بأرض زوجها: فمنذ ما اقترنت بلويس كارلوس برستس أصبحت البرازيل وطناً لها.

وأخذ الاثنان يتحدثان عن البرازيل. وها هي أرض هذه البلاد قد اقتربت: ها هي الشواطئ الرملية البيضاء، والسرطونات من الحقول الخضراء، والسماء الزرقاء المشوبة بلون الرماد. وكان البرازيلي والألمانية الشابان يحاولان اختراق ظلام الليل الدامس، بعيداً: ليكتشفا الشواطئ البرازيلية، بعيوئها المملوءة بالتأثر. وكان، هو، يشير بيده كالبوصلة نحو مسافات بعيدة، وكانت، هي، تبسم ابتسامة حارة ودودة. وتطلعت طويلاً إلى وجهه الهادئ وعينييه المشتعلتين. ان الرجل الذي اكتشفته، في يوم من أيام الربيع في إحدى المدن الأوروبية، هو بطل شعب كامل. وها هي تضغط به على صدرها كما

لو كانت تريد ان تحميه من الأخطار المستقبلية . وسقط شعاع من أشعة القمر على الزوجين الحديثين . انه قمر البرازيل يداعب لويس وأولغا .

ولم يكن شهر غسلها شهراً كبقية شهور العسل . فهما لن يهجرأ الناس ليعتزلا في مكان ما ، ويعيشا أياماً هادئة مضمخة بالحب . بل سوف يذهبان إلى البرازيل ، حيث مُنع برستس من الدخول ، وحيث سيناضل بالقرب من شعبه ، في طليعة شعبه ، من أجل تحرير الوطن . سيذهبان ليعيشا حياة الخارج على القانون ، بينما يتعقب خطواتهما رجال الشرطة والاعداء . ولن يتأثر خطواتهما مفتشو الشرطة البرازيلية فقط ، بل وكذلك رجال الفستابو والانتلجانس سرفيس . على هذا النحو كان شهر غسلها يا صديقتي : كان شهراً منسوجاً من المخاطر التي تعرضا لها وسط شعبها في زمن التحالف الوطني التحريري ، ابان ثورة شهر تشرين الثاني سنة ١٩٣٥ .

لن تتعرف هذه الفتاة الصبية الألمانية ، التي وهبت قلبها للواء برازيلي ، بعد الآن إلى أي يوم من الراحة والهدوء . وسيخفق قلبها من الآن فصاعداً من أجل زوجها . وفي الليل سيكون رقادها خفيفا بانتظار عودته . وسيأتي وقت تفقد معه القدرة على هذا الانتظار ، فرافق لويس كارلوس برستس لكي تحرسه . فهي تعرف جيداً بأنه إذا ما كان محبوباً ، كما لم يُحب أي إنسان ، من الشعب البرازيلي ، فهو في الوقت نفسه مكروه ومرهوب الجانب أكثر من أي إنسان آخر من قبل اعداء الشعب . سوف تذهب معه في ظلام الشوارع التي أعطى فيها مواعيد لمقابلاته ، وسوف تكون بالقرب منه وتحيطه بمودتها وعزمها .

انها أشبه ما تكون بأنيتا غاريبالدي ، التي ولدت في سهول البرازيل ورافقت غاريبالدي في جميع المعارك . ان أوروبا تدفع للبرازيل على هذا الشكل دينها القديم . وبالطريقة نفسها التي وجد فيها البطل الايطالي زوجة له في البرازيل ، وجد رفيقة تحرسه بكل قوة حبها ، وجد بطل البرازيل الزوجة والرفيقة في أوروبا ، المرأة التي سوف تحرسه في أيام الثورة ، امرأة ، كأنيتا ،

ستكون إلى جانبه في أدق المراحل وأصعبها. أنيتا غاريبالدي وأولغا بيناريو برستس! اسمحي لي، يا صديقتي، ان اجمع في ما بين هذين الاسمين! فكل منهما يطلق الرنين نفسه، ولكل منهما المصير نفسه، مصير الزوجات البطلات نفسه، مصير النساء المقترنات برجال وهبوا حياتهم من أجل الحرية.

إن نساء اخريات، يا صديقتي، يمتلكن أزواجهن بصورة كاملة، يمتلكن منهم الجسد والقلب والتفكير والحياة كلها. وهنّ لا يشاركن أحداً في هذه الملكية. ولكن حذار، يا صديقتي، للنساء اللواتي يقترنّ بالأبطال والشعراء، فهنّ لن يملكن من أزواجهن سوى لحظات. فالحرية والشعر حاسدان غيوران للناس، يستوليان على البطل وعلى الشاعر، إلى الأبد. إن مصير البطل هو في أن يذهب إلى ساحة المعركة. فعندما تناديه الحرية يعلو صوتها بقوة تفوق قوة أي صوت نسائي. إذن يتوجب على المرأة ان تملأ صدرها فهماً، وأن تعرف أن تعيش حياة زوجها. فلتهينى نفسها لأقسى ساعات العذاب، ولتتحلّ خلال هذه الساعات بكفاءة زوجها نفسها. تماماً كما عرفت ان تفعل أولغا بيناريو برستس، التي يرجع بها النسب إلى عائلة أنيتا غاريبالدي. ولا يبدو الحب بالقياس إلى نسوة كهؤلاء تحت مظاهر خارجية من السعادة. انه يتغذى من نفسه، وعليه ان يكون ضخماً كالعالم، خالداً كالبحر، لكي يقاوم ضربات التعاسة. وكان حب أولغا للويس كارلوس يتغذى من نفسه، يا صديقتي.

يا له من شهر عسل غريب! انها يسيران نحو النضال، نحو الاجتماعات السرية، نحو التآمر ونحو الثورة. انها لا يهينان أقل مشروع من أجل حياة هادئة، من أجل سلام عائلي رائق. ان بانتظارهما أكثر المصائر عدم استقرار، بانتظارهما جميع أنواع المخاطر: الحياة بصورة سرية، الاختفاءات الموقته، ليالي الانتظار. قليلاً ما يهم كل هذا، يا صديقتي، فمنذ ما كان العالم، كان الحب أقوى من جميع المخاطر ومن جميع التعاسات.

إن ليل البرازيل يهدد السفينة كالشبكة. وتتساقط أشعة القمر على لويس كارلوس وأولغا كأنما هي هدية من الشعب، هدية عرس. وفكرت أولغا،

بمحدث النساء المحبات ، بالأنام السوداء المقبلة . ولكنها ابتسمت مع هذا ، يا صديقتي ، وهي تطفح بالسعادة . ثم احتضنت ذراع لويس كارلوس ، فالحب أقوى من جميع التعاسات . ومن خلال ضياء الفجر ، انطلقت ، عند الشواطئ ، شجرات جوز الهند البرازيلية .

- ٣ -

كان انتصار ثورة سنة ١٩٣٠ يحمل في اردائه تناقضاً سيملك جيتوليو فارغاس من المقاومة ومن البقاء في الحكم. فلقد أسهم في ثورة سنة ١٩٣٠ يا صديقتي، «التيننتس»، وأبطال سنوات ١٩٢٢ و ١٩٢٤ و ١٩٢٦، ورجال الطابور؛ وكان هؤلاء يمثلون القوة الثورية لسنة ١٩٣٠. وأصبحت «التيننتيسمو»، بعد الانتصار، ايدولوجية كتبت حولها الكتب ودُبجت المقالات؛ ثم انشئت النوادي كناديي «٥ تموز» و «٣ تشرين الأول». ولكن كان في صفوف هذه الثورة كذلك قوى عظيمة من الأقلية الرجعية في ميناس، يمثلها بعض رجال السياسة من أمثال برناردس وانطونيو كارلوس، كما يمثلها الغاوشوس واشخاص من المناطق الشمالية الشرقية، وبعض كبار الصناعيين من أمثال ليا كافلكنتي. وكان تحالف هذه القوى التي كانت تحاول الاستيلاء على الحكم بواسطة ترشيح جيتوليو فارغاس، - هذا التحالف الذي انتج الثورة -، يركز، من كلا الطرفين، على رغبة كل منها في خداع الآخر، كما يحدث في بعض الزيجات: عندما تكون الخطيبة واثقة بأن الخطيب من أصحاب الملبارات، بينما يكون إيمان الخطيب وثيقاً بأن أهل خطيبته يرقدون على سرير من المال. وكان «التيننتيسمو» يفكرون، من أجل الوصول إلى الحكم، باستعمال القوى السياسية التي تحدثت عنها في ما سبق، ثم يعتمدون إلى تصفيتها بعد ذلك؛ بينما كانت هذه القوى تريد أن تستخدم الاحترام العسكري والشعبي الذي يتمتع به «التيننتس». وكان يكمن خلف هذه القوى الاستعمار الأمريكي، الذي كان يمول صناديق الثورة بقروض في ربو غراندي وول ستريت، ويفكر في توجيه ضربة قاصمة إلى سيطرة السيتي التي كانت تبرز بوضوح في سان باولو. لذا كانت ثورة سنة ١٩٣٠ تبدو

أحياناً على شكل نضال ضد سيطرة سان باولو على الاقتصاد الوطني. وبالحقيقة كان الـوول ستريت والسيتي بـتـنازعان السيطرة على مستعمرة غنية.

وكانت المرحلة الأولى من الثورة من نصيب «التيننتس». فلقد كان هؤلاء يسيطرون على الجنود وعلى جميع الظروف اللازمة للاستيلاء على الحكم. وظهر كأنما الجباهير قد نسيت جيتو ليفارغاس. ولم تكن التظاهرة التي استقبل بها في ريو، بالقياس إلى تلك التي استقبل جواريس تافورا رئيس القوى الثورية في الشمال، سوى نزهة لا أهمية لها. لقد كان الرجال المحبوبون من الشعب هم: ميغيل كوستا، جواريس، جوان البرتو، إدواردو غومس وكوردبرو دي فارياس. ولم تكن صورة جيتوليو هي التي تعلق على جدران المنازل، وإنما كانت تعلق نسخة عن اللوحة الرائعة التي تمثل رجال حصن كوبا كابانا الثمانية عشر، يتقدمون على الرمال، نحو الموت.

لقد أسهم رجال السياسة في الثورة تحذوهم الرغبة للإفادة منها. لقد كانوا يعرفون ان قيامها أمر حتمي، وكان أكثرهم ذكاء يعرف تماماً بأن الطابور قد حرك البلاد وزرع بذرة الثورة بين الشعب المستثمر. لذا وقفوا في الصفوف الطليعية للثورة املاً باستخدامها من أجل الدفاع عن المصالح التي يمثلونها. وأحرزوا أعظم النتائج.

ومن سنة ١٩٣٠ حتى سنة ١٩٣٢ اشترك «التيننتس» في الحكم مع القوى السياسية الاستعمارية ومع كبار ملاكي الأراضي العقاريين، ولكنهم كانوا يشكلون، حتى في ذلك الوضع، العدد الأكبر في قلب الحكومة. وكان ذلك الوقت هو الذي كان بطلق فيه خلال الاجتماعات الخاصة، لقب «السوفيات» على وزارة فارغاس. وفي ذلك الوقت أعلن جوزيه أميريكو نضالاً لا هوادة فيه ضد شركة لايت، ودافع فيه إيرينو جوفيلي عن الأموال العامة ضد جشع رجال السياسة. انها فترة تعرفت فيها حرية الانتقاد والاعتقاد والتفكير إلى الوجود. بل لقد وصل الأمر بالتيننتيستين الحاكمين إلى التحدث بأنفسهم عن ضرورة وجود برستس في البلاد. فلقد كانوا يشعرون بانه الرجل الذي

يستطيع ان يجد حلاً مرضياً للوضع . وكانت الحكومة ساعته سائرة في اتجاه مصالح الشعب .

وكانت القوى الرجعية ترتجف من الرعب في ذلك الحين . وكانت قد وجدت لنفسها سنداً مباشراً في شخص جيتوليو فارغاس ، المرتبط بالتعهدات التي منحها للوول ستريت وبذلك التي قدمها إلى رجال السياسة ، والذي كان في الوقت نفسه يغازل الأقلية الرجعية الحاكمة في سان باولو . وبدأت سياسة من الاهمال تذر قرنهما في البلاد ، وشُن الهجوم ضد التيننتيستين حتى قبل اندلاع ثورة سنة ١٩٣٢ . ووضع أمامهم جميع ما يمكن تصوره من العراقيل ، وصنع كل شيء من أجل القضاء على معنوياتهم . وقليلًا قليلًا استطاع الرجعيون ان يؤمنوا لأنفسهم الأثرية في قلب الحكومة . وأمدت المناورات الفاشية بالمساعدة ، وجرت مفاوضات مع « الحكوميين » السابقين .

وكان مغامرو جميع الثورات وجميع الحكومات تائهين لا يعرفون أي سبيل بسلكون . فإن بلينيو سلغادو ، وهو صيدلي عاصر عطاءات كبار الملاكين العقاريين في الحزب الجمهوري في سان باولو ، قد بلغ به الأمر إلى امتداح برستس في إحدى رواياته : لقد كانت قوة « التيننتيسمو » تبدو له بكامل عظمتها ، حتى خبل إليه بأن « حل برستس » أضحى قريباً . وعندما لاحظ في ما بعد بأن ورود هذا الحل قد تأخر ، باع نفسه من المصرف الألماني ليؤسس الحزب الذي كان بالنازية الألمانية حاجة إليه كقاعدة للتغلغل بصورة أكثر حزمًا في البلاد . وكان قد سبق ذلك عدة استعراضات قامت بها « الفرق الثورية » و « القمصان السمر » التي يقودها فرنسيسكو دي كامبوس ، القادم من جبال ميناس ، في شوارع بيلوهوريزونتي ، بين وابل من صخب الجماهير وسخريتها . وكانت محاولته تلك محاولة فاشلة . ولقد أحبطت لأن دي كامبوس أراد أن يوفق بين السياسة وبين شهواته الريفية المفترسة ، التي كانت تجعل لعبه يسيل عند رؤية أية امرأة جميلة في شوارع العاصمة الأنيقة . وكانت قوة « التيننتيسمو » لا تزال أقوى من ان تسمح « لفرق » دي كامبوس الموسولينية بالازدهار . فاضطر هذا إلى العودة إلى

أبيات الشعر التي كان يكتبها بالتعاون مع أوغستو فيديريكو شميدت، الشاعر الضخم البدين. وبين القصائد المقدسة التي كان هذا المدّاح البدين يهديها إلى الصبايا الناشئات، وبين النضال الذي قام به للاستيلاء على إحدى الوزارات، ضد عدو شخصي يقف، والسوط في يده، على سلم المجلس البلدي القديم، ويمنعه من فرض «قوانينه» في مادة التربية، بين هذين الأمرين تداعت الفرق وتحطمت أرباً أرباً. وعندما توصل دي كامبوس، هذا الشاعر اليوناني الحديث، هذا الرئيس الفاشي، أخيراً، إلى الاستيلاء على الوزارة التي كان يريد، أصلح وزارة المعارف في البلاد بواسطة مرسوم، هو أول مرسوم أصدره، منح نفسه بموجبه حتى الانتقال من كرسي الحقوق في جامعة ميناس إل كرسي في جامعة ريو دي جانيرو، حيث صرف وقته في الاسترخاء والاعفاء وفي قياس الأشعار بالامتار، وهذا شيء لم يكن بمقدور شميدت القيام به إطلاقاً.

وإن مرحلة «الثنينتيسمو» هذه، حيث نزل الشعب القلق إلى الشارع مطالباً باتخاذ التدابير الحازمة، وحيث جهد الرجعيون في تصفية الثورة، هذه المرحلة التي تشكل تكراراً للمرحلة التي سبقت قيام الجمهورية، حيث هبّ الايجاييون لمقاومة أسياد العبيد، وسار الشعب إلى جانب فلوريانو، وحيث تأمرت الأقلية الحاكمة واستعملت جميع الأسلحة، إن هذه المرحلة هي، دون شك، أكثر المراحل إثارة للفضول في تاريخ البرازيل الحديث. وكان القلق العام المسبب يشكّل أرضاً خصبة لتفتّح براعم جديدة من الأدب الجديد. واختفى «الحديثون»، من شعراء وكتاب، كانوا يعملون في خدمة البورجوازية الكبيرة والاستعمار، ويمتدحون، بشكل فلسفي، الأقلية الحاكمة، اختفى هؤلاء جميعاً من على مسرح الأدب. وفي الوقت نفسه الذي انطفأ فيه نجم من يدعى فرنسيسكو دي كامبوس، زال من الوجود صوت «الحديثين»، المخنث في كثير من الأحيان، والمخطئ في كل الأحيان تقريباً. وكفرنسيسكو دي كامبوس، لن يعاود «الحديثون» الظهور إلا في سنة ١٩٣٧. وسوف يحمل عندئذ فرنسيسكو دي كامبوس الدستور

التعاوني، لـ «الدولة الجديدة»، وسيكون «الحديثون»، كما كانوا في سنة ١٩٣٠، «الكتاب» الرسميين.

وفي زمن «التيننتيسمو»، وقد كان الشعب يريد ان يجد حلاً لمشاكله، انطلقت من جميع انحاء البلاد أصوات كتاب جديدة، أصوات شريفة، ستحاول ان تصف المعالم الفاجعة للحياة البرازيلية. فافتتح «جلبرتو فريز» و «ارثور راموس» و «أديسون كارنيرو»، طريقاً جديدة للدراسات الاجتماعية والتاريخية والاقتصادية. وقص جوزيه لينس دوريفو حياة الشعوب العاملة في صناعة السكر. وكان قد سبق لجوزيه اميريكو ان كتب قصة الجفاف. وكشف راكيل النقاب عن السير، وروى ديو نيليو ماشادو وأريكو فيريسيمو طرق الحياة في ريو غراندي دوسول، وأخذ أماندو فونتينس يدرس المعامل في أراكاجو، بينما سما غراسيليانو راموس بالرواية الوطنية إلى ارتفاع كان مجهولاً حتى ذلك التاريخ. وان هذا الأدب الجديد الذي ألفت ضده الرجعية بالرواية «التحليلية» - التي تشكل نتاجاً للروائيين المهتمين بالحيوانات السحرية، منتهجين بذلك خطط بروت - سيحظى، في سنة ١٩٣٥، بمساندة الجماهير في حركة التحالف الوطني التحريري، ويمكن جوزيه لينس بواسطة كتابي «البنخ» و «أوموليك ريكاردو»، ويمكن غراسيليانو راموس بواسطة كتاب «انغوستيا»، واريكو فيريسيمو بكتاب «كامينيوس كروزادوس»، يمكن هؤلاء جميعاً من انتاج أروع آثارهم الأدبية.

على هذا الشكل كان الوضع في البرازيل عندما قررت الرجعية، التي بدأ خوفها من قوى الشعب الثورية يتعاظم يوماً بعد يوم، القيام بثورة سنة ١٩٣٢. فرفعت عندها علماً رائعاً، علم المجلس التأسيسي. ولكن الأمر لم يكن بتعلق، والحق يقال، بمجلس تأسيسي يعقب ثورة أقلية منتصرة. ولم يحاول الرجعيون حتى القيام بحملة تطالب بالدستور. وفيما لو كانت قد جرت هذه الحملة في ذلك الحين، لكانت قد اتخذت اتجاهاً شعبياً واسعاً، فاهتمت بمطالب جماهير الشعب، وبصورة خاصة بالأماي التي تمثلها حركة

«التيننتيسمو». والبرهان على ذلك نجده في المجلس الثوري الذي ترأسه جواريس، والذي كانت نتائجه إيجابية تماماً بالرغم من البلبلة، وبالرغم من تسلل بعض أفراد من الطابور الخامس، مثل بلينيو سلغادو، إلى صفوفه، لقد كانت الأقلية الرجعية الحاكمة تريد الدستور، ولكنها كانت تريد أولاً أن تدحر القوى الثورية. ولكن كان من الصعب اخفاء هذا المظهر العميق، المعادي للثورة، في ثورة سنة ١٩٣٢. فلقد كانت هذه الثورة تريد أن تصفي أمر «التيننتيسمو» بواسطة السلاح، بالرغم من إسهام كثير من «التيننتيستين» فيها. ويمكّن هذا المظهر الجزئي من الحكم على البلبلة التي كانت تسيطر في ذلك الحين. ولم يكن «التيننتيستيون»، في الواقع، قد توصلوا إلى تحويل «التيننتيسمو» إلى نظرية. فلقد كانت «التيننتيسمو» تشكل كلمة وبعض الحوادث. ذلك هو السبب الذي مكن كثيراً من «التيننتيستين»، من القيام بانقلاب سان باولو تحت شعار: «الدستور»! وكانت تختفي خلف كل ذلك المصالح الانكليزية، التي كانت تحرك «الدستوريين» بأصابعها كالدمى، أملاً في احتلال المواقع نفسها التي كان اليانكي قد احتلها في ثورة سنة ١٩٣٠.

ولكن جيتوليو، بالحقيقة، سبق له في سنة ١٩٣٢، عند اندلاع الثورة، أن كان بصورة كاملة، تحت سيطرة القوى الرجعية وكبار ملاكي الأراضي العقاريين والاستعماريين. وتوصل «التيننتيستيون» إلى الخروج منتصرين من ثورة سنة ١٩٣٢. ولكن هذا الانتصار تحول إلى هزيمة. فلقد هرع «الدستوريون» إلى مختلف المذاهب من أجل تأييد ثورتهم، حتى إلى مذهب الانفصاليين. وكان واضح الأسس الإيديولوجية الحقيقي لثورة سنة ١٩٣٢ هو رجل انفصالي. فلقد فهم فارغاس، ببراعته كسياسي حساب. بدقة، القوة الاقتصادية والسياسية التي يمثلها كبار ملاكي الأراضي العقاريين المسلحين. ومن ثم اغتتم فرصة الضعف النظري والانقسام المسيطر على «التيننتيستين»؛ ولقد كان يعرف بأنه إذا ما انتصر هؤلاء الآخرون، فلن يبقى أمام البلاد سوى انتهاج خطة واحدة وولوج طريق واحدة: برستس

والثورة الشعبية. وهو عند إحرازه الانتصار العسكري على «الدستوريين»، لم يلجأ إلى «التيننتيستيين»، بل لم يحاول حتى أن يطلب مساعدته، وعلى العكس رضى لجميع مطالب الأقلية الحاكمة. وأعلن عفواً عاماً ودعا المجلس التأسيسي إلى الاجتماع. ولكن التأثير الذي كان «التيننتيستيون» لا يزالون يتمتعون به في ذلك الحين، منع مجلس سنة ١٩٣٤ التأسيسي من اتخاذ خطة ذات اتجاه رجعي كامل. فلقد كان الاتجاه لتحرري، بهذه السرعة الدستورية، نتاجاً لانتصار «التيننتيستيين» العسكري في سنة ١٩٣٢، ولتحركات الجماهير، وللتربية الشعبية التي تألفت، بفضل الأدب الجديد، مع مشاكل البرازيل، ولضعف القوى الرجعية. ولقد قام فارغاس بمفاوضات مع هذه الأخيرة، طيلة فترة قيام المجلس التأسيسي. ولم يتوصل «التيننتيستيون» واليساريون إلى التحالف. ولقد مثلت القوى الديمقراطية واليسارية في المجلس التأسيسي بمختلف الاتجاهات السياسية، من الأحرار إلى الاشتراكيين والشيوعيين. ولما كانت هذه القوى غير متحدة، انتقل فارغاس إلى صف كبار الملاكين العقاريين المدحورين بالأمس. ولم يكن رجال جيتوليو فارغاس، وهم أكثر أعضاء المجلس التأسيسي نشاطاً، من «التيننتيستيين» الذين دافعوا عن حكومة فارغاس بقوة السلاح، بل كانوا من «البادليستاس» الذين سبق لهم أن ناضلوا ضد هذه الحكومة. وما يكاد فارغاس يُنتخب رئيساً للجمهورية، حتى يعمد إلى تصفية «التيننتيسمو»، وإلى تجريد جواريس من سلطته كحاكم مطلق في الشمال. ويرضى فارغاس لشركة رايت، ويرى جوزيه أميريكو نفسه مضطراً إلى التخلي عن وزارة المواصلات في سان باولو وإلى وضعها بين أيدي الرجال الذين رفعوا راية التمرد في سنة ١٩٣٢. وسقطت إدارة الشرطة بين يدي رجل من عملاء الألمان، يُدعى فيلنتو مولر. وفي جميع الولايات، سار «التيننتيسمو»، المنقسم على نفسه، في طريق الانحلال. واتحدت القوى الرجعية من أجل القضاء عليه. وباع كثير من «التيننتيستيين»، من أولئك الذين كانوا مغامرين قبل أن يصبحوا ثوريين، أنفسهم، واحتفظوا بذلك ببعض السلطة أو ببعض الوظائف. وتغير المشهد الآن، وأصبح شبيهاً بذلك الذي كان

يسيطر في ظل الجمهورية. وبعد مغادرة فلوريانو الحكم، أصبحت وزارة العدل لا تمثل العكسة الثورية لسنة ١٩٣٠. وفي ما بعد، سيملي فيسانتي راو، أحد رؤساء ثورة سنة ١٩٣٢، « القانون - الوحش »، الذي سيحاول بواسطته ان يصفي كل ما تبقى من ديمقراطية ومن « تيننتيستا » في الشريعة التأسيسية لسنة ١٩٣٤.

وأينعت « الانتغرافية » في البرازيل، بعد أن سُقيت جذورها بالأموال النازية وتمتعت بحماية رجال الشرطة. ووجد الاستعمار الألماني لنفسه مرتعاً جديداً في الأرض البرازيلية. وعندما كان هتلر وأسياده يهيئون لحرب سيعم هيبها العالم، كانوا يحولون نظراتهم نحو البرازيل، بمستعمراتها التي يديرها الألمان في سانتا كاتارينا، في البارانا وفي ريو غراندي دوسول. ولم يكفهم شراء رئيس شرطة العاصمة وبعض رجال السياسة، بل واتخذ الطابور الخامس في البرازيل لنفسه مظهر الحزب السياسي: العمل الانتغرافي في البرازيل، و « القمصان الخضراء » برئاسة بلينيو سلغادو. وكانت الحكومة تستر على أمثال هذه المنظمات، أملاً في ان تفيد منها في الوقت المناسب، كما حدث في سنة ١٩٣٧. وكانت تصفية « التيننتيسمو » إحدى مراحل سياسة المناورات هذه. والمرحلة الثانية كانت مرحلة انتشار « الانتغرافية ». وان من المثير للفضول رؤية « الانتغرافية » تتمتع بمؤازرة الممثلين المباشرين للوول ستريت وللسيقي، وتحظى بالتأييد الحاسي من قبل فيلينتو وأولئك الذين كانوا يمثلون هتلر. ولم يكن تلينيو سلغادو أكثر من خادم لفيليننتو ولفون كوسل. وكان هذا الأخير، المتمركز في ريو، في الوقت نفسه، رئيساً لمصالح الجاسوسية الألمانية وللحزب الوطني الاشتراكي. وكان بلينيو سلغادو متردداً في أول الأمر، إذ لم يكن يدري من أية جهة ستُفتح أبواب الحكم بصورة أسرع. ثم أخذ في سنة ١٩٣٦، وقد تجلبب بثياب الفوضوي، يتحدث عن برستس، ولما لم يجن أية فائدة من ذلك، هرب وهو يحمل صندوق المال لجمعية يانصيب أوكلت إليه بسذاجة مهمة أمانة صندوقها. ثم سرعان ما ألبس نازي الجنوب وجميع الناس غير الشرفاء في البلاد، ثياباً خضراً، وقد خلب منه

اللب بريق ماركات المصرف الألماني. وانجذب بعض الشوريين ببريق « الانتغالية » الخلب. وفي ما بعد فقط تكشفت لهم حقيقة حزب بلينيو، فهجروه عندما تعرّف التحالف الوطني التحريري إلى عالم الوجود. وكانت الانتغالية مزيجاً من نظريات كتاب « كفاحي » ومن الاستفزازات المعادية للشيوعية ومن أكاذيب الافراط في حب الوطن. وشكل هذا الأمر مهزلة بينة فاقمة، كانت فيها قلة الشرف تتنقل بحرية عبر الشوارع، وكانت الشرطة خلالها تحمي النزعات الانتغالية الملونة بالأخضر.

ولم يحدث في أية بقعة من بقاع العالم، حتى ولا في ايطاليا الفاشية إبان عهد « فوتيريسم » مارينتي، بل ولا في المانيا عهد ظهور النظريات الآرية للنازية الأمانة، ان طهر هذا القدر من السخافات والتفاهات، وان تعرّف إلى الوجود أدبٌ يمثل رداءة الأدب الذي ظهر في البرازيل إبان الانتغالية. وكان بلينيو سلغادو، فوهرر المسرحيات الغنائية، ومسيح التمثيليات الرخيصة، يحمل في نفسه جرثومة الأدب الرديء. وبعد ان انتحل لنفسه، دون نجاح، أشعار اوزفالدو دي اندرادي، اقتنع بانه لم يخلق لسرقة الأدب الجيد، فأخذ يقلد اسوأ ما في العالم من أشياء مطبوعة، فجاء أدبه أسخف ما يمكن لانسان ان يتصور.

وعندما ظهرت « الانتغالية »، أخذ « المثقفون » الرجعيون، المتحدرون من « المودرنيسم »، مثل مينوفي دل بيشيا، وأولئك الذين برزوا في سنة ١٩٣٠، مثل « داموازو أوتافيو دي فاريا »، والمحتال سانتياغو دانتس، أخذ هؤلاء جميعاً يهزأون من بلينيو ومن حزبه: فلقد كانوا يجدون فيها مظهراً من السخف الكامل. ولكنهم لم يضحكوا طويلاً؛ فسرعان ما اكتشفوا انه يكمن خلف بلينيو، فيلينتو وفون كوسل وهتلر، يكمن مال الاستعمار، تكمن الرجعية المناهضة للشعب. عندها أخذ جميع الاناس السبهيين بسانتياغو وبأوتافيو وبناسودا سيلفا، يتغنون، والسبحة في يدهم، وعيونهم قد سمرت بهتلر، بامتداح الرئيس الوطني، بالشعر وبالنثر، وقد انهك التعب حناجرهم

اللدنة الشبيهة بخناجر أولاد رائعي الجبال يهزون، لكثرة ما رددوا وهم يصرخون عبارة «أنوويه»، عند مرور هيكل بلينيو العظمي ورد في غوستافو بروسو الضخمين. وبفضل التقارب الذي جعلته الماركات الذهبية في حدود الامكان، امتزج هؤلاء «الارستقراطيون» بأمثال فيفيروس دي كاسترو ماديراس دي فريتاس وكارلوس مول، هذه الخثالة الأدبية الفاشلة التي طالما احتقروها في السابق. ولم يكونوا الوحيدين في انتهاج هذا المسلك؛ فان المتشككين الذين كانوا ينظرون إلى الحياة بابتسامة احتقار، و«الحياديين» الذين كانوا يثثرون في المكتبات، ان هؤلاء جميعاً بدأوا يجدون بلينيو أقل سخفاً مما كانوا يتوقعون... فآخذوا، هم أيضاً، يضربون على صدورهم علامة الندم والاستغفار...

ولم تكن الانتغالية تتردد عن القيام بأي استفزاز. وجعل النازيون بواسطتها يسلمحون الألمان في جنوب البرازيل. وكان أدها البوليسي والاستفزازي يوزع بواسطة المؤسسات الرسمية. وفكر بلينيو بسنّ قوانين زجرية ضد الحرية وضد الشعب، فسارع «الدستوري» رويو إلى تدبيجها. وكان رجال الحكومة ينظرون بمودة وحنو إلى استعراضات القمصان الخضراء، التي كانت تسير أمامهم في الشوارع. وكان المال يسيل باندفاع، وكان بمقدور أي انسان الحصول عليه ما دام على استعداد لبيع نفسه.

وكان أمر «التيننتيسمو» قد صُنّي، فأقفلت نوادي «التيننتيستين»، وأبعد أهم قادة هذه الحركة عن المراكز الحكومية. وكان أولئك الذين قبلوا ان يبيعوا أنفسهم يُشرون بصورة منهجية؛ أما أولئك الذين قاموا بثورة سنة ١٩٣٠، فقد زال أثرهم نهائياً من على مسرح السياسة. وكان جيتوليو فارغاس ساعته قد انتهى من تعديل وزارته للمرة الأولى. وهو الآن لم يبق مستنداً إلى مؤازرة الشعب، بل إلى مؤازرة الملاكين العقاريين والاستعماريين والفاشييين. وكانت السنوات الأربع التي مرت كافية لتغيير معالم الثورة. وكما في سنوات الجمهورية الأولى، عاد أسياد العبيد إلى استلام الحكم، وصنفي أمر

«التيننتيستين» كما كان قد صفي أمر «الايجابيين» في الماضي، وخينت الثورة. ولم يكن الشعب وأفراد «التننتس»، الذين لم ينقلبوا إلى صفوف الرجعية بدافع من الرغبة في الحكيم، يرون أمامهم سوى طريق واحدة. وتردد أحد الاسماء على جميع الشفاه في جميع أنحاء البرازيل. لقد كان هذا الاسم علماً خفائفاً، وكان يحمل في طياته المخرج الوحيد وسبيل الخلاص الفرد. وجعل الشعب، من جديد، بنادي «فارس الأمل»، ذلك الذي كان قد حتم ما سوف يجري، فرغب عن الانضمام إلى صفوف أعداء الشعب، ورفض ان يحكم ضد إرادته ولم يبع نفسه، وظل الأمل الوحيد للناس الذين كانوا يفكرون بمستقبل البرازيل.

وأصبحت حالة البلاد المالية في تدهور تام. لقد كان ذلك هو عهد القروض المجمدة والمراكات المعوضة. إنه العهد الذي أحرق فيه البن، وبلغ مستوى المعيشة فيه حداً خيالياً، بينما كانت الأجور في درك يرثى له من الانخفاض. وأخذت الانتغرافية تهتم في بيع البلاد من الألمان، بينما جعل الاستثماريون يتناحرون في ما بينهم، وقد رغب كل منهم في نيل حصة الأسد من ثمن بيع البلاد بالمزاد العلني.

وأمام الوضع الذي كانت تجتازه البلاد، أمام خطر الفاشية، أمام تصفية الدستور بصورة منهجة بواسطة راو، أخذ أكثر أعضاء «التيننتس» وعياً، أولئك الذين كانوا ينشعرون بالطريق التي تسلكه الثورة، يتحدثون مع قوى اليسار الأخرى، مع الديمقراطيين الحقيقيين، مع الشيوعيين، واقاموا أسس حزب سياسي واسع وشعبي، معاد للاستعمار وللملكيات الكبرى.

وكجواب على صخب الشعب الذي كان يُخان باستمرار، وعلى المخاطر التي كانت تتهدد البلاد، برز التحالف الوطني التحريري. وانتخب هذا التحالف في مؤتمره التأسيسي، وسط اهتافات العظيمة لشعب يستعيد ثقته، لويس كارلوس برسنس رئيس شرف له.

وهبت من جديد نسمة من الأمل في جميع الصدور، وأخذ الخونة يرتجفون.

- ٤ -

كان الجمهور الصامت يتدافع داخل مسرح جوان كاتانو. وكان الناس الجالسون وأولئك الذين يتدافعون وقوفاً في الممرات، قد حظوا جميعاً بحظ خارق، يا صديقتي، لأنهم تمكنوا من دخول القاعة. وكان جمهور يفوق هذا. بعدة مرات أيضاً ينتصب واقفاً في ساحة نيرادنتس، وينتظر، وقد ران عليه الصمت هو أيضاً. وكان هناك أشخاص من كل الألوان: بيض وسود وسمر وخلاسيون. وكان هناك أناس فقراء، ورجال تركوا عملهم المضني في المعمل، وفلاحون قادمون من الضواحي، وجنود وبجارة وطلاب ومثقفون. وكان الجميع يراقبون ما حولهم بصمت. فلقد دعا الشعب فريق من «التيننتس» ومن اليساريين، لحضور حفلة تأسيس حزب سياسي جديد، كان بالأحرى جبهة واسعة من كل أولئك الذين يرغبون في تحرير الوطن والشعب.

وفي داخل القاعة كان يُقرأ على المسرح، بيان الوطنيين التحريريين، وكان صوت الخطيب الواضح، الملهب، يُدخل الأمل إلى قلوب الجميع. ومن شهر تشرين الأول سنة ١٩٣٠ إلى شهر آذار سنة ١٩٣٥، كانت الثورة المنتصرة في الظاهر، قد بيعت. وأصبحت الحكومة المركزية لا تعتمد على مؤازرة الرؤساء الثوريين ولا الرجال الذين منحهم الشعب ثقته. ولقد تبخرت جميع الآمال التي ازدهرت في سنة ١٩٣٠، عقب الثورة، على أثر البذرة الثورية التي غرسها الطابور عند مروره. وكانت الانتغالية، المؤيدة من قبل الشرطة، العدو للشعب، العدو للحرية وللثقافة، للجمال وللحب، قد أخذت تنشر كخطر جديد على البلاد، أكثر عنفاً وقبحاً من كل الأخطار السابقة. ولكن في هذه الفترة الخطرة، في هذه الفترة التي كان فيها الخطر يزداد ويتعظم، كان شعب البرازيل، من الشمال إلى الجنوب، من الشرق إلى

الغرب، من غابات أمازونيا العذراء إلى بامباس الغاوشوس، من الأطلسي إلى نجد ماتوغروسو المركزي، يفكر، يقول ويصرخ باسم واحد: لويس كارلوس برستس.

وكان أفراد «التيننتس»، أولئك الذين فهموا المناورات التي كانت تتبع لنصفية الثورة، وأولئك الذين ظلوا أمناء لهدفهم الأعلى ولم يبيعوا أنفسهم للقوى الرجعية، يعمدون، بموازرة الغاوشوس الذين كانوا يشعرون بقدوم الخطر الفاشي، إلى خلق جبهة واسعة لتأييد الديمقراطية، إلى خلق قوة سياسية تُبعد عن البرازيل الخطر الفاشي. وكان الشعب يتدافع في مسرح جوان كاتانو، ويفيض على ساحة تيرادنتس وكان الخطيب يقول:

«إن للتحالف الوطني التحريري منهجاً واضح المعالم محدداً. إنه يطالب بإلغاء الديون الاستعمارية، بتأميم المشاريع الاستعمارية، بالحرية بأوسع مداها، بأن يتمتع الشعب بحرية التظاهر، بإعطاء اللاتيفنديا إلى الشعب الشغيل الذي بزرعها، بتحرير جميع الطبقات المزارعة المستثمرة بواسطة نظام من الأتاوات الاقطاعية، بإلغاء جميع الديون الزراعية، بالدفاع عن الملكية الصغرى والمتوسطة ضد المرابين، وعدم الاستيلاء عليها بواسطة الرهونات العقارية».

ولدى قراءة كل مطلب، كان البيان يقطع بعاصفة من التصفيق. فلقد كان هذا البيان يحدّث الشعب عن حاجاته، يحدّثه عن مشاكله. ووجد الشعب أخيراً منهجاً لثورته التي كانت قد أخذت بصورة منهجية. وكان انضمام «النينتيسمو» إلى أكثر القوى الشعبية وعياً في حركة التحالف الوطني التحريري، يشكل خطوة عظيمة إلى امام. وكان الجمهور يشتعل حماساً لدى قراءة كل مقطع:

«نريد أن تُستعمل المبالغ الهائلة التي تذهب من البرازيل لتملاً صناديق السادة الأجانب، لمصلحة الشعب البرازيلي نفسه، ان تستخدم من أجل استثمار ثرواتنا وتطور قوى الانتاج في بلادنا، وان تسمح بتخفيض الضرائب عن كاهل شعبنا النشيط، وان تخفّض اسعار المواد الضرورية للعيش وان

تساعد تجارتنا ، وان تزيد في أجور العمال والمستخدمين والموظفين ، وان تجعل للضمانات الاجتماعية للشغيلة قوة فعلية ، وان تؤمن تصنيع البلاد على مستوى واسع .

وفي وسط وابل من الهتافات ، كان كل شعارٍ ينتقل من فمٍ إلى فمٍ ، حتى يصل إلى الباب ، حيث كان يُستقبل بحماس عظيم . وكان الهتاف والتصفيق يذهبان بعيداً جداً ، يذهبان ويزعجان رقاد أولئك الذين تاجروا بالثورة . وكانت الجموع البشرية العظيمة ، المتجمعة في ساحة تيرادنتس ، تظل صامته طيلة قراءة البيان في داخل القاعة ، ولكن ما ان تصل إلى مسامعها الشعارات التي كان الخطيب يطلقها ، حتى تدب فيها الحركة وتهب لتأييدها . ووصل البيان إلى نهايته :

« اننا نريد وطناً حراً » !

نعم ، نريد وطناً حراً . ومنذ اجيال يناضل الناس في البرازيل من أجل وطنٍ حر . وتحمل الساحة التي يجري فيها الاجتماع اسم واحد من أول المناضلين من أجل الحرية : تيرادنتس ، ملازم ميناس ، ذلك الذي تعرّف إلى تعاسة حياة الشعب في ظل نير البلاط البرتغالي ، واراد هو أيضاً ان يحرر بلاده ، ودفع ثمن حلمه هذا على مشنقة في ريو دي جانيرو . وسال دم الشهيد زارعاً الشجاعة والأمل .

« نريد برازيل متحررة من العبودية الاستعمارية » !

نعم ، متحررة من العبودية الحديثة . ولقد ناضل فلوريانو « والتيننتيستون » من أجل هذا ، مضحين بدمهم وبحياتهم . ومن سنة ١٩٢٢ حتى سنة ١٩٢٤ ، ناضل « التيننتيستون » في هذا السبيل مع سيكيلا على شاطئ كوبا كابانا ، مع ميغيل كوستا في شوارع سان باولو ، مع برستس في بامباس الجنوب ، ناضلوا من أجل السبب نفسه ، بالرغم من تشوش افكارهم النظري ، إذ أنهم كانوا يفتشون ساعتئذ عن طريق الخلاص للبرازيل . لقد اجتازوا البلاد كلها مقاتلين . ثم عادوا إلى الظهور في سنة ١٩٣٠ . ومن جديد

عاد رجال السياسة إلى بيع البرازيل وتسليمها إلى السادة الأجانب.

« نريد تحريراً اجتماعياً ووطنياً للشعب البرازيلي » !

ان هذا هو حلم اليوم وواقع الغد. كان الجمعُ يصرخ، يا صديقتي. لقد انتصب معلناً موافقته، معلناً رغبته في ان يناضل.

ولكن الجمهور يطالب اليوم، وهو يُدعى للعمل، بضمان، يطلب كفالة رجل، كفالة اسم، الاسم الوحيد الذي يمثل ضماناً لأن تكون المناهج والشعارات والوعود حقيقة واقعة. وفي قلب القاعة وفي وسط الساحة، بدأ الجمهورُ يطلق صراخه الحربي:

- برستس! برستس! برستس! لويس كارلوس برستس!

وقال شخص ما، من على المسرح:

- نقترح انتخاب اللواء لويس كارلوس برستس رئيس شرف للتحالف الوطني التحريري!

واستقبل الجمهور المحموم هذا الاقتراح بوابل لا ينقطع من الهتافات. لقد كان واثقاً الآن بان هذا الحزب لن يخان ولن يباع، وبأن منهجه سوف ينفذ، وبأن الثورة التي سيقوم بها ستكون عميقة جذابة. لقد كان الشعب يجد من جديد لواءه، رئيسه، بطله، يسير في مقدمته. وفي شوارع ريو دي جانيرو، بين الجمهور الذي كان يتفرق وقد امتلأ سروراً وحماساً، كان اسم برستس يخفق خفقان قلب الوطن نفسه!

★ ★ ★

وكان على التحالف الوطني التحريري، الذي تأسس في آذار سنة ١٩٣٥ يا صديقتي، بواسطة بيان وقعه «التيننتيستيون» واليساريون، ان يتمتع بحياة شرعية في منتهى القصر، ولكنها ذات أهمية قلما تعرف إليها تاريخ البرازيل

السباسي. فخلال الشهور الأربعة من الشرعية، أصبح فيها هذا التحالف أعظم الأحزاب البرازيلية وأكبرها على الإطلاق؛ فلقد استجاب لندائه إلى الاتحاد مليون ونصف مليون من البرازيليين، وتوجدت حول شعاراته جميع أحزاب اليسار السياسية، من الشيوعيين إلى الاشتراكيين إلى الديمقراطيين. واتخذت جماهير اللاحزبيين الواسعة، تلك الجماهير التي ثقفتها الطابور، مراكز لها في صفوف التحالف. وحظي بمساندة الكتاب، وانضمت النساء المناضلات من أجل تحقيق مطالبهن إلى الحركة الكبرى التي يرأسها برسنس. وأنشئ أكثر من خمسمئة مركز للتحالف، في أقل من أربعة أشهر، في جميع أنحاء البرازيل؛ وفي أيام التسجيل الأولى، بلغ ضغط الجماهير حداً، في ريو، لم يتوصل معه المسؤولون إلى تسجيل جميع طلبات الانضمام إلى التحالف. وتسجل خلال بضعة أيام خمسون ألف عضو في ريو دي جانيرو وفي سان باولو، حيث وقف ميغيل كوستا في طليعة الحركة، صفى التحالف أمر الانتغرافية، وتحول إلى حزب سياسي قوي بما لا يُقدر. وفي مدينة صغيرة كيتروبوليس، وهي مركز اصطيف، سجل ألفان وخمسمئة شخص اسماءهم فوراً في صفوف التحالف. وكانت قافلة التحالف التي تطوف المنطقة الشمالية - الشرقية، والمنطقة الشمالية، تُستقبل استقبال الفاتحين في كل مدينة تجتازها. وكان المثقفون الممثلون لحقيقة مشاعر البلاد، يساندون التحالف بواسطة «نادي الثقافة الحديثة». وأنشئت الجرائد والمجلات؛ وأخذت الكراسيات والكتب تنهمر على كافة أنحاء البرازيل. لقد كان التحالف الوطني التحريري يحمل في اردائه الحرية والثقافة. وكان موتاليا يذير «آمانيا»، أكثر جرائد البرازيل شعبية؛ وفي سان باولو كان برازيل جرسون يهتم بجريدة «آبلاتيا»، وكان روبان براغا يشرف في رسيقي على انطلاق جريدة «فوليا دوبوفو» (ورقة الشعب) الشجاعة العنيفة وأعلن نواب «تينتستيون» في ذلك العهد، تأييدهم لمنهج التحالف. ومنح الثوريون الذين كانوا لا يزالون في الحكم، هذه الحركة عطفهم. وغادر رجال شرفاء عديدون، كانت الديماغوجية الانتغرافية قد خدعتهم، صفوف حزب بلينيو سلغادو لينضموا إلى صفوف التحالف.

وحمل بياناً برستس، اللذان اذاعهما في ١٣ أيار و ٥ تموز خلال اجتماعاً رائعة خالدة، إلى الجماهير، الأمل بمستقبل البرازيل. ان التحالف يقوم بعد سياسي رائع، لا تزال نتائجه ملموسة حتى الآن.

وانطلق الشعار الذي كان يهدف إلى تشكيل حكومة وطنية - ثورية، قلب الجماهير نفسها التي انضمت إلى التحالف. انه النتائج الطبيعي للمنهج. مجهودات الرجعية من أجل الاستمرار في الحكم والقيود التي كانت تفرض يوماً بعد يوم على دستور سنة ١٩٣٤، والاحترام الذي كانت تكنه للأنثغالية التي كانت تشكل حربة مسلطة على عنق الشعب، والصلة كانت تزداد توطداً يوماً بعد يوم بينها وبين مختلف أنواع المستعمرين، الانكليز إلى الألمان إلى الأميركيين، ومناوراتها السياسية التي كانت تزد قذارة باطراد، كل هذا جعل الجماهير لا تؤمن بإمكانية تحقيق أقل مطالب بدون تشكيل حكومة جديدة، حكومة يرأسها رجل لم ينحن مطلقاً، ومنح حياته للشعب، للنضال من أجل مصالح الشعب: حكومة برستسية.

لقد كان جيتوليو فارغاس يستند إلى ثالث فاجع: راو، فيلنتو وبلين سلغادو. اللاتيفنديا، الاستعمار والفاشية. وكان منهج الحكومة الشعبية الوط الثورية هو فعلاً منهج ضد اعداء الشعب هؤلاء. ولقد كان برستس يعد يلي:

«إلغاء وعدم الاعتراف بالديون الأجنبية».

«فضح المعاهدات اللاوطنية المعقودة مع الاستعمار».

«تأمين أهم المصالح العامة والمؤسسات الاستعمارية التي كانت ترفه الخضوع لقوانين الحكومة».

«يوم عمل من ثماني ساعات على الأكثر، ضمانات اجتماعية، منه إلخ... زيادة الأجور على أساس (أجر متساو للعمل المتساوي)، ضد الحد الأدنى للأجور، لتحقيق جميع حاجات البروليتاريا».

« النضال ضد ظروف العمل المتحددة من عهد العبودية والاقطاعية » .

« توزيع الأراضي على فقراء الشعب ، من عمال وفلاحين ، واستعمال خزانات المياه في أوقات الجفاف دون أي تعويض للاستعماريين ولا لكبار الملاكين المغرقين في الرجعية ، بما فيهم الكنيسة ، الذين كانوا يناضلون ضد تحرير البرازيل وتحرير شعبهم » .

« إعادة الأراضي المنتزعة بالقوة من الهنود إلى أصحابها » .

« أوسع الحريات الشعبية ، التصفية الكاملة لكل تمييز يتعلق بالجنس أو باللون أو بالقومية ، حرية دينية كاملة وفصل الكنيسة عن الدولة » .

« النضال ضد كل حرب استعمارية ، التعاون الوثيق مع جميع التحالفات الوطنية التحررية في بلاد أميركا اللاتينية الأخرى ، ومع جميع الطبقات والشعوب المضطهدة » .

هذا ما كان ينص عليه منهج حكومة لويس كارلوس برستس يا صديقتي ، وهذا ما كان يعد به الشعب عندما أطلق في اجتماع الخامس من تموز هذا الشعار : « كل السلطة للتحالف الوطني التحريري » .

شعار أضاف إليه الشعب العبارة التالية :

« برئاسة لويس كارلوس برستس » .

★ ★ ★

إن حماس الشعب لحركة التحالف الوطني التحريري ، والقوة التي كانت تنطلق من هذه الحركة ، كانا يحملان على الاعتقاد يا صديقتي ، بأن قيام حكومة ثورية شعبية أصبح في حدود الإمكان . ولقد انخفض بصورة مدهشة ، نشاط الانتغرافية المحموم ، الذي وُجد نتيجة للتأييد الحكومي ، ولعدم فضح هذه الحركة بما فيه الكفاية . وقُدِّر للانتغرافية ، بعد قيام التحالف ، أن تزول

من على مسرح السياسة في فترة وجيزة جداً. وكانت قوى اليسار و « النبنينستاس » والقوى الديمقراطية، تزداد، يوماً بعد يوم، التفافاً واتحاداً حول التحالف وحول برستس. وكان المغامرون والانتهازيون، الذين يفتشون دوماً عن المكان الذي تهب منه ريح الانتصار، قد بدأوا يضربون صدورهم بوضاعة، ويحاولون التقرب من التحالف. وقد ألقت حيوية الشعب البرازيلي الثورية، الرعب الكامل في صفوف الرجعية، ولجأت الشرطة إلى استعمال وسائل عنف كانت مجهولة حتى ذلك التاريخ. وكان ذلك العهد هو عهد اغتيال المناضلين الثوريين، اغتيال تجهد الشرطة اليوم في القاء تبعته على المعتقلين السياسيين، وكان عهداً يُعتقل فيه الناس في كل لحظة. ولكن شيئاً من كل هذا لم يكن يستطيع ان يمنع الحركة من التطور والانتشار يوماً بعد يوم: كانت جماهير عظيمة تسهم في الاجتماعات الثورية، وكانت بيانات برستس تنتقل من يد إلى يد، وتقرأ في كل زاوية من زوايا البلاد بتأثر وانفعال. ولم يبق بمقدور اللجنة الوطنية للتحالف ان تؤمن عمل المنظمة المرهق. فخلال أربعة شهور من وجوده الشرعي قام التحالف بالتربية السباسبية للجماهير البرازيلية، ولا تزال مظاهر هذه التربية تبرز اليوم أيضاً في القوة التي تقاوم بها الجماهير « الدولة الجديدة » ذات النمط الفاشي. وإذا ما كانت البرازيل لم تُسلم إلى الألمان، فان سبب ذلك يعود، بصورة رئيسية، إلى الجماهير التي قاومت ببطولة ارتقاء البلاد في احضان الفاشية وتسليمها إلى النازيين. ولقد خلف التحالف قوة عظيمة ديمقراطية ومعادية للفاشية، عظيمة لدرجة ظلت معها محتفظة بفاعليتها حتى أثناء السنوات القاسية التي كانت فيها الرجعية المنظمة تسوم الشعب باستمرار سوءاً وفساداً.

ولم يبق الطابور الخامس، هو أيضاً، جامداً. فآمام التطور العظيم لقوى التحالف، أمام الخماس الذي كان يؤيد فيه الشعب تشكيل حكومة شعبية ثورية، عمدت الحكومة، بواسطة راو، إلى اتخاذ الاجراء الوحيد الذي يمكنه ان يوقف بشكل فعال حركة التحرر الوطني: أعلنت عدم شرعية التحالف الوطني التحريري بمرسوم مؤرخ في ١١ تموز سنة ١٩٣٥. وطُبق « قانون

الأمّن» أو «القانون الوحش». وأخذ اعداء الشعب يقاومون أحزاب الشعب، بقاومون إرادة هذا الشعب. ويسجل إعلان عدم شرعية التحالف بداية لنظام خُنقت فيه الحرية بصورة كاملة. وبدأت البلاد تُحكم بصورة دكتاتورية، وأصبح الدستور شيئاً لا معنى له ولا جدوى منه، بعد تطبيق قانون الأمّن؛ فلم يبق له من وجود عملي. وذهبت احتجاجات النواب حول هذا الموضوع ادراج الرياح. ان هذا الجو سوف يزداد في سرعة وقوع الحوادث ويقود الشعب إلى القيام بثورة تشرين الثاني.



كان برستس قد دخل إلى البرازيل في شهر نيسان وتوجه مباشرة إلى ريو دي جانيرو. وكما جرى في جميع حوادث تحرير البرازيل الكبرى، كان يقف إلى جانبه بعض الأجنب من أصدقاء الحرية: النائب الألماني السابق آرثور أرنست أيبورت، القائد العمالي الارجنطيني رودولفو غيولدي، ليون فاليه، المواطن الأميركي بارون الذي سوف يغتاله رجال شرطة ريو، بدفعه من على شرفة في الطابق الرابع.

وان الحملة التي شُنت حول وجود هؤلاء الثوريين الأجانب، الذين منحوا عونهم حركة تشرين الثاني، كانت حملة تافهة لا تستند إلى أي أساس صحيح. وجهدت الشرطة، ولكن عبثاً، إلى تحويل عطف الشعب، بهذه الوسيلة، عن حركة التحالف، كما لو ان مساندة الأجانب لحركاتنا الوطنية التحريرية الكبرى كانت شيئاً جديداً في تاريخ البرازيل! فخلال «الانكونفيدانسيا» كان وجه البرتغالي توماس انطونيو غونزاغا يبرز في صف الرعيل الأول من رجال السياسة. وخلال الاستقلال كان بترو الأول برتغالياً، وكان اللورد كروشان، بطل البرازيل والشيلي، انكليزياً، وكان اللواء لا باتوت فرنسياً. وكان الطلاب البرازيليون الذين حلموا، حوالي سنة ١٧٠٠، بالاستقلال، مرتبطين بالولايات المتحدة. وكان أول زامي في جمهورية بالمارس، أفريقياً. وكان ليبرو بادارو ايطالياً، كجيسوسي

غاريبالدي. وفي الطابور، كان لاندروسي، النقيب السابق في الجيش الايطالي، مساعداً عسكرياً لبرستس. وابان ثورة سنة ١٩٣٤ كان في سان باولو فوج الماني. لم كان يتوجب على حركة سنة ١٩٣٥ وحدها ان ترفض مساعدة الأجانب المحبين للحرية؟ ان منهج الحكومة الوطنية الثورية نفسه كان يتحدث عن إزالة كل الفروق في «الجنس واللون والقومية». ولم يكن بمقدور اصدقاء الحرية، والذين ناضلوا من أجلها في بلدان عديدة، ولا بمقدور القادة الشعبين، كالألماني أيرت والارجنتيني غيولدي، الذين كانوا في البرازيل في ذلك الحين، إلا ان يمنحوا حركة تحرير الشعب البرازيلي عطفهم ومعونتهم. وان تاريخنا كله، على اعتباره تاريخاً شعبياً، قد امتلأت سطره باسماء الأجانب الذين سكبوا دماءهم إلى جانب دماننا من أجل الحرية. وان اسماءهم لترتفع بالمكان الأقدس من قلوب الشعب إلى جانب اسماء الشهداء البرازيليين. ولن تنسى غداً كذلك، يا صديقتي، اسماء أولئك الذين ناضلوا من أجل حرية البرازيل في سنة ١٩٣٥. إنهم هم أيضاً أبطال لحرية البرازيل؛ ايورت، الذي كان يدعى «برجيه» والذي أعطى أكثر من حياته، قدم تفكيره كله من أجل خير البرازيل؛ غيولدي الذي تعذب في السجون القذرة. ان اسمي هذين كليهما قد سجلا في تاريخ البرازيل إلى جانب اسماء غاريبالدي ولييرو بادارو وجميع أولئك الذين حلموا بالحرية من أجل وطننا ومن أجل شعبنا. انهم منا، ودمهم قد سكب من أجل خير بلادنا. وان أية مناورة قومية لا يمكنها ان تمنع البرازيليين من المطالبة بتحرير «برجيه»، ومن منح جهم شخص رودولفو غيولدي. إن ذكرى هؤلاء جميعاً، الذين عمدوا إلى مساعدة برستس في عملية تحرير البرازيل، ستظل محفورة إلى جانب فارس الأمل، بين اسماء أكثر البرازيليين شجاعة وكرامة من بين أولئك الذين ناضلوا وتألوا من أجل الوطن.

وتجمع الملع ضباط الجيش الشباب، أولئك الذين رافقوا برستس خلال ملحمة الطابور، من جديد حوله: كان هناك ألوية من أمثال ميغيل كوستا، وزعماء كغيليبي موريرالما، ورجال كانوا قد اسهموا في كل الثورات منذ سنة

١٩٢٢. وكان هناك أيضاً أولئك الذين برزوا، في سنة ١٩٣٠، في طليعة «التيننتس». وكان إعداد الثورة يجري وسط أعظم الحماس ووسط تأييد الشعب الحار. وظل التحالف حياً وقوياً رغم جو اللاشريعة الذي كان يعيش فيه.

لقد سبق وقلت لك، يا صديقتي، بأن قليلاً من الناس كانوا يعرفون بوجود برستس في البرازيل. ولكنني قلت لك أيضاً إن الشعب في أيام سنة ١٩٣٥ هذه، كان بمقدوره ان يفهم بأن البطل لم يكن بعيداً. لقد كان اسمه على جميع الشفاه، وكان يُلفظ كاسم الرجل الذي سوف يمنع الوطن من التردى في الدناسة، يمنعه من ان يباع ويخان. لقد كان يسيطر في جميع أنحاء البلاد جو شبيه بجو العيد : ان البرازيل تنهياً لصنع مصيرها.

لقد حرك التحالف الوطني التحريري الجماهير الواسعة وقام بالتثقيف السياسي، وأوقد في قلب كل انسان شعلة حب الوطن وحب الشعب. تلك كانت المهمة التي أنجزها التحالف. وانها المهمة عظيمة لا تزال حتى اليوم نحس بأثارها، يا صديقتي. وان أيام الحماسة هذه قد أعطت البرازيل كثيراً من القدرة على المقاومة، من الكرامة من أجل أيام التعاسة والشقاء التي سوف تحتاج البلاد في ما بعد والتي لا تزال مهيمنة حتى الآن. وإذا ما كانت البرازيل، بعد عدة سنوات من ذلك، لم تقدّم، وقد أوثقت منا اليدان والرجلان، غنيمة باردة لهتلر وموسوليني، فمعظم الفضل في ذلك يعود لحركة التحالف. وإذا ما كانت قد انضمت إلى صف الديمقراطيات، فبفضل التحالف الوطني التحريري جرى هذا الانضمام، يا صديقتي.

- ٥ -

لقد عمل لويس كارلوس برستس، أو بالأحرى انطونيو فيلار البرتغالي، بلا هوادة ولا تلكؤ خلال الفترة السرية للتحالف، يا صديقي. وأخذ الارهاب البوليسي ينشب مخالبه في البلاد؛ ولم تكن الانتغالية، وقد دبّ الهلع في صفوفها أمام تصاعد وتطور حركة الشعب الثورية، لتتردد في القيام بأي استفزاز. وكان اعتماد فارغاس على كبار الملاكين وعلى الاستعماريين، يزداد يوماً بعد يوم. وبالرغم من جو اللاشعورية الذي كان يعيش فيه التحالف، لم يتطرق إليه أي ضعف مطلقاً. وكانت حياة البلاد السياسية لا تزال تتركز حوله. وكان يسير بخطى واسعة نحو تشكيل حكومة ثورية شعبية؛ إذ سوف تؤمن له أول انتخابات تجري أكثرية مطلقة، دون شك.

وحاز التحالف على انتصار كاسح في الكونغرس، بواسطة نوابه، بتبنيه لمشروع قرار ينص على منع الانتغالية، باعتبارها حزباً معادياً للديمقراطية. ونال المشروع التحالفي هذا، الموافقة، ولكن فارغاس ووزير عدليته تجاهلاه، لأنها كانا يعتبران الانتغالية في ذلك الحين أفضل سند للرجعية. وتهيأت الانتغالية للقيام بأخط الأفعال؛ فأخذت تقوم بالنجسس، بالوشاية، بالتخريب، وتنظم مختلف أنواع الاستفزازات. وأخذ الشعب الذي كان قلقه يزداد باطراد، ينادي ويهتف في كل وقت باسم برستس، وأصبح يفكر بحكومة شعبية ثورية تقود البلاد نحو ألام سعيدة.

واستجاب ضباط برسنس لندائه. فإن لواءهم، هذا الرجل الذي توجّ، بأكاليل الانتصار، الجيش الوطني، بفضل من مآثر الطابور البطولية، هذه العبقرية العسكرية الأميركية، هذا العالم والرجل الشريف، كان يجد بين الرجال الشرفاء، بين العسكريين الذين ظلوا امناء للتقاليد الديمقراطية

والشعبية لجيش فلوريانو وكونستان، انصاراً وأعواناً .

وتوصل الخونة والمباعون إلى خلق أسطورة حول الجيش البرازيلي، يا صديقتي . وكانوا يريدون، بواسطة هذه الأسطورة، ان يبعدوا الجيش عن الشعب . إن الجيش الذي كان دائماً طليعة الحرية بالقياس إلى البرازيل، والذي كان أحسن وأقوى المدافعين عن الشعب، والذي طالما توج بأكاليل الغار في ساحات المعارك إلى جانب الشعب في ثوراته، والذي أحيط دوماً بحب الجماهير وكان أكثر الجيوش شعبية في أمريكا، لا يمكن ان يُحكم عليه بناء على استثناءات عاطلة . فلقد ولد هذا الجيش من قلب النضال في سبيل الاستقلال، واستنفذ قواه في ساحات المعارك، ورفض ملاحقة العبيد الهاربين، وأنشأ الجمهورية مع الايجابيين، وناضل ضد أسياذ العبيد، وقام بثورات سنتي ١٩٢٢ و ١٩٢٤، ومشى مع الطابور خلال سيره الملحمي عبر البرازيل، وانتفض ثائراً خلال سنتي ١٩٣٠ و ٩٣٥ . انه جيش الديمقراطي الذي يقف اليوم في وجه المباعين والخونة . انه جيش مانويل راييلو، الذي امتدح الديمقراطية في قلب « الدولة الجديدة » . انه جيش برستس الذي انصت للسجين الساهر الفاتن الذي حوكم بناء على جرم عسكري مزعوم، وحكم براءته بشرف وكرامة . ذلك هو الجيش، جيش البرازيل الكبير الحقيقي، صديق الشعب، الذي يقف إلى جانب الشعب ويتمتع باحترام وتقدير هذا الشعب . لا يا صديقتي، لن نُصدر حكماً سريعاً على هذا الجيش الذي شكل شرف وكرامة الوطن .

وفي سنة ١٩٣٥، أخذ التحالف يجمع صفوفه لخوض معركة الانتخابات، من أجل الاستيلاء على الحكم بالطرق السلمية . ولم تستطع السرية ان توقف منه النشاط . وكانت مراكز التحالف تتابع انطلاقها، وكانت صحفه والصحف المناصرة لمنهجه تحظى دائماً بأعظم رواج في البلاد . لقد كان اسم برستس امل شعب كامل . وسيطرت موجة من الاضرابات على البلاد، كعلامة للاحتجاج ضد الرجعية . وكان التحالف وبرستس يشكلان علم هذه الاضرابات، هذه الانتفاضة الواسعة، هذا الحماس المتعظم . وعندما فرق

الجمهور عدة استعراضات للانتغرياليين، بالرغم من حراسة رجال الشرطة الخاصة لها، أصبح هؤلاء لا يملكون الجرأة على الخروج مجدداً إلى الشارع. عندها عمد بلينيو، راو وفيلينتيو، إلى القيام بالاستفزازات المعادية للشيعوية، وقاموا، مرة أخرى أيضاً، بحملة قذرة مجردة من الكرامة. ان التحالف هو جبهة واسعة ديمقراطية وثورية. انه «تيننتيسمو» متطور وجد لنفسه قاعدة نظرية ايدولوجية تتألف مع أكثر القوى الديمقراطية وعياً. ووقفت قوى اليسار، من اشتراكيين وشيوعيين، إلى جانبه. وأبرز تأييد هذه القوى، بصورة أفضل، القواعد الديمقراطية للتحالف. وكان الشيوعيون - وقد قبل حزبهم بمنهج التحالف - يناضلون من أجل سياسة تحرر وطني تتفق تماماً مع منهجهم. إنهم يعملون على تحويل البلاد إلى الدروب الشعبية الثورية. وعمدت الانتغرية إلى استعمال أقدم الحجج واسخفها. فأخذت تتحدث عن ذهب موسكو، بينما كان الجميع يعرفون بان مالية التحالف مكونة من المال الذي كان فارغاس - زمن ولايته على منطقة ريوغراندي - قد أرسل به في سنة ١٩٢٩ إلى بوينوس ايرس لمحاولة الحصول على تأييد لويس كارلوس برستس. وأخذوا يكررون باستمرار بان برستس عضو في الحزب الشيوعي وواحد من قادة الأممية الشيوعية. وتناسوا بان الشعب نفسه، الذي هو بطله، هو الذي هتف باسمه كرئيس شرف للتحالف. وتناسوا أيضاً بان التحالف الليبرالي قد سبق له ان قام، بكل ما يستطيع في سنة ١٩٣٠، لكي يضع على رأس جيوشه الرجل الذي سبق له ان أعلن شيوعيته بشكل سافر. لقد كانوا يتحدثون عن الأممية في وقت كان فيه الشعب البرازيلي يقاتل، جسماً لجسم، العصابات الانتغرية والبوليسية، المأجورة من الألمان. ويتحدثون عن الأجانب، بينما كان عملاء الانتلجانس سرفيس يعملون في شرطة ريو، وكان عملاء رجال الشرطة أنفسهم «ينخرطون» في الغستابو. كان نازيو الجنوب الألمان هم الذين يتحدثون، بصورة خاصة، عن «الأجانب». وان في هذا لاستفزاز دنيء تافه، رفسه الشعب بأقدامه. وتابع التحالف سيره المطمئن نحو الحكم، وسط الحماس الشعبي العارم.

ولكن هذا السير سيتوقف، مع هذا، ليدافع عن مصالح الشعب.

وانظري يا صديقتي، كيف قامت الحكومة الرجعية في ولاية ريوغاندي دي نورتي، على أثر الاضراب العام الذي أعلنه عمال ناتال، بارهاب بلغ الذروة من العنف، فسرحت الحرس المدني كله، ذلك الحرس الذي كان ديمقراطياً، وكانت له صلات وطيدة بالشعب، وابتعدت كذلك رقباء وعرفاء طابور القنّاصة المحلي. عندها حمل الشعب السلاح وقام بتورة شهر تشرين الثاني. وسيطر الثائرون على المدينة وعلى الولاية، وأخذوا يطالبون، بواسطة الراديو، بتأييد التحالف الوطني التحريري وبتأييد برستس. لقد كانوا يأملون أن لا تتخلى عنهم الحركة التحريرية، وأن لا يتخلى عنهم برستس. واستجابت رئاسة التحالف في الولاية لنداء الثوريين، وأنشئت حكومة شعبية ثورية. ولم تدم سيطرة هذه الحكومة أكثر من أربعة أيام، ولكنها أظهرت بصورة واضحة، مرة جديدة أيضاً، بأن معنى الثورة هو التحرر الوطني. ان حكومة الأيام الأربعة هذه كانت : « شعبية، وطنية وثورية ». وانحصر عملها كله في نطاق الكلمات الثلاث الوارد ذكرها، ولم تحد مطلقاً عن هذا النطاق، فأحاط بها الشعب ومنحها تأييده.

وفي ليل السابع والعشرين من شهر تشرين الثاني سنة ١٩٣٥، أصدر لويس كارلوس برستس الأمر، في ريو دي جانيرو، يا صديقتي، للحاميات العسكرية بأن تثور من أجل الدفاع عن الشعب.

- ٦ -

بالرغم من الخيانات، وبالرغم من الإجراءات الاحتياطية التي اتخذتها الحكومة، استجاب الضباط والرقباء والجنود لأوامر لويس كارلوس برستس. ولم تنفجر الثورة في عدد كبير من الوحدات، لأن الضباط كانوا قد اعتقلوا قبل ذلك بقليل، وانقطعت الاتصالات عقب هذه الاعتقالات. وبالرغم من جميع المصاعب، يا صديقتي، أخذ قادة التحالف بين أبنهم أمر الدفاع عن الناس المناضلين في الشمال الشرقي، من أجل قيام حكومة ثورية شعبية. حقاً ان فشل هذه الحركة الثورية المنسعة سوف يمنح الرجعية قوة جديدة، ولكن لم يكن بمقدور التحالف الوطني التحريري ان لا يهب لمساعدة الشعب، الذي كان يقاتل، والسلاح في يده، من أجل الحرية في المنطقة الشمالية الشرقية. ولم يكن بمقدور برستس، إذا ما كان لا يريد أن يخون الثقة الممنوحة له، ان لا يستجيب لنداء الثوريين في ناتال وريسيني.

وفي فجر السابع والعشرين من شهر تشرين الثاني سنة ١٩٣٥، ثار النقيب آغلي برتو فييرا دي آزيفيدو في مدرسة الطيران، وحل هذه الأخيرة على الثورة معه. وفي الوقت نفسه استولى نقيب آخر، اجليدو باراتا، تابع للفيلق الثالث، على قيادة هذا الفيلق في برايا فرمليا. وكان يؤازر آغلي برتو ضباط آخرون من المدرسة، كما أزره جميع الرقباء، من تلامذة وجنود.

واستمرت المعركة، يا صديقتي، طيلة ليل وصباح السابع والعشرين من الشهر. ولم تستطع الطائرات الاقلاع لفقدان الوقود، وأحيطت مدرسة الطيران بقوى كان عليها ان تثور. وأحيطت مباني الفيلق الثالث أيضاً، بقوات الحكومة التي أضمرت فيها النار. وفي الساعة الواحدة من بعد الظهر، كانت المعركة قد باءت بالفشل. ولقد ظل ضباط مدرسة الطيران يناضلون

حتى آخر رصاصة، ثم توجهوا شطر طريق ريو - سان باولو، حيث يقوم مبنى المدرسة. أما نائرو الفيلق الثالث، فلقد اندفعوا، بصدر عال، وبابتسامة على الشفاء، لمقابلة الألوية الذين سوف يعتقلونهم.

وهناك مشهد، يا صديقتي، يصور لنا حالتهم تلك؛ فلقد مشوا متشابكي الأبدى، والابتسامة تعلق منهم الثغور، نحو الرشاشات المصوبة إليهم. وكان الشعب يستقبل مرورهم بالهتاف والتصفيق. وكانوا يضحكون. إن هذه الثورة التي انتهت بها الأمر إلى الفشل ما كانت إلا بداية لحركة التحرير الوطني. وإن حركة «تينتيسا» كانت قد بدأت، هي أيضاً، في سنة ١٩٢٢، لكي لا تنتصر إلا في سنة ١٩٣٠. وكان المتمردون، وقد تشابكت منهم الأذرع وفتحت الوجه وتعرى الصدر، يضحكون، لقد خاطروا بحياتهم من أجل الوطن. وكان أجيلدو، أجيلدو الشجاع، الذي خاطر بحياته ألوف المرات، يسير في طليعتهم.

أريد أن أحدثك، يا صديقتي، عن قائدين عسكريين، عن أجيلدو باراتا، قائد الفيلق الثالث، الذي أصبح أول فيلق في جيش البرازيل الشعبي، وعن آغلي برتو فيرا دي آزيفيدو، رئيس مدرسة الطيران. إنها الآن يدفغان ثمن حركتهما الثورية ضد خيانة الوطن، في جزيرة فرناندو دي نورونيا، وهي سجن قذر ضائع في وسط المحيط الأطلسي. لقد كانا قد أسهما في الثورات الأخرى. وكانا، وهما ضابطان يتمتعان بشجاعة وثقافة مهنية عظيمتين، يعرفان أن برستس وحده هو الجدير بقيادة البرازيل نحو مستقبلها العظيم. فأنصتا إلى ندائه في ليلة من ليالي ريو واستجابا إليه، ودفعا رجالهما إلى الثورة. وسوف ينقض عليها الطغاة كالغربان السود، وقد امتلأت نفوسهم حقداً ورعباً. وكان على آغلي برتو أن يحكم بالسجن سبعاً وعشرين سنة، وكان على أجيلدو أن يحكم بعشر سنوات. ولكن اسميهما، بعد يوم ٢٧ تشرين الثاني سنة ١٩٣٥ هذا، قد أصبحا خالدين في قلوب الشعب. وفي الساعات الرديئة، في ساعات اليأس والارهاب والشقاء، كان يهمس باسميهما مع اسم برستس، على اعتبارهما رمزاً للمقاومة والشجاعة والكرامة. لقد

أصبح أجبلدو وأغلي برتو علمين خفاقين، يا صديقتي، إنها علمان ارسلتا
تموجاتها فوق البرازيل في صباح يوم السابع والعشرين من شهر تشرين الثاني
سنة ١٩٣٥ المظفر. وكان برستس، وهو أشبه ما يكون بنجمة سيارة، يلمع
فترة فوق رؤوس الناس، قاطعاً الليل ومنيراً سماء الوطن ومظهراً له طريق
المستقبل.

- ٧ -

الليل أكثر كثافة الآن منه في أي وقت مضى، يا صديقي. الرجعية تتحول إلى إرهاب. اولغا تحيط لويس كارلوس بحبها، وتتابع عيناها كزوجة أقل حركاته، بينما تنقب رجال الشرطة بآس كل مكان بحثاً عنه. الخطر في منتهى القرب، يا صديقي. ولكن لويس كارلوس برستس لا يفكر بالهرب، بالهجرة، فهو لا يؤمن أن الثورة قد أخفقت. وفي وسط الارهاب البوليسي، يهمس الشعب باسمه ويمنحه ثقته. وتشاهده اولغا يذهب لحضور الاجتماعات السرية، وترافقه إليها في معظم الأحيان، وقد جعل قلبها يخفق خوفاً على زوجها وعلى الجنين الذي أصبحت تحمله في أحشائها.

وبينما كانت السجون تمتلئ بالنازليين، كان برستس يعيد تنظيم الملاكات الثورية، وترتيب الاتصالات، ويهيئ من جديد الجنود والضباط والشعب للنضال ضد حكومة الضغط والارهاب. وصرف أياماً كاملة من أجل تحقيق هذه المهام. وفي هذه الأثناء، كان رؤساء التحالف في السجن، وكان رجال الشرطة قد اعتقلوا القادة الثوريين، وأبعد الضباط، الذين كانوا مثار شبهاة الحكومة، عن مراكزهم. وكان برستس يستنفد قواه كلها من أجل سد جميع الثغرات، والحفاظ على الحركة الثورية من الانهيار والتبعثر. وهبت ريح من الأمل في سماء البلاد. التحالف الوطني التحريري لا يزال موجوداً، وهو يعمل وبضع الخطط. وهناك، في ليل الارهاب هذا، كان رجل لا يرتجف قط ولا ينفك لحظة عن العمل. فهو يحمل مسؤوليات جساماً؛ انه الرئيس، انه الرجل الذي وضع فيه الشعب ثقته وأمله. ان اياماً سوداً من التعاسة تنقضي على البلاد وتحيط بها، ولكن الأمل لا يموت، لان برستس لا يزال طليقاً حراً، ولان الشعب يثق به ويعرف بانه، ما دام طليقاً، فان البرازيل ستتابع

النضال من أجل تحررها ، وتستعد من أجل تحطيم القيود ، والسير قدماً نحو السعادة .

ويحيط طيفُ أولغا ، لويس كارلوس ، بوابلٍ من حنوه ؛ فهو يشجعه ، يخرسه بابتسامته ، بوجوده وبجبه . والشعب يحيط ، هو أيضاً ، بلويس كارلوس برستس ، يا صديقتي ، ويضع أمله فيه . ان شيئاً ما لم يضع ما دام طليقاً ، وما دام كذلك ، فان صبيحة السابح والعشرين من شهر تشرين الثاني لن تكون سوى أول شعاعٍ من الفجر الذي سيزغ قريباً . هذا ما كان يفكر فيه الشعب ، يا صديقتي ، في الوقت الذي كان الارهاب يسيطر فيه على البرازيل .

- ٨ -

واوقف، يا صديقتي، واقتيد إلى السجن، وعُذِّب واحتجز وحكم.
ولكن، حتى في ذلك الوقت، لم يفقد الشعب لا أمله ولا ثقته. وعلقت عيناه
بالسجين العظيم، فهو يعرف أنه الرجل الذي سوف يغير مصير البرازيل.
وطيلة جريان الحياة في عروقه، يا صديقتي، ستتابع البرازيل، هي أيضاً،
العيش. ستعشب من خلال كرامتها السجينة، من خلال بطولتها المتألمة،
وسترسل بالاحتجاجات مدوية من فمها، أمام المحاكم، حيث تصفع
كلماتها القاطعة كالحقيقة، اللاسعة كضربات السياف، جلادي الشعب. ان
أيام سنة ١٩٣٥ ليست سوى فجر ليوم الحرية. وانه لقريب، يا صديقتي،
ذلك اليوم الذي سيُحطِّم فيه هذا السجن سلاسله، سلاسله هو وسلاسل
شعبه، ويحمل من جديد الشمس إلى سماء البرازيل، ويضع حداً لليل التعاسة.
ويعرف الشعب، يا صديقتي، بأن مصير البرازيل لا يمكن ان يُكتب بيد
الخونة. ان مصير الوطن مكتوب على يد الشعب، على يد برستس. وعلى هذا
الشكل ذاته مكتوب مصير الطغاة، يا زنجيتي. وما دام هو حياً، فالحرية لم
تمت بعد، وسوف لن تتأخر طويلاً عن تمزيق حجب الليل الداكنة. هذا ما
يفكر فيه الشعب، يا صديقتي، الشعب الذي لا يخطئ أبداً لأنه مزود
بعقريّة الشعراء وقوة الأبطال. الحرية هي وراء القضبان، في السجن الذي
يُحتجز فيه لويس كارلوس برستس. ولكن سيأتي يوم تحطم فيه الحرية هذه
القضبان.

القسم الخامس

فارس الأمل

« نداء إلى العالم! نداء إلى الشعوب!
لننقذ لويس كارلوس برستس!
« رومان رولان »

- ١ -

إنكثني برأسك على كتفي، يا صديقتي. سأحدثك الآن عن أشياء كثية، عن رجال صغار، عن رجال في منتهى الصغر، لدرجة فقدوا معها كل معالم الرجولية ومشاعرها؛ انهم كديدان الأرض، بغضون، محتقرون، مقيتون وخطرون. سأحدثك عن سنوات السجن والتعذيب وفقدان الكرامة الإنسانية، عن تلك السنوات التي انسكبت على البرازيل كسيل من الوحل. سأحدثك عن الأناس الذين استحموا في هذا الوحل، الذين ملأوا نفوسهم به لكي يقوموا بكل ما يهين ويذل الكائن الانساني. سأحدثك عن أشياء كثية، يا صديقتي، عن أناس يجعلوننا نشك بمصير الإنسانية، عن أناس يعدّون، عن أناس مجردين من القلب، ولّدوا من تواصل الديدان بالضواري، واعتمروا بقناع الكائن الانساني ليس إلا.

لقد أخطأت التعبير، يا صديقتي، عندما قلت بانهم يجعلوننا نشك بمصير الإنسانية. إنهم كانوا قد توصلوا إلى ذلك، يا صديقتي، لو لم ينتصب قبالتهم أناس آخرون، يتحملون جميع أنواع التعذيب التي يفرضونها عليهم؛ لو لم ينتصب المساجين والمعدّون والشهداء، وقد شتت نفوسهم بالعظيمة والكرامة الإنسانية، والذين بلغت قوتهم المعنوية الذروة من السمو إلى درجة جعلتنا نؤمن، أكثر من أي وقت مضى، بالإنسان، وبمصيره على الأرض.

سأحدثك عن القتل، يا صديقتي. عن أولئك الذين يقتلون ببرودة وبطء ويتلذذون بجريمتهم. عن أولئك الذين يعدّون، وعن الذين يأمرّون بالتعذيب، والذين بهذا وذاك كما لو كانوا في السرير إلى جانب المرأة التي يحبون. سأحدثك أيضاً عن أولئك الذين لم يستطيعوا مقاومة التعذيب وخانوا. وإن هذه لأشياء كثية يا صديقتي، مذلّة، وصغيرة، إنها أشياء

حقرة كجميع تلك التي لها علاقة بالطغاة والعبودية. سأملأ قلبك بالكتابة وأنا أروي لك هذه التعاسات وأصف هذه القذارة.

ولكنني، يا زنجيتي، يا زنجيتي الجميلة، سأحدثك أيضاً عن الرجال الذين تحملوا التعذيب من أجل سعادة شعبهم، الذين ماتوا من أجل هذا الشعب، ومن أجله استلت منهم الروح ببطء في السجون القذرة. سأدلك على الناس الصغار كالديدان، المتعطشين للدماء، الوحوش. ولكنني سأريك أيضاً أناساً في كامل عظمتهم، جبابرة بقلوبهم ونفوسهم، سامين بكراماتهم، انقياء كالنجوم المشعة في الليل، لامعين كالضوء الذي لا يدنسه شيء والذي بدو دائماً جيلاً رائعاً. إن الناس لم يهبطوا مطلقاً إلى الدرك الذي انحطوا إليه في هذه السنوات، يا صديقتي. ولكنهم لم يكونوا مطلقاً في مثل هذا السمو أيضاً، في مثل هذه العظمة والجمال، لم يكونوا أعظم كرامة وبطولة منهم في هذه السنوات.

إن بغضك للقتلة سيكون شيئاً تافهاً بالقياس إلى الحب والاعجاب للذين ستمنحنيها هؤلاء الناس. إن هذا البغض لا يُعد شيئاً إلى جانب الحب الذي سنحيطن به أولئك الذين انتصبوا في وسط الدناسة، بقلب نقي لا يلطخه شيء، واخذوا يرسلون شعاعاً عظيماً فوق هذا المستنقع الدنس. وسوف تكرهين الجلادين وتحتقرينهم.

إن حقيقة الناس لا تتكشف عن عرائها مطلقاً كما تتكشف أيام التعاسة، يا صديقتي. فهم بتجردون في مثل هذا الوقت من كل عواطفهم السطحية، ولا يبقى فيهم سوى العميق والجوهري منها. ولن يبقى في ساعة التعاسة، من لويس كارلوس برستس ومن الآخرين الذين سوف أحدثك عنهم أيضاً، سوى عظمتهم وكرامتهم، سوى مجدهم الانساني.

أي زهوٍ عظيم يتملكنا عندما نفكر باننا رجال، وبأن لويس كارلوس برستس ورفاقه هم رجال أيضاً! إنهم يشرفون نوعهم، يشرفون الانسانية.

أحني رأسك على كتفي، يا صديقتي. إنك تشاهدين القمر الاصفر يسبح

في أعالي السهوات، وتشاهدين سفينة سوداء تمخر عباب اليم في الظل الذي يعكسه على سطح الماء. سوف تعلمين، يا زنجيتي، كيف يتغلب الرجال على أيام التعاسة، كيف يستطيعون أن يكونوا سعداء، وأن يسعدوا غيرهم بالمثل الذي يقدمون في ساعة الطغيان والموت والتعذيب. سوف تشاهدين النور يلعب فوق الوحل، يا صديقتي.

من أعالي الهضبة، كانت تترأى أنوار المدينة. ومن خلال التطريز الذي كانت تنسجه مصابيحها الكهربائية على صفحة البحر الخضراء، حيث يسبح نور القمر الفضي، كانت ريو دي جانيرو تبدو بهيئة جميلة. وكان صخب المدينة المتموج - صوت ابواق السيارات، صراخ باعة الصحف، عويل صفارات المعامل، ضجيج القاطرات الكهربائية التي تعج بالناس، أصوات الرجال البعيدة، رنين بعيد لضحك امرأة - كان صخب المدينة كله يصل إلى مسامع أوغستا. فتوقفت لحظة لتعَبَّ النفحة الحية التي كانت ترسل بها إليها ربيع المدينة. وكانت أوغستا، بوجهها الغريب الذي لا يكاد يُعرف، والمملوء بآثار الضرب، وبعينها السوداوين وشعرها المبعثر، تكاد تهتسم. ولكن الرجال دفعوها بقسوة فعاودت صعود الطريق. إنها لم تعد ترى المدينة التي كانت تنتشر في الأسفل تحت عينيها، ولا تسمع الصخب الحي الذي كان يتصاعد من لارغو دا كاريوكا. وبعد هذه اللحظة الوجيزة، التي تمتعت بمشهد الحياة خلالها، غرقت من جديد في واقعها. إنها تخرج رجليها الآن عبر الطريق الصغيرة الوعرة. وكان الأمر صعباً، إذ أنها كانت منهوكة القوى، وكانت كل خطوة تقوم بها تؤجج الآلام المستوطنة جسدها. لقد كان كل شيء يؤلمها، وهي لم تتوقع مطلقاً أن تحس بألم بهذا العمق، بهذا العنف. كل شيء كان يؤلمها، قدماها تبدوان في منتهى الضخامة، وكانت تشعر بأنها قد كبلتا بالسلاسل. وكانت تقوم بمجهود يائس، كما لو أنها ترفع شيئاً في منتهى النقل، إن سيرها يتباطأ وجسدها كله ينضج بالألم؛ إنها لم تعد ترى أنوار المدينة ولا ضوء القمر على البحر، ولم تعد تسمع أي صوت. إن الاحساس الوحيد الذي يطالها هو ألم جسمها وثقل قدميها اللذين أفلعا عن

الحركة، كما لو كانا من رصاص.

حاولت التقدم من جديد. تقلص وجهها وتحول إلى فرجة مؤلمة. وأخذت الريح تتلاعب بالأسبال التي ترتديها، وشعرت أن قلبها سيتوقف عن الخفقان. وعلى هذا الوجه الخلق، الذي كان لعدة أيام مضت صافياً رائقاً، ارتسمت ابتسامة من سرور. سيضع الموت حداً لكل هذا، إذ أنه سيحمل معه راحة رقاد لا ينتهي. حاولت مرة أخرى، ولكن قدميها جامدتان. وكان الألم وحده هو الذي ينتقل في كافة أنحاء جسدها، وقد بدا في منتهى قوته. وتقدم رئيس الشرطة. وتقدم الرجال من جديد أيضاً، لقد كانوا من أفراد الشرطة الخاصة. وضربها واحد منهم على كتفها، ودفعها إلى أمام:

- تقديمي!

إنها لم تكن تحسن لغة البلاد، إلا بالقدر الذي تفهم معه الكلمات التي توجه إليها. وقامت بمجهود جديد أعظم من السابق، أعظم كثيراً. فتشعب الألم، حاداً عنيفاً. والتوى جسدها إلى أمام، ولكن قدميها لم تتحركاً، وسقطت وهي تضرب الأرض بوجهها. وامتلاً فمها، نصف المفتوح، بالوحل والعشب اليابس. وصاح الرئيس قائلاً:

- إنها مهزلة تمثل! لتنهض!

فانقض رجال الشرطة على أوغستا وأوسعوها، بقبضاتهم المضمومة، ضرباً على رأسها وكتفها وخصرتها. وكان واحد منهم، أعظمهم قوة، يوجه ضرباته إلى الخاضرتين. وكان آخر يوجهها إلى الردفين. اقترب الرئيس مرة جديدة فأصبح أمامها، ووجه إليها ضربة من قدمه على أم رأسها وهو يقول:

- انهضي أيتها العاهرة!

لقد كانت تحسن بجميع الضربات، ولكنها أصبحت لا ترى جميع الرجال الذين بوجهون هذه الضربات إليها. لقد كانت تحس بالألم ينتقل في جسمها: هنا يجب أن تكون الضربة قد وُجّهت إلى الخاضرتين، لم تشعر بهذا الألم العظيم في عنقها؟ ما هو هذا الثقل الذي كانت قد أخذت تنوء تحته فجأة؟

لقد كان يركلها عشرة رجال ، يا صديقتي ، وكانوا يرمونها بشتائمهم صارخين . أيمكن أن يكون قد وُجد في الاسفل مدينة حية ، ورجال يشون ونسوة يضحكن ويبكين ؟ هنا كان يبدو كما لو أننا في عالم آخر : كانت امرأة متمددة على الأرض بينما يطررها عشرة جنود بوابلٍ من ضربات عصيّ البامبو ، بينما كان الرئيس الجامد ، الأنيق المبتسم ، يسحق وجهها بقدميه المتدثرتين بجزمة ضخمة . وكانت الشتائم والاهانات تعلو فوق الصخب الحي المتصاعد من المدينة .

- انهضي !

وطالعت تخيلتها عندها صورة غامضة لما حدث . فلقد استطاع عقلها ، بمجهود خارق ، التغلب على ألمها ؛ وشعرت بانها تُضرب . وفهمت أيضاً بأنه يُطلب منها أن تنهض ، وان تواصل السير . وتدلت فوق رأسها قدمٌ ما . ورويداً ورويداً ، نهضت وانتصبت وسط الضربات ، واستجاب جسدها لنداء الارادة اليائس . إنها امرأة قد دب فيها الضعف ، يا صديقتي ، بل ربما لم يبق فيها من معالم المرأة أي أثر . لم يبق فيها أي أثر من الكائن الانساني ، بوجهها المتورم ، وجسمها الذي حطمه الألم ، وعينيها المحتقنتين بالدماء ، ووجهها الذي جوفه الجوع . ومع هذا كانت أوغستا إليز إيورت ، امرأة الالماني ايورت الذي يطلقون عليه اسم هاري برجيه ، امرأة قوية . أيمكننا أن نعرف ، ولو بعض التعرف ، من خلال هذه القطعة الإنسانية ، التي كانت تنهض متباطئة وسط مطر من ضربات المراوات ، إلى امرأة ، إلى زهرة من الجنس البشري . لقد كان جسدها الدامي مغطى بتياب قد تمزقت إربا إربا . ولكن كان يخفق في صدرها قلب كبير كالعالم ، تستمد منه تلك القوة ، التي هي أعظم من الألم ، والتي تجعلها تنهض وتمشي . وكانت هذه الطريق الصاعدة لا تنتهي أبداً . وفكرت أنها لن تنتهي مطلقاً ، إذ يتوجب لذلك سنون وسنون ... وخاطب رئيس الشرطة رجاله الذين ينضحون بالعرق قائلاً ، على سبيل الاستنتاج :

- ألم أقل لكم أنها مهزلة تمثل ؟

ووجه إليها ضربة أخرى بقدمه، فسقطت من جديد. لقد كانت تتقدم الآن بجر جرة نفسها على قدميها ويديها، متسلقة شجيرات عتيق كانت بالقرب منها. وكان الرجال يتسلون بمداعبة مؤخرتها الهزيلة وهم يتفوهون بكلمات داعرة. وكانوا يضحكون، يضحكون بضجيج، لقد كانوا سعداء، مسرورين، وهم لم يتناولوا أي شراب، بل كانوا يتمتعون بصحة جيدة ويزعمون بانهم رجال، يا صديقي.

وكانوا يتقدمون على هذا النحو. إنه لطواف كئيب في ليل لا قمر فيه. خاصر تائها.. لم كانتا تؤلمانها بهذا الشكل؟.. في إحدى قرى المانيا، في قرية جميلة، جميلة، كان الناس يضحكون في الشوارع، يتحدثون على مفارق الطرق، يشربون الجعة. أتعرفت هذه القرية إلى معالم الوجود في يوم من الايام؟ وأخذت تذكر الصين، حيث عاشت فترة من الزمن؛ لقد كان هذا الشعب اللطيف يحرق نفسه. وذكرت محادثاتها الطويلة الرقيقة الحاشية. لا، لا، إن شيئاً من هذا لم يتعرف إلى الوجود ليس هناك سوى الألم فقط يضاف إليه رجال أقوياء يقومون بالقرب منها، ويققههون وهم يسومونها العذاب. وكانت تصعد، بينما أخذت الدماء تسيل من ركبتيها لدى ملامستها لحصى المضربة. لقد انزعجت منذ فترة وجيزة من غرفة انفراد قدرة في ثكنة الشرطة الخاصة. كان ذلك في منتصف الليل، ولم يكن من الضروري ايقاظها. ذلك لأنها كانت تستيقظ وحدها في كل الليالي، عند حلول ساعة التعذيب، الذي كان يستمر حتى الصباح في كل الليالي على الاطلاق. واستمر هذا الامر أكثر من شهر، وسيستمر أكثر من سنة. وفي كل الليالي كانت تستيقظ قبل منتصف الليل بقليل، وتعيش دقائق من الانتظار، دقائق من القلق، أشد قسوه من الساعات التي ستلي، عندما يأتي الرجال ويعبرونها من ثيابها، وبنهالون على جسدها النسائي اللدن بهراواتهم وأقدامهم المدثرة بجزمات ثقيلة. وعندما كانت الشمس تنتصب عالية في كبد السماء، كانت، هي، تفقد الشعور بوطأة الضربات، إذ أنها تكون قد انزعجت ثلاث مرات أو أربع من وطأة الاغواء، بواسطة الابر، بينما يكون ضاربوها قد كرروا ثلاث

مرات أو أربع مهمتهم الرشيقة؛ وكانت تُسحب بعد ذلك نحو غرفة انفرادها، حيث يشاظرها السكنّ الألم والجوع والعطش. وكانت، في هذا اليوم بالذات، قد استيقظت أبكر من العادة. فقضت فترات انتظار مرعبة. وأخيراً جاؤوا إليها وأمرها أن تخرج. ولكنهم في هذه المرة لم يعروها فوراً، ولم يباشروا فوراً بصورها. لقد توجهوا نحو الهضبة، خلف الثكنة، ودفعوها إلى السير في الطريق الصاعدة. وأخذت أوغستا تتصور، ولكن عبثاً، ما كان ينتظرها. لقد كانت هذه الهضبة كالجلجلة^(١). وكان هؤلاء الرجال يذكرون أنهم قتلوا فوقها رجلاً آخر في يوم من الايام. وهم الآن يقتادون امرأة؛ إنها كانت تسحب نفسها، بينما كانوا هم يتضاخكون ويتمازحون؛ وأمر واحد منهم، أوفرهم خيلاً، يده فوق ردفها بحركة داعرة. وكانت تصعد، وقد دميت منها اليدان، دميت الركبتان ودمي الوجه.

ووصلوا أخيراً، وشاهدت فوراً فريقاً هائلاً من رجال الشرطة باللبسة الرسمية، وقد حمل بعضهم مجارف ورفوشاً. ولكنها لم تشاهد مباشرة زوجها برجيه، وقد أحاط به رجال الشرطة. لقد كانت تعرف أنه هزيل، وقد انطبعت عليه علامات الضرب. لقد كان يُعذب أكثر منها، وكانا أحياناً يعذبان معاً. ولكنها لم تتعرف إليه للوهلة الاولى. لقد كان هاري برجيه كومة من اللحم الدامي. لقد كان بديناً في الماضي، أما اليوم فكان هزيلاً، مغطى بمزق من ثياب تتناثر حوله، وكان مطوياً على نفسه، إذ أن غرفة انفراده كانت تشكل ثقباً في أسفل سلم الشرطة الخاصة بالحديدي، حيث لم يكن بمقدوره لا أن يقف ولا أن ينام. وكان متورماً لكثرة ما تلقاه من ضربات، من المسنجل وصفها؛ إذ أن من غير الممكن وصف حالة إنسان ما، با صدبتي، عندما لا تستطيع امرأته أن تتعرف إليه.

ودُفع بها إلى جانبه. وتحت هذا القناع من الألم، في هذا الوجه الذي لا شكل له، اكتشفت أخيراً بعضاً من وجه زوجها. لم يكن قد بقي الآن

(١) Calvaire التلة التي صلب فوقها السيد المسيح - المعرب.

حولها سوى رجال الشرطة الخاصة، وكان مندوبو الشرطة المدنية هناك، وقد جاء رئيسهم نفسه ليشهد هذا الاستجواب الذي يجب أن يكون حاسماً. تقدم نحوها وقال بصوت لطيف:

- إننا الآن نعرف كل شيء، من الأفضل أن تقصتي علينا أنت أيضاً ما تعرفين. لن يجديك النكران شيئاً. قولي لنا أين برستس ومن هم الثوريون الآخرون. قولي ما تعرفين. حقاً إننا نعرف الآن كل شيء.

وتبادل الرجل وزوجه النظرات. وقام هاري بمجهود وابتسم. وفهمت هي أن هذه الفجوة المخيفة هي استنارة لشجاعتها وابتسمت هي أيضاً. وتحدثت بالالمانية:

- أعذبت كثيراً؟ وكان في صوتها كثير من الحنو ومن الحب العميق.

وكان على وشك أن يجيب، لولا أن الشرطة لم تدع له الوقت لذلك. واكتشف الرئيس في هذه الجملة اسراراً عظيمة، مؤامرة خطيرة. ودون أن ينتظر الرجال إشارة الرئيس، انقضوا على هاري بضربات المراوات، وجروه بعيداً عن امرأته. وأخذ الرئيس يتكلم الآن بصوت لم يبق فيه شيء من الهدوء:

- إذن أنت لا تريدين أن تقولي شيئاً؟

وأشار بحركة جانبية إلى رجاله، فبدأ هؤلاء بتجريد هاري وأوغستا من ثيابها، وبدا الاثنان عاريين أمام رجال الشرطة الذين أخذوا يتضحكون ويمطرون عضوي التناسل لدى الرجال والمرأة بنكاتهم. وأثار القمر المشهد، وحملت أوغستا، بدافع من ضربات القبضات، على تناول رفش بين يديها. واصدروا إليها الامر بأن تحفر قبراً لزوجها. وتسمرت أوغستا في مكانها، والرفش في يدها، بينما جعلت الريح الباردة تصفع جسدها العاري. وقال برجيه من بعيد، بالالمانية:

- قليلاً ما يهم هذا، يا صديقي، سوف نموت نحن، ولكن الشعب لن يموت. إنه سيتحرر.

عندها استعادت قواها. ضغطت على الرفش بيديها وبدأت الحفر، بينما كانت الضربات تنهال على زوجها متدافعة متتالية. واستمر الامر كذلك طيلة ساعات. كان جسمها يؤلمها ويريد الاستسلام، ولكن ارادتها كانت أعظم قوة. انتهى الامر. أصدر الرئيس أمره بتشكيل مفرزة تنفيذ الاعدام. ووضّع هاري برجيه، عارياً، أمام الخندق الذي حفرت زوجته. حاولوا تعصب عينيه ولكنه رفض ذلك. وتشكلت مفرزة الاعدام. وتقدم ملازم من رجال الشرطة لاصدار الاوامر. ولما لم يبق سوى اصدار الامر باطلاق النار، قال الرئيس:

- لا يزال في الوقت متسع للكلام.
فابتسم برجيه لامرأته، وأشار إليها مودعاً.

ولكن الامر باطلاق النار لم يصدر قط، وزأر الرئيس من الغضب، واصطلك فكاه من الكراهية. إن هذين المعتقلين العاريين الهزيلين، اللذين سبوا من العذاب أمره، كانا أقوى منه ومن رجاله المختارين من بين أشد الجنود وأعظمهم هامة. ما هي تلك القوة التي تعتمل في قلبي هذا الرجل وهذه المرأة؟ ما هي تلك القوة التي تدحر الالم والتهديد بالموت، وتتغلب على ضروب التعذيب كلها؟ وطفح قلب الرئيس بالكراهية. وشعر بوضاعته، وازداد قلبه، من جديد طفوحاً بالكراهية. ولكنه ابتسم لانه لا يزال يملك سلاحاً. واصدر الامر باقتياد برجيه، بابعاده عن الخندق. ووضّع بالقرب من اوغستا. وقدم الرئيس المرأة لرجاله، الذين تقطر الشهوة الحيوانية من نظراتهم، لبغتصبوها أمام قرينها. فابتسمت أوغستا هاري؛ فالشرطة لن تعرف مطلقاً إلى ما تخفي من أسرار. وأغمضت عينيهما، بينما أجبر رجال الشرطة هاري على فتح عينيه ليتابع رؤية المشهد. وانقض رجال الشرطة عليها، وهم يمسكون باعضائهم التناسلية بآيديهم، كما لو كان الامر يتعلق بأحدى ادوات التعذيب. واختفى القمر خلف إحدى الغيوم، لكي يوفر على نفسه رؤية الرجس المتحدر من هذا المشهد. وابتسم الرئيس، ولكنه سرعان ما أخذ يرتجف حقداً، إذ أن هذا التعذيب المشين لم يستطع أن يفتح من

هذين الكائنين فماً. ومن جديد انهالت ضربات الاقدام والقبضات والهراوات ومؤخرات البنادق، وتدحرج الجسدان الداميان، بينما اخفت عويلها قهقهات الجنود.

لم ينته الشرطيون من مهمتهم بعد. ها هم يميزقون ثديي أوغستا بضربات السكين. واستداروا نحو هاري يثخنون عضوه التناسلي بالجراح. ومن على هضبة سانتو انطونيو، فوق أراضي الشرطة الخاصة، في ريو دي جانيرو، أخذ الفجر يرسل بأشعته. ومن فم الرجل والمرأة لم تخرج أية كلمة ولم تصدر أية إشارة. نعم، يا صديقتي. وطوال هذا الوقت تقريباً، أرسل القمر بأشعته اللامعة النقية فوق هذا المشهد المخزي، ونظر إلى جلال العظمة في هذا الرجل وهذه المرأة. ومنذ فترة وجيزة، عندما كان رجال الشرطة يميزقون ببطء من أوغستا الثديين بسكاكينهم، ويقطعون ببطء عضو الرجل التناسلي، كان القمر ينير المشهد. وكان رئيس الشرطة يبتسم، وكان رجال الشرطة يبتسمون. ولكن في قلوب البؤساء التي يحملها هؤلاء، كانت نيران حقدهم تمور أمام العظمة الإنسانية. لقد كان هذا الرجل وهذه المرأة يفوقانهم قوة.

وقال أحد الشرطيين الآن:

- يا للألمانين اللعين!

وعندما أغرق الجلاذ نصل سكينه في صدر المرأة، فجّر منها رأس الثدي، الذي انطلق أحر كورقة من تويج زهرة. وسال الدم على هضبة سانتو انطونيو. وانبتق الصباح في وسط الآلام.

- ٣ -

« استطيع أن أؤكد أن جميع المعتقلين قد عوملوا بطيبة حتى الآن... »

« جيرتوليو فارغاس »

(من خطاب ألقاه في ١٢ أيار سنة ١٩٣٦)

وأصيب هاري برجيه، النائب الألماني السابق، بالجنون. إن كائناً بشرياً ما لم يُسمِ العذاب كما سَمَّ هذا الرجل. فلقد نبش من أجله رجال الشرطة، « من بساينهم التعذيبية »، أنواعاً من التعذيبات مخزية: تعذيبات جسدية وأخرى معنوية. لقد حدثتك عن ليلة واحدة، ولكن هناك ليال لا تحصى تنابعت الواحدة تلو الأخرى. فبعد أن احتجز هذا الرجل في الطبقة السفلى لسُلم الشرطة الخاصة، حيث لم يكن بمقدوره أن يتنفس، أن يقف أو يتمدد، كان يتعرض كل يوم لمختلف أنواع التعذيب. فلقد انتزعت منه الاظافر بالكلاسات، وسُحق منه عضو التناسل بالكماشات. وأمام رؤيته لزوجته تعذب أمام عينيه، تُغتصب من قبل رجال الشرطة، يقطع منها النهدان، فَقَدَ الصواب. لقد كان هذا رجلاً مجبولاً من فولاذ وشرف. وخلدت شهرة هذا الألماني بين الشرطة، يا صديقتي. وحتى الجلاوزة الذين قاموا بتعذيبه لا يزالون يتحدثون عنه اليوم أيضاً باحترام، كانسان تثبت معتقداته أمام جميع تجارب الآلام. لقد كانوا يريدونه أن يتكلم. وساموه كل ما يمكن تصويره من ضروب العذاب، 'عذاب لن يخطر أقسى منه على بال أي مخلوق دون شك. ولكن لا فمه، ولا فم زوجته اللدن، الذي قدم ضحية على مذبح غريزة رجال الشرطة الحيوانية، انفتحا ليتلفظا بأي حرف. وبعد العذاب الذي استهدفت إليه في البرازيل، ذهبت اوغستا أليز لتموت في ألمانيا. وفَقَدَ برجيه، الرجل القوي العظيم المقاومة، خلال بضعة شهور، ثلاثين كيلوغراماً

من وزنه، ثم فَقَدَ الصواب. ويستعمله رجال الشرطة اليوم كوسيلة من وسائل تعذيب برستس، الذي وضع في غرفة انفراد مجاورة لغرفته. ويتحدث برجييه ليل نهار، ويضرب الجدران برأسه بصورة مستمرة. إنه الكائن الانساني الوحيد الذي يحس برستس بوجوده إلى قربه. فتصورني عمق الألم، يا صديقتي، الذي يعتمل في قرارة نفسه من جراء ذلك.

إن كل ما يستطيع رجل تحوّل إلى حيوان مفترس أن يخترع من أجل التعذيب، قد جرب على هاري برجييه وزوجته؛ إلهاب المؤخرة بشمعة مشتعلة، ادخال الدبابيس بين الاظافر والاصابع، اطفاء لفافات التبغ على الظهر، تحطيم عضو التناسل وكان ينهمر فوقها هذيان داعر.

لقد اختير الجلادون من بين أكثر المجرمين اغراقاً في الاجرام؛ من الرؤساء إلى أخط الجواسيس، من رجل محكمة الامن إلى المحققين. واننا لنشعر بقرف عظيم إذا ما أردنا التلفظ باسمائهم. إنهم يشكلون سبة للجنس البشري، بذاة حية، إنهم حيوانات يتجلببون مسوح الرجال، انهم تأكل العفونة، وتفوح منهم روائح المراحيض الآسنة.

وحلّ، قذارة، بذاة، تعاسة، جراح منقيحة، لحم مصاب بالبرص، صديد الجراح، قيء وبصاق، عفونة انسانية، نفاية المواخير، تلك هي الصفات التي تليق بهذه الخثالة من الناس. وإنه لأفضل، يا صديقتي، أن نملأ فمنا بالقذارة، من أن نتلفظ باحد أسماء هذه الديدان التي تحمل قلب الوحوش، والتي ألقي بها على البرازيل لتكون مسبة ومذلة للوطن. إنهم لقتلة! قتلة باردو الاعصاب، جبّناء، بهائم ومنحطون. وإن أوسخ كلمة وأقذر عبارة، تشكّلان شيئاً لطيف الوقع وقصيدة غنائية بالقياس إلى اسمائهم المتعفنة!

كان في ريو تلميذ يانكي^(٢)، اعتقدت الشرطة انه يعرف مكان برستس، يا صديقتي، وكانت كل الدلائل تشير إلى انه لا يعرف شيئاً. ولكن الشرطة

استنفذت معه جميع وسائل « بستان تعذيباتها ». وعقدت الوف الـ « سيسوس اسبريناس »^(٣) لكي تنتزع منه اسم الشارع الذي يقوم فيه بيت برسس، ورقم هذا البيت. وتحمل فكتور ألان بارون، الطالب اليانكي، ببطولة، جميع أنواع العذاب. وشعر رجال الشرطة البرازيلية بوضاعتهم بعض الشيء أمام عملاء الأنثليجنس سرفيس وأفراد الغستابو، الذين كانوا يتعاونون معهم في ريو دي جانيرو. عندها هرعوا إلى طلب معونة أحد مشاهير الاطباء^(٤) « النكنيكية ». وحاول هذا أن يقاوم ما كان يطلب إليه القيام به، ولكن ضغط رجال الشرطة، والوعود التي مُنحها، ما لبثا أن سيطرا عليه؛ فوافق على الاشراف على التعذيب الذي استهدف إليه فكتور ألان بارون. وحُص هذا الاخير، مراراً عدة، بـ « مصبل الحقيقة ». وهوجت اعصابه بواسطة مؤثرات كهربية عنيفة، وأعطى كمية من المنبهات، كما أعطى مواد تهديرية. ولكن بارون لم يكن يتكلم. وكان يُحقق معه ليل نهار عقب إبر الطبيب. ولكن بارون كان قد فقد القدرة على الابصار وعلى السماع؛ لقد كان، وقد حطمه التعب والالم، لا يريد إلا أن ينام. ولكن التحقيق لم يكن يتوقف، بل كان يستمر أياماً وليالي كاملة، دون توقف، بينما كانت الإبر تتابع. ولم يكن يقدم إليه أي طعام، ولا أي شراب، ولم يكن يمنح دقيقة للرقاد، ولا ثانية من الراحة. ورغم ذلك لم يتكلم. ولكن كان بالشرطة حاجة إليه، فاستمرت في تعذيبه. وعندما كان بارون يكاد يفقد الوعي بصورة كاملة، كان يعطى شراباً قوياً، علّ الكحول تحل عقدة لسانه. ووخز بابر الانسولين، ولكنه ظل صامتاً. واقلعت الشرطة الحائرة عن استعمال وسائل الطبيب، وعادت إلى ضربات الاقدام حتى ازهقت من الطالب الروح وألقي بجسده بعد ذلك، من الطابق الثالث من مبنى الشرطة المركزية، وقيل للصحافة أن الطالب الاميركي قد انتحر، كما لو كان بمقدور رجل محاط

(٣) *Sessões espíritas* تعني حرفياً: جلسات مناجاة الأرواح، وكان رجال الشرطة يطلقون هذا الاسم على جلسات تعذيب المعتقلين خلال التحقيق.

(٤) هو الدكتور بونتنس دي ميراندا، الذي انتابه الندم بعد فترة وجيزة من مصرع فكتور ألان بارون، فانتحر.

برجال الشرطة ومختجز في غرفة انفراد ، أن بننحر . وانتحر الطبيب الذي رضي أن يكون مستشاراً للشرطة ، وساعدها في تعذيب فكنور ألان بارون بواسطة العلم ، تحت وطأة الندم الذي انتابه : لقد أطلق على رأسه رصاصة من مسدس ، يا صديقتي ، لكي يوفر على عينيه الرؤية المتواصلة ، ليل نهار ، لجسد الشاب الدامي ، الجائع العطش ، الذي عذبه ، ذلك الجسد الذي حققه بالمنبهات أو المسكنات حسب الحاجة . أما الجلادون الآخرون فلم ينتحروا . لقد كانوا معتادين على هذا النوع من العمل .

كان خيرة رجال البرازيل محتجزين في السجن . ولما أصبحت السجون تنقص بمن فيها ، حُوِّلَت أكبر بواخر أسطول لويد برازيلوس ، « بدرو الاول » ، إلى سجن ، في وسط خليج غوانابارا . كما تحولت معامل مهجورة في سان باولو إلى سجون سياسية فاجعة الصيت ، كسجن « ماريازيليا » . كل هذه قد تحولت إلى سجون كانت تجري فيها ضروب من تعذيب لا يمكن وصفه ، وكان الجوع فيها رفيق المساجين الوحيد ، إذ لم يكن هؤلاء يجدون من طعام سوى الضرب المبرح ، الذي كانوا يتعرضون إليه في كل الايام . وعلى طهر « بدرو الاول » ، وفي أماكن التأديب ، وفي الاصلاحية ، وفي ثكنات الشرطة العسكرية والشرطة الخاصة ، وفي قاعات سجن الشرطة المدنية ، كانت جنبات الناس مسودة من رفس الاقدام ، ومؤخراتهم محروقة بقناديل الاسيتيلين ، وكانت أطافهم منتزعة . وكان بعضهم قد أُلقي به في السجن بعد خروجه مباشرة من غرفة العمليات ، وسم العذاب فوراً . وكان هناك مسلولون وآخرون على وشك الاصابة بهذا الداء . لقد كان هؤلاء الناس يمثلون ، با صدبقتي ، ألمع رجال الادب والعلم والجيش والبحرية في البرازيل . وكان معهم الوف من العمال ، من الفلاحين ، من الجنود ومن البحارة ، ومن أجل اساتذة الجامعة ، الذين طُردوا بمرسوم من على كراسيهم الجامعية ، التي لم يصلوا إليها إلا بعد اجتياز مسابقات في منتهى الصعوبة ، وكان هناك كتاب واسعو الشهرة ، وضباط جيش وبحرية ، وأطباء ، ومهندسون ، وكهنة ، وطلاب ، وموظفون ومستخدمو مصارف . ولقد تكدسوا بعضهم فوق بعض

دون أن يتمنعوا بأي حق، ولو مهما كان، فيما عدا حق الاستهداف للضرب والتعذيب. وكانوا يرقدون على الأرض دون دثار، وينامون مثنين في قاعة لا تنسع لسوى خمسين شخصاً.

وفي ليل التعاسة الطويل، الذي سيطر على البرازيل، لم تكن السجون سوى أداة انتقام سياسي وشخصي للشرطة وللفاشين. وبالمقاييس إلى البعض، كانت السجون كذلك وسيلة للعيش وللإغتناء. فلقد ألقي بالعديد من الأغنياء في السجن دونما سبب؛ وعقب ذلك كانت عائلاتهم تتلقى زيارات رجال شرطة كانوا بقنرحون عليها، باسم رؤسائهم، دفع مبالغ عظيمة من المال مقابل تحرير المساجين. ودخل بذلك كثير من المال صناديق «المدافعين عن المدينة». وملاً رجال الشرطة القاعات في بيوتهم بالاثاث المسلوب من بيوت المعتقلين السياسيين. وإذا ما كان العذاب والضرب المبرح، عديداً لا يُحصى، فإن السرقات لم تكن بأقل من ذلك عدداً، يا صديقتي.

إنني لا أريد أن أحدثك عن الحياة في السجون، يا صديقتي، إذ إن القمر سوف يختفي قبل أن أروي لك جزءاً ضئيلاً مما يحدث، من اجرام البعض وبطولة الآخرين. وإنها لرواية طويلة ومؤلمة، بائسة وبطولية، تلك التي سوف يكتبها، حول هذا الموضوع، شخص ما في يوم من الايام دون شك. وعلى أحد أولئك الكتاب العديدين، الذين ألقى بهم في قاعات قريبة من تلك الغرف التي سم فيها العمال والجنود والبحارة مختلف أنواع التعذيب، أن يكتب هذه القصة. في وسط الليل كانوا يوقظون الكتاب المعتقلين لكي يستطيعوا سماع صراخ الألم الذي بصعده رفاقهم المعذبون. وكان هؤلاء الكتاب يشاهدون، في كثير من الاحيان، أناساً يذهبون إلى التعذيب بنظرة كئيبة إنما حازمة. وكانوا يرونهم عائدين بعد ذلك، يجرهم رجال الشرطة خلفهم، وقد اسودت منهم الاجسام من أثر الضرب، وتكسرت الاذرع، وتمزق الوجه، وألصق الدم ثيابهم بأجسادهم. ولقد عاش هذا المشهد كثيراً من الشعراء والروائيين والصحافيين والعلماء. وشاهد آخرون أيضاً أشياء أشد فظاعة؛ فلقد اقتيد غراسيليانو روموس، أعظم روائي البرازيل إطلاقاً، من

الأغواس، على أثر وشابة أحد الانتغريالين. وفي رسيافي واجهه نيوتن كافالكتي بالشتيمة. ومن هناك حُمِل على باخرة امتلأت بمجرمي الحق العام، بقتلة، بلصوص ولوطيين. ومن ريو أرسل به إلى كولونيا دواس ريوس، حيث كان المعتقلون السياسيون ينوءون تحت وطأة الاشغال الشاقة، ووطأة سياط رجال الشرطة المخمورين.

سوف يكتب إنسان ما الملحمة الفاجعة لسنوات التعذيب هذه، لهذه الليالي من الارهاب، من الضرب المبرح اليومي، ويتحدث عن الشهداء: عن يومان الارجنيني، عن النقيب جوزيه أوغستو دي ميديروس، عن الجنديين ابغوار مارتينس وجوزيه أونيروس اللذين ماتا في دواس ريوس، عن الرقيب فيغا، عن العريف جوفر ألونسودا كوستا، عن البحار مونتررداروشا، عن السائق جوان مانويل رابيلو، عن التاجر كارلوس زوديو، عن الطالب اليانكي بارون، عن الجنود الكوبي سيلفيو كابيرا الذي أوقفه رجال الشرطة عن متابعة السفر لانهم كانوا يعتقدونه عميل اتصال مع الثوريين. وإن ذلك الذي سوف يكتب الملحمة الفاجعة لهذه السنوات من التعذيب، سوف يتحدث عن أولئك الذين خرجوا منها مشوهين ومرضى، وينظم لائحة هائلة بالاسماء. سوف يتحدث عن بطولة رودولفو غيولدي وعن شجاعة كارمن غيولدي، وعن الكائنين الخارقين العظمين برجييه واوغسنا - إيزر. سوف يتحدث عن مولاريس -، ذلك الوجه العظيم، - عن النساء السجينات اللواتي استهدفن للتعذيب، عن النواب الذين انتزعوا بقسوة من على كراسيهم في مجلس النواب، عن عضو مجلس الشيوخ الذي أهين وضرب في السجن. سوف يتحدث عن «الجد»، عن مرتب شحنات السفن في مارينياون، البالغ من العمر أربعاً وتسعين سنة، عن غلمان المدرسة العسكرية، الذين كانوا يذهبون إلى التعذيب والابتسامة تعلقو متهم الثغور. سوف يتحدث عن ديو نيليو ماشادو، الكاتب الكبير، عن اجيلدو وعن اغليبرتو؛ عن الناس الذين أعلنوا أعظم اضرابات الجوع، والذين لم يستسلموا مطلقاً.

سوف يتحدث عن كولونيا دواس ريوس؛ عن المرض والالم. سوف

يتحدث عن فرناندو دي نورونا، عن السجن المحاط بالبحر. سوف يتحدث عن ثكنة الشرطة الخاصة، بغرفة التعذيب التي تقوم فيها، عن قاعات المعتقلين في مبنى الشرطة المركزية، عن أولئك الذين ماتوا، وأولئك الذين فقدوا الصحة، عن المشلولين، عن العجزة وعن المسلولين.

سوف يروي قصة الليالي التي كان يتصاعد من أرجائها عويل المعذبين ويندفع نحو البحر، ويذكر العويل الذي كان يغطي ضجيج المدينة وصخبها. سوف يتحدث عن ليل الارهاب الهائل، حيث كانت الحرية والثقافة والكرامة والجماليات، مهانة من قبل حكومات البرازيل، تلك الحكومات التي قذفت المساجين بجلادين سفلة، ديدان أرض وحيوانات مفترسة. وعندها سيعرف الشعب كل شيء. ومن الواجب أن لا يتطرق الشك إلى أي انسان حول هذا الموضوع، يا صديقتي. سيأتي يوم يرتعب العالم فيه من رواية هذه الجرائم.

- ٤ -

لقد كانت الشرطة تتمتع بجميع الحقوق، يا صديقتي، في ليل الإرهاب هذا، في هذا الليل الهائل، الآسن هواؤه. إن أحداً لم يكن يستطيع أن ينبس ببنت شفة؛ فالشرطة تتمتع بجميع الحقوق، ولا يتمتع الشعب بأي حق. وفي وسط صمت البيوت المخيف، كان الناس يعلقون على جرائم الحكومة بصوت منخفض. وكانت تهيمن على البلاد نفحة من التعاسة. وكان انتحاب المعذبين، وحشرجة الوف المحتضرين في السجون القذرة، تملأ الهواء.

لم تكن هذه السنوات مملوءة إلا بالجرائم والهمجية. وكانت أيضاً سنوات تعاسة وسخافة. وهي تعني: ثقافة مداسة بالاقدام، أدباً محرماً، فناً مقتصرأ على المواضيع الدينية. وكانت الشرطة تبحث عن لويس كارلوس برستس بشكل محموم. ولكنها كانت تبحث كذلك بالتكالب نفسه عن كاتبين برازيليين، أحدهما شاعر والآخر روائي، وعن محرض أجنبي مخيف كان بודהا لو تعامله معاملتها لغيولدي وبارون. وكان الشاعر هو كاسترو ألفيس، الذي قال حوالى سنة ١٨٦٨: «الحرية لا تموت» و: «إن أثمار العالم هي لجميع الناس». وكان من المستحيل على رجال الشرطة أن تجد هذا الشاعر، لأنه كان قد مات في سنة ١٨٧١، وهو في الرابعة والعشرين من عمره. ولكن الشرطة لم تكن تعرف شيئاً من هذا. ووضع أحد عملائها اسمه في رأس لائحة أسماء المشبوهين الذين يتوجب توقيفهم. وكان الروائي هو راوول بومبيا، الفلوربانستي المملوء حماساً في عهد الجمهورية الأولى، والذي انخر في مطلع القرن، عندما شاهد انتصار قوى الرجعية وقوى أسياد العبيد. أما المحرض الاجنبي الذي كانت الشرطة تهتئ له مصيراً شبيهاً بمصير برجه، إذا ما اعتقلته، فلم يكن سوى فكتور هيغو الذي ألف، حسب

نظرها ، كتاباً منطوقاً بعنوان « البؤساء » ، هاجم فيه بعنف أمثال فيليستو وراو وغيرهم . وكان يتأجج في قلب الشرطة حقد شخصي على هذا الرجل ... آه ! لو كان بمقدورها أن تجده فقط ...

وحدث في ليل الارهاب هذا ، في هذا الليل من السخافة ، أن قام واحد من انشط واذكي نواب الاكثريّة الحكومية يطالب في مجلس النواب بالقاء القبض فوراً على نقيب في فرقة الهندسة ، بسبب احدى الصفحات التي كتبها . وكان هذا الرجل هو النقيب أوكليددا كونيا ، الكاتب الشهير الذي خطت يراعه كتاباً كلاسيكياً رائعاً ، هو أعظم كتب البرازيل على الاطلاق ، يدعى : « أوس سرتاوس » ، ولم تكن الشرطة هي وحدها التي تجهل العصر الذي عاش فيه كبار الكتاب الوطنيين والاجانب . فالمنقفون الرجعيون انفسهم كانوا يجهلون ، هم أيضاً ، بأن أوكليددا كونيا قد اغتيل قبل سنوات عديدة من ذلك التاريخ .

إنه لليل من الرعب والسخافة ، ليل من الظلم ، ذلك الذي كان يغلف البرازيل بأردانه . وكان الجو هو جو المراحض الحيوانية . ولكن الأمل كان ينبض بالحياة دائماً ، ولم تكن الحرية قد ماتت ، كما سبق للشاعر أن قال ولوحق من أجل هذا القول . إن الحرية سجينه ، إنها محتجزة في سجون البرازيل . إنها سجينه مع لويس كارلوس برستس في غرفة انفراده المفتقرة إلى الهواء والضوء . ولكن عيون البرازيل كلها معلقة في غرفة الانفراد هذه ، حيث يحتجز فارس الأمل . وستخرج الحرية أعظم جمالاً ، يا صديقي ..

- ٥ -

في أحد بيوت الضواحي، تقدمت أولغا نحو زوجها وجلست بالقرب منه. صمت الشارع الهادئ، ينسلّ من خلال النافذة نصف المفتوحة. القمر يرسل أشعة شعرية، وتتعالى من بعيد انغام موسيقى يعزفها العشاق تحت نوافذ معشوقاتهم. وطالعت ثغر أولغا ابتسامة كثيفة بينما حفل قلبها بالتنبؤات. وكان لويس كارلوس برستس يعمل، كان يكتب وهو منكب على أوراقه. تطلعت أولغا عن كشب إلى البريق العظيم الذي ترسله عيناه. إنها تعرف ما يعتمل في نفسه من أفكار: إن شيئاً ما لم يضع. فبالرغم من التوقيفات، من التعذيب، من الرجعية التي افلتت من عقابها، يحلم الشعب بالحرية ويريد النضال من أجل تحقيق مطالبه. كثير من الرفاق سقطوا صرعى واغتالت الشرطة عدداً كبيراً منهم، وعُذب آخرون بقسوة. ولكن الملاكات تتجدد فوراً، ويخلق الشعب باستمرار قادة جدد أو أدلاء جدد. ويعمل لويس كارلوس برستس، الزعيم، اللواء، الدليل وأمل الشعب، بصورة لا تعرف الكلل، وقد انكب على طاولة تعج بالأوراق.

وطرق شخص ما الباب طرقات معينة. نهضت أولغا لتفتح. دخل الرفيق وقدم الورقة التي يحمل، ثم عاد لتوه من حيث أتى. ومن الباب المفتوح تسلل الصوت المنشد فجأة عبر البيت؛ إنها قطعة غزل جديدة تتجاوب اصداؤها في القاعة الفقيرة:

«إنني لا أبتهل إلا إلى الله...

وبالرغم من ذلك لا يُستجاب ابتهالي دائماً»...

أنصتت أولغا. إن هذه هي «سامبا» تمخض بها أحد معتقلي الحق العام في

كولونيا دواس ريوس . إن هذه الموسيقى المملوءة بالكآبة واليأس اللامتناهي ، تطفح بألم الانسانية كلها ، وبعذاباتها . وانقبض قلب اولغا . إن احساسها ينبىء بشر . ومع هذا فلقد كانت تريد اليوم أن تكون سعيدة . ولديها لذلك أسبابها . انقبض قلبها وتنبأ احساسها بحدوث شر . انكب برستس على الأوراق التي حملها إليه الزائر ، وأخذ يجيب عن التحارير ، يرسل الأوامر ، يفتش عن اتصالات جديدة ، ينظم صلات جديدة ، يسيّر جهاز نضال الشعب كله . إن الناس يأملون فيه ، وهو لم يخيب مطلقاً أمل شعبه .

وعندما انتهى من العمل ، أمسك بيد اولغا الجالسة إلى جانبه ، وقد امتلأت عيناه المشتعلتان بالحنو ، وطفح قلبه حباً :

- ألا تشعرين بتعب ؟ هيا ارقدي ، فإنه لا يزال لدي ما أقوم به ... هيا ارتاحي ..

ولكن لديها ما يجب أن تقوله .. لقد كان بודהا أن تكون بمنتهى الجبور ، أن لا تدع أحاسيس الشر هذه تضغط على قلبها الزوجي بيد ثقيلة .

- لدي ما أريد أن اطلعك عليه ..

ابتسم !

- قولي .

فأحنت رأسها على كتفه :

- سيكون لدينا ولد ...

لمع بريق من السرور في عيني الرجل ، وتشابكت الأيدي ، والتقى الفجران بقبلة من السعادة لطيفة . ولد ... في اوقات الكآبة والنضال هذه ، في هذا الوقت الذي تحيط فيه زوجها بكل حنانها ... وظلا لحظة صامتين ، وإنه لجميل هذا الصمت الذي يفرقان خلاله في تفكير طويل يتمخض بتأكيد جديد : إن ولداً ستفتتح براعمه من حبهما .

ومن فجوة النافذة نصف المفتوحة، تسلل الصوت المنشد للسامبا الكثيرة،
من جديد، كالرسالة. وشعرت اولغا فجأة بأن شراً ما سينشب بخالها فيها.
فضغطت بنفسها على زوجها وأفضت إليه بمخاوفها فابتسم:

- لا تخافي... إن أي شر لن يحدث لنا الآن.. سيكون لدينا ولد...

فأجابت اولغا:

- بنت.

وامتلأ البيت مجدداً بالسعادة. أيكون الولد صيياً أم بنتاً؟ وتناقشا
صاحكين. ثم غادرها ليعاود العمل. وبينما كان على وشك الجلوس سارعت
نحوه واحتضنته. كانت السامبا قد توقفت. وشعرت اولغا برعشة خوف
تستبد بجسمها.

وسمعت طرقات عنيفة على الباب. ودخل رجال يبلغ عددهم الخمسين،
المئة، يحملون بنادق رشاشة صوبوا احداها نحو صدر برستس. وغطت اولغا
زوجها بجسدها، وقدمت قلبها لفوهة البندقية.

في كوبا كابانا كان قد وصل بهم المطاف إلى بيت فارغ، وكان برستس
قد توارى عن الأنظار. ولكن عملاء الانتليجنس سرفيس والغستابو
الأجانب، الذين كانوا قد اكتشفوا بيت برستس، عادوا إلى العمل من
جديد. وكانت شرطة ريو قد اعلنت عجزها عن العثور على برستس، ولم
يأتها قتلها لبارون وتعذيبها لبرجيه وتقطيعها للثدي اوغستا - اليز، بأية
نتيجة. ولم يفدها شيئاً قتلها للبحارة، للعمال وللجنود. ولكن أحد العملاء
الأجانب جاء في أحد الايام، مع هذا، يحمل النبأ السعيد: لقد اكتشف
الشارع الذي يسكنه برستس. ولم يبق عليه الآن سوى تحديد المنزل. وهيات
الشرطة المركزية والشرطة الخاصة نفسها لذلك تماماً - كما لو كان الأمر
يتعلق نجملة تأديبية. فتسلح الوف الرجال بالبنادق الرشاشة، وعُهِت جميع
قوات الشرطة الخاصة والقوى الحاضرة لـ «منظمة الأمن العام الاجتماعي»

أيضاً. وطُوق الشارع تطويقاً كاملاً، وسط الدهشة العظيمة لضاحية ماير. ثم اعتقل كل من كان يحاول المرور أو اجتياز حاجز الشرطة. وكان يمكن أن يقال إنها الحرب، إنه هجوم يشن على مدينة معادية. ولم يخطر ببال أي إنسان أن الأمر لا يتعدى اعتقال أحد الأشخاص. ولقد تلقى الرجل الذي أولج إليه أمر قيادة الحملة، التعليمات الملحة التالية من الرئيس: «اقتله عند ظهور أول بادرة مقاومة منه». لقد كانوا على ثقة أن برستس سوف يقاوم؛ وإنها لعمري طريقة أفضل للتخلص منه. وإذا ما صدف أن لم يقاوم، فعليهم أن يقتلوه في الطريق، ويداع في ما بعد أنه حاول الفرار. فلقد كان للرئيس مصلحة خاصة في قتله، إذ أن لويس كارلوس برستس كان قد طرده، قبل عدة سنوات من الطابور، بسبب من جبن وخيانة.

وأخذ رجال الشرطة، وهم يزرعون الرعب في العائلات وينتهكون حرمة البيوت، ينقبون الحي منزلاً منزلاً، إلى أن وجدوا الشقة التي كان فيها برستس وأولغا يتحدثان عن الولد الذي سوف يولد. إن أحد الشرطيين يصوب بندقيته الآن نحو صدر برستس، ولكن أولغا دافعت عن زوجها بصدرها. وأحيط ببرستس واعتقل، ولكن أولغا لم تدعه ولم تترك ذراعه دقيقة واحدة. وتبعته الخادمة الهرمة، جوليا دوس سانتوس، واعتقلت هي أيضاً. وفشلت مهمة الشرطة الأولى، إذ أنه لم تبدر عن برستس أية مقاومة. سوف يحاولون قتله الآن، خلال سيرهم باتجاه مباني الشرطة. وحاولوا فصل الزوج عن المرأة، واقتيادهما في سيارتين مختلفتين. السيارات هنا. صعد برستس أحدها؛ إنه هنا سوف يُقتل. ولكن أولغا لم تتخل عنه؛ إنها تعرف تماماً ما يبيت رجال الشرطة. حاول هؤلاء فصلها بالعنف، ولكنهم فشلوا. الحب أقوى من كل شيء في العالم، يا صديقتي. ليس بمقدور أي شيء، أي إنسان أن ينتزع، أن يفصل أولغا عن زوجها. واستبد الغضب بالفتش. إنهم لن يستطيعوا تنفيذ أوامر رئيسهم الحازمة. إنهم لن يستطيعوا قتل لويس كارلوس برستس في الخفاء. لقد جربوا كل شيء من أجل فصل أولغا عن زوجها، ولكن جميع جهودهم ذهبت ادراج الرياح.

فالخب يمنح هذه المرأة الضعيفة، التي يدب في احشائها جنين يتلمس طريقه نحو النور، قوى هائلة. وضغطت بنفسها على لويس كارلوس، إن شيئاً ما لا يستطيع فصلها مطلقاً. وهكذا، يا صديقتي، في تلك الليلة من آذار سنة ١٩٣٦، انقذت اولغا بيناريو برستس، من أجل شعب البرازيل، حياة لويس كارلوس برستس؛ في ليلة اعتقاله، في الليلة نفسها التي قالت له فيها إنها سينجبان ولداً. وعندما تنطفئ آخر نجوم سماء البرازيل في هذه الليلة، تكون الحرية والديمقراطية والثقافة والجمال والحب، قد كبّلت منها الأيدي والأقدام، وأودعت السجن. في هذه الليلة لم تسمح اولغا بقتل الأمل بالحرية، بالديمقراطية، بالثقافة، بالجمال وبالحب في البرازيل. وحت، بجسدها النسائي الضعيف، مستقبل الوطن نفسه، يا صديقتي.

- ٦ -

لم يستطع رجال الشرطة فصل اولغا عن زوجها، وايداعه إحدى غرف الانتظار، إلا في مقر الشرطة المركزية، حيث لم يكن من الممكن قتله دون أن تروع البلاد بكاملها بالنبأ.

وفي هذه الليلة، صوبت البنادق الرشاشة نحو صدور المعتقلين السياسيين في القاعات التي احتجزوا فيها. واستدعي جميع الجلاوزة على عجل لحراسة الممرات. لقد كانت الحكومة تكره برستس، يا صديقي. وكان كرهها يزداد لمعرفة أن مجرد وجوده يعرض الجهاز البوليسي كله لهزؤ ساخر، مع كون هذا الجهاز هو الأول من نوعه في البلاد. كانت الحكومة تخاف برستس خوفها من الموت. واستبد برجال الشرطة رعب أعظم، لدى رؤيتهم له يصل حياً كانوا على أحر من الجمر انتظاراً لنبا مصرعه « الذي نتج عن محاولته الهرب أو مقاومته للاعتقال ». وكان الرئيس قد اصدر الأمر سلفاً بتهيئة بلاغ للصحف حول هذا الأمر. ولكن رجال الشرطة كانوا يرتجفون الآن من الرعب. فلقد مر بينهم برستس، الذي لم يبق بمقدوره ابداء مقاومة ما، وهو يرميهم بنظرة هي خلاصة الاحتقار. وهيئت قاعة للاستجواب على عجل. وكان الشرطيون يراقبون الرجل الهزيل الهاديء، المحاط بهامات رجال الشرطة الخاصة الطويلة. لقد كانوا يعرفون أن شعب البلاد يعيش وقد علقته منه النفس بشفتي هذا الرجل، بانتظار ما سوف يقول، بانتظار ما سوف يعمل. يعرفون أن صورته في داخلية البلاد، في السرتونات، تحاط بالشموع كصور القديسين، وأن الفلاحين يحتفظون بالأشياء التي سبق له أن لمسها، احتفاظهم بآثار مقدسة ثمينة. وكانوا يشعرون أنهم باعقلهم له إنما يعتقلون شعباً كاملاً. وكانوا يتطلعون إليه من بعيد والخوف يملأ منهم

النفوس. أما هو، فكان يتقدم هادئاً صافي النظرة. وكذلك بدا أمام النائب العام والمدعي الجنائي اللذين سارعا إلى الحضور. وأعلن أمامهما أن على عاتقه وحده تقع مسؤولية تظاهرة الخامس من تموز، ومسؤولية التحالف الوطني التحريري، و«كل مسؤولية سياسية» تترتب عن حركة تشرين الثاني الثورية، إن في ريو أو في المنطقة الشمالية الشرقية، وأمام رجال الشرطة الممثلين رعباً، جاهر بمعتقده الوطني. لقد تحدث عن هدفه الأعلى، عن حاجات الشعب البرازيلي.

ودبت الحركة من جديد في جهاز الشرطة كله، عندما أصبح من الواجب اقتياده إلى أحد سجون الشرطة الخاصة الآسنة. وستبدأ، من الآن فصاعداً مرحلة استشهاد الطويلة. ولكن سوف تبدأ في الوقت نفسه أروع مراحل حياته، تلك التي سوف ترقى به إلى جانب أعظم وجوه الانسانية. وأعلنت الحكومة، منذ اعتقال برستس، «حالة الحرب»، واختفت آخر مظاهر الشرعية في البلاد. وغُلف الظلام البرازيل، ولم يبق الآن، يا صديقتي، سوى الأمل الذي يلمع لمعان الشمعات التي تنير صورة البطل في بيوت المنطقة الشمالية الشرقية الفقيرة.

وفي السجن القذر الذي أُلقي فيه، كان على برستس أن يقضي أكثر من عام دون أن يتلفظ بأية كلمة أمام أي إنسان. ولم يكن بمقدور أي شخص آخر أن يثبت أمام التجربة الرهيبة لسنوات السجن هذه، يا صديقتي، التي تمتد من سنة ١٩٣٦ حتى يومنا الحاضر.

وفي الطابق السفلي لسلم مبنى الشرطة المركزية، حيث احتُجز برجييه، كان هذا يعامل ككلب كليب. وأمام غرفة انفراد برستس، قام رجل لم يكن يوجه إليه أية عبارة، ولم تكن له من مهمة سوى الإنصات إلى ما يقوله برستس وتسجيله كلمة كلمة، ثم حمله إلى رئيس الشرطة فيلينتو مولر.

إن برستس، وهو الذي لا يستطيع التحدث إلى أي إنسان، ولا يصله أي نبأ عن زوجه الحامل المعتقلة، والذي لا يشاهد سوى الجاسوس الموكل إليه

أمر مراقبته ، كان لا يستطيع أن يقرأ لا صحيفة ولا كتاباً ، ولم يكن يملك أي شيء يمكنه من الكتابة ، بل ولم يكن يستطيع حتى أن يتلقى التقارير التي كانت ترسلها له والدته . ولم تكن تُقطع عزلته في غرفة سجنه الصغيرة ، حيث لا هواء يدخل ولا نور يتسرب ، إلا عند هبوط الظلام ، عندما كان يأتي رجال الشرطة ويعتصمون باب غرفة الانفراد ، ويسمحون له بالتنزه في رواق نصبت في طرفه الرشاشات . وما يكاد يخرج ، حتى يبدأ الشرطيون بجلد المعتقلين السياسيين ، من أصدقائه ورفاقه ، أمام عينيه . فيُحضرون البحارة المطرودين من الاسطول بسبب من ثورتهم ، ويحرقون منهم ، أمامه ، المؤخرات بقناديل الاسينيلين . لقد كانوا يعرفون أن برستس سوف يلقي بنفسه عليهم . فكانوا يتلذذون بمنعه من ذلك ، وبالقائه من جديد في غرفة انفراده ، حيث ما كان يستطيع إلا أن يسمع العويل وزفرات الألم التي كان يصعدها المدببون . وكان الشرطيون يردون على احتجاجاته بالشتائم والقهقهات . ولقد جُن برجه في طبقة سلم سفلى . وكانوا يريدون أن يدفعوا لويس كارل س برنس إلى الجنون . كانوا يريدون أن يزهقوا منه الروح ببطء ، وأن يعظموا مقاومته الجسدية والروحية ، لقد كانوا يريدون تصفية أمر البطل ، ذلك لأنه ما دام حياً ، فإن الطلائية لن تدخل نفوس الطغاة مطلقاً .

وظل في معتقل الشرطة الخاصة من سنة ١٩٣٦ حتى سنة ١٩٣٧ ، ومن ثم نُقل إلى كه رساو . حيث كانت تنتظره تجارب أخرى مرعبة . وكان يمضي أيامه دون أن يرى انساناً ، دون أن يتحدث بكلمة إلى أي انسان ، دون قراءة أو كتابة . ودون أن يعرف أي شيء عن العالم أو عن أعز الناس إليه . ما الذي كان يجري لامراته ؟ لقد كانت تحمل في أحشائها كائناً بشرياً . إلى أي شيء كانت تعرض ؟ وأمه البعيدة عن الوطن ، ما الذي كان يجري لها ؟ وأي استشهاد كان تعرض إليه شعبه ، وما الذي كان يجري له ؟ لقد كانت أيامه مملوءة بهذه الأفكار المرعبة ، وبعزلة هائلة ، وبعدد استقرار حول كل الأمور .

وعند هبوط الظلام، كان يشاهد رجال الشرطة الوحوش يحرقون، يقطعون ويجلدون الأجساد البشرية، يعذبون البحارة والعمال والمتقنين الذين ارادوا، مثله، أن يحرقوا البرازيل.

وعندما تعاودك الذكرى الدنسة لشكنة الشرطة الخاصة هذه. يا صديقتي، إياك أن توجهي إليها نظرة خالية من حقد. ولتتملي عينك أيضاً بالمودعة والحنان. ففي هذه الشكنة برهن البطل أنه جدير بقيادة شعبه، أهل لأن يكون في طليعة الناس المناضلين من أجل تحررهم. وهناك تألم من أجل أهله وأنصاره، وقدم إلينا درساً في البطولة؛ وهناك ازداد هذا الجبار ثمناً في غمرة من احترام الناس وتقديرهم. وفي شكنة الشرطة الخاصة هذه، لم يبق برستس، العبقرية والبطل فقط، بل أصبح حصناً معنوياً يصمد أمام مختلف أشكال الألم، لم يكن ليهن منه العزم مطلقاً، ولو مهما كان العذاب الذي يتعرض إليه. لقد ظل هو نفسه. إنه واحد من أبطال هذا العصر: إنه أعظم وجه في اميركا الحديثة.

وقد استندت الدعاوي التي أقيمت عليه إلى وثائق مزورة، إلى شهود مأجورين، إلى شهادات خونة، يؤازرهم في ذلك قضاة في محكمة دنسة؛ محكمة الأمن. ولم يكن هؤلاء بقضاة، يا صديقتي؛ لقد كانوا رجال شرطة يتجلببون بحلة القضاة لكي يدنسوا، إلى ما لا نهاية، العدالة البرازيلية.

ووجهت إليه كذلك تهمة «الهرب من الجندية». وحل موعد النظر في هذه الدعوى، في يوم من الايام. وعقدت الجلسة لا في ردهة محكمة، بل في إحدى قاعات الشرطة الخاصة. وكان برستس قد بُرئ من هذا الجرم الخيالي نفسه في آب سنة ١٩٣٦. ولم يكن قد حضر المحاكمة، لأن البوليس كان قد أعلن أمام المحكمة أن الأمر يتعلق بمجرم «من الصعب احضاره ولو محروساً». وطعنت الحكومة، هكذا بمنتهى البساطة، بقرار البراءة، وكسرتة، وأصبح العسكريون الذين أصدروه في عداد المشتبه بهم. وكان بانتظاره الآن في إحدى قاعات المحكمة الخاصة، قضاة عسكريون آخرون، من أجل محاكمته من جديد. وقامت «المحكمة» المرتجلة على مسافة لا تتجاوز

خمسين خطوة من غرفة انفراده. ووصل برستس محاطاً بالشرطة المسلحة بالبنادق الرشاشة والقنابل المسيلة للدموع. إنه في تمام الهدوء، وقد اعتمر وجهه بصفاء تام. وكان هزاله ينبيء بالآلام التي لا يمكن وصفها، والتي كان يكابدها في السجن منذ ما يقرب من عام. وخاطبه رئيس المحكمة بقوله :

- بمقدورك أن تجلس، أيها النقيب.

فأجاب برستس:

- إنني هكذا في خير حال.

وظل وافقاً محاطاً بعشرات الشرطيين.

وأحاطه الزعيم فاريا جونيور، وهو واحد من قضاته، علماً، أن المحكمة، بمقتضى القانون، تمنحه حقاً واسعاً في الدفاع عن نفسه، وأن بمقدوره أن يختار وكيل دفاع إذا أراد.

فابتسم برستس وقال:

- ولكنني أكاد لا أعرف بم يتعلق الأمر...

- عليك أن تجيب عن أسئلة هيئة المحاكمة.

- كيف يمكنني أن أجيب، ما دمت منذ سنة مفصولاً عن العالم، ومعزولاً تماماً وسط هذا الارهاب البوليسي؟ عليّ قبل أن ابدأ باختيار وكيلي، أن أعرف، على الأقل، ما هي التهمة الموجهة إلي.

فقال له أحد القضاة إنه متهم بجرم الفرار من الجندية، بموجب المادة ١١٧ من قانون الجزاء العسكري. ثم قيل له إن قرار براءته الصادر في آب سنة ١٩٣٦ قد كُسر.

فقال برستس وهو يرسل بإشارة هزؤ:

- إنكم لا تجهلون وضعي. كيف أستطيع الدفاع عن نفسي ما دمت معزولاً عن العالم تماماً؟ فأنا منذ ثلاث عشرة سنة بعيد عن الحياة العسكرية. وإنني أعرف أن عديداً من التعديلات قد طرأت على القانون خلال هذه الفترة، وعليّ أن ألم بها، على الأقل، لأستطيع الدفاع عن نفسي.

فأعلن أحد القضاة أنه لم يطرأ على القانون أية تعديلات. ولكن المدعي العام قاطعه ليقول إن برستس على حق؛ فلقد طرأت تعديلات على القانون خلال هذه الفترة. ثم أضاف أن من الواجب رفع الجلسة، وأن على المحكمة أن تضع أمام برستس جميع الوسائل الضرورية التي تمكنه من تهئية دفاعه. وتحدث برستس عن وضعه، عن وضع البلاد، وعن جميع أولئك الذين يدافعون عن الحرية في البرازيل.

وعادوا به إلى غرفة انفراده. وضاعف رجال الشرطة من وحشيتهم، عقب هذا الانتصار، وعادوا إلى اقتياد المعتقلين إلى أمام غرفة انفراده، وإلى تعذيبهم هناك. ولكي تنتقم الحكومة لنفسها من دعوى محاولة الفرار هذه، التي لم تستطع أن تصدر بواسطتها أي حكم على برستس، هيات دعوى جديدة تتعلق بجرم سياسي وكلفت محكمة الأمن بتنظيمها.

محكمة الأمن.. لكي أصف لك بكلمة واحدة هذه المحكمة، يا صديقتي، يكفيك أن تعرفي أن قضائتها ما كانوا يصدرون أحكامهم حسب الأدلة المقدمة إليهم، بل حسب وجدانهم فقط، كما لو كانوا يملكون وجدانا... ولم يكن هؤلاء القضاة المرتجلون سوى دميّ بائسة يحركها رجال الشرطة في الاتجاه الذي يريدون. وكانت الأحكام التي تصدرها محكمة الأمن، يُرسل بها إليها فيلينتو مولر مقدماً، وكان بعض المعتقلين يعرفون سلفاً سنوات السجن التي سيحكمون بها، إذ كان يحلو أحياناً للمحققين أن يتحدثوا، فيرسلوا بالتعليقات الساخرة تترى في ممرات باحة مبنى الشرطة، على هذا الشكل كانت تعمل محكمة الأمن.

واقتياد برستس. في كانون الثاني سنة ١٩٣٧، إلى مواجهة راوول

ماشادو، وهو كاتب فاشل وشاعر عاطل، يكره كل من يتمتع بشهرة ما، لم يكن هو جديراً بالحصول عليها. وهو، بصفته خادماً للطغاة، كان المدني الوحيد الذي يستطيع أن يتقبل مذلة الحصول على مركز قاضٍ في محكمة الأمن. وجاء لمقابلة برستس. وكان كاتب المحكمة هو نفسه الذي استمع إلى برستس إبان التحقيق، وكذلك كان الأمر في ما يتعلق بالمدعي العام، واستبدل براوول ماشادو. واستمع إليه القاضي، كما جرى أثناء الاستنطاق، في إحدى قاعات الشرطة. ما الفرق إذن بين المحكمة والشرطة؟ ومُنح برستس ثلاثة أيام من أجل تنظيم دفاعه، لكي يقدم حججه ويدرسها مع وكيله: إنها لوحشية، يا صديقتي، إن لم تكن مهزلة! إن هذا المتهم لم يشاهد وكيله، وهو لن يشاهده، فوق ذلك، إلا بعد فترة طويلة من انتهاء محاكمته. إنه لا يملك قلماً للكتابة؛ ولا يستطيع أن يتصل بأي مخلوق، ولا يعرف بالضبط التهمة الموجهة إليه، ويتمتع بثلاثة أيام من أجل تنظيم دفاعه، ورفض برستس أن يسهم بهذه المهزلة الفاجعة.

وطردت الشرطة بعنف وكيله الذي حاول الاتصال به. ومع هذا كانت الحكومة تزيد أن يعتقد العالم أن محاكمته جرت بصورة شرعية.. والحال، كانت هذه المحاكمة أكثر استبداداً وأعظم وقاحة من محاكمة ديميتروف في لينز. وجرى هذا في أميركا الحرة.. في أميركا الحرة حيث يُسام الظلم شعب متعطش للحرية.

وقضت محكمة الأمن الوطني بسجنه ست عشرة سنة وثمانية أشهر. وكان هذا قليلاً بالنظر للخوف الذي كان برستس يوحيه للحكومة. وفي ما بعد، ستقضي عليه الحكومة بالسجن ثلاثين سنة أخرى، إثر محاكمة ثانية.

إن عيون البرازيل تتطلع نحو هذا الرجل الذي يُسام العذاب في ثكنة الشرطة المركزية؛ إنه لا يعرف شيئاً عن زوجته؛ أنجبت الولد الذي كانت تنتظر؟ ولا عن أمه التي تناضل في الخارج من أجل حريته. وهو لا يعرف شيئاً عما يجري في العالم، ولا يستطيع القراءة، ولا مشاهدة أي إنسان. وهو يتحدث وحده بصوت مرتفع في غرفة انفراد، كي لا تغيب من ذاكرته

معالم الصوت الانساني . ولم تكن تصل إلى مسامعه سوى صراخات المعذبين .
إنه يشاهد كل يوم أناساً يُسامون من العذاب ضروباً مختلفة . ولكنه يقاوم
كل هذا ، يا صديقتي ، فهو يمثل شعباً بكامله . وهو ، وقد ترعرع وتغذى
وتربى وسط مطالب الشعب ، يتمتع بالقوة التي تهبها له الحرية التي يتقمصها .
وهو يقاوم جميع الآلام . ويتعاضم وجهه يوماً بعد يوم ، وينتصب ، رحباً
واسعاً فوق البرازيل . إنه الأمل ، يا صديقتي .

- ٧ -

شاع الخبر في مبدأ الأمر، يا صديقي، في قاعة النساء. وانطلق بعد ذلك إلى ديتنسون، ومن هناك تسرّب إلى كوريسون؛ سوف يُحضرون أولغا بيناريو برستس، امرأة لويس كارلوس برستس. ودخل رجال الشرطة القاعة؛ وكان رومانو يترأس المفتشين. ورفضت أولغا ان تخرج.

إنها، وقد اعتقلت منذ ستة أشهر، لم تكن تعرف شيئاً عن زوجها. ولقد جعلها انفصالها عنه، هي والجنين الذي يتوئب حياة في أحشائها، تفقد أقل أمل في المستقبل. وما هم الآن يأتون لاقتيادها. ولقد استطاعت في السجن ان تنال، على الأقل، عطف رفاقها في الحظ العاثر. وكان هناك إلى جانبها العديد من قرينات المعتقلين؛ أوجينيا ألفارو موريرا، روزا ميريلس وكثيرات غيرها. وكانت أوغستا اليز إيورت قد اقتيدت هي أيضاً إلى المكان نفسه. وكانت النساء يشاهدنها تستيقظ في منتصف الليل، في الساعات نفسها التي كانت تُسام خلالها العذاب لدى الشرطة الخاصة. فكانت تستيقظ وتأخذ في النشج والانتحاب. وكانت أوغستا تعرف أن تعذيب هاري يبدأ في مثل هذا الوقت، فيقتاد من المكان الذي يجرجر فيه ما تبقى من حياته، في أسفل الدرج، ليُعبث به كأداة هو للشرطيين السفلة. وحُمِلت أوغستا اليز في أحد الأيام من المكان المحتجزة فيه. وشاهد النسوة رفيقتهن تذهب بوجه مشوه، وقد انقلب منها الجسم، الجسم الجميل، إلى كتلة لا شكل لها على أثر ما استهدفت له من تعذيب. ولم يُعرف بعد ذلك عنها إلا القليل الغامض، المنبئ بأنها نُقلت إلى المانيا حيث ماتت فور وصولها. وما هو دور أولغا يحين الآن.

وعبأت كارمن غيولدي النساء. ونقل هؤلاء الخبر إلى المعتقلين

السياسيين، وسرعان ما انطلقت الاحتجاجات. ألوف من الرجال المعتقلين في الكوريسون وفي الديتنسون كانوا يصرخون ويحجون وكانوا يرسلون بصراخهم عبر قضبان غرف انفرادهم الحديدية نحو الشارع. ولقد كانوا يتوقعون لأولغا ان تُنفي، وان يرسل بها إلى المانيا النازية. لقد اكسبها اقترانها، برجل برازيلي، الجنسية البرازيلية: هكذا يقول القانون. ولكن ما الذي يعنيه القانون بالقياس إلى الطغاة، يا صديقتي؟ وواصل المعتقلون احتجاجاتهم، ورفضت أولغا مغادرة السرير. انها لا تكاد تستطيع المشي، فلقد أثقل خطاها الحمل، هذا الحمل الذي أمضي في السجن، والذي قاست خلاله الامرّين. وقد تحطم منها القلب، من فقدان المعونة الطبية ومن عدم العناية، ومن طعام أقل من أن ينعت بالافتقار إلى المواد الغذائية. وقال لها الشرطة عند ذلك ان بودهم نقلها إلى إحدى العيادات، إلى مستشفى توليد لتضع فيه. ومنذ الساعة التاسعة مساء كان الصراخ ما ينفك يتعالى من السجن. وقد تعطل السير في الشارع. وفي الساعة الثالثة صباحاً وافقت الشرطة على ان يرافق أولغا طبيب معتقل، وامرأة، معتقلة هي أيضاً. وسرعان ما تبين ان الأمر لا يبدو كونه مهزلة. فما كاد الثلاثة يخرجون من الكوريسون، حتى احتجز الطبيب والمرأة في إحدى سيارات السجن وأرسل بها إلى الشرطة المركزية، بينما اقتيدت أولغا إلى إحدى البواخر المسافرة إلى المانيا.

وحرمت حتى من التعزّي برؤية زوجها. بل ولم يسمح لها حتى بتوجيه رسالة وداع إليه. وألقي بها في قعر السفينة، سفينة الشحن الالمانية. وسافرت، وهي في شهرها الثامن من الحمل، وقد تمددت في زاوية ما، في قعر السفينة، قدرة ومحرومة من التعرف إلى يد التنظيف، ولو لمرة، ولم يكن بمقدورها ان تتشق ولو القليل من الهواء النقي. وكانت اهتزازات السفينة - سفينة شحن صغيرة في بحر هائج - تحملها على القياء. واضطرت، وهي المريضة الحامل، ان ترقد على قبتها طيلة الأيام الثلاثين من سفرها. وكانت قد خرجت من أيدي دمي فيلنتو لتقع في أيدي دمي هملر.

ولم يكن بالامكان اتهام أولغا، التي أوقفت منذ سنة ١٩٣٦، بأية جريمة، حتى ولا باحدى تلك الجرائم السياسية التي كانت مخيلة رجال الشرطة البرازيلية، مع هذا، تنسج خيوطها بمنتهى السهولة. فلقد كانت أولغا امرأة متزوجة تهتم بكنها الزوجي وتحيط قرينها بعناياتها وتهب مباحج حبها وعطفها. وهي، فوق ذلك، كانت تعمل في احشائها حياة انسانية، جنيناً هو نتاج حبها للويس كارلوس برستس. وانها، وأيم الحق، لمشكلة بالقياس إلى أسياد البلاد، يا صديقتي!

إن هذه المرأة لمن أرق وأحن وأشجع الزوجات يا صديقتي وهي لم ترتكب أبة جريمة، حتى ولا بنظر القوانين المصنوعة من أجل معاقبة الناس الذين حملوا السلاح، في سنة ١٩٣٥، من أجل الدفاع عن الشعب ضد طغيان السلطات. وكان حرياً بهذه المرأة، في برازيل حرة، ان تشكل صورة رائعة من صبر الطمعة، تستدر حنان الشعب الذي كان يتابع مطالبته بالحرية لبرستس، ولقد أرسل بها إلى ألمانيا على متن سفينة شحن كانت تقلع من أحد الموانئ البرازيلية وتوجه مباشرة نحو مرفأ الماني؛ ولم تكن الحكومة تخشى شعب البرازيل فقط، بل كانت تخاف أيضاً شعوب العالم الأخرى.

ولم يستطع الطفلة ان يكتشفوا أية تهمة بمقدورهم إلصاقها بها. ولكن أولغا، يا صديقتي، كانت قد ارتكبت جريمة هائلة، جريمة لا تغتفر بنظر هؤلاء الأشخاص: جريمة الحب. وأنا أعرف، كما تعرفين انت أيضاً يا صديقتي، ان لا شيء أروع ولا أجل من الحب. والحب حين تفتح براحه في نفوسنا، هو الشمس، هو السماء، هو اكتشاف كل الاشياء التي لم يسبق لنا ان أحسنا بوجودها، هو الجبال في أروع بهائه: هو اكتشاف ضوء القمر في ليالي الصيف، والربيع الذي يخفق بين الأغصان ويتصاعد من الأرض، اكتشاف الأبرار والشعر والحنان. وانت تعرفين جيداً، يا صديقتي، اننا من أجل الحب نخاطر بكل شيء لكي نحصل على كل شيء، وهذا ما فعلته أولغا. لقد تمتع الرجل الذي كانت تحب، وكان هذا هو أكثر الكوائن الانسانية جدارة بان تحب. لقد تمتع خطواته التي كانت خطوات الحرية. لقد كان

عليه ان يعمل الشيء الكثير، وكان به حاجة إليها لانجاز مهمته. وكانت هي ممثلة كفاءة وطيبة، وكانت أفضل الزوجات وأكثرهن لطفاً وحناناً وأمانة. وانها لرائعة « كلمة » زوجة، هكذا يقول الجميع.

وهناك أشخاص يظهرون بمنتهى الفصاحة عندما يتحدثون عن الفضائل العائلية، يا صديقتي. وهم يحبون ان يتحدثوا عن الإخلاص والكرامة واللطف، ويؤكدون انهم لا يتقبلون أعلى المراكز وأسمى المناصب إلا رغبة منهم في الحفاظ على هذه الفضائل وإيداءها حقها من التقدير. حذار من مثل هؤلاء الناس يا صديقتي؛ فمزورة هي أحاديثهم، ولا يعدو حبهم لهذه الفضائل ان يكون في الواقع حباً للمراكز والمناصب، حباً للسلطة. وان كل ما هو حقاً نبيل وكفؤ ولطيف، مقبوت بنظر هؤلاء الناس، بنظر الطغاة. ذلك هو السبب الذي كانوا من أجله يكرهون أولغا، ويكرهون كرامتها ونبلها وحنانها الزوجي. وان هؤلاء الأشخاص، الذين كانوا يرتجفون رعباً لمجرد سماعهم باسم برستس، - لان برستس يتحلى بالعظيم من الفضائل -، قد انتزعوا الزوجة من يدي الزوج وهم يؤكدون، بمنتهى المداهنة والرياء، انهم إنما كانوا يتصرفون باسم المسيح. ولقد استحوذ الظلام على جميع الكلمات في العالم، يا صديقتي، واستولوا على أعظمها نبلاً، وعلى ذكرى الرجال العظام وذكرى القديسين. وعندما يتحدثون باسم هؤلاء، انما يفعلون ذلك لكي يرتكبوا ويتستروا على الجرائم والسفالات. وهذا ما فعلوه مع أولغا ومع لويس.

لقد كانوا يعذبون برستس؛ لأنه كان أكثر من يخشون من الرجال. وكانوا يعذبون أولغا لأنها كانت تحمل في أحشائها طفلاً هو نتاج حبها لهذا الرجل. وظناً منهم انهم قد اكتشفوا ما يستطيعون بواسطته حل السعادة إلى قلب الطاغية هتلر، رأوا ان أفضل مقدمة وأعظم هدية يهبونه، هي: ان يبعثوا إليه بأولغا وبالجنين الذي يضطرب حياة في أحشائها.

وفي باخرة الشحن هذه، التي تذكر بمشاهدها الدانتية^(٥) ببواخر

(٥) نسبة إلى الشاعر الابطالي دانتي.

النخاسين ، كانت أولغا ترقد على قبتها . في جسدها كانت تضج حياة هي ثمرة حبها . ولقد بقي زوجها في البرازيل في أيدي أعداء الشعب ، في أيدي اناس يكرهون كل ما هو كرامة وجمال ؛ ويكرهون بالتالي ، هذا الزوج ، الذي كان يتجسد فيه جمال الحياة وكرامتها . أما هي ، مع الجنين الذي تحمله في أحشائها ، فسوف تقع بين يدي مجنون مفترس ينشب مخالبه في البلاد التي ولدت فيها وكأحد الأتقال الملقى به فوق الأقدار ، كانت تقع في قعر السفينة الموبوء ، الذي لا هواء فيه ولا نور . وقد ظلت ترن في مسمعها ، طوال شهر ، الأناشيد الهتلرية ، وتترأى لعينيها تحيات هؤلاء الأشخاص المقيمة .

وشاهدت في أحد الأيام ، يا صديقتي ، الشواطئ الألمانية ، وأحست بنفحات من نسيم هامبورغ . وعادت بها الذكرى إلى عهد آخر كانت فيه ربح الحرية تنفخ فوق هذه الشواطئ التي تسيطر عليها التعاسة في هذه الأيام . وكانت أولغا تتغلب على ضعفها ، كانت تعيش . وهي سوف تعيش من أجل زوجها ، ومن أجل طفلتها التي سوف تولد في السجن .

وكان الغستاابو ينتظر على الرصيف هدية الشرطة البرازيلية . واحتجزت أولغا فوراً في سجن بارنيمستراس المظلم ، حيث وضعت ، في السابع والعشرين من تشرين الثاني سنة ١٩٣٦ ، يوم ذكرى انتفاضة ريو دي جانيرو ، طفلة كان عليها ، وقد ولدت في غرفة انفراد ، ان ترعرع في المنفى .

ودعتها أولغا بأنيتا ليوكاديا ، مُشيدة بذلك بذكرى امرأتين مثاليتين : أنيتا غاريبالدي ، مرافقة المناضل العظيم من أجل الحرية ، وليوكاديا برستس ، والدة لوبس كارلوس برستس البطلة . وخرجت هذه الطفلة إلى العالم سليمة قوية ، لا تحمل أي أثر من العذاب والرعب والمأساة ، التي كانت والدتها تعيش في كنفها . وأصبح الآن يعود إلى أولغا أمر العناية بالطفلة وجعلها كائنًا جديراً بوالدها وجدها وبشعب البرازيل ، الذي كان يعتبرها أحب بناته إليه . وكانت أولغا وحيدة في العالم ، لا تعرف شيئاً عن زوجها ، ولا تعرف ، يا صديقتي ، أي شيء عن أولئك الذين كانوا أعز الناس إليها ، وكانت تجهل

المصير الذي كان ينتظرها هي . ولكنها قررت ان تجعل ابنتها تعيش . قررت ذلك بالعزم نفسه الذي أظهرته برفقة زوجها لويس كارلوس برستس ، خلال ليالي الارهاب المظلمة للأشهر الأولى من سنة ١٩٣٦ ، عقب اندحار الثورة .

وبعد عدة أيام من خروج طفلتها إلى عالم الوجود ، أحست أولغا ان الحليب يشح في ثدييها الهزيلين . ولم يكن غذاؤها الهزيل - سائل مصفر يطلق عليه النازيون اسم القهوة ، في الصباح ، قليل من الخبز الرديء وبعض حساء الخضر الجافة عند الظهر ، ولا شيء بعد ذلك مطلقاً - ليتمكنها من إطعام طفلتها . وكانت الطفلة تصرخ متضجرة من الجوع عقب كل رضاع . وبدأ الهزال يدب في أنيتا ليوكاديا أمام عيني والدتها التي يستبد بها القلق . وأخذت هذه ، وهي البعيدة عن أعز الكوائن إليها والمحتجزة في سجن بارنيمستراس ، تغني في الليل لتهدئ من وطأة الجوع الذي يستبد بأنيتا ، وتهدهدها بتلك الأحاديث التي كان لويس كارلوس قد علمها إياها :

« شوشو يا وحش البابون

أخرج من فوق السقف

ودع الطفل في حلمه مطمئناً ... »

أحاديث من البرازيل النائية ، حيث يوجد لويس .. وكانت الدموع تنحدر على وجنتي أولغا بينما كانت أنيتا تبكي من الجوع . وكان صوت أولغا اللطيف يرتفع وسط سجن بارنيمستراس الرهيب ويحمل إلى المعتقلين الرقاد أو يسكن من وطأة الآلام اللامتناهية . وكان الأمر ينتهي بالصغيرة أنيتا ، الهزيلة والجائعة ، والسابع وجهها بالدموع ، هي أيضاً إلى الرقاد . ولكن الدموع كانت تغسل وجه أولغا كذلك ، يا صديقتي ، عند رؤيتها طفلتها تسير إلى الموت خدراً . ولم يكن لديها ما تقدمه إليها . وبالرغم من رداءة الطعام اللزج ، الذي كان يُقدم إلى أولغا ، فإن هذه كانت تأكل كل شيء ، املأ منها في ان تستطيع ان تهيم قليلاً من الحليب لطفلة هي كل ما تملك في

هذه الحياة. وكانت انيتا تتأمل طفلتها عندما كان يستولي عليها الرقاد. لقد كانت هزيلة ذابلة كزهرة حرمت الماء والشمس. وكان يخيل إليها ان ابتتها ستموت، فكانت تصعد نشيجاً مؤلماً من قلبها المتحطم أثر كل أحدية تنطلق من شفيتها في ظلام ليل سجن بارنيمستراس.

وإذا ما كانت انيتا قد ظلت على قيد الحياة، فالفضل بذلك يعود، يا صديقتي، إلى ان ليوكاديا برستس استطاعت ان تتصل بها وان ترسل إليها طعماً. وعلى هذا الشكل أنقذت ليوكاديا الصغيرة. وسرعان ما أطلق المعتقلون على ابنة برستس لقب: «شعاع الشمس الصغير في بارنيمستراس».

وعندما بلغت الصغيرة الثمانية أشهر، نقل النازيون أولغا إلى غرفة انفراد أكثر قذارة وأكثر رطوبة من الأولى، محرومة من الماء. ولم يكن بسمح لأولغا، من أجل زينتها وزينة ابنتها، ومن أجل اطفاء جذوة عطشها وعطش انيتا، إلا بابر يق ماء واحد في اليوم، وإذا ما كان الماء غير كاف، كان يتوجب الانتظار حتى اليوم التالي. وكَم من المرات اضطرت ان تُهدىء من وطأة عطش ابنتها الصغيرة، التي كانت تبكي طلباً لجرعة من الماء، يهددها باحديات المنطقة الشمالية الشرقية البرازيلية. وتعلمت انيتا الزحف على أرض غرفة الانفراد الملائية، القاسية الخشنة. على هذا الشكل كانت الأم والابنة تعيشان، يا صديقتي، في السجن النازي في ألمانيا.

وفي هذه الأثناء كانت ليوكاديا، الجدة، تنقب الأرض والسماء بحثاً عن حفيدتها الصغيرة؛ وشنت من أوروبا حملتها العظيمة من أجل انتزاع البريئة من أبدي الغستابو. ولم يكن رجال الغستابو يقولون شيئاً حول هذا الموضوع لأولغا. ألم يرسل بها إلى هتلر من أجل سومها العذاب؟ فلتعذب إذن. بل ولقد قيل لها إن أنيتا ستنتزع منها فور بلوغها الشهر العاشر من عمرها، وسيُرسل بها إلى احد الميائم النازية ويعهد بتربيتها إلى النازيين. وكان الشهران الباقيان لذلك التاريخ بمثابة أعظم الفترات المؤلمة بالقياس إلى أولغا، كانا موتاً يومياً، انتظاراً قاسياً للوقت الذي ستقاد ابنتها خلاله إلى إحدى مدارس

الشراسة والكراهية. تصوري، يا صديقتي، ما كان يعتمل من ألم فظيع في قلب هذه الأم، التي سوف تُنتزع منها طفلتها ويلقى بها إلى أعدائها ليربوها على مبادئ السفالة. تصوري، يا صديقتي، ألم هذه المرأة التي، وقد سبق لزوجها ان اقتيد إلى السجن، تحتجز وطفلها كحيوان مفترس. تصوري هذه المرأة التي تسام مختلف أنواع الفظاعات؛ معنوية كانت أم جسدية. وكانت دموع أولغا تسيل مدرارة في ظلام ليالي السجن.

وبدأت أنيتا تمشي وتتكلم؛ فلقد كانت ملاطفات أولغا وعناياتها أقوى من الشراسة البشرية. وكانت الطفلة جميلة سليمة، كانت «شعاع شمس» السجن. لقد بلغت السنة الأولى من عمرها، ولم يأت مع هذا أحد لاقтиادها. وبدأت براعم من الأمل تنفتح في قلب أولغا القلق.

ولكن في أحد الأيام، في صبيحة يوم الواحد والعشرين من كانون الثاني سنة ١٩٣٨، دخل مدير السجن غرفتها وأمرها أن تعدّ ابنتها للرحيل. ان وقت انفصالها عن طفلتها قد دقت ساعته. ولم تكن أولغا تعلم أن دونا ليوكاديا برستس كانت في غرفة الانتظار تحتج لعدم تمكينها من رؤية كتنها، وانها سوف تستولي على أنيتا. وبوحشية، من الدقة بحيث لم تكن لتخطر ببال ضيع كاسرة، قال لها المدير إن ابنتها ستُقاد إلى أحد المي�م النازية، كما سبق وأخبرها. وعارضت أولغا في ذلك، ولكن المدير انتزع الطفلة منها بالقوة، وتركها تنشج كالمجنونة في غرفة انفرادها.

وعاشت، وهي على تمام الثقة بان ابنتها بين أيدي البرابرة، أشهراً من القلق الرهيب، وتعرفت إلى انعس ليالٍ يمكن لامرأة ان تتعرف إليها، يا صديقتي. واستمر الحال كذلك شهوراً طوالاً.

إلى أن جاء اليوم الذي سمح لها فيه الغستابو أن تتلقى تحريراً من حاتمها، وهو واحد من تحارير عديدة كانت هذه قد أرسلت بها إليها. وهكذا تعرفت إلى ان أنيتا هي بين يدي جدتها. وحل إليها يوم البهجة هذا تعويضاً عن كل أيام التعاسة التي كابدها وفي هذا اليوم قررت أولغا ان تكون أقوى

من الألم ومن العذاب: سوف تحيا من أجل زوجها ومن أجل ابنتها.

ونُقلت، بعد قليل من ذلك، من سجن بارنيمستراس إلى معسكر اعتقال رافنسبرون، في فورستنبرغ فكلمبورغ، في شمال برلين، حيث بدأت تعيش حياة شاقة. وفي العديد من المرات كان عليها ان تسقط صريعة الأمراض بسبب البرد والجوع والحرمان.

وكانت، في مرات عديدة، على قاب قوسين أو أدنى من الموت. ولكن تصميمها على ان تعيش، على ان ترى زوجها وابنتها مجدداً، كان أعظم من الألم والأمراض. ولم تفقد الأمل، كان زوجها «فارس أمل» شعب كامل، وكان املها هي. وكانت، وهي التي تحيا حامله ذكرى قرينها، تتغذى بالأمل عند قراءتها الكتب النادرة التي كانت تصل إليها من زوجها وحاتها. كانت تتغذى، يا صديقتي، بالثقة بأن الشعب سيحطم في أحد الأيام أغلاله، ويحرر نفسه من الطغاة. لقد علمها لويس كارلوس برستس هذه الحقيقة. وكان أملها يتحدّر من هذه الثقة؛ وكانت هذه الثقة تمنحها قوة العيش.

حتى انها كتبت من معسكر الاعتقال، في أحد الأيام، هذه الكلمات المؤلمة: «انني لا افتقر لا إلى الشهية ولا إلى الرقاد». وأضافت في تحرير آخر: «انني سعيدة لأنني أعمل كثيراً، ولا يبقى لديّ بذلك وقت للتفكير. وعندما أعود في المساء، لا أشعر إلا برغبة وحيدة: ان أنمّدد، وأرقد كالخجر. وهذا ما يملأ نفسي بالسعادة». عبارات مرة، يكمن خلفها أمل ما: أمل زوجة وأم مثالية!

- ٨ -

دخلت «التنوير»^(٦) فناء الكوريسون؛ وصعد إليها أغليبرتو وأجيلدو. وبعد عدة دقائق من ذلك وصلت عربية سجن أخرى؛ ان الأمر يتعلق الآن برودولفو غيولدي. لقد كان هؤلاء سيمثلون أمام محكمة استئناف، بعد ان أصدرت محكمة الأمن أحكامها ضدهم. فلقد استأنف المحامون القرارات الصادرة، لدى المحكمة العسكرية العليا؛ وقرر المعتقلون، من جهتهم، ان يدافعوا عن أنفسهم أمام هذه المحكمة العريضة التقليد في البلاد، والتي كانت تتألف من قضاة حقيقيين. فلم تكن المحكمة العسكرية العليا أداة لاصدار الأحكام، كمحكمة الأمن. وقرر «السياسيون» ان يدافعوا عن أنفسهم أمامهم. وكان على لويس كارلوس برستس وهاري برجيه ورودولفو غيولدي وأجيلدو باراتا وأغليبرتو فيارا دي آزيفيدو ان يمثلوا أمام محكمة الاستئناف في اليوم نفسه. وكان برستس قد حُكم بالسجن ست عشرة سنة وثمانية أشهر، وهاري برجيه ثلاث عشرة سنة وأربعة أشهر، ورودولفو غيولدي أربع سنوات وأربعة أشهر، وأجيلدو باراتا عشر سنوات، وأغليبرتو فيارا سبعا وعشرين سنة وستة أشهر. وكان برستس وأجيلدو وأغليبرتو، مع سيلوميرس الموجود في رسيني، يُعتبرون رؤساء الانتفاضة العسكرية. وكان برجيه وغيولدي يُلاحقان، بصورة خاصة، بسبب من كونهم أجنبان. وكان جميع هؤلاء سيمثلون أمام محكمة حرة، لم تكن تخضع لسيطرة الشرطة كمحكمة الأمن.

وذهبت «التنوير» التي تقود رودولفو غيولدي من فناء الكوريسون إلى فناء الشرطة المركزية. وظلت هناك عدة دقائق، جاء عقبها أحد رجال

(٦) سلة خضر، وتعني هنا عربية من عربات السجن.

الشرطة ، ففتح الباب وقال :

- انزل .

فخرج رودولفو وصعد «تنتوريرو» أخرى كانت بانتظاره . وكانت هذه
عربة مقسمة في الداخل إلى غرف انفراد صغيرة ، حُشر غيولدي في واحدة
منها ، كان قد وضع فيها رجل آخر ، هو أشبه ما يكون بشبح هزيل محدودب
الظهر . وحاول رودولفو ان يخترق حجب الظلام بنظراته . ولم يكن وجه
الرجل ببعيد عنه ، ولكنه عجز مع هذا عن التعرف إليه . فأغمض عينيه
نصف إغماض ليحسن الرؤية . لا ، انه لم يكن يعرف من هو ، ولم يكن ليخطر
له ببال . ان الأمر كان يتعلق بهاري برجيه ، الذي لم يتعرف إليه تماماً إلا
عندما سمعه يردد بالالمانية :

- أهذا أنت يا غيولدي ؟ .

واستولت الدهشة على رودولفو :

- إنني لم أتعرف إليك ..

فانفجرت شفتا برجيه عن ابتسامته الكثيرة وسأل :

- هل استهدفت لكثير من العذاب ؟ أما في ما يتعلق بي ، فاني قد ضربت
كما لم يكن ليخطر لي ببال مطلقاً ان يضرب انسان ..

وسارت العربة باتجاه المحكمة العسكرية . وكان رودولفو يتطلع إلى الرجل
الجالس بالقرب منه . منذ وقت ليس بالطويل ، كان هذا رجلاً قوياً كبيراً .
وهو الآن يشكل ما يشبه نفاية كائن بشري . وقال برجيه بصوت كان له
جرسٌ فاجع وسط ظلام عربة السجن المنطلقة بأقصى سرعتها في الشوارع :

- وامرأتي ؟ .

وانطلق السؤال متموجاً بشكل رهيب في وسط العربة . فلقد كانت
الأخبار عن أوغستا أليز متناقضة بعد سفرها إلى ألمانيا . فحسب البعض

- وهذا هو الواقع - انها أسلمت الروح عند وصولها إلى السجن الألماني، على أثر التعذيب الذي استهدفت إليه في البرازيل. وكان الآخرون يقولون إنها حية، واختار رودولفو أفضل الروايات وأكثرها نفاؤلاً، وحاول صوته ان يكون بهيجاً في قلب العرب، حيث كانت الأنوار التي تدخل من الثقوب القائمة في هيكل العرب من أجل تهوية غرف الانفراد، ترسم أشباحاً غريبة: - إنها في باريس... فلقد اختلطت من السفينة في مرسيليا. واخسنت الكلمات في حنجرة برجيه قبل ان تنطلق لتقول:

- لا أعتقد ذلك...

وران الصمت ثانية طويلة هائلة. وعاد صوته إلى التردد مرة، مرتين، ثلاث مرات:

- لا أعتقد ذلك... لا أعتقد ذلك... لا يمكنني ان أعتقد..

وخيم الصمت من جديد وكان صخب المدينة النائي ينفعل في العربة من خلال الثقوب مع الأشعة الداخلة. وعاد برجيه الكلام بصوت ثقيل كالطرقة:

- لقد ماتت... انني لعل ثقة بانها ماتت...

ثم سأل أيضاً:

- أعذبت كثيراً يا غيولدي؟ لقد استهدفت لاشياء كان من المنحيل علي ان أنصبر حدودها. واعتقد أن الأيام لن تمضي بي، وأنني سوف أموت... لقد ضربت كثيراً على رأسي... خاصة على رأسي... وفيما لو لم أمت، فإني لعل ثقة بان أفقد صوابي... انني لعل ثقة من ذلك... سوف أجن...

وكان صوت برجيه يتساقط في جو التنوير الثقيل، حاملاً في طياته شيئاً ما كان يذكر غيولدي بمختلف لهجات المأساة اليونانية. وكان صجيج

المدينة نسلل من خلال شقوق عربة السجن، وانطلقت بقية من قهقهة
لمعت في « السندرو » وقال برجيه:

.. لقد سجن اب انسابني نوبات هذيان في بعض الليالي .. سأصبح مجنوناً ..
أنا على ثقة من ذلك تماماً .. تماماً .. مجنوناً ..

وبدقت عربة السجن، ونزل السجينان يحيط بهما رجال الشرطة، وانطلق
في الغناء مزيج من الكلمات والصرخات والأوامر، ومن أصوات أبواق
السيارات. ولم يكن رودولفو غبولدي يسمع شيئاً من كل هذا، وكانت
كلمات هاري برجه هي وحدها التي تهتز في أذنيه: « سأصبح مجنوناً ..
مجنوناً .. »

وكانت الشرطة الخاصة والشرطة المدنية قد احتلت جميع الشوارع
المجاورة، وفُطِن السر: ولم يكن يسمح بالتجول إلا للعربات التي يقودها
رجال الشرطة، وفتح السر على المشاة أيضاً. وحُرست جميع الشوارع المحيطة
بالمحكمة، ونزل المعتقلون من العربات في فناء المحكمة الداخلي، وصعدوا
السلم حتى الطابق الأول. وكان أجيلدر وأغليبرتو قد سبق لهما ان وصلا
وجلسا في المقعدن المخصصين لهما. وجلس أمين سر الحزب الشيوعي السابق
وبرجه ورودولفو غبولدي في اماكنهم أيضاً، وظل إلى جانب القضاة مركز
فارغ.

وكان الفضاء المسكربون، يا صديقتي، يجلسون وراء منبر دائري
الشكل، وكانوا سألون من ألوية ومحامين واسعي الشهرة اختيروا لتسم هذا
المصعب. وكان رجال الشرطة الخاصة والشرطة المدنية يقفون، بطريقة تشكل
إهانة عظمى للحشش وللمدالة، خلف القضاة، من أجل التأثير عليهم. وخلف
كرسي الرئيس كان يقف رومانو، من الشرطة المدنية، والعقيد كيروز، من
الشرطة الخاصة، وإلى يمين القضاة كان الجمهور، ولكن هذا الجمهور كان
مؤلفاً، يا صديعتي، من العملاء ومن رجال الشرطة الخاصة. وكانوا
مصطفون على طول الحدار الجنوبي والجدار المواجه للقضاة. وكان المعتقلون

بالقرب من الجدران الشمالي؛ وقد جلسوا بالترتيب التالي: أجيلدو، أغليبرتو، الأمين السابق للحزب الشيوعي، وإلى جانبه مركز فارغ. وأعدت قبالتهم منصة كان عليهم ان يتحدثوا من ورائها. ومنح كل منهم خمس عشرة دقيقة للدفاع ضد اتهامات فظيعة. ووقف خلفهم رجال من الشرطة الخاصة؛ ثلاثة وراء كل معتقل. انها محكمة حرة.

وفجأة حدث في القاعة هرج ومرج، وانطلقت صرخات كان لويس كارلوس برستس يدخل دامي الفم، إذ ان رجال الشرطة، وقد اغتتموا الفوضى التي حدثت أثناء نزوله من عربة السجن، وبمجة التحقيق في ما إذا كان يحمل سلاحاً، هو الخارج من غرفة انفراد في سجن الشرطة الخاصة، وجهوا إلى وجهه لكلماتهم، وكانوا يجرونه قسراً، بينما أخذ يصرخ في القضاة: - أيها الأولوية، ان هذا لاهانة للجيش... لقد كان والدي عسكرياً، وكذلك كنت أنا. وان رجال الشرطة الذين يضربوني يهينون جيش البرازيل..

وتابع رجال الشرطة سحبه، بفمه الدامي، ولكنه تخلص من الأيدي التي توجه إليه اللكمات. وفي هذه الفترة، يا صديقتي، انطلقت فتاة كانت في القاعة، هي ابنة لأحد المعتقلين السياسيين، من بين يدي أمها وهي تنشج، وجعلت تضغط بنفسها على ساقي برستس بالرغم من الشرطين.

وتدخل القضاة، وأمروا رجال الشرطة بالابتعاد. وتابع برستس كلامه قائلاً:

- إنها لسفالة تلك التي تجري في البرازيل. انها لدناءة لا حد لها، لجريمة أعظم من أن تُقدر..

وحاول بقية المتهمين، ساعة دخوله، ان ينهضوا ويهتفوا له ويساعدوه على دخول القاعة. ولكن رجال الشرطة الخاصة منعوهم من ذلك وأجبروهم على البقاء جالسين. كل هذا كان يجري، يا صديقتي، في المحكمة العسكرية

العلماء، ثوب البطش، ألمية ومستشارين مختلفين قدماء، كانوا مفخرة للجيش وللعدالة، و كانت المحكمة لا تني تسربلهم بوابل من احتقارها.

وبوجه الرئس إلى مرسس ليطلب إليه الجلوس وليقول له إن بمقدوره أن يكلم في ما بعد وقبل مرسس ذلك. فبدأ المدعي العام قراءة مطالعة اتهاماته التي استمرت ساعتين من ملأ. ثم أعطي الكلام لبرستس، أنه لا يتمتع بسوى خمس عشرة دقيقة، ولكن ما قاله كان من التأثير والقوة والرهبة بمقدار لم يملك معه القضاء أنفسهم، وقد سيطرت عليهم حرارة عبارته، إلا أن ينصتوا إليه طوال خمس وأربعين دقيقة. إنه لم يكن يدافع عن نفسه؛ لقد كان يتهم، وكان صوته شخص كفدة من ناز على رؤوس أعداء الشعب؛ وكان النظارة الغلبات، الذين لا ينصتون إلى الشرطة، يبيكون من التأثر وأخذ فارس الأمل يسمع بكلماته المرارة المرددة في أحضان العبودية (٧).

واللهب اتهاماته ضد الشرطة كالجمهر وأشار بيده إلى الشرطيين المنتصبين خلف هذه المحكمة. أشار إليهم واحداً واحداً وأخذ يصف جرائمهم. المتهم بهم تبعوا الرمايل بكامله منهم بصوت بطله حكومة مجرمة ويعلم أنها سوف تزدي الخسائر عما ارتكبت بداها عندما يبرز فجر الحرية.

و انحنى حذران المحكمة من وقع الاتهامات المنهمرة ضد رجال الشرطة وصعد حمائم المحكمة وملئت الدموع من النظارة الوجئات، وتعلقت من

(٧) كتب المحامي الفرنسي مارسيل بيلار، معلقاً على هذه المحاكمة يقول: «إن بطل الاتحاد الثاب، بطل الاستقلال، بوليفار أميركا اللاتينية الجديد لويس كارلوس برنيس، يستحق حب الجماهير البرازيلية ويستحقه عليه. فلقد تقصت في شخصه معالجهم ومطامعهم العميقة، وإرادتهم في التحرر الاجتماعي والوطني. ولقد جهد المهادون كثرة في إخمات صوته، ولكنه كان دائماً ينطلق إلى الأعالي وإلى الأمان النائية. وهو مسموع ليس فقط في جميع المناطق، من قبل كل شعب هذه البلاد الواسعة نصف الاقطار ونصف المستعمرة (الكبيرة كأوروبا والمأهولة كفرنسا)، ذات القنصل عبر الحدود، بالرغم من السرية والمراقبة، بل هو مسموع كذلك في جميع أنحاء العالم الجديد، وفي أميركا وأوروبا، بل وفي جميع أنحاء العالم». (ملاحظة من المؤلف).

القضاة النفوس في شفتي برستس. لقد نسوا ان خلفهم ينحني « رومانو » و « كيروز » ورجال شرطتها، ليذكروهم بأن أقل بادرة من عطف نحو المعتقلين يمكنها ان تكلفهم غالياً.

وبعد أن فضح برستس أمام البلاد جرائم الحكومة، بدأ دفاعه وقرأ تحريراً كان قد كتبه إلى الدكتور سوبرال بنتو، المحامي المكلف بالدفاع عنه، ولكن رجال الشرطة كانوا قد صادروه عندما حاول ايصاله إلى وكيله، فاعاد بناءه الآن وأخذ يقرأه: انه دفاع متقن جريء، انه ميثاق شرف.

وبدأ برستس هذا التحرير، الذي انصت إليه النظارة بجناجر منقبضة من التأثر، بالافصاح عن رغبته في التحدث إلى الشعب البرازيلي:

« ... ليس هناك أي انسان تعتمل في نفسه رغبة أكثر جوحاً من تلك التي تعتمل في نفسي لكي أشرح وضعي جهاراً، وبصوت عظيم الارتفاع، أمام الشعب البرازيلي وأمام الرأي العالمي كله. فليسمح لي السادة الحكام هؤلاء، وليسمح لي خدمهم من رجال الشرطة، أو من أعضاء محكمة القمع، بالكلام؛ ليسمحوا لي بدراسة الملف الذي كُذِّست فيه « البراهين » التي اخترعتها الشرطة، حول « الجرائم » التي ارتكبتها؛ وليسمحوا لي بتوجيه الاسئلة إلى شهود الاتهام، وليُدْعَ إلى المحكمة، فيما إذا كانت هذه تريد محاكمتي بصورة صحيحة، شهود النفي العديدون الذين استطيع تقديمهم، والذين سأوجه إليهم اسئلتي. ولتجر المحاكمة بصورة علنية وأمام ممثلين عن الصحافة الوطنية والأجنبية. عندها يكون بالمستطاع إصدار الحكم. ولست أنا، يا دكتور سوبرال بنتو، الذي يخشى نور العلنية، أو الدراسة الدقيقة لوضعي من قبل الرأي العام. اني لا أتمنى أكثر من ان يتاح لي أن أعرض جميع دقائق حياتي الثورية. وفيما إذا كانت الاتهامات التي يوجهها إلي رجال الشرطة وعملائها في الصحافة مرتكزة على أساس صحيح، فيما إذا كنت مباعاً، لصاً أو مجنوناً، فلم لا يُسمح لي ان أعرض، بحرية، وجهة نظري، وأشرح موقفي؟ ».

إنه لسؤال يوجه . لقد شهّرت الحكومة البرازيلية بهذا الانسان أمام البلاد وأمام العالم كله ، كمرتكب لجرائم منكرة ، كرجل وحش . لم اذن تجري محاكمة هذا الرجل وجرائمه في الخفاء ، بعيداً عن أعين الجمهور ، في فترة إعلان حالة الحرب ووسط صحافة مكشوفة الفم ، وشرطة تسوم الشعب يارهاها ؟ .

ورسم برستس لوحة للوضع الذي يتردى فيه ، مشيراً ، بإصبعه ، إلى المجرمين الحقيقيين :

« إن أولئك الذين يتهموني ، أولئك الذين ، في ظل نظام استثنائي وتحت حماية الغاز ورشاشات الشرطة ، يفترون علي وعلى حزبي ، أولئك الذين يشنونها حملة من أخط وأسفل حملات التجني ، هم بالضبط هؤلاء السادة الحكام ، هؤلاء الذين كبّلوا مني القدمين واليدين ، وكمموا الفم ، وأرسلوا السيد راوول ما شادو هذا ليصبح لي في أذني ، في التاسع والعشرين من شهر كانون الأول سنة ١٩٣٦ ، خلال اجتماع سري عُقد هنا ، في جحر التعذيب والتقتيل هذا ، تحت ضغط الشرطة وأمام قهقهات الجلاوزة الغبية : « هيا ، دافع عن نفسك . لقد استؤجرت كي أحاكمك » .

« وتقدم هذه الكلمات الصورة الحقيقية لحكومة ومحكمة ورجل كان يقول عن نفسه انه قاض : صورة (حكومة - حالة الحرب) و (محكمة - الأمن العام - الوطني) ، و (القاضي - راوول - ماشادو) » .

وأعاد برستس إلى الأذهان صورة تلك الملهة الفاجعة لليلة الشرطة الخاصة تلك ، حيث كان راوول ماشادو ، وهو يطاءً بقدميه بؤسه نفسه ، يصرخ بوقاحة انه « استؤجر » ليحاكم برستس ويحكمه ، حيث كان هذا الرجل القميء يعترف بانه لم يكن سوى اداة بائسة على استعداد لخيانة تقاليد العدالة للمحاكم البرازيلية . وتعالى صوت برستس فوق هذه العفونات جميعها ليتهم باسم البرازيل كلها ويقول :

« في وسط المستنقع الذي نتردى فيه الآن ، تفوح رائحة الرشوة والسفالة والدناءة في كل مكان . ولا يستطيع ذوو الكرامة من الناس ان يوفروا على

أنفسهم السقوط في حماة الوحل « الجيتوليستاسي »^(٨) التي تحيط بهم إلا بمجهود كبير، ذلك لأنه زال كل أثر للصحافة وللمجلس النواب، اللذين كانا آخر معقلين، حيث كان أكثر الناس جرأة يناضلون ضد الطغاة. ولجأت الدكتاتورية، بصورة فاضحة ودونما وازع من حياء أو تردد، إلى استعمال جميع أولئك الذين كانوا، إن لجهلهم، (جهل هو من اسوأ ما عُرف، ذلك لان الأمر لا يتعلق بجهل القسم الأكبر من مواطنينا الذين لم يستطيعوا حتى الآن تعلم القراءة، والذين يتلافون هذا النقص بذكاء واع في معظم الأحيان، يمكنهم من انتاج ثروات البلاد في المعامل وفي الريف - ذلك لانهم هم الذين ينتجون ويصنعون كل شيء)، أو لانعدام ثقافتهم، أو أيضاً لضعف في نفسياتهم، يتأثرون بهريق الأوضاع الكاذب وبالمنفعة المادية التي يحصلون عليها.

« وكانت الشرطة التي هي أفضل سند للدكتاتورية، والتي يبدو انها تقاد بواسطة أناس أخصائيين بالخيانة، توجه نشاطها كله لكي تجعل من مواطنينا، بالعنف أو بالخداع، أشخاصاً مجردين من الكرامة أو سفلة. وكانت تسوم العذاب أولئك الذين لم يكن من طبعهم الانحناء. وكانت، وقد سيطر عليها هوسٌ مَرَضِيّ - لا يوفر في اندفاعه حتى «اصدقاء» الحكومة - تحاول ان تُظهر الناس الذين عُرفوا بأنهم شرفاء ذوو كرامة، بمظهر خونة أدنياء وبؤساء».

وكانت الحياة تضطرم خفاقة في هذه الكلمات التي كانت تتسرب من خلال شقوق نوافذ المحكمة المغلقة، وتنظف جسم البرازيل الهائل من الوحل الذي يلطخه. إن شعباً كاملاً يجتز بمبضع الحقيقة لحم حكومة عفن، ويعرضها، عارية تافهة، أمام الرأي العام العالمي. وأثبتت الحرية والشجاعة والكرامة في هذا اليوم، بلسان برستس ولسان رفاقه من بعده، انها ما تزال ثابتة الأسس في البرازيل، في صدور المعتقلين، وانها أكثر من كلمات تافهة مجردة من المعنى.

(٨) نسبة إلى جيتوليو فاوغاس دكتاتور البرازيل.

وأشاد برستس بالشعراء ، بالجيش ، بالشعب البرازيلي وبكبار أبطال الماضي . وأشار إلى ما هو متعفن في البرازيل ، ولكنه أشار أيضاً إلى الناحية السليمة في البلاد ، إلى الشعب الجائع المتعطش للحرية . وكان قرار اتهام هذا أنشودة للأمل كذلك ، رسالة من فارس الأمل إلى شعبه ، رسالة متناهية القوة ، ستخرج من قاعة المحكمة المغلقة هذه ، وتنطلق في الشوارع ، في الريف ، في المدن والممتلكات الكبرى ، مكهربة الشعب ، مانحة إياه الشجاعة ، وملهمة الناس إيماناً وثقة ، كشعاع من النور في وحل المستنقعات العفن ، يا صديقتي .

وتابع برستس كلامه يقول :

« اما في ما يتعلق بي ، فمن الضروري ان يُعرف انني سوف أتابع النضال ضد مستثمري ومضطهدي شعبنا . أيراد منعي من الكلام ومن إرسال التوجيهات ، بواسطة حزبي ، إلى الملايين من مواطني الذين يودون الانصات إلى هذا الحزب ؟ إذن سأحاول ، بتصرفاتي ، ان أفهم شعبنا كم هو ضروري أن يناضل الآن من أجل حقوقه الدستورية ، ضد تشريع الدكتاتورية الإرهابي ، من أجل حرية جميع أولئك الذين يتألمون من الملاحقات السياسية وضد الشرطة » .

وأخذ النظارة القليلون الموجودون بين رجال الشرطة يصفقون ، وقد امتلأت منهم العيون بالدموع ، والقلوب بالثقة . وزجر الشرطيون المصفقين بقسوة ، وأخذ القضاة يستعيدون روعهم بتؤدة . ورجع برستس إلى مكانه . هذا هو زعيم الشعب البرازيلي ، وإذا ما سبق له في فترة ما ان أقلع عن ان يكون كذلك ، لكان جديراً أن ينال خلال الفترة الرائعة هذه ، حق السير في طليعة الشعب على دروب الحرية . ولكنه سبق له ان قاد البرازيل سنوات عديدة على هذه الدروب . وهو ، كما في أيام الطابور ، يفتح المسالك الصعبة التي سيسير فيها الشعب ، موفراً على نفسه ، بفضلها ، أمر التردّي في وحل المستنقعات . وانها لمسالك سوف تتحول غداً إلى طريق عريضة للحرية ، يا صديقتي .

وأعطي الكلام لماري برجيه. ونهض كجثة تنهض من قبر. لقد نقص وزنه ثلاثين كيلوغراماً منذ توقيفه. ولقد كان يراد قتله، اخفات صوته إلى الأبد بأشد التعذيبات وحشية. ولكن ها هو صوته يرتفع من جديد، رجولياً عنيفاً؛ انه صوت الحقيقة، صوت الشعب. وتحدث بالانكليزية. وشوه المترجم فكرته. وأعلن برستس وغيولدي، في العديد من المرات، احتجاجهما على التحويل المتعمد للكلام، الذي يلجأ إليه هذا المترجم المأجور. وانهى برجيه كلامه معلناً ثقته بالشعب البرازيلي، وبشعوب العالم كلها:

«إني، ولو مهما كان وضعي، مستهدفاً لمختلف وسائل العنف كما كنت وكما سوف أكون، لا شك في ذلك ولا ريب، مساماً العذاب يومياً وباستمرار، سائراً في طريق ميتة بربرية، واثقاً بأن عقلي لن يقاوم طويلاً كل هذا الاضطهاد، موقناً من اقترابي يوماً بعد يوم أكثر فأكثر من الجنون، أريد، في هذه الساعة التي يتاح لي خلالها الكلام، ان أؤكد ثقتي بالشعب البرازيلي، العظيم الشجاعة والكرامة والشرف، وبالبروليتاريا العالمية، التي، ولو مهما حصل، سوف تحرز النصر النهائي وتحرر الانسانية من الجوع والاضطهاد».

تلك كانت، يا صديقي، عباراته الأخيرة، التي، رغم احتجاجات برستس وغيولدي، حوّر لها المترجم بشكل وقح. وان منظر هذا الرجل الذي بدت في جسمه علامات التعذيب جلية واضحة المعالم، والذي كان أمره مبنوياً به من الناحية الجسدية، كان يصدر حكماً رهيباً على متهميه الذين كان يسيطر عليهم بعظمته. وكان صوته وحده يُدخل الرعدة في أوصال الشرطيين.

وتحدث بعد ذلك أجيلدو، بطل الفيلق الثالث؛ فبدأ كلامه بالتذكير بأن هيئة المحكمة والحضور والموقوفين، كانوا شهود عيان للعنف الذي تعرض إليه اللواء لويس كارلوس برستس. وطلب إلى القضاة ان يصدروا الأمر فوراً بتوقيف رجال الشرطة الذين ضربوا أمامهم أحد الموقوفين، الذي هو، كما قال، أعظم وجه من وجوه البلاد. وطلب ان يُصار، قبل افتتاح الجلسة

بصورة فعلية، إلى انشاء محضر ضبط بالحادث. وصممت بانتظار جواب المحكمة. ولما لم يتلق هذا الجواب توجه نحو القضاة بصوت يهتز اهتزاز الصفعة:

«أممكن هذا؟ ما الذي جرى لطلبي؟ هل سيصار أو لا يصار إلى كتابة محضر ضبط بالحادث الوحشي؟».

وبين دهشة الحضور، استشار رئيس المحكمة. الذي استبد به التأثر، رومانو رئيس الشرطة، الذي يقف خلفه. وأصدر رومانو أوامره. فتحول الرئيس نحو أجيلدو قائلاً إنه سيصار إلى الاهتمام بهذا الحادث في ما بعد. عندها بدأ قائد أول فيلق في الجيش الشعبي البرازيلي الدفاع عن نفسه وعن رفاقه الذين أسهموا مثله في ثورة سنة ١٩٣٥. وأخذ يفند اتهامات الحكومة المتعلقة بالصفة «الشيوعية» لثورة سنة ١٩٣٥، ويحلل الأسباب التي أدت إلى انتفاضة ناتال وثورة رسيغي. وبرهن ان التحالف الوطني التحريري، وقيادته العسكرية، قررا مساعدة حركة الشمال الشرقي، وأصدرا لشككات ريو الأمر بالثورة. وذكر بأن حملة مناهضة للشيوعية سبق لها ان شنت بمناسبة حوادث سابقة. ولقد نعت ثوريو سنة ١٩٣٠، هم أنفسهم كذلك، بالشيوعية، تلك الصفة التي لم يحرم منها كذلك ثوريو سنة ١٩٣٢. وأخذ أجيلدو على مسؤوليته، كضابط في الجيش الذي ناضل في ثورتي سنة ١٩٣٠ وسنة ١٩٣٢، أمر الدفاع عن حكومة ناتال الوطنية - الثورية، مؤكداً ان: «حكومة تشرين الثاني سنة ١٩٣٥ لم تكن شيوعية، بل وطنية تحريرية. ولم تكن هذه الحركة تهدف إلى الاستيلاء على الحكم من أجل إقامة دكتاتورية للبروليتاريا، بل إلى انشاء حكومة وطنية ديمقراطية تمثل فيها جميع شعب الرأي العام، الوطنية، بصورة شرعية».

واستعرض أجيلدو كذلك وضع البلاد في الوقت الحاضر، وأشار إلى الخطر الفاشي الذي كان عليه ان يتحول بعد فترة من الوقت وجيزة إلى حقيقة لا مراء فيها. وفضح علاقات الحكومة بالنازية، ثم أشار إلى إهمال الحكومة للدفاع الوطني. وصاح لكي ينهي قرار اتهامه:

« من هم إذن المجرمون الذين يتوجب عليهم ان يمثلوا أمام العدالة بتهمة ارتكاب جريمة خيانة الوطن الدنيئة » ؟ .

وأجاب الشعب البرازيلي عن هذا السؤال ، من خلال الإرهاب : إنهم الرجال الذين يحكمون البلاد .

وجاء دور أغليبرتو . وكان قد سبق لقائد مدرسة الطيران ان حكم بسبع وعشرين سنة وبضعة شهور من السجن . وكان بؤد الحكومة ان تركّز عليه حقد رفاقه في الجيش . وأخذ أغليبرتو ، الذي يشكّل رمزاً للشجاعة والإخلاص ، يدافع عن التحالف الوطني التحريري ؟ ويفسر أسباب ظهوره في البلاد ، والمساعدة التي كان يقدمها إليه الشعب . ولم يكد يصل إلى منتصف مرافعته ، حتى عمدت المحكمة إلى منعه من متابعة الحديث ، بالرغم من كونه لم يستوف حقه في التحدث خلال خمس عشرة دقيقة .

وتحدث بعد ذلك رودولفو غيولدي . وأشار هذا بسخرية إلى المخازي التي ارتكبتها فرغولينو هيامالايا ، مدعي عام محكمة الأمن ، في ما يتعلق بالشوري الصيني فان مين ، الذي حولته الشرطة والمحكمة إلى هولندي . وتحدث عن تضامن البروليتاريا العالمية مع الاتحاد السوفياتي ، ومزّق إرباً إرباً الاتهامات التي وجهتها الشرطة لثورة سنة ١٩٣٥ . ثم برهن ان لا علاقة البتة للأمية الشيوعية بهذه الحركة . وأشار بعد ذلك إلى التزوير الذي استهدف إليه خطاب فان مين ، الذي يشكل قطعة أدبية جميلة ، هي من الروعة ومن السخرية الفنية بمكان ، لدرجة لم يملك معها أحد قضاة المحكمة العسكرية نفسه ، وقد أخذ بجمال الأسلوب وقوة المنطق ، من ان يُظهر رغبته في إعادة قراءتها في فترة راحة . وأشار غيولدي بعد ذلك إلى الأسباب التي دعت به ، بصفته شيوعياً ، إلى اعتبار الاسهام في نضال الشعب البرازيلي التحريري ، واجباً عليه . لقد شاهد وأحسن بتعطش هذا الشعب إلى الحرية ، فوقف إلى جانبه إبان نضاله . وكان لنهاية خطابه جمال عميق مؤثر ، وقوة ثورية عظيمة :

« لقد قضيت ثلاثين شهراً في البرازيل ، عشرين منها في السجن . وان

بمقدوري التأكيد بقوة، انني لا أعرف من هذه البلاد العظيمة، سوى نظام الاعتقال فيها، ولكنني تعرّفت، في الديتسنون، إلى برازيليين من كل النواحي ومن مختلف المهن، أراؤهم السياسية هي من الاختلاف بمكان عظيم. ولقد تعلمت التعرف عن كثب إلى مطامح ومشاعر الشعب البرازيلي، الذي أشعر بارتباطي به بصورة لا انفصام لها، بأحرّ أواصر المودة والتضامن. ولقد شاهدت مقدار ما هي عميقة إرادة هذا الشعب في التحرر الوطني. وأنا، باعتباري شيوعياً أرجنتينياً يفخر بصفته هذه، أشعر كذلك بأنني مواطن لكل أميركا اللاتينية، التي أتمنى رؤيتها متحررة من التهديد الفاشي، من السيطرة الاستعمارية، ومن كل تأخر اقتصادي وثقافي. وانني، وقد تعرضت لتحديد في حقي بالالتجاء، أناضل من أجل الحريات العامة. وإذا ما منحت المجال في هذه الساعة المظلمة، حيث تتعرض الأمم لغارات أشبه ما تكون بتلك التي يتعرض إليها المسافرون على الطرق عندما ينقض عليهم قطاع الطرق الكبرى، هذه الساعة التي تحاول هيئات أركان حرب خلالها ان تصنع في أميركا منشوريا جديدة، وتتآمر قوات ظلامية داخلية ضد كرامة ونزاهة شعوبنا، إذا ما أتيت لي ذلك أقول: إنني على تمام الثقة بمقدرة الرجال الواعين في بلادنا على توطيد أركان السلام في قارتنا ودفع تهديدات العدوان. وإذا ما كان هناك من وجود لوعي أميركي، فعلى هؤلاء ان ينمّوه ليصبح ان يكون أساساً لاتحاد حر لجمهوريات معادية للاستعمار في أميركا اللاتينية».

وبانتهاء مرافعة غبولدي انتهت المحاكمة. وأصدر رئيس المحكمة الأمر إلى الجمهور بالانسحاب، فغادر القاعة تسعة أشخاص بالضبط من بين العشرات الذين كانوا يشكلون اجمههور. وكان الآخرون عملاء ومفتشين في الشرطة الخاصة، يرتدون الثياب المدنية، اخفقوا في اكمال تمثيل المهزلة بالخروج. ووجه العقيد كيروز عندها إهانة جديدة للجيش وللعدالة، المتمثلين بالألوية القضاة، وأصدر الأمر، دون استشارة رئيس المحكمة، بصرخات عالية، إلى الشرطين الذين يؤلفون الجمهور بالانسحاب.

واقبعت المعتقلون، فما عدا بيرستس وبرجيه. ولم يكن بالمراد اعادتهم إلى

الديتسنون، حيث كانوا سابقاً، بل إلى الشرطة الخاصة حيث سيتعرضون لتعذيب جديد. وكان من بين الذين حضروا الجلسة الماجور ادموندو ماسيدو سوارس، من مكتب الوزير ماسيدو سوارس، الذي سارع، عندما علم بنبأ إصدار الأمر باقتياد المعتقلين إلى مباني الشرطة الخاصة من أجل سومهم العذاب، يحمل التبا إلى مكتب الوزير. وأصدر ماسيدو سوارس، وهو الوزير الوحيد الذي بذل الجهود من أجل معاملة المعتقلين ككائن بشري، الأمر بإرسال المعتقلين إلى السجون التي أحضروا منها، دون تعريضهم لأي عقاب. ولكن الماجور ادموندو اضطر، من أجل تنفيذ هذا الأمر، إلى الاشتراك بمناقشة حادة مع رئيس الشرطة، فيلينتو مولر، الذي كان يريد ان ينتقم من الحقائق التي أعلنها الموقوفون اثنان المحاكمة. ورأى الماجور ادموندو نفسه مضطراً إلى اللجوء إلى سلطة الوزير كلها وإلى سلطته هو، ضد هذا الرجل، الذي كان نقيباً في طابور برستس في سنة ١٩٢٤ وطرده منه بسبب من سفالة وخيانة، والذي يريد الآن الثأر من هذا الطرد بسوم برستس ورفاقه ضروب التعذيب.

ولم يمت صوت المعتقلين، الصوت العظيم الرائع للحرية، بين جدران المحكمة العسكرية الأربعة.

و قليلاً ما يهم، يا صديقتي، ان تكون هذه المحكمة، بضبط من الشرطة، قد ثبتت الحكم الذي أصدرته محكمة الأمن. فلقد استعمل برستس هذه المحاكمة لكي يدل شعبه على الطريق الواجب اتباعها في ليل الارهاب. وان هذه هي الطريق التي سيتبعها الشعب في نضاله من أجل الحرية. وهي الطريق التي نمشي عليها نحن الآن يا صديقتي.

- ٩ -

عندما قبل مجلسا النواب والشيوخ في أواخر أيام سنة ١٩٣٥، الاسهام في الاستفزاز المعادي للشيوعية، الذي نظمته الحكومة، حكما على نفسيهما بالانتحار، إذ انها بذلك يكونان قد أعلننا للحكومة عن رغبتهما في الإقلاع عن كل نشاط، في حياة البلاد السياسية. ولم يكن العاشر من شهر تشرين الثاني سنة ١٩٣٧ هو التاريخ الذي صفت خلاله الحكومة أمر المجلسين، ووضعت حداً لنظام التمثيل الشعبي. فلقد صنفى المجلسان أمرهما بنفسهما في اليوم الذي اقترعا فيه على إعلان حالة الحصار في البلاد، وذلك الذي اقترعا خلاله، في نيسان سنة ١٩٣٨، بصالح إعلان حالة الحرب بصورة رسمية وألقيا بأربعة نواب وبشيخ بين برائن الارهاب البوليسي.

فلقد كان هذان المجلسان يشكلان، حتى ذلك التاريخ، حاجزين قويين ضد عمل الحكومة المشؤوم. فكثيراً ما كان ينتصب فيها رجال شجعان ويفضحون جرائم الشرطة. بل ولقد استطاع المعتقلون السياسيون انفسهم سماع صوتهم من فوق منصتي هذين المجلسين، وذلك بفضل الرسائل التي كانت تتسرب من السجن، بطريقة سرية، وترسل إلى النواب لإثارتهم وفضح الدناءة والحيوانية التي تلجأ الحكومة إليها في معاملتها للثوريين. وارتفعت أصوات «جوان مانغابيرا» و«أوتافيو داسيليرا» و«دومينغوس فيلسكو» و«ابغوار باستوس» و«كافيه فيليو»، في مجلس النواب، وتعالى في مجلس الشيوخ صوت «ابل شرمونتي» يرسل باتهاماته المؤثرة. وكانت هذه الأصوات الحرة المرتفعة في مجلسي الشيوخ والنواب، تجعل الشعب على صلة بالجرائم التي كانت ترتكب ضده. وأصررت الشرطة على إعلان حالة الحرب. وجاء اعتقال برستس يثبت انتصارها. وزُورت الوثائق، وعُمد إلى الضنط

حيثما دعت الحاجة، ونظمت الانتغرافية عديداً من حوادث الاستفزاز. فاقترح النواب والشيوخ، الذين استبد بهم الهلع، لصالح إعلان حالة الحرب، وسرعان ما أحسوا، هم أنفسهم، بالنتائج التي ترتبت على هذا الاقتراح. في الليلة نفسها التي أعلنت خلالها حالة الحرب، ألقي بأربعة من النواب في غياهب السجن، واعتقل عضو في مجلس الشيوخ وسيم ضروب العذاب.

وبلغت الرجعية، وقد استندت إلى الأقلية المؤيدة لقيام الدكتاتورية، الذروة من الانطلاق. وكانت الانتغرافية، وقد رأت أبواب الحكم تنفتح أمامها، تشكل السند الرئيسي للحكومة وللرجعية. وعلى الصعيد الدولي، كانت الحكومة البرازيلية تعتمد على مؤازرة ألمانيا وعلى ميثاق محاربة الكومنترن. وأخذت النازية تتغنى بامتداح هذه الحكومة. ووضع هتلر تحت تصرفها ثلاثين طائرة لتستعملها، حين تدعو الحاجة، من أجل خنق أية حركة ديمقراطية قد تعترض سبيلها، وعقد معها اتفاق «الماركات» المعوضة (الذي وقعه أحد الانتغاليين). وكان بعض من ذوي الرتب العالية في الجيش يتأمر في ذلك الوقت مع الانتغرافية ويساند، هو أيضاً، الرجعية الحومية.

وكان الاستعداد لانقلاب العاشر من تشرين الثاني قد بدأ في سنة ١٩٣٥، عندما اعطت الحكومة لكلمة «شيوعي» أوسع ما يمكن من المعاني. فلقد أضحى شيوعياً كل انسان ديمقراطي أو ليبرالي أو اشتراكي، وكل رجل يساري أو من أحزاب الوسط كان يعارض أي تجاوز للسلطات على القوانين. وكانت السجون تغص بأناس من مختلف الاتجاهات السياسية. ولم يبق أعضاء التحالف وثوريو شهر تشرين الثاني وحيدون في مواجهة التعذيب في السجون. فلقد كانت تهمة «شيوعي» توجه إلى مختلف أوساط المعارضة. وزج في غياهب السجن بحاكم المنطقة الاتحادية، بدرو ارنستو، ذلك الطبيب الذي استحق تقدير الشعب العميق للطريقة التي كان يلجأ إليها من أجل العناية بصحة وثقافة الجماهير، لأن شعبيته كانت تزعج الفاشيين. واضطر أنيزيو تيشيرا، أمين سر التربية الوطنية في المنطقة، والدافع إلى قيام عمل تربوي عظيم، إلى الاستقالة من منصبه لاتهامه بـ «الشيوعية». وكانت الحكومة لا

تفتأ تلجأ إلى مثل هذه الأساليب لكي تستمر في السيطرة على الحكم .

وكانت الانتغرافية تتأمر . لقد كانت تسند الحكومة ، ولكنها كانت تحلم بالاستيلاء على الحكم في الوقت نفسه . وكان رئيس الشرطة وبعض من الأولوية ، ضيوف بلينيو سلغادو الدائمين ، وكانوا يرون فيه الرجل الذي سيجعل من حلمهم حقيقة واقعة : ربط البرازيل نهائياً بالمانيا ، وتحويلها إلى دولة فاشية .

ولم يكن فارغاس غيباً عما يجري حوله . لقد كان يستعمل الانتغرافية ، ولكن لم يكن لديه أي ميل لأن يتخلى لها عن الحكم . وهو ، فوق ذلك ، وإن كان قد قدم امتيازات بالغة الأهمية للاستعمارية الألمانية ، قد كانت له ارتباطات جديدة مع الولايات المتحدة . وكانت ملاحظته للديمقراطيين تشكل لعبة معقدة بالغة الدقة .

وكان الشعب المكبل المكموم الفم ، يغتم جميع المناسبات للافصاح عن حماسه للديمقراطية . وهكذا ، عندما اكتشف جوراسي ماغالياس ، الذي كان لا يزال حاكماً لولاية باهيا منذ عهد « التيننتيسمو » ، مؤامرة « للمقصان الخضر » ضد حكومة هذه الولاية ووضع الانتغرافية خارج القانون ، منحه الشعب تأييداً حماسياً . وانتهى الأمر بالضغط الشعبي إلى فتح عيون النواب والشيوخ . وعندما انتهت الفترة الثانية لإعلان حالة الحرب ، رفض هؤلاء تمديد لها للمرة الثالثة .

وأشرفت مدة ولاية فارغاس على نهايتها . وبدأ الشعب يتابع نضاله حول مرشحين ديمقراطيين . ومنح بعض من المعتقلين السياسيين ، الذين لم تكن قد وجهت إليهم بعد أية تهمة ، حريتهم . وبدأت البرازيل تنفخ بملء رئتيها . إن حب الحرية متأصلة جذوره في قلب الشعب البرازيلي ، يا صديقي .

ان الترشيح للرئاسة في سنة ١٩٣٧ ، والحملات الانتخابية التي نتجت عن ذلك ، هما برهان ساطع على حب الشعب البرازيلي للديمقراطية وللحرية . وأعلن رجلاً ديمقراطياً ترشيحها للرئاسة ، وهما : حاكم سان باولو ،

ارماندو سالس دي أوليفيرا ، ووزير الطيران القديم ، الذي كان عندئذ وزيراً لمحكمة ضبط حسابات خزانة الدولة ، جوزيه أمريكو دي ألميدا . ورشحت الانتغالية فوهررها المثير للسخرية . وتابع الشعب حضور اجتماعات المرشحين الديمقراطيين الانتخابية التي لا تنسى . وقرأ جوزيه أمريكو بيانه في ساحة دو كاستيلو . ووعد أرماندو سالس ، من جهته ، بإنشاء إدارة حرة ، لن تعرف فيها جرائم الحكومات الماضية إلى الوجود مرة أخرى . وجرت الحملة في جو من الحماس الديمقراطي . وكان الشعب يشارك في الاجتماعات الانتخابية بمجاهير غفيرة ، وقد تكشف عن حماس طاغ فياض . وأخذ الناس يسجلون اسماءهم في مراكز الاقتراع . لقد كان الشعب يريد ان يتنفس . وكان ذلك هو الوقت الذي خلف فيه ماسيدو سوارس ، راو ، في وزارة العدلية ، وقام خلاله بزيارة المعتقلين السياسيين وأبدى اهتمامه بمصيرهم ، وشنها حرباً لا هوادة فيها ضد رئيس الشرطة .

وجمع جوزيه أمريكو حول ترشيحه فقراء الناس في البرازيل . وبسبب من ألاعب الانتغاليين ، وجهت كبار المؤسسات الاجنبية إلى جوزيه أمريكو ، هو أيضاً ، تهمة « الشيوعية » .

وكانت الطبقات الشعبية التي لا تؤيد جوزيه أمريكو ، تمنح مؤازرتها لأرماندو سالس ، حاكم سان باولو ، هذا الرجل الذي يهتم ، باعتباره مثقفاً وسياسياً بارعاً وبسبب من كونه حاكماً ، بالتعليم وبالطفولة . ولقد حقق ، لدى توليه الادارة في سان باولو ، عملاً ثقافياً واجتماعياً واسع المدى . ولم يكن هذان الترشيحان نتاجاً لجرعة سياسية من نوع ما . ولقد كان حماس الشعب يحيط بهما ، وكان حب الحرية والديمقراطية يشتعل وقادراً في قلب هذا الشعب .

عندها هرع جيتوليو فارغاس إلى طلب العون من بلينيو سلغادو ، واختفى خلف رئيس الشرطة ووراء « غوويس مونتيرو » و « دوترا » و « نيوتن كافالكنتي » واختفى وراء حكم الأقلية . وقدم ماسيدو سوارس استقالته . فاستدعى « جيتوليو » « فرنسيسكو كامبوس » الذي جاء بدستور فاشي

يختمني وراء قناع حقوقي. وتتابع المباحثات بين « بلينيو » و « كامبوس » باستمرار، وكان جيتوليو يستند إلى الانتغرافية من أجل تحقيق انقلابه.

وكان على قوى البلاد الديمقراطية، مرة أخرى أيضاً، ان تحصد المأ بذار عدم اتحادها. فبينما كان واضحاً ان فارغاس، المؤيد من قبل بلاد المحور والقوى السياسية للمحور في البرازيل، والذي يعتمد بصورة شخصية على الانتغرافية، سيقوم بانقلاب من نوع فاشي، لم يتوصل الديمقراطيون إلى توحيد كلمتهم حول واحد من مرشحينهم للرئاسة، بالرغم من معرفتهم بانهم سيطرون على أهم ولايات البرازيل الثلاث: سان باولو، التي كان أحد المرشحين، أرماندو سالس، حاكماً لها، وريو غراندي دوسول، حيث كان فلورس داكونيا يؤيد أرماندو، وباهيتا، حيث كان جوراسي ماغالياس يؤازر جوزيه أمريكو. وعلاوة على ذلك، كان كارلوس لبيما، حاكم برنمبوكو، يؤيد جوراسي.

وكان بمقدور اتحاد القوى الديمقراطية، الذي كان يدعو إليه اليساريون ورفاق برستس، ان ينجح في انشاء حكومة العهد الجديد؛ فلقد كان ضعف الحكومة بادياً لكل ذي عينين، وكانت سياستها الخارجية المناصرة علناً للمحور، تثير ضدها غضب الجماهير. ولكن المرشحين الديمقراطيين ومؤيديهما كانوا يفتقرون إلى نهج سياسي صحيح. كان اليساريون يقولون إن الاتحاد الديمقراطي هو طريق الخلاص الوحيدة، ولكن السياسيين أصروا بعناد، كل من جهته، على ابقاء المرشحين في الساحة. عندها قذفت الحكومة المرشحين، كلاهما، بتهمة السير بقيادة « الشيوعيين ». وجواباً عن هذا الاستفزاز، الذي كان بمقدوره ان يؤدي إلى توحيد القوى الديمقراطية الوطنية فيما لو كان للمرشحين نظرة صائبة حول مجريات الأمور، اندفع هذان، على العكس من ذلك، في تقديم عدة تنازلات للمستفيدين؛ لقد كانا يعتقدان بان تلك هي الدرب الصالحة التي تمكن الاقتراع من ان يحصل. واغتتم المخربون ضعف المرشحين لكي يروجوا لفكرة إعادة النظر في الدستور.

كان الانتغرياليون يقومون باستعراضات في الشوارع. وكانت السفن الألمانية تُفرغ السلاح في مرفأي « بارانا » و « سانتا كاتارينا ». وتلقى فون كوسل، الرجل الذي أرسل به هتلر لكي يدير سياسته في البرازيل، المدالية الذهبية المخصصة لأحسن النازيين بلاة في الخارج. وهو لم ينشئ فقط ٨٧ مركزاً نازياً بالغ الأهمية بين المان البرازيل، بل لقد عمد، بصورة خاصة، إلى تشكيل الحزب الانتغريالي.

وأخرج عندها غرويس مونتيرو من جعبته وثيقة في منتهى السخف، عزاهها للكومنترن، كانت تحتوي على « خطة » بلهاء للقيام بـ « ثورة شيوعية في البرازيل ». وأرسلت بـ « الوثيقة » إلى مجلس الشيوخ. وكان فرنسيسكو كامبوس يدرس في هذه الأثناء مع بلينيو سلغادو أمر الدستور التعاوني المنوي اعطاؤه للبلاد.

وأعلن المجلسان، اللذان سبق لهما ان سارا في طريق الانتحار في سنة ١٩٣٥، حالة الحرب مجدداً في البلاد. ومع هذا كان اتحاد القوى الديمقراطية لا يزال ممكناً. وحاولت العناصر اليسارية، التي كانت تحس الخطر بوضوح، ان تقنع رؤساء الفريقين الديمقراطيين بالضرورة الملحة لتشكيل الجبهة الموحدة. ولكن مرشحي الرئاسة كانا يثقان بما يقال لهما. لقد أكد لهما بان « انتخابات الرئاسة سوف تجري دون شك ». وكانا يؤمنان بهذا « التأكيد »، ايمانها بالتأكيدات التي قدمتها الشعبة الانتغريالية الصغرى في الجيش، التي كانت هي، مع هذا، بطل تقديم « الوثيقة ». وبدلاً من ان يتحدا، قاما بتنازلات جديدة: أعلنوا انها، هما أيضاً، على استعداد لمحاربة « الخطر الأحمر » المزعوم.

وبينما كان الانتغرياليون ينتشرون في الشوارع، وقد تسلحوا بالخناجر الموشاة بالسوستيكا، وبالبنادق الألمانية، ذهب نيوتن كافلكانتي لاقتال أبواب مجلسي الشيوخ والنواب، وقام فارغاس بانقلابه بمنتهى الهدوء. وأعلن في العاشر من شهر تشرين الثاني، للبلاد وللشعب، بانه لم يبق هناك من

وجود للجمهورية، التي استبدلت بالدولة التعاونية الجديدة التي استمد دستورها من الدستورين الايطالي والبرتغالي، والتي تتمتع بتأييد حماسي من قبل المانيا وايطاليا الفاشية.

إن أكثر سنوات الدولة الجديدة اثارة للرعب، سوف تأتي كذلك، يا صديقتي. فالدولة الجديدة تتميز بنظام من الفساد، من الاحتقار المطلق الوقح لمصالح البلاد والشعب. انها نظام من عبودية ومداهنة وسفالة بلغت حدها الأعلى من الانطلاق. ان هذا هو عهد الطغيان في أميركا. طغيان مذل مجرم.

- ١٠ -

في الوقت الذي كان برستس يجتاز فيه مع طابوره السرتونات الصعبة المسالك ، كان الشعب اليائس ، يا صديقتي ، يدعوه بـ «فارس الأمل» . لقد كان عندئذ أمل البرازيل ، أمل الشعب المطالب بالحرية . وإنه لنجمة الصباح في ليل التعاسة ، لنهر صفت منه المياه في أيام الجفاف ، إنه قلب رجل بين قلوب حيوانات مفترسة انفلتت منها الغرائز . وعندما ستنقضى أيام التعاسة ، في عهد الدولة الجديدة ، على البرازيل ، كسيل هائل من الوحل والسفالة ، سوف تنطلق ، مرة أخرى أيضاً ، من أربعة أنحاء البلاد ، من الشمال والجنوب ، من الشرق والغرب ، أصوات الشعب اليائس ، الجائع والمكبت ، وتناديه بـ «فارس الأمل» . كان برستس ، يا صديقتي ، قد وجد في أحد الأيام ، خلال سير الطابور في الغوياس ، رجلاً أوثق منه العنق واليدان والرجلان إلى إحدى الأشجار . إن قاضياً ثملاً كان قد أصدر بحقه حكماً ما قبل إحدى عشرة سنة من هذا التاريخ ، بالرغم من كونه بريئاً . ولقد أوثقت الدولة الجديدة شعب البرازيل ، على هذا الشكل ، من يديه وقدميه وعنقه ، إلى جذع إحدى الأشجار ، يا صديقتي ، أوثقت من يديه وقدميه وعنقه ، يا صديقتي ، ولكن قلب البرازيليين ظل حراً ، حراً كالهواء ، كالنجوم والبحر . إن قلب شعب البرازيل يخفق مع بطله من أجل الحرية . إنه يخفق خفقان قلب الثائرين الحر . ومن داخل سجنه القذر ، حيث كان وحيداً معذباً ، مريضاً وبعيداً عن عشيرته ، وحيث وجهت إليه افطع التهم واعظمها دناءة ، وسم جميع ما يمكن لمخيلة مريضة لأناس أشرار أن تفتزع من ضروب التعذيب ، كان لويس كارلوس برستس ، فارس أمل البرازيل يحتفظ بقلب حر ، وكان قلبه يخفق من أجل شعبه ووطنه ومن أجل الحرية .

إن قلبه المصنوع من فولاذ ودم ، من انسانية ، من عبقرية وبطولة ، يشكل أعظم ما حققه الجنس البرازيلي .

وبينما كانت أشعار كاسترو ألفيس تحمل الحرية إلى البرازيل ، كانت أعمال لويس كارلوس برستس ، خلال سنوات السير الكبير ، وملحمة كرامته في السجن وإبّان العذاب ، تجعلان الحرية تشعُّ فوق البرازيل . إنه النجمة الجديدة التي شاهدها حمراء قانية تلمع في سماء الوطن ، يا صديقتي .

وفي بيوت البلاد الداخلية الفقيرة ، تعيش الحرية ، يا صديقتي ، في اللهب الزاهي للشموع التي تشتعل تحت صورة البطل . إنها تحيا في الحب الذي يغلف احتفاظنا بالأشياء التي لمستها يدها ، ويغلف صوت جميع الفقراء الذين ينادونه ، وجميع الفلاحين الذين أفلعوا عن أن يكونوا قطاع طرق . إن قلب الشعب قد حفرت فيه هذه العبارات بشكل لا يمكن معه لاي ألم أن يحوها : « أيها الشعب ، إن بطلك هو فارس الأمل » .

إن دم قلبه يغذي البرازيل . وبهنا لويس كارلوس برستس ، يا زنجيتي ، الأمل والثقة والشجاعة . وإن وحل السفالة والم التعذيب وقذارة الفساد ، أن كل هذا لا يستطيع أن يجد له مكاناً في قلوبنا التي طهرتها كرامة لويس كارلوس برستس من كل دناءة .

وفي وسط الفساد والالم ، يا صديقتي ، في وسط افطع الفساد وأعماق الالم ، ينتصب وجه لويس كارلوس برستس المتناهي السعة ، وتشعُّ عظمتة النادرة المثال . لقد قال الشاعر ، يا صديقتي ، إنه في كل مرة يضطهد الظلم فيها الحرية ويرفسها بالاقدام ، تنتصب هذه أشدّ مضاء . وإن الامر كذلك بالقياس إلى لويس كارلوس برستس . إنه رجل لا تتوصل الآلام إلى أن تحنيه ، ولا تجد عروض الطغاة وقعاً لها في نفسه . إنه الحرية التي تعيش خفاقة في قلوب الناس . وبهمن لويس كارلوس برستس ، بقامته ، على الاشخاص القميئين التعساء الذين يعيشون عالة على آلام الشعب . وينتصب الأمل والحرية معه . إن فارس الأمل يسمو مع الشعب ، يا صديقتي ، فوق الطغاة ، وفوق الآلام والشقاء والرعب .

لقد سبق وثلث لك ، يا صديقي ، إن السجن والالم يجردان الناس من كل ما هو سطحي فيهم ولا يبقى في قلب سجين يسام العذاب إلا ما هو صحيح حقاً . وويل لمن لا تشكل الكرامة والرزانة وحب الحرية والشعب سوى قناع له ، يا صديقي . وويل لمن لا يحمل سوى قناع البطل ، يا زنجيتي ! ففي السجن ، يتساقط هذا القناع لدى أولى التعذيبات ، لدى أول العروض المغرية الدنيئة . وإن الرجل الذي صنع قلبه من فولاذ ، ونسجت من الشبه^(١) نفسيته ، والذي يخفق حباً الحرية في صدره ، وتشكل البطولة بالقياس إليه شرطاً للعيش نفسه ، هو وحده يظل رجلاً في السجن ووسط الالم . وكذلك هو لويس كارلوس برستس ، بطل البرازيل !

وليس هناك من أدخل الرعب إلى قلوب الطغاة خيراً منه . وإن الشعب ليقدره وبؤمن به كما لم يسبق له أن آمن بأي إنسان . ذلك كان السبب الذي دفع الطغاة الذين يريدون خداع الشعب إلى محاولة شرائه . ولقد عُرض عليه كل شيء : السلطة والمجد ورفاه العيش وجميع مباحج هذا العالم . عرض عليه كل شيء شرط أن يقف في الصف المعادي للشعب . ولكنه رفض جميع العروض . ولم يستطع أيُّ معدن بالعالم أن يخلب منه اللب ويشتريه ، ولم يتوصل أيُّ وعد إلى احناثه . عندها ، وعلى سبيل الانتقام ، سيم جميع ضروب العذاب ، وانفلتت عليه وحشية مفترسة ، ووُجّه إليه من الإهانات أعظمها بذاءة . ولكنه لم ينحن ، وظل رأسه يسمو مرتفعاً ، وبقي قلبه الفولاذي قلباً للشعب .

إنه لم يكن يحمل قناع بطل ، بل كان هو البطل ، البطل الذي تبناه وغذاه ورباه الشعب ، والذي يغذي الشعب الآن بقلبه وبِعظمته .

على هذا الشكل هم الابطال ، يا صديقي . ويحتضن الشعب البطل الذي هو ابن له . وفي ما بعد يصبح البطل ، وهو في مقدمة الشعب والحرية ، والدأ للشعب ، ويعذبه بمثاله وعلو قدره .

وإننا لنحيا به ، يا صديقتي فمنه يأتي الأمل الذي نرسل بأشعاعه ، ومنه تأتي قوتنا في النضال . وإننا لنقرأ في عينيه المتوقدتين اللتين لم تكدر صفاءهما قضبان السجن ، وظلتا محتفظتين بحسها الرائع لترسم الأشياء ، اننا لنقرأ في هاتين العينين مستقبل البرازيل . وسيظل الشعب واقفاً طيلة ما هو واقف ، وتظل البرازيل منتصبة والحرية أيضاً . وإن الحرية لا تُباع ولا تنحني ، يا صديقتي . إنها خالدة خلوة الانسان ، خالدة كالعبقرية وكذكرى الابطال : إنها الشعب ، يا صديقتي . إنها لويس كارلوس برستس . لقد ولدت مع أول بطل للبرازيل ، ولن تموت أبداً لان الشعب لن يموت . وتُدعى البرازيل أيضاً لويس كارلوس برستس ، يا صديقتي .

وإننا نحن كتاب الشعب ، أصوات الناس المستعبدين ، منه نستمد حياتنا . وإننا نحن الشعب ، الجنود ، الفلاحين والعمال ، الاغنياء والفقراء ، نحن الذين نحب الحرية والوطن ، نتغذى من كرامته ، من صفاء طبيعته ، من نزاهته المعنوية ، من قوة ثقته ، من عظمته في الالم ، من ايمانه بالشعب ومن عبقريته . وإن البرازيل ، يا صديقتي ، هي هذا الرجل المحتجز . ولم يتعرف أي شخص ، له ما للويس كارلوس برستس من عظمة أبان أيام التعاسة ، إلى الوجود مطلقاً . وإن واقع وجوده يسمح بأن نحلم بمستقبل البرازيل .

واننا اليوم ، كما في الامس ، فيه نركز آمالنا . ولقد سباه الشعب في أحد الايام بفارس الأمل . ويخلق هذا الاسم اليوم فوق البرازيل ، كالصرخة وكالصخب ، في الظلام ، مغطياً اليأس والتعاسة ، ومفتتحاً الدروب القائدة إلى التحرير . وهو كالمنازة في وسط بحر متلاطم الأمواج ، وكنجمة في السماء ساعة انطلاق العاصفة ، وكالقلب حين يخفق بالحب ، إنه فارس الأمل .

وارسلت شعوب العالم كلها باحتجاجات صحابة ضد سجنه . لقد شاهدت عيناه لدى الشرطة الخاصة فصراً من القسوة بعيدة عن حدود التصور ، وكابد من الآلام ما لا يمكن احاطته بوصف ؛ فلقد سم رفاقه

العذاب أمام ناظريه، وبدأه القول قاضٍ أنيـط به أمر استجوابه: إنه قادم لادانته. ولم يكن بمقدوره الكتابة لا إلى زوجته ولا إلى شقيقاته، ولم يكن يعرف إذا ما كانت أولغا لا تزال حية في سجنها في ألمانيا، ولا كونه أصبح والدًا لبنتٍ صغيرة. ولم يكن بمقدوره الاتصال بأي إنسان، بل ومنع حتى من الاتصال بمحاميه.

وانتهى الأمر بالاحتجاج الذي كان العالم كله يصعده، بالقاء الرعب في قلوب الطغاة. ونُقل في أحد الأيام إلى سجن آخر. وليس هناك من مكان في قلوب الطغاة إلا للحقد والخوف من الشعب. عندما انتشر الشعب في الشوارع طيلة حملة سنة ١٩٣٧ الانتخابية، نُقل برستس إلى سجن جديد.

وكان شعب البرازيل والشعوب الحرة في العالم كله، تحتج ضد سجنه وضد التعذيب الذي كانت تتتابع فصوله لدى الشرطة الخاصة. عندها بُنيت في الكوريسون، في جناح المسلولين في مستشفى السجن، غرفة انفراد لبرستس، على طراز القرون الوسطى، بجدران سميكة، تذكر بأسوار أحد القصور القديمة، وبشكل مثلث، لا تتعرف لا إلى الهواء ولا إلى النور، قامت في أحد جدرانها كوة غطيت بشريط معدني لمنع برستس من مشاهدة نور النهار. وكانت هذه الكوة تشرف على فناء صغير في الكوريسون. إنها لم تكن تطل على الشارع، لأنهم كانوا راغبين عن تمكينه من رؤية الناس يسرون في الشارع تحت نافذته. ومن حديد صُنِع بابها. وبفضل من احتجاج عنيف صادر عن جميع أنحاء العالم، وعن محاميه، سُمح له بتلقي بعض رسالات واردة من زوجته واهله. وسُمح له بالكتابة إليهما من وقت لآخر.

وناضل رجل قوي البأس شجاع، يا صديقتي، من أجله في البرازيل. وليس هناك من برازيلي واحد يمور في حناياه حبًا للحرية إلا ويمنح سوبرال بنتو مودته. لقد عينته نقابة المحامين من أجل الدفاع عن لويس كارلوس برستس. وكانت لهذا المحامي شهرة في النزاهة متأصلة جذورها في القِدم لدى محاكم ريو دي جانيرو. وبصفته كاثوليكيًا، ينصت بصورة حقيقية لصوت المسيح، ولا يذهب إلى الكنيسة أملًا في الوقوف إلى جانب أرباب

السلطان، وبصفته مسيحياً حقيقياً لا يستعمل اسم المسيح ستاراً يغطي به سفالات ما، فهم أنه يواجه جلجلة^(١٠) جديدة، واحس بعظمة برستس كلها خلال أيام سجنه. ولما كان مخلصاً لرسالته كمحامي، مقدساً مهنةً يُدّ لها آخرون، ودينياً طالما تاجر به كثيرون، ناضل من أجل الناس الذين أنيط به أمر الدفاع عنهم - وكان من بينهم هاري برجيه - لكي يُعاملوا معاملة الكائن البشري. ولكنه فشل في ذلك، لأن من كان يناضل معهم كانوا من بؤساء الناس. ولم تكن الاهانات وسوء المعاملة وتحرش الشرطة به واقتياده هو نفسه إلى العدالة، لم يكن كل هذا ليثير فيه من الغضب ما يدفعه إلى النكوص، وتابع النضال.

وعندما قام وزير العدلية، في سنة ١٩٣٧، بزيارة لبرستس في غرفة انفراده في سجن الشرطة الخاصة، واخبره بأنه اصدر الامر بنقله إلى الكورييسون، طلب برستس أن يُستبدل ببرجيه، الذي فقد الصواب، والذي كانت به أكثر من أي انسان حاجة لان يُنقل إلى سجن آخر. وعندما اجابت السلطات البرازيلية في الكورييسون سوبرال بنتو، بأنه ليس بالمستطاع تقديم العلاج اللازم لبرجيه، لانه لم يكن لديه ما يدفعه اجراً لعلاج، وضع برستس تحت تصرف المريض كل ما يحمل من مال، ذلك المال الذي أرسلت به إليه امه من المنفى. ولكن السلطات لم تكن تقصد بادعائها ذاك سوى التذرع بحجة ما، لذا رفضت قبول المال المقدم، واستمر برجيه، ولا يزال، في الوضع نفسه الذي يتردى فيه.

لقد بنوا غرفة انفراد خاصة من أجل برستس بالقرب من المسلولين، لكي يجعلوا هذا الداء ينتقل إليه بالعدوى، ويقتلوه على هذا الشكل. وكانت لأسوار غرفته سماكة غريبة، أوحى بها الخوف من أن يأتي الشعب لتحريره. وقسمت إلى قسمين، كان في أحدهما مفتش يراقب برستس ليل نهار. وبقرعها كانت تقوم غرفة انفراد هاري برجيه. وكان هذا الكائن الانساني،

الفاجع إلى ما لا حد له ، هو الشخص الوحيد الذي يحس به برستس بالقرب منه يا صديقتي . لقد فقد صديقه ورفيقه الصواب ؛ لقد تردى ذلك التكنيكي الاجنبي الذي احضره معه ، في الجنون والسل ، إثر عذاب بربري سامته الشرطة اياه . وكان برجيه يمضي ايامه في ضرب رأسه بالجدران ، وفي تعداد ما استهدف إليه وزوجته من تعذيب ، خاطباً بالانكليزية ، مراسلاً بالصرخات عالية في الفضاء ، تماماً كما لو كان يرى زوجته تعذب أمام ناظره . ولم يكن يفصل برستس عن هذا المشهد الفاجع سوى بضعة أمتار . ولم يكن في رواق السجن هذا سوى برستس وبرجيه وسجانيهما . وعندما كان برجيه يمضي خمسة أيام أو ستة في الصراخ والصخب وضرب الرأس بالحائط ، وفي الاندفاع في ثورة جنونه ، كان رجال الشرطة يأتون إلى غرفته ويجزونه بابر تُلقي به أياً كاملاً في بحار من النوم . وكان شخص برجيه الفاجع ، هو الكائن الانساني الوحيد الذي يشعر برستس بوجوده . تصوري اذن يا صديقتي ، مقدار ألم هذا الرجل منذ أربع سنوات ، منذ ما نُقل من لدى الشرطة الخاصة إلى هذا المكان .

وكانت غرفة انفراده من تلك التي لا يمكن الفرار منها . لقد كانت مظلمة ، باردة ، قذرة ، ومحروسة دوماً بشرطي يقف في الفناء وباحد جواسيس الشرطة يقبع في الداخل . ولم يكن يسمح بان يزوره أحد . ولم يكن يستطيع أن يرى أي انسان ، بل ولم يكن يستطيع أن يرى أي شيء ، حتى ولا السماء . وخلال السنتين الاوليين ، سني الشرطة الخاصة ، لم يكن يملك لا جريدة ولا كتاباً بل حتى ولا قلماً للكتابة . ثم سمح له بقراءة احدي الجرائد . وبالرغم من تعرض جميع الجرائد في البرازيل للرقابة ، كانت هذه الجريدة محررة ، مرة أخرى ، تحت رقابة رجال الشرطة . وقدمت إليه بضعة كتب . ولكن لم يُسمح له بكتابة مؤلفه الصغير عن الرياضيات الذي كان بوده أن ينشئه من أجل شبيهة بلاده . وكانت مراسلاته مع عائلته عرضة لنزوات رجال الشرطة وكانت تشطب بعض من مقاطعها من وقت لآخر . وكان يظل شهوراً وشهوراً دون أن يعرف شيئاً لا عن زوجه ولا عن أمه ولا عن ابنته .

تلك كانت حياته، يا صديقتي. حياة نسجت خيوطها من التعذيب، حياة استشهاد. وكتب في أحد الايام إلى دونا ليوكاديا يقول: «آه! ليتني امنح الهدوء الذي عليه أن يتجاوب مع الوحدة الكاملة التي فرض علي أن اتردّي فيها...».

إنه لم يكن يتمتع حتى بهذا الهدوء، يا صديقتي. وتتابعت الدعاوى التي كان يراد بواسطتها ابعاده عن الشعب. وأخرج من السجن لكي يُستجوب حول اتهامات دنيئة وبائسة. وأقال رئيس الشرطة أحدَ مديري الكوريسون وأوقفه لانه لا بضطهد برستس بما فيه الكفاية، وعين بدلاً منه رجلاً عَرَفَ بقسوة ووحشية تميز بها حين كان مديراً لمعتقل دوس ريوس التأديبي، أعظم ما عرف من السجون شؤماً. وسوف يسمع برستس، هاري يتحدث ليل نهار، في غرفة الانفراد المجاورة، ويروي صارخاً قصص العذاب الذي استهدفت إليه اوغستا إليز إيورت. على هذا الشكل عاش برستس، يا صديقتي.

ورفضت جميع مطالبه. ولم يكن بمقدوره حتى التحدث إلى محاميه لتهيئة دفاعه حول الدعاوى الجديدة التي كانت تقام ضده. وكانت الرسائل التي يكتبها إليه تظل أباماً عديدة في ايدي رجال الشرطة، الذين كان يراهم بام العين ينقضون على محاميه لينتزعوا منه بالقوة الوثائق التي تخصه. تلك كانت حياة برستس، يا صديقتي.

وكانت المعاملة التي يلقاها برستس تستثير نفوس المعتقلين المرضى، المحتجزين بالقرب من غرفة انفراده. وكان عريف الشرطة العسكرية المسمى دبوغو، والمعتقل بسبب من جرم ارتكبه في الثكنة، والذي أصيب بالسل في السجن إثر ذلك، يمضي شهوراً وشهوراً بالقرب من غرفة انفراد برستس. وكان، وقد تأثر بسمو نفس عظيم يعتمل في حنايا المعتقل، يتعبد برستس، بالرغم من انه لم يسبق له أن رآه مطلقاً. ولاحظ دبوغو، يوماً إثر يوم، أن أحد الحرس يرفض الاستجابة لأيّ من طلبات برستس، حتى البسيطة منها والضرورية لحياته؛ فلفت العريف نظر الحارس مرتين إلى هذا الموضوع،

متسائلاً عن السبب الذي كان يدفعه إلى هذا التصرف. فكان كل جواب أرسله هذا هو اطلاقه فقهقة عالية واستمراره على متابعة تصرفه الحقير. وفي أحد الايام انقض العريف، المعتقل المسلول، على الحارس، وقد اقلت منه زمام السيطرة على أعصابه، وأوسعه ضرباً ولكناً حتى استطاع قلبه أن يُفرغ بعض ما يمتليء به من حقد. لقد كان معتقلو الحق العام يكونون احتراماً عظيماً لرفيقهم غير المنظور، ويفعلون ما يستطيعون في سبيل التخفيف عن كربه.

أما في ما يتعلق بالمعتقلين السياسيين، بالرجال المتضامنين مع برستس - جنوده -، فما كانوا يترددون، عندما كانت تسنح لهم الفرصة، في أن يمنحوه تضامنهم واملهم. وكانوا يتجمعون في كل مساء ويرسلون هتافاً عالياً بحياة قائدهم السجين. وعندما نُقلوا من الكوريسون إلى جحيم فرنندو دي نورونيا، لم يغادروا المكان قبل أن يرسلوا بعبارات الوداع إلى لوائهم. فلقد سُحب المساجين المراد نقلهم إلى فرنندو دي نورونيا، السجن المأتمني القابع في وسط البحر، من أسرهم في وسط الليل، بواسطة رجال الشرطة الخاصة، وهم يجهلون إذا ما كان يراد أخذهم أو لا إلى «ثلاثيات» الشرطة لسومهم ضروباً جديدة من العذاب. وخرجوا واحداً واحداً، وساروا بصمت وهدهوء، وقد أحاط بهم الجنود. وما كادوا يصلون إلى قرب مستشفى السجن حيث برستس، حتى توقفوا لحظة، وسرعان ما تعالى هتاف مُدوّ يملأ من السجن جميع ارجائه:

- يعيش اللواء لويس كارلوس برستس!

إن مظاهر التضامن هذه، وحب الشعب البرازيلي، والاحتجاجات التي تنصب من كل أنحاء العالم، كل هذا كان يثير غضب الخونة، ويدفعهم إلى الانتقام لانفسهم من شخص برستس.

إنهم لا يملكون الجرأة على إعدامه رمياً بالرصاص، إذ أن الشعب سيطلبهم عندها بثورة عارمة، وهم لا يملكون الجرأة على قتله أمام أحد الجدران، خوفاً من نقمة الشعب. إن بهم رغبة لان يستلوا منه الروح بتؤدة،

لأن يستلوا منه العقل. وكانوا لا يقدمون له سوى ما هزل من الطعام، ويرفضون معاملته كأبي كائن بشري يتنفس ويحيا.

ولكن السجانين، يا صديقتي، لا يعرفون قدر الرجال، ولا يعرف الخونة والطغاة واعداء الشعب من أي طينة صُنِعَ الابطال. إنهم لا يعرفون ماهية القوة الغريبة التي تجري في دم أولئك الذين يشبهون لويس كارلوس برستس! لقد خُيل إليهم أن بمقدورهم شراءه فلم يستطيعوا إلى ذلك سبيلاً، وظنوا أن باستطاعتهم احناؤه، وفشلوا. فكفروا بقتله بدناءة وجبن، ولكنه قاوم، يا صديقتي. ومعه كان الشعب والحرية هما اللذان يقاومان. وخلال عشر سنوات من التعذيب الهائل، حافظ هذا الرجل على كرامة الشعب ورفع عالياً راية مناقب تفكير وقوة وشجاعة هذا الشعب. ويتناسى الطغاة، يا صديقتي، انه بطل الشعب وفارس الأمل، وانه خالد خلود هذا الشعب. ولكن الشعب الذي سبق له أن رآه مرتين تحت سماء الوطن، يعرف بأنه سوف يراه مرة ثالثة ممتطياً صهوة جواده الأسود، ومفتتحاً دروب الحرية. وعندما ستحطم قضبان السجون، ويرتفع ثقل أيام الألم والتعاسة عن البرازيل، سنشاهد فارس الأمل هذا، مرة أخرى، يا صديقتي.

- ١١ -

لقد حُكم بالسجن ست عشرة سنة وثمانية أشهر، يا صديقتي. ست عشرة سنة وثمانية أشهر من سجن هو أعظم رعباً من الموت، حيث كان يعزل وحيداً ويُعامل كحيوان متوحش لا ككائن بشري، وكانت عظمتة في الألم تمنح الشعب الشجاعة وتزيد في كراهيته للظلم. وكان الشعب يرى، أكثر من أي وقت مضى، في هذا الرجل السجين، رئيسه ولواءه وبطله...

ست عشرة سنة وثمانية أشهر، إن هذه لمدة قصيرة، يا صديقتي، بالنظر إلى الحقد الذي كان يعتمل في صدور الطغاة، وإلى الخوف الذي كان هذا الرجل يوحيه إليهم. وكانوا، وقد أحاط بهم جواسيسهم، يرتجفون لمجرد سماعهم اسم لويس كارلوس برستس. لقد كانوا يعرفون إن الشعب يكرههم ويجب هذا الرجل الذي لا يلين له عود في السجن. وإن هذا الشعب الذي كان يكره الدكتاتورية، كان يعتمل في نفسه كره أشد للدولة الجديدة ذات الصبغة الفاشية.

وأخذت حركة برستس التحريرية تنتشر في جميع أنحاء البلاد وفي الخارج. وكان الظلم يرتجف وقد استبد به هلع ممت.

ولم تكن المهازل التي يهيشها الطغاة سخيقة، بل كانت فاجعة، لأنها كانت تُكتب بمدادٍ من دم الشعب. ولكن تلك التي حُبكت خيوطها من أجل ابعاد الشعب عن لويس كارلوس برستس، كانت هي السخافة عينها. وكان مؤلفوها يجهلون أن الشعب لا يصدقهم، وإنه لم يكن لأقوالهم أي رصيد لديه. إنهم ما كانوا ليرون أنهم إذا ما قذفوا بالوحل زعيم الشعب، فإن الأمر ينتهي بهذا الوحل إلى أن يغطيهم هم أنفسهم. لقد جهلوا انه لا يمكن لأي

إنسان ان يبصق إلى مستوى أعلى منه ، ذلك لان البصاق عندها يتساقط على وجهه .

وانتهمت الشرطة لويس كارلوس برستس بارتكاب جريمة قتل . فارسل الشعب في وجه رجال الشرطة بققهقات له عالية ، ومنح « الوثائق » المقدمة وابلًا من هزئه . فالشعب كان يعرف منذ وقت ابل كيف تصنع « وثائق » الشرطة . ولقد استعملت « وثيقة » مماثلة من أجل تشييد « الدولة الجديدة » .

وعمدت الحكومة ، وقد استندت إلى خونة بؤساء فاسدين ، بل وأكثر فساداً من رجال الشرطة أنفسهم ، وإلى صحافة وإذاعة وكتب يجتز ويققطع منها الرقيب ما حلا له وطاب ، إلى افتتاح هذه المحاكمة السخيفة ، بعد ان غطت البلاد بجو من الارهاب كان معه الناس لا يستطيعون حتى ان يتكلموا . تصوري هذا المشهد ، يا صديقتي . لقد أخذ الجلادون ، وقد أحاط بهم شرطيون قساة القلوب ، يبصقون نحو السماء أملاً باصابة البطل برذاذ لعابهم . ولكن البصاق ما كان الا ليتساقط على وجوههم ووجوه من تبعهم .

لقد اتهم برستس بانه مسؤول معنوياً عن موت إلسا فرنندس ؛ وهي فتاة شابة توفيت في سنة ١٩٣٥ ، بطريقة يكتنفها الغموض . وكل ما عُرف ان فرنندس أوقفت في سنة ١٩٣٥ واختفت آثارها من لدى الشرطة . وحاولت الشرطة ، عقب توقيف برستس في سنة ١٩٣٦ ، ان تكشف النقاب عن سر مصير هذه الفتاة . ولكن الناس كانوا لا يزالون يحتفظون بذكرى توقيف إلسا وبجرائم القتل المرتكبة في أقبية ومخابيء الشرطة . فكان من الخطورة بمكان إذن إلقاء تبعة موت هذه الفتاة ساعتهذ على عاتق الثوريين . وفشلت الشرطة في استفزازها هذا . ولكنها ما لبثت ان أخرجت هذه القضية من خزائن محفوظاتها ، في سنة ١٩٤٠ ، وأعلنت ان الثوريين هم الذين قتلوا الفتاة بأمر من لويس كارلوس برستس . وشهد بعض الاشخاص على ذلك تحت تأثير التعذيب وبعض الوعود التي بذلت لهم . وأخذت الشرطة تلوح بيدها ، بتحريض زعمت ان يد برستس هي التي اختطت منه السطور . وبالرغم

من انه لم يرد في هذا التحرير، ولو مرة واحدة، أي شيء عن إلسا فرنندس أو عن موتها وان الأمر لا يعدو كونه تزويراً سمجاً «لوثيقة» من معدن «وثائق» «الدولة الجديدة»، فلقد حُكم برستس بثلاثين سنة من السجن الاضافي، فبلغت مجموع مدد السجن المحكوم بها ستاً وأربعين سنة وثمانية أشهر.

وفي بحران من حماقتهم واستهتارهم بذكاء الشعب، وضع المزورون تاريخاً للتحرير يعود إلى العهد الذي كان فيه لويس كارلوس برستس سجيناً في ثكنة الشرطة الخاصة، أي في وقت كان فيه معزولاً تماماً في غرفة انفراد يقوم على حراستها أحد الجنود، ولا يملك ايما شيء يمكنه من الكتابة: لا قلماً ولا ريشة ولا حبراً... ولم يكن بمقدور الشرطة، يا صديقتي، ان تضع للتحرير تاريخاً سابقاً، إذ أن الجميع كانوا يعرفون ان إلسا كانت في السجن طيلة أيام سنتي ١٩٣٥ - ١٩٣٦، ولم يفرج عنها إلا بعد توقيف برستس. لذا كان من العسير على الشرطة ان تضع للتحرير المزور تاريخاً سابقاً للافراج عنها. فوضعت، كما سبق وقلت، تاريخاً يعود إلى زمن كان فيه برستس سجيناً بصورة سرية في ثكنة الشرطة الخاصة.

وعلى أساس هذه «الوثيقة» السخيفة أصدرت محكمة الأمن حكمها على برستس بالسجن الانفرادي طيلة ثلاثين سنة. ولا يدهشك ذلك، يا صديقتي، لان محكمة الأمن لم تكن بمحكمة، بل كانت دكاناً تباع فيه العدالة بثمن بخس.

وعمدوا، من أجل تحويل الجماهير عن منح حبها للويس كارلوس برستس، إلى استثارة مشاعرها بشكل مكرر. فكان أولئك الذين تردوا في الخيانة توفيراً للتعذيب، والذين أصبحوا الممثلين الأول في مهازل الشرطة، يعقدون مؤتمرات صحفية مثيرة يروون فيها «جرائمهم» بتفصيل فخم سخيف. وخصصت، بالطبع، الصحف المأجورة أعمدة كاملة لهذه الفضيحة المثيرة. ولكي يصل رجال الشرطة بالاستفزاز إلى ذروته، عقدوا في مساء أحد الأيام مؤتمراً صحيفياً واحضروا برستس من غرفة انفراده. ولم تكن

لدى هذا أبة فكرة لا عن التهم الموجهة إليه ولا عن خيانة أولئك الرجال الذين جُبلوا من وحل هو ذلك نفسه الذي جُبل منه رجال الشرطة . ووصل برستس هادئاً رائقاً برأس مرتفع وعينين متوقدتين لكي يلقي بكلمات من مار . وقدم له مندوب الحق العام السياسي والاجتماعي التحرير . واقترب الصحفيون ، وارتسمت على ثغور الشرطيين ابتسامة من سعادة . وما كاد برستس يلقي نظرة خاطفة على التحرير حتى أرسل إشارة من احتقار بالغ أمام هذه الخديعة البائسة وقال بتؤدة :

- إن جميع الناس يعرفون عقليتي وحياتي ، وإن الجميع في وضع يستطيعون معه ان يحكموا في ما إذا كنت أو لم أكن واضح هذا التحرير .

إن برستس هو رجل تحمل دوماً كامل المسؤولية المترتبة على أعمال قام أو أمر بالقيام بها ، يا صديقي . ولم يتنصل مطلقاً من مسؤولية من هذا النوع . ولقد سبق له ، في سنة ١٩٣٦ ، ان تحمل كامل مسؤولية حركة تشرين الثاني سنة ١٩٣٥ . وفيما لو كان له أقل ضلع في أمر القضاء على فتاة ثورية تردت في الخيانة ، كما زعمت الشرطة ، فما كان لينكر ذلك مطلقاً .

لقد كان الصحفيون إذن على تمام الثقة بان لا علاقة لبرستس البتة بمصرع إلسا فرنندس . عندها حاول الشرطيون اللجوء إلى الرجال الذين استأجروهم ، وكانوا هناك لاتهامه ، ولكن برستس لم يعن نفسه حتى بالتطلع إليهم ، وخرج من القاعة دون ان ينتظر رجال الشرطة ، ودون ان يفكر بمصيره كمعتقل . وظل المندوب الحكومي هناك ينضح بالحجل ، بينما كان الصحفيون يمثلون حماساً . وكان لويس كارلوس برستس قد خرج بهدوء . ولم يستعد الشرطيون روعهم إلا بعد ان كان قد وصل إلى الرواق ، حيث لحقوا به واقتادوه إلى غرفة انفراده المثلثة في جناح المسلولين في الكوريسون .

وبالرغم من الغشل الهائل لهذا الاستفزاز ، تابعت الشرطة السير بالدعوى . يا لها من وحشية قضائية ! لقد كانت جريمة « القتل » هذه تُعرض أمام محكمة استثنائية . وفيما لو كان برستس يُحاكم حسب القانون من قبل محكمة عادية ،

ومحلفين من المواطنين، ودفاع يتمتع بكامل حقوقه، لما أمكن ان يصدر أي حكم بحقه. وكانت الحكومة، وقد فشلت في ان تلتطخ برستس بالعار أمام نظر شعبه، تريد ان تنتقم لنفسها بإصدار حكم جديد عليه.

كانت محكمة الأمن قد بدأت بالانعقاد، عندما وصل برستس في عربة السجن. وكان الناس من الشعب ينظرونه يمرّ؛ هزياً، مريضاً، انما برأس مرتفع وحركات هادئة وابتسامة تتلألأ في الشفتين. ولم يكن قد تمكن من رؤية محاميه ولو لفترة واحدة. وكل ما كان يعرفه عن هذه الدعوى هو ما قيل له خلال أمسية الشرطة تلك، طيلة الدقائق المعدودة التي استمر خلالها عرض المهزلة التي هيئت للهزؤ منه. وحاول محاميه الاقتراب منه، وبدأ يفسر له أمراً ما، ولكن رجال الشرطة أبعدوه عنه بعنف. وأعلنت المحكمة افتتاح الجلسة. وكان القاضي الذي سيحكم برستس هو ماينارغومس، ملازم سيغريب الثوري السابق، الذي كان قد ثار مرتين المناصرة برستس في سنتي ١٩٢٤ و ١٩٢٦. وإليه وجّه برستس أولى كلماته.

وكانوا يأملون ان يُذلوا برستس، يا صديقتي، أمام هذه المحكمة: كانوا يعتقدون انه سيطلب تخفيفاً لشروط عيشه، ويجهد لتفسير مهزلة الاستفزاز التي مثلها رجال الشرطة، ويناقش « الوثائق » المخترعة. وكان أعداء الشعب قد هياؤا أنفسهم للتمتع بمراى الزعيم الشعبي العظيم يتردى في المذلة. وانه لخطأ كئيب، يا صديقتي، لأولئك الذين يحكمون على الناس حسب أنفسهم هم. وأرسل برستس، أول ما أرسل، بكلمات من نار، صفع بها ماينارغومس، ذلك الثوري القديم الذي يقوم الآن بالدور القذر لقاضي محكمة الأمن. وأخفى ماينار، وقد غرق في بحار من الخجل، وجهاً كان يتقلب من لون إلى لون، وهو لا يدري اين يلقي بنظراته.

وتحول برستس بعد ذلك نحو الجمهور الذي يملأ قاعة المحاكمة، يا صديقتي. وكان قد اختير لمحاكمته يوم السابع من شهر تشرين الثاني، ذكرى الثورة الروسية. وأسمع لويس كارلوس برستس صوته متحدثاً مرة جديدة إلى شعبه:

« أود أن أغتنم الفرصة التي أتيت لي بالتحدث إلى الشعب البرازيلي لكي أحيي اليوم واحدة من أعظم مآثر التاريخ كله، الذكرى الثالثة والعشرين للثورة الروسية العظمى التي حررت شعباً كاملاً من الظلم... ».

وأصدر إليه القضاة، وقد استبد بهم الرعب، الأمر بالسكوت. وقوطع حديثه. ولكن تعالت من جنبات القاعة هتافات « يعيش لويس كارلوس برستس »! وألقي القبض على إحدى النساء في اللحظة التي كانت تصرخ فيها باسم زعيم الشعب، وهي تبكي من التأثر. وسيطرت الفوضى على المحاكمة، وأخذ الشعب يهتف لبطله. فاقتادت الشرطة بمنتهى السرعة لويس كارلوس من ذلك المكان، واصدرت المحكمة قرارها ضده أثناء غيابه.

وأضيف إلى السنوات الست عشرة والشهور الثانية، التي سبق له ان حُكم بها، ثلاثون سنة أخرى من السجن. ولكن قليلاً ما بهم هذا، يا صديقتي، فان للكلمات التي أطلقها تدوي في المحكمة، وهو يتوجه إلى الشعب، من القيمة أعظم مما لهذا الحكم، كما يفوقه قيمة كذلك هتاف الشعب لقائده وتوقيف المرأة التي تهتف بملء صوتها باسم هذا القائد. وارتجف الطابور الخامس من الرعب، في هذا اليوم. وفي هذا اليوم برهن لويس كارلوس برستس ان سنوات السجن والتعذيب، ما كانت لتَهْزِم منه الروح ولا الايمان بالشعب. وبرهن الشعب انه ليس بمقدور أي استفزاز، ولو مهما كان مقدار السفالة التي يتردى فيها، ان يبعده عن رئيسه، وان يقلل أو يطفئ جذوة الحب العظيم الذي يمنحه لويس كارلوس برستس. لقد حكم بسجن أصافي مقداره ثلاثون سنة. قليلاً ما بهم هذا، يا صديقتي. ففي يوم السابع من تشرين الثاني سنة ١٩٤٠ هذا، أثبت الشعب ولويس كارلوس برستس، مرة جديدة أيضاً، إنها مرتبطان بالحب نفسه وبالرغبة نفسها بالحرية للبرازيل.

وأرسل العالم باحتجاجاته ضد الجريمة التي كانت ترتكب في البرازيل، بواسطة أصوات الشعراء ورجال السياسة والعلماء والحكومات والفنانين والشباب والنساء والرجال.

إن الدكتاتورية تحتجز في السجن أعظم قائد معادٍ للفاشية في أميركا، تحتجز بطل العالم الجديد، «بوليفاراً»^(١١) لاستقلال أميركي جديد. إن الإنسانية بكاملها كانت ترسل باحتجاجاتها بلسان أعظم رجالها من الشعراء والعلماء والحكام وكبار الجنود والقادة الشعبيين، احتجاجات هائلة عالمية. وكان يتموج في سماء البرازيل صراخٌ قادمٌ من كل مكان، كاتهام توجّهه الحرية ضد الظلم.

ومن كافة أنحاء أوروبا وآسيا وأميركا كان يتصاعد هذا الصخب مطالباً بتحرير البطل. وانهمرت البرقيات من كل النواحي، انهيار الأغاني والمقالات والقصائد. ونظمت الاجتماعات الواسعة من أجل المطالبة بإعادة الحرية لواحدٍ من أعظم أبناء الإنسانية والجيل.

إن عمل برستس الخالد، إن من الناحية العسكرية، أو من ناحية التربية الاجتماعية والسياسية، قد اجتاز حدود البرازيل ليصبح ملكاً لجميع الناس في كل الاقطار. وكما إن القصائد الخالدة لا تخص شخصاً بعينه بل تخص العالم كله، فإن المآثر البطولية هي ملك للإنسانية جمعاء، يا صديقتي. وكذلك شأن عمل برستس. فإن السير الكبير هو مفخرة للعالم العسكري الجديد. وتخص عبقرية برستس جميع الناس، ولا يزال لديها الكثير مما عليها إن تهبه العالم أيضاً. لذا لم يكن احتجازه جريمة بالقياس إلى البرازيل فقط، بل جريمة ضد البشرية كلها، يا صديقتي، جريمة ضد الحرية.

من أجل ذلك كان يطالب رجال ونساء من كافة أنحاء العالم بتحريره.

وأطلق اسمه على لجنة لمساعدة الاتحاد السوفياتي في بوينوس آيرس. وكان هذا الاسم يُذكر في الاعلانات عن الاجتماعات المعادية للفاشية، ويهتف به الشعب حيثما يحصل تجمعٌ لأناس أحرار. ويهتف باسمه في فرنسا، في انكلترا، في الولايات المتحدة، في الصين؛ حيث يعيد الثوار ذكرى مآثر

(١١) لواء ورجل دولة أميركي عمل على تحرير عدد من البلدان الأميركية من السيطرة الإسبانية. ولد في سنة ١٧٨٣ وتوفي في سنة ١٨٣٠ (المغرب).

الطابور ، في الشيلي ، في المكسيك : حيث نُفي انصاره ، في تشيكوسلوفاكيا ، في
الزويج وفي بلجيكا . ان اسمه هو كالعالم في كل بلاد العالم . ومن كافة أرجاء
الكرة الأرضية يتصاعد صخب هائل : الحرية للبطل .

وكان « رومان رولان » و « لنجفان » و « فرنسيس جوردان »
و « ألفارس دل فايو » و « فرنز بوواس » و « أوبتون سنكلر » و « كليفورد
ماك أفوي » و « جاك رومان » و « زنوج هايقي وألوف الكتاب في العالم » وكان
« نيقولا غيلن » و « بلاغاس » و « نيرودا » و « ألبرتي » و « فرنجيلا »
و « سيرافيم غارسيا » ، والشعراء الزوج في الولايات المتحدة ، وشعراء البلاد
السكندنافية الشقر ، و « الباسيوناريا » باسم شعب اسبانيا ، وباتيسا باسم
شعب كوبا ، ولازارو كارديناس ومجلس النواب في المكسيك باسم الشعب
المكسيكي العظيم ، ونواب وشيوخ أرجنتينيين من مختلف الأحزاب
والاتجاهات السياسية ، ونواب انكليز ، وجامعيون ، وممثلو سينما ولاعبو كرة
قدم ، « دولورس دل ريو » و « ايزيدورو لنغارا » ، ونساء من الطبقة
الراقية ، وعمال مصانع ، وجرائد كبرى وصحف مدرسية صغرى ، وكتاب
يعقدون مؤتمراً لهم في الأرجنتين ، كل هؤلاء كانوا يجتجون على احتجاج
وتعذيب البطل . كما كان الشاعر « الخيل كروشاغا سانتا ماريا » والنقاد
« لويس البرتو سنشز » ، والشيلي والبيرو ، والكولومبي « قيصر أوريب
بيدراهيता » والاورغوياني جيزوالدو ، رجال ونساء من كل أرجاء العالم ،
يرسلون باحتجاجاتهم هم كذلك .

وفي مقدمة كل هؤلاء ، كان ينتصب وجه لامرأة تناضل من أجل
ولدها ! وجه ليوكاديا برستس التي تبلغ السبعين من عمرها . فكّري ، يا
صديقتي ، بهذه المرأة الهرمة ذات الشعر الأشهب ، والوجه الذي ترك فيه الألم
أثراً لمروره . ان باستطاعة كل أم ان تفهم القلق الذي يعتمل في نفسها . فالابن
هو لحمٌ لحمنا ، هو دم دمنا ، هو قلبنا نفسه يخفق في جسد آخر . يا لها من
انسان غريب ليوكاديا برستس ، الهرمة هذه ، التي كانت ، دون ان يعتورها
دقيقة من فتور ولا ظل من يأس ولا خيال من تردد ، تناضل من أجل تحرير

ولدها ، لويس كارلوس برستس . انها لأم جديرة برجل يمثل هذه العظمة .

كانت ليوكاديا برستس لا تزال ، منذ وقت وجيز ، تعيش على أراض مكسيكية نائية - أراض أميركية حرة - دون اطمئنان ودون بهجة . وكان معها حفيدتها أنيتا ليوكاديا برستس ، ابنة سجين مولر وسجينة هملر ، التي كانت قد انتزعتها من يد القنلة ، بفضل من شجاعتها ومن ضغط شعوب العالم كلها . وكانت أنيتا وليوكاديا تعيشان في أعظم قلق يمكن لأم ولابنة ان تتعرفا إليه .

ستظل ذكرى هذه المرأة الهرمة ، يا صديقتي ، خالدة خلود مشاهير الوجوه الأميركية . وفي المستقبل ، عندما سيجري الحديث حول النساء اللواتي توجن بالشرف معالم العالم الجديد ، لن يكون بالامكان نسيان هذا الوجه الرائع العظيم لأم تناضل من أجل حرية ولدها وكنتها وحفيدتها . وفي الوقت الذي كانت فيه معظم النساء يقبعن بهدوء في بيوتهن في كنف السعادة العائلية ، كانت ليوكاديا الهرمة تحبب العالم . وهي ، وقد طردت من بلادها ، لم يكن بمقدورها الرجوع إليها ولا رؤية ولدها ولا مساعدته في ساعات وحدته الناصحة بالالم ، ولا رؤية كنتها ، ولا التمتع بمرأى ابتسامة حفيدتها الصغيرة . ولقد كرست آخر سنوات حياتها البطولية في محاولة لانتزاع أشخاص أعزاء من أيدي مجرمة .

وبدأت أولاً بالنضال من أجل الطفلة . وانها لجريمة عظمى ترك هذه الطفلة تُضحى على مذابح غرائز النازيين الوحشية ، غرائز أولئك الذين كانوا جد مشوقين ليجعلوا من ابنة لويس كارلوس برستس ، بطل الشعب والحرية ، وحشاً نازياً وعدواً للشعب وللحرية . وفي أوروبا لما قبل ثلاث سنوات ، بمشاكلها وبالحرط التي تتربص منها على الأبواب ، في أوروبا تلك ، التي كان عليها ان تستمع إلى أصوات عديدة مختلفة متنوعة وفاجعة ، كان صوت الهرمة ليوكاديا ، المصعد من وسط الألم ، من القوة بحيث فرض الانصات إليه . ان هذه الأم البرازيلية ، التي اعتادت العيش في داخل بيتها ، حركت

مشاعر اناس مختلفي الأنواع، حركت باريس، قامت بزيارة جميع أولئك الذين كان بمقدورهم ان يؤدوا خدمة ما إليها، وتحدثت في العديد من الاجتماعات، وتوجهت إلى الشعب. تحدثت أمام جماهير من الناس غفيرة، أمام الفقراء الذين يعرفون ما هو الألم، والذين لهذا السبب نفسه، فهموها على حقيقتها. وأنقذ الشعب أنيتا. لقد انتزع الشعب هذه الطفلة البريئة من أيدي القتلة وردها إلى جدتها.

إنه انتصارٌ للشعب، ولكنه انتصارٌ لليوكاديا الهرمة، كذلك، يا صديقتي.

وذهبت والدة القائد الأمريكي المعادي للفاشية حتى المانيا. ذهبت حتى السجن الذي تُحتجز فيه كنتها واستعادت حفيدتها. ولكن في هذه الساعة من الحبور غير المحدود، كان الدم لا يزال يتفجر من قلبها، لان أولغا، زوجة ولدها، تلك التي تمنحها من حبها القسط الأوفر، كانت ما تزال سجيئة.

وما كان هذا الانتصار ليكفي ليوكاديا. لقد كان عليها ان تنتزع من ايدي مجرمة ثلاثة كواثر انسانية، ولم تنقذ إلا واحداً. ولم يكن وجود الصغيرة ليحملها على الصمت، بل على العكس، كان يدفعها إلى مضاعفة القوى والجهود. وتعالى صوتها من المكسيك، فتجاوب صدها في أميركا كلها، بل وفي جميع أنحاء العالم. وكان هذا الصوت، الذي ينضح بأعمق الألم، من القوة بحيث تجاوب في الاسماع، بالرغم من ضجيج القنابل ومن أصوات الحرب المتعالية في كل مكان. لقد كانت تناضل من أجل تحرير لويس كارلوس برستس، من أجل تحرير أولغا بيناريو برستس.

واننا لنعرف، يا صديقتي، كم من المرات ارتفعت أصوات عديدة في أوروبا وآسيا، في أفريقيا وأوقيانيا، محتجة ضد الآلام التي تسببها الحرب. ولكننا نعرف كذلك ان هذه الحرب قد هيئت وشئت من قبل الوحش النازي، وانه ما دام نبض الحياة يخفق في صدر هذا، فان الشر هو الذي سيظل السيد المسيطر في جميع أرجاء الأرض. وان هذا الصراخ الهائل الذي

يتصاعد من ساحات القتال، من البلاد المجتاحة والمضحاة، هو صراخ تحذير بالقياس إلينا نحن الأميركيين.

واليوم تخلق النازية - هذه التعاسة المرعبة - فوق أوروبا، وقد ذهب بها الظن إلى الاعتقاد بأن ساعة أميركا قد دقت. ولكن الجنود السوفياتيين هم في سبيل توجيه ضربات مميتة للوحش المجرم، يا صديقتي، وتتحدا أميركا الآن من أجل قتاله. ويريد النازيون أن يلقوا في مهاوي المبودية بجميع البلاد الأميركية. لذا كانت حياة وحرية القادة الأميركيين المعادين للنازية، بنظرنا، اليوم أكثر من أي وقت مضى، ضرورية وعالية القدر. وكذلك هي حياة وحرية جميع أولئك الذين انتصبوا أو ينتصبون، في بلادنا، ضد الوحش النازي.

وفي البرازيل، يُحتجز في سجن قذر واحد من أعظم القادة الديمقراطيين الأميركيين. يحتجز رجلٌ خلف وراءه تقليداً أعظم من بطولي، تقليداً ملحمياً. فهو، في بلاد جنود كبار، أكبر الجنود، انه خليفة فلوريانو بيشوتو. ولقد أثبت، في بلاد يعرف الناس فيها النضال من أجل الحرية، انه أعظم الأبطال، انه: خليفة التيرادنتس. وهو، بصفته عبقرية عسكرية ورجل شرف يضع الكرامة فوق كل اعتبار آخر في العالم، قد عرف ان يكون محبوباً من ألوف الناس، ان يكون محترماً، رجلاً مملوءاً بالمناقب الانسانية، ان يكون دائماً إلى جانب الشعوب وفي مقدمة شعبه. لويس كارلوس برستس هو إحدى الضمانات للحرية وللديمقراطية في أميركا. وهو بالقياس إلى شعب البرازيل، شعبي، شعبك يا زنجيتي، ضماناً للسعادة. من أجل ذلك دُعي بفارس الأمل. وان احتجاجه في السجن لا يعني سوى تجريد شعب من لوائه وتقديم سلاح ماض لا يُقدر إلى البربرية النازية. وانه لمن واجب جميع الديمقراطيات والديمقراطيين الأميركيين، جميع أولئك الذين يحبون الحرية والثقافة والجمال وكرامة الحياة، ان يحرروا لويس كارلوس برستس، سجين الفاشية في البرازيل.

وليس صوتي الهزيل كقاصّ، يا صديقتي، هو الذي جعل الاحتجاجات تنهمر على أميركا دفاعاً عن برستس. انه صوت امرأة هرمة، صوت قوي لامرأة وأم، تجاوبت نغمات يأسه وأمله قادمة من أراضى المكسيك. انه صوت ليوكاديا المدهشة هذه، أم لويس كارلوس برستس، وصوت الصغيرة أنيتا، الفتاة التي لم تشاهد والدها مطلقاً، والتي مُنحت وقتاً كافياً لرؤية والدتها تتألم في السجن، الفتاة التي ولدت في السجن وترعرعت في المنفى بعيداً عن وطنها، وسط وابل من أخبارٍ تدخل الرعب إلى النفوس.

وإنه لمن المستحيل، يا صديقتي، تصور هرمٍ وطفولة أكثر فجعاً من هرم ليوكاديا وطفولة أنيتا. ومن وقت لآخر كانت ليوكاديا تتلقى رسالة من ولدها. ولم تكن هذه المراسلة بمنظمة، تخضع لمزاج حرس برستس، أحياناً، ولم يكن هذا بالظرف النادر. كانت تمر شهور كاملة دون أن تتلقى إلا أخباراً من ولدها. ثم يأتي تحرير يحمل أخباراً كثيفة: لقد ازداد مرضه، وهو لا يعرف شيئاً عما يجري في العالم، لقد جُرد من الكتب القليلة التي كان قد سمح له بمطالعتها، ومُنع من قراءات الصحف. وتمر شهور جديدة دون أي خبر. ولكن ليوكاديا كانت تعرف أن عليها أن لا تبكي، أن لا تدع اليأس ينشب مخالبه فيها، وأن عليها أن تسيطر على ألمها وتتابع النضال من أجل تحرير ولدها.

تصوري، يا صديقتي، حال هذه الأم الهرمة التي لم يكن بمقدورها ان تبكي! في زمن العبودية، في البرازيل، حدثنا شاعرٌ عن الأمهات السود، عن أولئك النساء التاعسات اللواتي حرمن حتى من حق مداعبة أولادهن. وتلك كانت حال ليوكاديا. لم يكن يسمح لها بالدخول إلى البرازيل والعناية بولدها السجين. لقد حرمت من كل حق، حتى ذلك الذي يفوقها السكنى في بلادها، في وطنها، بالقرب من ولدها. كان عليها ان تظل بعيدة وتعيش في بجار من عدم الاستقرار، وتمضي أياماً مملوءة بالقلق، وهي في خوف دائم من ورود خبر الشؤم المحتوم. ولم يكن لسجاني برستس من عمل سوى تعذيبه، ولقد عذبوا وقتلوا ببطء امرأة هرمة، جرمها الوحيد انها تحب ولدها، لقد قتلوها

بأعظم الطرق بؤساً؛ بتركها في بحار من الشك حول مصير ابنها، باحتجازهم التحارير التي كان يرسل بها إليها، بالافتراء على اسمه.

إن البرازيل تجتاز ليلاً مظلماً من التعاسة، يا صديقتي. وعندما ستتوصل الأصوات التي ترتفع من جميع أنحاء العالم، وتلك التي تصعدها شفاء ليوكاديا وأنيتا - الأم التي انتزع منها ولدها والفتاة التي انتزع منها والدها - عندما تتوصل هذه الأصوات إلى تحرير لويس كارلوس برستس، سيُتاح لنا، يا صديقتي، أن نقدر معنى الحرية، لأنه يكون قد سبق لنا أن اكتوينا بنار العبودية.

لقد كان الصراخ المطالب بتحرير برستس يتصاعد من فم ليوكاديا، المظفرة في وسط هرمها، ولكنه كان يرتفع كذلك من شفتي أنيتا البرئيتين. تصوري هذه الطفلة يا صديقتي؛ انها لم تتعرف إلى أية ساعة من هبة لا شائبة فيها، إلى أية ساعة من سعادة حقيقية. وكان اليوم الذي توصلت فيه جدتها إلى انتزاعها من أيدي النازيين، يوماً حزيناً بالقياس إليها؛ ذلك لأن أمها ظلت سجينة في أيدي البرابرة. وهذه، مع هذا، هي الفترة الوحيدة في حياتها القصيرة التي منحها خلالها القدر شيئاً ما. لقد جردها الناس من أمها وأبيها، ولم يُقدر لها أبداً أن تشاهد وطنها، وإن كل ما تبقى لها في هذا العالم هو رؤية جدتها القلقة فريسة للألم. لقد انقضت طفولة أنيتا بانتظار ابتسامة من جدتها وخر عن مصير أبيها ومصير أولغا. إن هذا الكائن البريء تماماً، الذي يكابد الآلام كمجرم عريق في الاجرام، يطالب العالم بتحرير لويس كارلوس برستس، يا صديقتي.

ومن جميع أرجاء العالم تتصاعد النداءات من أجل تحرير البطل! وفي هذه الساعة المرعبة التي يتتابع خلالها النضال ضد أعداء السعادة الانسانية، ضد أعداء الجمال وثقافة الانسان وحرية، نريد أن نشاهد برستس إلى جانبنا! ومن أربعة أنحاء العالم يرفع شعراء وكتاب وعلماء ورؤساء سياسيون وألوية وجنود وقواد بحريون وبجارة وعمال وفلاحون وتكنيكيون، اصواتاً عالية

تضخم وتزيد من الصوت القوي العميق الذي تصعده ليوكاديا برستس، تلك الأم المظفرة المعذبة، ومن الصوت اللطيف البريء المتألم الذي ترسل به أنيتا، تلك الفتاة التي جردها القتل من أب لها وأم، ومن صوت الشعب البرازيلي كذلك، المطالب بلوائه وقائده وبطله. إن صوتاً هائلاً ينتشر فوق العالم، فوق أميركا وفوق البرازيل، يا صديقتي.

- ١٢ -

يا لشعب البرازيل من شعب بطل، يا صديقتي! فلقد حاولت الحكومة، طيلة سنوات الارهاب، ان تغرس في أرض الوطن شجرة الفاشية المؤذية، واستنفذ الطابور الخامس جهوده كلها في هذا السبيل منذ سنة ١٩٣٧ حتى أيامنا هذه. ولكن الشعب دفع بالفاشية بعيداً عنه، واحتفظ في قلبه بالحرية وبالثورة! وان هذا الشعب، المجر من أية حقوق من أي نوع كانت، ومن أية قوانين تمكّنه من تفتيح امكاناته، قاوم الفاشية، بالرغم من عدالة سُميت كذلك تجاوزاً، ومن نظام ايراهي، ومنع، في وقت كان يُقضى على الناس فيه لأقل البوادر، الخونة من تقديم البلاد لمحور روما - برلين، ودفع البرازيل في الطريق التي سلكتها الدول الديمقراطية. وانه لمجهود خارق بطولي ذلك الذي يستطيع بواسطته شعب ما ان يحمل حكومة نشرت دستوراً تعاونياً إلى التخلي عن حلفائها الطبيعيين لكي تساند الديمقراطيات. ولا يملك أي انسان الحق في ان يتصور غير ذلك حول هذا الموضوع، يا صديقتي. فان وضع البرازيل العالمي الحالي، وما يُفترض وجوده فيه من ميل نحو الديمقراطيات، هو نتاج الشعب، هو نتاج شعب أنجز تربيته السياسية في سنة ١٩٣٥ التحالف الوطني التحريري. وان في هذا لتأكيد بان الشعب لم يكن ليتقبل أبداً مساندة نازي ألمانيا ولا فاشي إيطاليا ولا القنلة اليابانيين. وهذا ما دفع الحكام إلى التخلي عن تبعيتهم المشؤومة للمحور، ووجد جيتوليو فارغاس نفسه في مفرق صعب، فلقد كانت القوى المرتبطة بالنازية تريد ان تجر البرازيل إلى اتخاذ موقف، على الصعيد العالمي، كان الشعب يقاومه أعنف مقاومة. وظهر في أول الأمر ان فارغاس يؤمن بانتصار الألمان، ويميل نحو المحور. تلك هي فترة خطبه في شهري تموز وأيلول سنة ١٩٤٠، ذلك العهد الذي كانت تلجأ خلاله الإذاعة الألمانية إلى استعمال مقاطع من خطبه تلك في الرد على خطب

الرئيس روزفلت. ولكن خلال هذا الوقت كانت قوة المقاومة الشعبية لهذا الأمر قد تركزت. وفهم فارغاس تمام الفهم، بدافع من حس سياسي يتميز به، أن شعب البرازيل لن يلقي بنفسه أبداً في المغامرة النازية. وعندما أضرم الشعب النار في الصحف النازية، في سان باولو، استطاع فارغاس أن يشعر بالاتجاه الذي يسير فيه الرأي العام الوطني. ولم يجد بداً من تغيير مجرى سياسته العالمية. وعليه، إذا ما كان يود البقاء في الحكم، أن يغير كذلك مجرى سياسته الداخلية على الشكل نفسه.

لقد فهم فارغاس أن كل حكومة تستند إلى المحور سيكون مصيرها القلب، وأن البرازيل، في مثل تلك الحال، سوف تثور وتنضم إلى صفوف الشعوب الحرة المناضلة، إلى صف البلاد الأميركية المحاربة، صف الاتحاد السوفياتي الذي يخلق قصيدة معارك الجيش الأحمر الرائعة، صف انكلترا، صف البلاد المجتاحة، إنما غير المغلوبة على أمرها. فهم فارغاس ذلك في الوقت المناسب، في الوقت الذي كانت فيه سمعة النازية العسكرية، وقد حطمتها عبقرية ستالين، تتساقط إرباً في سهوب الاتحاد السوفياتي.

عندئذ أخذ يحول سياسته في اتجاه مؤازرة الديمقراطيات. وبالرغم من جميع ما قام به في هذا الاتجاه في الزمن الأخير، فإن رجال الطابور الخامس، المتغلغلين في الحكومة، كانوا ما يزالون يتابعون تخريب سياستها هذه ولهذا السبب تجردت هذه السياسة، في أول الأمر، من الفعالية الضرورية. وإذا ما كان جيتو ليو فارغاس يريد حقاً أن يقترب من الشعب وأن يتعاون معه، فعليه بالضرورة أن يغير مجرى السياسة الداخلية في البلاد عليه أن يكشف النقاب عن رجال الطابور الخامس، عن العناصر النازية، عن المدافعين عن اليابانيين، عن خدم السفارة الإيطالية؛ وعليه أن ينشر الديمقراطية في البلاد؛ فمن غير الممكن محاربة الفاشية في وقت نسمح لها فيه أن تعشش لدينا، في بيتنا. كما عليه أن يصدر عفواً عاماً عن القادة المعادين للفاشية الذين ادخلوا السجن، بالضبط، بسبب من انتصاهم في البرازيل ضد الخطر الفاشي.

كيف يمكن متابعة احتجاز لويس كارلوس برستس في السجن، في وقت يتهدد فيه الخطرُ البلاد؟ كيف يمكن ان يُحتجز خلف القضبان أعظم قائد من القادة المعادين للفاشية في أميركا، أعظم لواء من الألوية الأميركيين، في وقت نناضل فيه ضد الفاشية، في وقت أحوج ما يكون فيه وطننا المهدد بالخطر إلى عبقرية لوائه؟ ولن يتوصل جيتوليو فارغاس إلى اطفاء جذوة الحذر الذي يشعر به الشعب نحوه، الا عندما يعمد إلى اجراء تحويل في مجرى سياسته الداخلية. وسيجد نفسه مضطراً إلى اتخاذ هذا النهج، إذ ان الشعب الذي حمله على مساندة الديمقراطية ضد المحور، سيحمله على انتهاج هذا السبيل.

لقد تعلم هذا الشعب من شفتي لويس كارلوس برستس أن ليس هناك من خطر أعظم من الخطر الفاشي، ولا من تعاسة أعظم من تلك التي تنحدر من الفاشية. « برستس قال ذلك »، عبارة طالما ردها البرازيليون عند رغبتهم في إقناع محدثهم بصواب ما يقولون. لقد قال برستس إن الفاشية هي الشقاء الذي يهدد بالسيطرة على العالم. وأخذ شعب البرازيل، المعضب المهان، يقاوم ويناضل ضد سيطرة الفاشية بصورة نهائية في بلاده، ولقد قاوم ومنع تحالف البرازيل مع المانيا وايطاليا واليابان.

لقد قاوم الشعب البرازيلي، باستمرار وعناد، الدستور التعاوني للدولة الجديدة. ويناضل اليوم هذا البطل، يا صديقتي، ضد الطابور الخامس. وليس هناك من شك في ان الحكومة سوف تغير سياستها الداخلية تغييراً تاماً: تلك هي الدرب التي سوف تسير عليها، لان تلك هي درب الشعب.

تطلعي يا صديقتي، قريبةً أضحت ساعة الحرية. إن الجنود السوفييتين هم في سبيل تقريب أجلها بتصفيتهم، إلى الأبد، أمر الفاشية من على الأرض. وإلى جانبهم تسير الشعوب الديمقراطية في أميركا وآسيا وأوروبا، ويسير الجنود الصينيون في حربهم الملحمية، ويسير اليوغسلافيون والتشيكيون والفرنسيون الذين يقتلون الألمان في شوارع باريس، ويسير البولونيون والهولنديون الخارقو الشجاعة، ويسير اليونانيون والرومانيون. ان الروس

يدافعون عن الحرية التي وُعدوا منها الأسس وفي طليعتهم يسير ستالين: علماً وقلباً. ان الحرية تقترب، وقريبةً أضحت نهاية الليل، يا صديقتي. ولقد بدأت هذه الحرية ترسم خطأ لها على الأرضة، حيث أخذت تظهر قادمة مع الفجر، وبدأت نجمة الصباح ترسل بريقها في السماوات.

إن الحرية تبزغ في السماوات، يا صديقتي، في سماء البرازيل. وسوف تلمع عبر القضبان المعدنية لكوى غرفة الانفراد التي يُحتجز فيها لويس كارلوس كارلوس برستس.

لقد حُكم بست وأربعين سنة وثمانية أشهر من السجن. وكتب، عندما صدر بحقه الحكم الثاني، إلى دونا ليوكاديا برستس، هذه الكلمات العظيمة الجبال والتأثير:

«ان هذا الحكم يحررني من آخر معالم لغرور أو كبر كانت لا تزال آثارها تضطرم في نفسي، ويدفع بي نهائياً في الخضم المائل لأكثر الناس بساطة وأعظمهم تعاسة. وأقول مخلصاً بان ليس في هذا ما يسوؤني...»

المستقبل هو لأكثر الناس بساطة، لأولئك الذين لم يتعرفوا، حتى الآن، إلا إلى استثمارهم من قبل أناس آخرين، لأولئك الذين لم تكن الحياة بالقياس إليهم سوى تعاسة وإهانة واستشهاد. المستقبل، يا صديقتي، هو للويس كارلوس برستس، دليل شعب البرازيلي، دليل الشعب المستشهد المشتم، المهان في كرامته والمداس في شرفه. وغداً، يا صديقتي، سيخرج لويس كارلوس برستس من غرفة انفراده وسط أوسع معالم اتحاد وطني تعترف إليه «اب البرازيل، وسيمشي الشعب البرازيلي كله إلى جانبه ويمشي الطابور: ملايين وملايين من الرجال يتبعون خطاه من ريو غراندي دوسول حتى الأمازون، من ريو دي جانيرو حتى ماتوغروسو.

وعمدت الحكومة، من أجل اخفات حدة الاحتجاجات المتصاعدة من أرجاء العالم كله، إلى السماح لأحد الصحفيين بالتحدث إليه في غرفة انفراده. وسأله الصحفي عن موقفه من المشاكل العالمية. وأجاب برستس أنه، بالطبع،

يؤازر جميع البلاد التي تناضل ضد النازية. لقد كان يؤازر في ذلك الحين أميركا روزفلت.

- ماذا يتوجب القيام به إذن، أيتها اللواء برستس ؟.

- يجب اعلان التعبئة العامة فوراً، ودعوة مئة ألف، مئتي ألف رجل لخدمة العلم، وتسليح الأمة كلها، أنفهم ؟.

لقد تحدث عن ضرورة زيادة عدد معامل التسليح، وطالب بالتخاذ اجراءات عملية وفعالة.

إنه هناك، يا صديقتي، في السجن. وان شريط كوى غرفة انفراده المعدني يمنعه من رؤية منظر المدينة العام الجميل. ولكن أحداً لا يستطيع ان يمنع عنيهِ العميقين من رؤية تطور الحياة، ان أحداً لا يستطيع منعه من الاحساس والتحليل والحكم حول الحوادث الجارية، وتمييز الطريق التي ينوجب اتباعها.

وعندما يتحدث، يا صديقتي، فان عبقرية الشعب هي التي تتحدث، عبقرية البرازيل، ان بطل أميركا هو الذي يتحدث !.

إنه هناك، في سجن قذر. لا يُسمح له بالتحدث إلى محاميه، ولا بتحرير الكتب التي يود تحريرها، وتحتجز رسائله إلى ذويه، ويسام العذاب اشكالاً والواناً، وهو لا يعرف، منذ ما بدأت الحرب، أي شيء عن زوجته، وهو بلا حق ويحاکم بصورة كيفية، ويعطى من الطعام النزر القليل وخلافاً لما وصف له الأطباء الذين عاينوا الأمراض التي يكابدها، ولقد وضع بالقرب من المسلوبين أملاً بان تدب فيه عدوى هذا الداء، ووضع بالقرب منه رفيق له سلب منه التعذيب الصواب وأصبح مجنوناً، لمعرفة إذا ما كان الجنون سينتقل إلى هو أيضاً. وصُنِعَ معه كل ما يمكن صنعه مع كائن بشري، أو مع حيوان كان رجال علم منحطون يهينونه من أجل تجارب مخبر. ولقد غطي بالمحل والقذارة، أملاً في جعله عاجزاً لا يستطيع مقاومة. لقد كانوا لا يملكون الشجاعة على قتله، خوفاً من الشعب الذي يشور عندئذ ليشأ لموت

بطله . ولكنهم كانوا يجتزون منه الروح بتؤدة وبوحشية خارقة . ولقد ألقوا
بوالدته الهرمة في حالة من القلق الوحشي ، وجعلوه ، هو ، يكابد من التعذيب
امضه وأضناه .

انهم لم يتوصلوا إلى احنائه ، إلى إبعاد الشعب عنه ، ولم يكن بمقدور أعظم
الآلام إثارة للرعب ان تضعف من عمق نظرتة حول العالم وحول الناس . ولن
تستطيع جميع أنواع التعاسات أن تقلل من الحب والثقة اللذين يمنحهما إياه
الشعب ، ولا من الثقة بان هذا الشعب سيراه مرة أخرى ينطلق عبر سهول
البرازيل إبان المعركة النهائية للحرية .

واذكري ، يا صديقتي ، في أيام التعاسة هذه ، ليالي أخرى من التعاسة في
مرافئ أخرى ، في مرافئ الوطن . وأحياناً ، كان اليأس يتسرب إلى قلوبنا ،
عندما كان أحد معارفنا يتردى في الخيانة وينغمس في الوحل ويتجلبب
بالقذارات ؛ عندئذ كان اسم برستس يردده أحد المارة ، أو ذكرى إشارة
منه ، كان هذا كافياً لاعادة الأمل إلى نفوسنا وإعادة الثقة . إن شعب
البرازيل لم يخطئ ، لان برستس أسنده بمثاله وغذاه ببطلته .

أتذكرين ، يا صديقتي ، ليلة لمعت خلالها نجمة جديدة نادرة الجمال في سماء
البرازيل ، وكان زنوج الأرصفة يشيرون بأصابعهم إلى نجوم في السماء خلال
ليالي يامنجا ، وكان هناك صليب الجنوب ، وفينوس ، ومارس ، وألوف من
النجوم الأخرى تتلألأ فوق البحر والمرافئ ، فوق الحقول ، فوق السرتون ،
في المدن وفي الريف وفوق الانهار . ولقد أطلق الزنوج مختلف الأسماء على هذه
النجوم : فكانت إحداها تُدعى كاسترو ألفيس ، وأخرى تسمى زمبي دوس
بالمارس . وبعيداً كان يلعب بدور أيفو وتيرادنتس وفراي كانيكا وفيلبي
دوس سانتوس . ان أبطال الوطن وشعراء الحرية والرجال الشجعان ذوي
الكرامة كانوا نجوماً مشعة في السماء وفي قلوب الناس . ولكن ظهرت في السماء
نجمة جديدة ، أعظم جلالاً ، قانية براقعة ، وأرسلت في الظلام أشعة نقية .
وضحك الزنوج ، ووُشم صدر أحدهم بحرف - ب - . وسألتني إذا ما كان في

الأمر أعجوبة، يا صديقتي. وأجبتك: «انها لأعجوبة، أعجوبة شعبية». وأرسل الزوج بضحكاتهم العريضة، وتدحرجت ضحكات الزوج فوق البحر وايقظت يامنجا التي جاءت إلى قربنا. عندها تفوه الزنجي باسم النجمة الجديدة: انها تدعى لويس كارلوس برستس، ويشع نورها من غرفة انفراد في سجن قذر، ويملاً البرازيل بالأمل. ان هذه النجمة تُدعى فارس الأمل، أمل البرازيل، يا صديقتي.

إن صوته كعقاب عظيم، كشاعر، كجندي، كلواء، يخفق فوق البرازيل مثلاً للكرامة. ولقد سأله أحد الصحفيين منذ مدة ليست بالطويلة إذا ما كان يريد أن يوجه طلباً ما بواسطة صحيفة. فأجابه بصوته الذي اعتاد على الآلام:

- ليس لديّ ما أطلبه لنفسني. اما فيما يتعلق بزوجي فإنني أصر على ضرورة اخراجها من معسكر الاعتقال الذي أرسل بها إليه. وان المكسيك لعلّ استعداد لاستقبالها. ثم أشار إلى غرفة سجنه البائسة وأضاف:

- إنني أعيش هنا دون ان تستطيع عيناى النظر بعيداً. انني محتجز في ثقب محاط بأربعة جدران. ولقد كان وحشياً ذلك الحقد الذي خص به الإنكليز نابوليون، ولكنهم أرسلوا به، على الأقل، إلى إحدى الجزر. أما أعدائي فانهم يعاملونني بحقد أشد ضراوة.

إنه ليس وحيداً في سجنه القذر، يا صديقتي. ان شعب البرازيل معه الحرية والجمال والثقافة وكرامة الحياة. وهو من سجنه يرسل بالأمل وهاجاً فوق البرازيل، كنجمة وقادة الشعاع نقية النور.

غداً، يا صديقتي، سيأتي يوم الحرية. وبعد ان يحطم لويس كارلوس برستس، فارس الأمل، قيود العبودية، سينطلق في مقدمة شعبه سائراً نحو يوم عيد تشييد الوطن السعيد، المتحرر من العبودية، وطن السرور والعمل والحرية والحب! غداً، يا صديقتي، سنشاهد من جديد فارس الأمل في مقدمة الشعب المتحرر!

- ١٣ -

سأروي لك في أحد الأيام ، يا صديقتي ، نهاية هذه القصة . سأرويها لك في يوم الحرية ، عندما يصبح البطل بين شعبه من أجل الاحتفال بعيد الديمقراطية . لقد حدثتك عنه خلال أيام النضال والنصر والنفي والآلام . لقد حدثتك عن عظمته وعبقريته وبطولته . والآن ، وقد تعرفت إليه ، فانه لن يكون بمقدور اليأس ان يستولي مجدداً على قلبك ، ولو مهما بلغت كثافة ليل الظلم . انك تعرفين ان فجر الحرية سوف يرسم قريباً في الأفق خطوطه . وعندما يحطم هو والشعب قيودهما ، ويسيران ، سنسير معهما ، يا زنجيتي ، وسيكون ذلك اليوم عيداً أخوياً بهيجاً ، عيداً للحرية وللحب .

من الواجب تحرير البطل ، يا زنجيتي . ستظل الليالي كثيرة ما دام محتجزاً في سجنه ، ولن تتردد سوى ألحان حزينة فوق أجواء رمل المرافئ ، وفوق الأرصفة والحقول ، فوق الجبال والانهار . أرسلني يا زنجية رغباتي وزوجة قلبي ، ورفيقة أتراحي وأفراحي ، بصوتك الحنون ، الآن ، وقد بدأ الفجر يرسم في جوانب الفضاء وينطلق القمر من جديد نحو البرازيل ، أرسلني به خفاقاً في أميركا ، في العالم كله ، مطالباً بالحرية للبطل ، بالحرية لفارس الأمل ولشعب البرازيل الذي يحتجز معه في السجن ! .

وعندما يعود غداً إلى وسط شعبه ، يا صديقتي ، ستصبح الليالي ، ليالي لطيفة من الحب ، وتتصاعد فوق رمال الأرصفة تأوهات الغرام . ولكن علينا ان نصرخ في ليالي أيام الحزن والألم هذه ، ان نصرخ عالياً مطالبين له بالحرية . إرفعي الصوت ، يا صديقتي ، واصرخي معي ، مع جميع أناس الأرصفة ، مع جميع شعوب العالم الحرة ، اصرخي حتى تفرضي سماع صوتك : الحرية للويس كارلوس بروتس .

« بوس أيرس في ٣ كانون الثاني سنة ١٩٤٢ »

(الذكرى الرابعة والاربعين لميلاد بروتس) .

الفهرس

| | |
|-----|--|
| ٩ | مقدمة للطبعة العربية |
| ١٣ | أنشودة مؤثرة |
| ٢١ | القسم الأول: الولد الفقير |
| ٩٧ | القسم الثاني: طابور برستس |
| ٢٢٣ | القسم الثالث: دروب المنفى |
| ٢٥٣ | القسم الرابع: نشيد التحالف الوطني التحريري |
| ٢٩٧ | القسم الخامس: فارس الأمل |

إن نأ نشر طبعة من كتابي عن كارلوس
برستس باللغة العربية ليملائي غبطة. وإذا ما أمكن
لكتابي هذا أن يسهم في تعريف الشعوب الناطقة باللغة
العربية، بمزيد من الوضوح، على نضال الشعب البرازيلي
في سبيل حريته ومن أجل السلم والتحرير الوطني
للبرازيل، وعلى وجه القائد العظيم لهذا النضال، البطل
الوطني لشعبنا، الرفيق لويس كارلوس برستس، فإن في
ذلك سبباً كافياً لأن أشعر بالسرور لكوني كتبت مثل
هذا الكتاب.

إن اسم برستس، مع أسطوره كبطل للشعب، ينتقل
من فم إلى فم، ويقرأ الملايين نداءاته التي تذكى الحماس
والنضال.

فباسمه وباسم رفاقه في النضال أرغب في توجيه تحية
إلى جميع الوطنيين في البلاد العربية، إلى جميع أولئك
الذين يناضلون في هذه البلاد في سبيل السلم والحرية
وعند الاضطهاد الاستعماري الأمريكي.

جورجي أمادو